جامعة صنعاء

مجلّة كلّيّة الآداب

العدد ١٠ السنة ١٩٨٩

مجلّة
كليّة الآداب

جامعة صنعاء

العدد ١٠
السنة ١٩٨٩

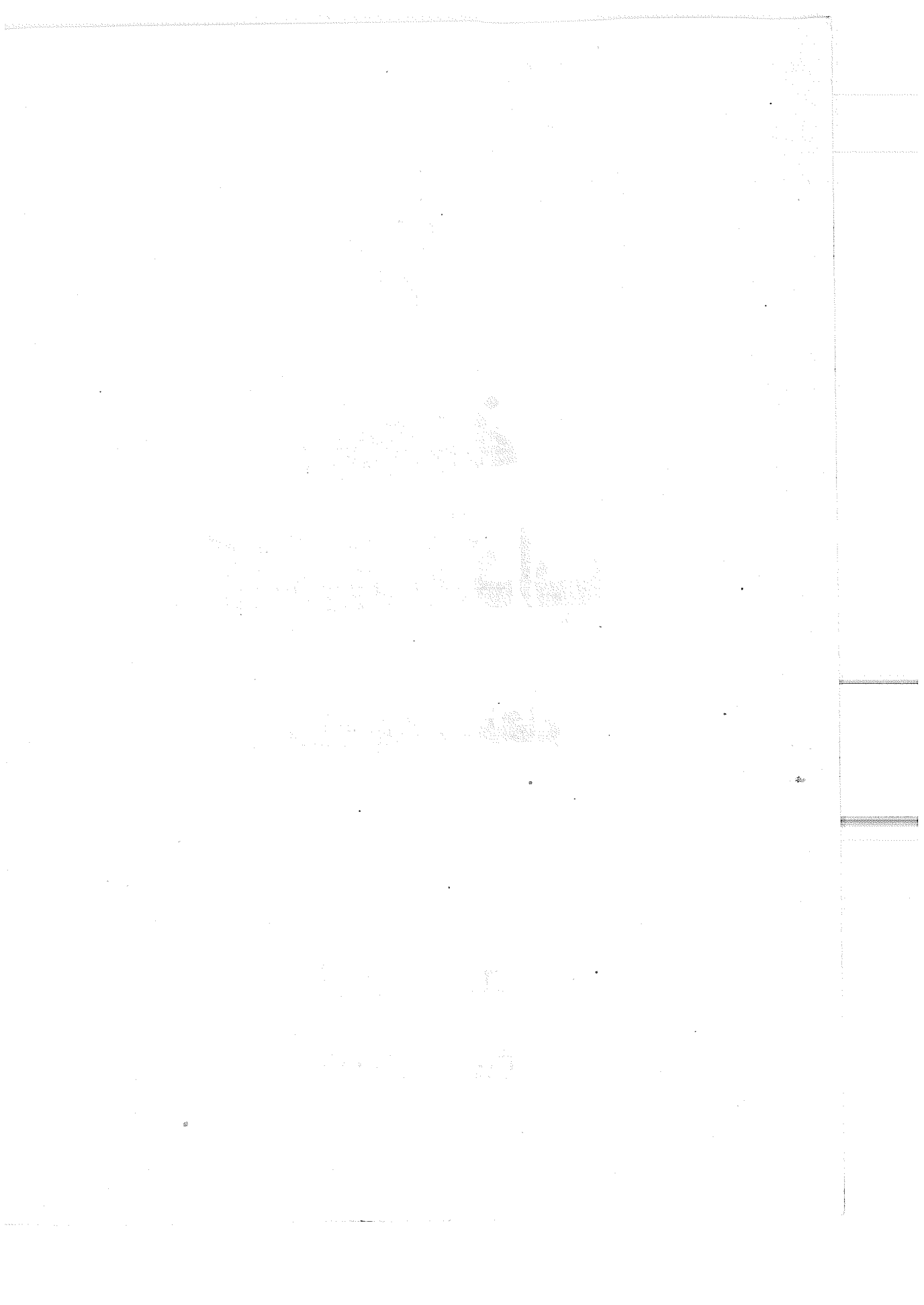

مجلّة كليّة الآداب

جامعة صنعاء
مجلة علميّة محكمة

هيئة التحرير

رئيس التحرير : الدكتور أحمد محمد شجاع
عميد كليّة الآداب

مدير التحرير : الدكتور شاكر خصباك

أمين التحرير : الدكتور مزيد نعيم
الدكتور إبراهيم السامرائي

مستشارو التحرير : الدكتور محمد الزعبي
الدكتور محمود عبد الرازق

شروط النشر:

- أن يكون البحث جديداً لم يسبق نشره في أية دورية علمية.
- يشار في النص إلى الحواشي بأرقام صغيرة متسلسلة يحال بها إلى المراجع والمصادر في آخر البحث.
- تُقدّم الخرائط والأشكال ـ إن وجدت ـ مرسومة بالحبر الأسود على ورقة مستقلة لا تتجاوز مساحتها مساحة صفحة المجلة. وفي أماكنها المناسبة من البحث.
- تعبّر الأبحاث المنشورة عن آراء أصحابها.
- تقبل المجلة الأبحاث المرسلة إليها من داخل جامعة صنعاء وخارجها والمجلة غير ملزمة بإعادة ما لم ينشر إلى أصحابه.

المحتويات

الافتتاحية. ٧

- لمحة عن العلاقات اليمنية المصرية عبر التاريخ د: أحمد قايد الصائدي ٩

- التبعية: المعوق الأساسي للتنمية في الوطن العربي. د. خضر زكريا ٤٢

- الفكر السياسي في قصائد الثورة العربية الكبرى. د. سعد أبودية ٧١

- السكة: ودور الضرب في اليمن منذ فجر الإسلام. د. سعيد محمد مصيلحي ١١٢

- اليمن في أوائل القرن السابع عشر د. محمود عبد الرازق. ١٣٨

- مصطلحات: علم. ١٥٥

ملف الأسبوع الثقافي الأول

- اللفظ والمعنى في لغة التنزيل د. إبراهيم السامرائي ١٦١

- التوزيع الجغرافي للمراكز الحضرية في الجمهورية العربية اليمنية. د. حازم علي شكري ١٨٥

- تطور مفاهيم ومناهج الجغرافيا د. شاكر خصباك ٢١٢

- أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية د. عبدالغني محمود عبدالعاطي ٢٢٤

- وقفة مع السياسة المالية في عهد عمر بن الخطاب د. غالب القرشي ٢٦٤

- المعجم الشعري وتأصيل المنهج بين اللغة والنقد د. فايز الداية ٢٨١

ملف الانتفاضة الفلسطينية

- كلمة الدكتور عبد العزيز المقالح مدير الجامعة. ٣٠١

- كلمة عميد كلية الآداب. ٣٠٤

- كلمة ممثل الاتحاد. ٣٠٨

- كلمة صخر أبو نزار. ٣١٠

البحوث باللغة الأجنبية

— G. Frege and Russell Dr. Abdalla Mohd. Tom on the Problem of NON-Being.

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

نقدم إليكم ـ معشر الباحثين والدارسين وطلاب الثقافة ـ هذا العدد الجديد من مجلة كلية الآداب (العدد العاشر)، الذي جاء حافلاً بالبحوث والدراسات الجادة، في مختلف المجالات: الأدب، التاريخ، الآثار، الاجتماع، الجغرافيا، الفلسفة... وغيرها.

وكلية الآداب في جامعة صنعاء، بإصدارها هذا العدد، إنما تتابع رعايتها هذا الجهد المتميز الذي يقدمه المختصون من أساتذة الكلية وغيرهم لتحقيق الأهداف العلمية والأدبية المرجوة من صدور هذه المجلة.

إن كلية الآداب، وهي تنهض برسالتها العلمية والمعرفية والوطنية قد نظمت في مطلع العام الدراسي الحالي (٨٨/٨٩)، أسبوعاً ثقافياً، ومهرجاناً خطابياً بمناسبة مرور عام على انتفاضة شعبنا الفلسطيني في الأرض المحتلة، وقد حرصت هيئة تحرير المجلة أن تقدم لقرائها الكرام بعض البحوث والدراسات والكلمات التي ألقيت في هاتين المناسبتين.

بقي أن نقول، إننا قد حرصنا على أن يكون هذا العدد متميزاً عن العدد السابق من حيث الإخراج والطباعة والترتيب.

والله ولي التوفيق

هيئة التحرير

لمحة عن العلاقات اليمنية - المصرية عبر التاريخ

الدكتور أحمد قايد الصائدي
قسم التاريخ

مقدمة :

يمثل الموقع الجغرافي لليمن مدخلاً ضرورياً لفهم تاريخها القديم والحديث، كما يمثل نقطة ارتكاز لأي دراسة تستهدف توضيح علاقات اليمن الخارجية؛ سواء بالبلدان المجاورة في الجزيرة العربية والساحل الشرقي لإفريقيا وبلدان البحر الأبيض المتوسط، أو بالدول الكبرى كالصين والهند وفارس والروم قديماً والبرتغال وبريطانيا وإيطاليا وأمريكا... إلخ حديثاً. فتحكم اليمن في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وإطلالها على المحيط الهندي، قد جعلا منها منطقة اتصال بين الشرق والغرب، ومكناها من أن تلعب دوراً اقتصادياً هاماً كوسيط تجاري يسيطر على واحدة من أهم الطرق التجارية العالمية في التاريخ القديم والحديث تربط الشرق ببلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد شكل هذا الموقع الجغرافي الهام لليمن، والدور الاقتصادي المتميز لليمنيين، الأساس الذي نشأت عليه علاقة اليمن بمصر منذ فجر التاريخ، وتعززت أواصر هذه العلاقة بالموقع الجغرافي لمصر المشابه من حيث الأهمية لموقع اليمن، فكما تتحكم اليمن بالمدخل الجنوبي للبحر الأحمر تتحكم مصر بمدخله الشمالي. وكما تطل اليمن على المحيط الهندي الذي تنقل عبره تجارة الشرق من الهند والصين وغيرهما من بلدان جنوب وجنوب شرق آسيا، تطل مصر على البحر الأبيض المتوسط الذي تنقل عبره تجارة الشرق إلى اليونان وإيطاليا وغيرهما من بلدان وجزر حوض البحر الأبيض المتوسط. وكما لعب اليمنيون دور الوسيط التجاري لعب

المصريون أيضاً نفس الدور. ومن هنا تكون ذلك الرباط المبكر بين مصر واليمن، وأصبح أي خطر أو تهديد يمس الطريق التجاري الممتد عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر الأبيض يمس البلدين معاً مصر واليمن، وأي تحول عنه كان كفيلاً بأن يسبب اضطراباً خطيراً في اقتصادهما يعكس نفسه على أوضاعهما السياسية والاجتماعية. بل لقد استهدفتهما معاً الأطماع الخارجية للدول الكبرى عبر التاريخ فكانت كل محاولة تستهدف السيطرة على هذا الطريق التجاري الهام، لا بد أن تضع في اعتبارها السيطرة على اليمن، أول محطة في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر تأتي عبرها تجارة الشرق، وعلى مصر آخر محطة في مدخله الشمالي تقدم منها تجارة الشرق إلى أوروبا. ولذا فقد بدا ارتباط مصر واليمن ارتباطاً مصيرياً عبر التاريخ.

وسوف نحاول في هذا البحث أن نقدم مخططاً عاماً، يتسم بالتركيز، للعلاقات اليمنية ـ المصرية عبر التاريخ، يصلح أساساً لبحوث مطولة يخصص كل منها لدراسة فترة تاريخية محددة. وسوف نعمد إلى ملامسة أبرز ملامح هذه العلاقات دون الخوض في التفاصيل، إذ أن هدفنا هو الوقوف على مسارها العام، وتبين خصائصها المستمدة من موقع البلدين الجغرافي الذي شكل عاملاً ثابتاً امتد تأثيره عبر التاريخ، ومن العوامل التاريخية المتغيرة.

ولنا أن نتساءل قبل أن نقدم استعراضنا السريع للعلاقة بين البلدين: ترى هل اقتصرت علاقة اليمن قديماً بمصر على الإطار التجاري أم تجاوزت ذلك إلى الإطار الحضاري؟

إن كتب التاريخ لا تسعفنا سوى بمعلومات زهيدة لا تفيد في الإجابة على هذا السؤال إجابة واضحة. ومع ذلك فإن اكتشاف الجثث المحنطة في اليمن عام ١٩٨٣ م ـ بعد أن كان يعتقد أن مصر القديمة قد تفردت بها ـ يبعث لدينا الأمل في إمكانية الإجابة مستقبلاً على هذا السؤال، ويفتح أمام علماء التاريخ والآثار آفاقاً مليئة بالوعود في كشف خفايا العلاقات اليمنية المصرية القديمة التي نعتقد ـ وهذا الكشف الجديد يسند اعتقادنا ـ أنها قد تجاوزت الإطار التجاري إلى الإطار الحضاري. وليس مستبعداً ـ والأمر مرهون بمزيد من الكشف الأثري ـ أن يكون اليمنيون والمصريون القدماء قد تفاعلوا حضارياً تفاعلاً مس ثقافتهم وأساليب حياتهم ونظرتهم إلى العالمين الدنيوي والأخروي.

العلاقات اليمنية ـ المصرية في التاريخ القديم وحتى ظهور الإسلام

ساعد موقع اليمن الجغرافي على جعل اليمنيين القدماء من أنشط الوسطاء التجاريين بين الشرق والغرب ومن أقدر الشعوب على التعامل مع البحر والاستفادة منه في تسيير السفن المحملة بالبضائع اليمنية والهندية والإفريقية. وكانوا يقصدون مصر مارين بسفنهم في الشواطىء الإفريقية حتى يصلوا إلى (القصير) ينقلون بضائعهم بواسطة القوافل إلى النيل[١]. وكانت لليمنيين أيضاً طرقهم البرية حيث كانوا ينقلون بضائعهم ومن بينها البضائع التي كانت تجلب إلى موانئهم من إفريقيا والهند وخاصة إلى ميناء قنا في حضرموت، ينقلونها على ظهور الجمال ويشقون بها الجزيرة العربية إلى الشام ومصر عبر مدينة غزة[٢]. وفي الألف الرابع قبل الميلاد استطاع المصريون أن يوصلوا النيل بالبحر الأحمر بواسطة قناة، مما ساعد في تنشيط التجارة وانتظامها.

ويحدثنا التاريخ أنه في ذلك الزمن المبكر وفدت أقوام من سكان اليمن إلى مصر واستوطنوا فيها وخلفوا رسوماً لسفنهم على الصخور المطلة على النيل وفي بعض مسالك الصحراء الشرقية. وقد ظل المصريون في جميع عصورهم يظهرون احتراماً لذكرى (شمسو ـ حور) أي أتباع حور أو حورس. وأتباع حورس هؤلاء هم أولئك الوافدون الذين عبروا جزيرة العرب إلى الشاطىء الإفريقي في أريتريا ثم ساروا حتى دخلوا إلى صحراء مصر الشرقية عن طريق وادي الحمامات وحورس هو واحد من الآلهة المصرية ذات الأصل المنحدر من جنوب جزيرة العرب[٣].

ومنذ القرن السادس والعشرين قبل الميلاد تكرر ذكر بلاد (بونت) في المصادر المصرية باعتبارها موطن اللبان والمر والصبر والقرفة والأخشاب العطرة، وهي سلع استخدمها قدماء المصريين في قصورهم ومعابدهم وأعيادهم وجنائزهم وعطورهم وعقاقيرهم الطبية وفي مواد التحنيط[٤]. ورغم أن هناك وجهات نظر مختلفة حول تحديد المنطقة التي كان يطلق عليها اسم بونت، إلا أن القرائن تدل على أنه إذا لم تكن اليمن هي المقصودة وحدها بهذا الإسم فإنها، أي اليمن، تدخل ضمن هذه التسمية كجزء من بلاد بونت، التي ربما شملت الجزء الإفريقي المقابل لليمن أيضاً[٥].

ولقد اهتم المصريون بتجارة اليمن وسيروا البعثات إليها لتجلب البخور

والعطور والأخشاب وغيرها من خيرات اليمن، ومما كانت اليمن تستورده من بلاد الشرق. ومن تلك البعثات ما خلد ذكرها على جدران المعابد والمقابر كجدران معبد أبو صير حيث خلدت ذكرى بعثة تمت حوالي عام ٢٥٥٠ ق. م وجدران معبد الدير البحري في طيبه حيث خلدت ذكرى بعثة تمت حوالي عام ١٤٩٠ ق. م[٦].

وقد عثر الدكتور أحمد فخري في صنعاء، عند زيارته لليمن عام ١٩٤٧ على تمائم مصرية الأصل أقدمها جعران يحمل اسم الملك أمنحوتب الثالث (١٣٩٨ - ١٣٦١ ق. م) أحد الملوك المصريين في عصر الدولة الحديثة، وهو العصر الذي ازدهرت فيه مصر واتسعت علاقاتها الخارجية وخاصة علاقاتها التجارية[٧]. كما حفظ الزمن نقوشاً يمنية على الصخور المتناثرة على جانبي طرق التجارة البرية في مصر، خلدت ذكرى القوافل التجارية المارة في صحراء سيناء والصحراء الشرقية، وفي القرب من الموانىء المصرية الواقعة على ساحل البحر الأحمر. وتعود تلك النقوش إلى العهود الثمودية والسبئية والمعينية[٨].

وقد عثر في مصر على نص يمني يرجع إلى عام ٢٦٤ ق. م على تابوت رجل يمني اسمه زيد بن زيد إيل من إحدى عشائر معين. ويحكي ذلك النص أنَّ زيداً هذا قد عمل في أحد المعابد بمصر وقام بتوريد بعض المنتجات اليمنية كالمر وقصب الطيب بواسطة السفن عبر البحر الأحمر، كما قام بتصدير بعض السلع المصرية إلى اليمن[٩].

ولما احتل الفرس مصر في أواخر القرن السادس قبل الميلاد طرأ تحول كبير على طريق التجارة، فقد عمل الفرس على تنشيط الطرق المارة بفارس والعراق والشام ومصر، مما ألحق أضراراً بالغة باقتصاد اليمن، حيث تأثرت عملية الوساطة التجارية، التي كان يمارسها اليمنيون، وخاصة عبر الطرق البرية[١٠].

ومنذ دخلت مصر تحت السيطرة اليونانية في القرن الرابع قبل الميلاد أخذت اليمن تحتل مكانة بارزة في كتابات المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الذين تركز نشاطهم العلمي في مدينة الإسكندرية عاصمة مصر حينذاك وتجمعت بفضلهم معلومات هامة عن اليمن القديم من الناحية الجغرافية والاقتصادية والنباتية... إلخ[١١].

وقد شكل حكم البطالمة اليونان في مصر منافساً تجارياً قوياً لليمنيين، حيث

مارسوا نشاطاً تجارياً على سواحل البحر الأحمر، وأعادوا فتح القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر، ورغم ذلك استمر نشاط اليمنيين واستطاعوا في ظل الدولة المعينية أن يقيموا علاقات تجارية مع مصر تحت حكم البطالمة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. ويؤكد هذه العلاقات نقشان معينيان محفوظان في متحف القاهرة عثر على أحدهما في الجيزة والآخر في الفيوم[١٢].

وفي منتصف القرن الأول قبل الميلاد استطاع الرومان أن يبسطوا سلطانهم على مصر وعملوا أثناء حكمهم لها على تشجيع حركة التجارة في البحر الأحمر إلا أن اليمنيين كانوا منافسين أقوياء لهم، مما دفع بالرومان إلى محاولة احتلال اليمن للقضاء على تلك المنافسة وللسيطرة نهائياً على الطريق التجاري الهام. فسيروا لهذا الغرض حملة عسكرية بقيادة الحاكم الروماني في مصر «أليوس جالوس» عام ٢٤ ق. م تكسرت على أبواب مأرب[١٣]. وكان الجغرافي الروماني «سترابو» مرافقاً لتلك الحملة فسجل وصفاً للحملة وللمصاعب التي واجهتها. إلا أن فشل الحملة لم يثن الرومان عن متابعة نشاطهم التجاري في البحر الأحمر وقد استطاعوا بعد أن عرفوا من البحارة اليمنيين سر الرياح الموسمية أن يفرضوا الهيمنة الرومانية ـ المصرية في البحر الأحمر فأخذوا يجوبون بأساطيلهم التجارية، التي فاقت في حجمها سفن اليمنيين، شواطىء البحر الأحمر والمحيط الهندي، وتمكنوا من السيطرة على تجارة عدن، واستطاعوا أن يفقدوا اليمنيين سيطرتهم على البحار مما أحدث انقلاباً كبيراً في التجارة العالمية، وكان له أثر بالغ في الانهيار الاقتصادي والسياسي الذي أُصيبت به الدول اليمنية القديمة[١٤]. وفي كتاب «الطواف حول البحر الأريتري» وهو كتاب لمؤلف مجهول عاش في القرن الثالث الميلادي، أشار المؤلف إلى أن التجار اليونانيين والرومانيين كانوا يقومون بشراء العطور في موانىء اليمن المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي وأن اللبان كان ينتج في حضرموت ويتم بيعه من قبل كبار موظفي الدولة إلى التجار، وأن السفن كانت تأتي إلى اليمن من مصر فتفرغ في ميناء موزع(*) وميناء قنا حمولتها المكونة من الأواني

(*) لعل المقصود هنا ميناء موسى الذي ورد ذكره في التوراة وقد أشار كارستن نيبور أثناء طوافه في مناطق تهامة عام ١٧٦٣ م أن موشج ربما تكون هي نفسها ميناء موسى الذي قال عنه أنه «كان ميناء مشهوراً في التاريخ القديم». أما موزع فإنها لا تقع على البحر.
أنظر: نيبور Neibuhr, C., BvA, S. 223.

الفضية والذهبية والنحاسية والملابس الفاخرة[١٥].

وخلال القرون الوسطى استمر التجار القادمون من مصر يقومون بجلب السلع من مصر إلى الموانىء اليمنية ونقل السلع اليمنية والهندية من موانىء اليمن إلى مصر. وما إن جاء الإسلام حتى كانت مكانة اليمن التجارية قد تراجعت إلى درجة أن مدن الحجاز وخاصة مدينة مكة كانت قد تفوقت عليها من حيث النشاط التجاري.

وكان مجيء الإسلام إيذاناً بانتقال الثقل السياسي والاقتصادي بصورة واضحة ولقرون طويلة بعد ذلك من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها. ورغم ذلك فإن الموانىء اليمنية لم تفقد في العصر الإسلامي أهميتها بصورة كلية، ويعود الفضل في أن هذه الموانىء ظلت تحتفظ بشيء من الأهمية إلى موقع اليمن في مدخل البحر الأحمر وعلى المحيط الهندي، الأمر الذي هيأ لها، أي لليمن، بين الحين والآخر أن تستعيد مجدها التجاري العريق خاصة في ظل الدول اليمنية الإسلامية القوية، التي استطاعت أن توفر قدراً كبيراً من الاستقرار والأمن، كالدولة الصليحية والدولة الرسولية والدولة الطاهرية.

العلاقة اليمنية ـ المصرية
في العصر الإسلامي، حتى مطلع العصر الحديث

إذا كان التاريخ لا يستطيع أن يقدم لنا حتى الآن سوى صورة باهتة يكتنفها الغموض عن هجرات يمنية تمت في العصور القديمة ولم يبق منها سوى بعض الرسوم، على جدران المعابد والمقابر، وبعض أسماء لآلهة ذات أصول ترجع إلى جنوب الجزيرة العربية، فإن شواهد الهجرة اليمنية التي تمت خلال الفتوحات الإسلامية لا تزال ساطعة إلى اليوم، ماثلة في أشكال الكثير من سكان مصر وفي عاداتهم وأساليب حياتهم وأسماء عشائرهم.

ومع إن الإسلام قد وحد اليمن ومصر تحت رايته إلا أن كلاً منهما قد ظلت مستقلة عن الأخرى تدار من مقر الخلافة في المدينة ثم في دمشق ثم في بغداد عن طريق ولاة يعينهم الخليفة ولم ترتبط اليمن بعلاقات مباشرة متميزة بمصر إلا منذ انفصال مصر عن الخلافة العباسية تحت حكم الفاطميين. وكأنما فتح العهد الفاطمي الباب أمام نشوء علاقات سياسية ـ اقتصادية ـ ثقافية مباشرة بين البلدين، لم

تنقطع حتى في ظل الدولة العثمانية وهذا لا يعني أنه لم يتم تفاعل بين مصر واليمن قبل العهد الفاطمي فقد خلق الإسلام إطاراً سياسياً وثقافياً واقتصادياً تفاعلت داخله كل الأقطار الإسلامية، إلا أن ما يهمنا هنا في هذا العرض السريع هو التقاط أبرز وقائع العلاقة المباشرة بين البلدين ككيانين سياسيين مستقل أحدهما عن الآخر.

١ ـ العهد الفاطمي:

كانت اليمن أسبق في استقلالها عن دولة الخلافة الإسلامية من مصر. فمنذ أنشأ محمد بـن زياد(*) دولته المستقلة عام ٨٢١ م والتي عرفت في التاريخ اليمني باسم الدولة الزيادية، انتهت تبعية اليمن الفعلية للخلافة الإسلامية، أما مصر فلم تنفصل عن الخلافة إلا عندما سيطر عليها الفاطميون عام ٩٦٩ م بعد أن كانوا قد أنشأوا دولتهم المستقلة في المغرب عام ٩٠٩ م.

وكانت اليمن مسرحاً لنشاط شيعي التحـم فيه العمل التبشيري بالصراع المسلح واستطاع الزيديون أن يؤسسوا سلطتهم السياسية ابتداء من عام ٨٩٣ م على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين[١٦]. وكان الإسماعيليون قد أسسوا الدولة الفاطمية الأولى في اليمن على يد أبي القاسم حسن بن حوشب الملقب بمنصور اليمن وعلي بن الفضل وذلك عام ٨٨١ م[١٧]. وخاض الفريقان الشيعيان صراعاً دموياً متصلاً ضد بعضهما البعض كما عاش كل منهما صراعات دموية داخلية بين الأطراف المتنافسة ضمن الفريق الواحد. كل هذا قبل أن يتمكن الشيعة الفاطميون من الاستيلاء على مصر.

وعندما استولى المعز لدين الله على مصر وفصلها عن الخلافة العباسية كان قد مضى على انتهاء الدولة الفاطمية الأولى في اليمن ما يزيد على نصف قرن من الزمن(**).

وفي عام ١٠٦٦ م استطاع الداعي علي محمد الصليحي أن يؤسس الدولة الفاطمية الثانية والتي عرفت بالدولة الصليحية.

(*) كان محمد بن زياد قد وصل إلى اليمن عام ٨٢١ م كوال للدولة العباسية ولكنه سرعان ما استقل عنها مكوناً أول دولة يمنية إسلامية مستقلة. انظر: الفقي، عصام الدين، اليمن في ظل الإسلام ص ٨٧ وما بعدها. والثور، هـذه هي اليمن، ص ٢٦٧ وما بعدها.

(**) انتهت الدولة الفاطمية الأولى في اليمن عام ٣٠٣ هـ الموافق ٩١٥ م.

وكانت علاقة الفاطميين في اليمن بالحركة الفاطمية خارج اليمن قد بدأت قبل استيلاء الفاطميين على مصر، بل وقبل قيام دولتهم في المغرب. فمنصور اليمن نفسه كان قد جاء إلى اليمن ممثلاً للحركة الفاطمية مكلفاً بالتعاون مع علي بن الفضل بنشر الدعوة الفاطمية في اليمن التي وجدت في اليمن مكاناً ملائماً للانتشار وتأسيس دولة. وسرعان ما أصبحت اليمن مركزاً هاماً للدعوة ينطلق منه الدعاة إلى أنحاء البلاد الإسلامية، واستطاعت أن تلعب دوراً في التمهيد لقيام الدولة الفاطمية في المغرب. وتحدثنا كتب التاريخ أن الحركة الفاطمية في اليمن انتدبت الداعي أبا عبدالله الحسن بن أحمد الصنعاني إلى بلاد المغرب لبث الدعوة هناك وقد استطاع الصنعاني هذا أن ينشر الدعوة ويمهد لقدوم عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية إلى المغرب ويضمن له البيعة[١٨]. إلا أن علاقة الفاطميين في اليمن بإخوانهم خارج اليمن لم تبلغ من التفاعل والتعاون إلى ما بلغته مع إخوانهم في مصر في ظل الخلافة الفاطمية.

لقد هيأ وجود دولتين فاطميتين في كل من مصر واليمن لإقامة علاقات متميزة ونشطة بين البلدين، إلى درجة أن المتصفح لكتب التاريخ يشعر أن الدولتين كادتا أن تكونا امتداداً لبعضهما وأن البلدين قد كانا كما لو أنهما قد أصبحا امتداداً جغرافياً وسياسياً واقتصادياً وفكرياً واحداً. فالخليفة الفاطمي في مصر قد أخذ مثلاً يخلع الألقاب على أفراد الأسرة الصليحية الحاكمة في اليمن تماماً كما كان يخلع الألقاب على الأمراء والوزراء في مصر[١٩].

كما كان الخليفة الفاطمي يعين أولياء عهد الدولة الصليحية، فعين محمداً الأعز، الابن الأكبر لعلي بن محمد الصليحي، ولياً لعهد أبيه ولما توفي في حياة أبيه عين الابن الأوسط، أحمد المكرم[٢٠].

وتعكس المراسلات المتبادلة بين حكام الدولتين الفاطميتين في كل من مصر واليمن عمق الروابط التي حكمت العلاقات اليمنية المصرية في تلك الفترة. ونقتطف هنا بعض عبارات من رسالة عزى فيها الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، المكرم أحمد بن علي الصليحي بوفاة والد الأخير وأخيه: «. . . . إن مسك في والدك وأخيك رضي الله عنهما وأرضاهما قرح، فقد مس أمير المؤمنين بهما قرح مثله، فلم يـر غير التسليم إلى الله سبحانه والرجوع إلى من يرجع إليه الأمر كله،

ولئن كنت عدمت منهما أباً وأخاً كريماً، فلقد عدم أمير المؤمنين من كل منهما لدولته ولياً حميماً... فإنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد فجع آل محمد، صلى الله عليه وعليهم، من والدك، رضي الله عنه وأرضاه، بندب من الرجال شهم، وأُصيبوا بمنكب من فوقهم ضخم...»[٢١]. وقد درج حكام الدولة الصليحية على إرسال الهدايا الثمينة إلى الخليفة الفاطمي في مصر تعبيراً عن الولاء والإخلاص. وكانت الهدايا تتكون عادة من الأدوات الذهبية والفضية والسيوف المرصعة بالعقيق اليماني، والمسك والعنبر والكافور والعود الهندي والجواري... إلخ[٢٢]. أما الخليفة فكانت هداياه للحكام الصلحيين لا تزيد عن الألقاب الفخمة(*) وإذا تجاوزتها في النادر فلا أكثر من بعض قطع من الملابس يخلعها عليهم[٢٣].

ولم يول المؤرخون اهتماماً برصد مظاهر العلاقات الإقتصادية بين البلدين، كما لم تشر المراسلات المتبادلة بين الخليفة والحكام الصلحيين إلى الجوانب الاقتصادية، فقد ركزوا جل همهم في مراسلاتهم واتصالاتهم على الجانب الديني والسياسي، ومع ذلك فإن موقع اليمن وعلاقتها الوثيقة بمصر، في هذه الفترة، وامتداد الدعوة الفاطمية إلى الهند بتأثير اليمنيين ونشاطهم، واحتواء هدايا الصلحيين للخليفة الفاطمي بمصر على مواد مستوردة من الهند، كل ذلك يسوغ لنا أن نفترض وجود علاقات تجارية بين مصر واليمن[٢٤].

ويعكس تركيز الخلافة الفاطمية اهتمامها على الجانب الديني والسياسي الدور الكبير الذي اضطلعت به اليمن في نشر الدعوة الفاطمية، والمكانة التي احتلتها في هذا المجال. فقد بلغت مكانة اليمن درجة أصبحت معها الخلافة الفاطمية تعتمد اعتماداً كاملاً على الدولة الصليحية في الإشراف على شؤون الدعوة الفاطمية في الحجاز والأحساء والبحرين وعمان والهند، وأضحت الدعوة في هذه البلدان مرتبطة بمركزها في اليمن ارتباطاً وثيقاً[٢٥].

إن هذه المكانة التي احتلتها اليمن في إطار الحركة الفاطمية واعتماد الخلافة الفاطمية القوي عليها يفسر لنا نوعية الرسائل الموجهة من القاهرة إلى اليمن وأسلوبها الموشىٰ بالألقاب والمليء بعبارات الإطراء والتفخيم(**).

(*) انظر جدول الألقاب في: ماجد، عبد المنعم، السجلات، ص ٢١٩ - ٢٢١.

(**) انظر نصوص الرسائل في: ماجد، عبد المنعم، السجلات.

وقد تبادلت مصر واليمن الوفود على أعلى المستويات بغرض شرح وتوضيح الأحداث السياسية وتقديم الاستشارات وتنسيق المواقف أو تبادل التهاني أو التعازي أو حمل الهدايا... إلخ[٢٦]. لقد كان الخليفة الفاطمي في مصر يحرص على معرفة ما يدور في اليمن من أحداث حرصه على أن يطلع الدولة الصليحية على ما يدور في مصر أيضاً. وبلغت العلاقة العضوية بين الدولتين درجة من القوة لم تتردد عندها حاكمة اليمن السيدة بنت أحمد أن تشرك الخليفة الفاطمي في همومها العائلية وأن يتدخل الخليفة في حل مشاكل عائلية ضمن الأسرة الصليحية. فعندما تقدم سبأ بن أحمد الصليحي وهو أحد كبار رجال الدولة الصليحية وقادتها بطلب يد الملكة السيدة بنت أحمد لتصبح زوجة له، رفضت الملكة طلبه فعز عليه ذلك، وكاد أن يلجأ إلى استخدام القوة العسكرية، إلا أنه نصح أن يلجأ إلى الخليفة الفاطمي في مصر ويطلب يدها منه. وقد رأى الخليفة أن زواجها من سبأ بن أحمد سيضمن وحدة الدولة الصليحية ويحول دون تمزقها، فوجه خطاباً إلى الملكة يأمرها فيه بقبول الزواج، فأذعنت لأمره[٢٧].

وعندما شعرت الخلافة الفاطمية في مصر أن الدولة الصليحية تواجه مخاطر تهدد وجودها، لم تتردد في الاستجابة لطلب السيدة بنت أحمد في إرسال مستشار من مصر يساعدها على إدارة شؤون الدولة مصحوباً بقوة عسكرية صغيرة[٢٨]. كما أن الفاطميين في مصر عندما شعروا أن مركز الدولة الفاطمية هناك بدأ يهتز وأن الدعوة الفاطمية قد فقدت نفوذها وخف بريقها في شمال إفريقيا كما في مصر وسورية والعراق وفارس، لم يجدوا أفضل من اليمن مكاناً ينقلون إليه تراثهم المكتوب ويحفظونه فيه[٢٩].

إن العلاقة المتميزة التي كانت قائمة بين اليمن ومصر في العهد الفاطمي لم تكن علاقة تبعية بالمعنى السياسي - كما قد يتبادر إلى الذهن - فقد كانت الدولة الصليحية دولة مستقلة وكانت اليمن غير خاضعة سياسياً لمصر. لقد كانت هذه العلاقة قائمة على الولاء الديني والإخلاص الطوعي من قبل حكام الدولة الصليحية والفاطميين في اليمن للخليفة الفاطمي في مصر[٣٠].

وقد استمرت هذه العلاقة المتميزة إلى أن أخذت أحوال الدولة الفاطمية في مصر تتضعضع إبتداء من عهد الحاكم بأمر الله الذي تولى الخلافة عام ٩٩٦ م،

وخضعت الدولة لسلطة الوزراء وتنازع القادة النفوذ. وفي عهد الحافظ لدين الله عبد المجيد فصلت السيدة بنت أحمد الدعوة الفاطمية في اليمن عن الدعوة في مصر وذلك على أثر مقتل الآمر بأحكام الله عام ١١٠١ م واختفاء طفله الإمام الطيب بن الآمر، الذي اعتبر في نظر الصليحيين الإمام المستور وأصبحت دعوتهم تعرف بالدعوة الطيبية[٣١]. وقد تم هذا الفصل في ظل الأوضاع السياسية المتردية في مصر وضعف الدولة الصليحية في اليمن. وقد انتهى أمر الدولة الصليحية بموت السيدة بنت أحمد عام ١١٣٨ م، وأما الدولة الفاطمية في مصر فقد امتد بها الأجل ضعيفة متردية حتى تم الإجهاز عليها على يد الأيوبيين عام ١١٧١ م.

٢ ـ العهد الأيوبي:

نشأت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية ودخلت العلاقات اليمنية ـ المصرية في عهدها طوراً جديداً تميزت فيه عنها في ظل الدولة الفاطمية. ففي حين كانت العلاقات في العهد الفاطمي قد نشأت على أساس روحي، واتسمت بالتبعية الدينية والولاء الطوعي للخلافة الفاطمية في مصر من قبل حكام الدولة الصليحية في اليمن، مع احتفاظ اليمن بالاستقلال والتميز، فإن العلاقات بين البلدين في العهد الأيوبي قد اتخذت طابع الضم وفرض الوجود السياسي والعسكري من جانب الدولة الأيوبية في مصر[٣٢].

ففي عام ١١٧٤ م وجه صلاح الدين الأيوبي حملة عسكرية بقيادة أخيه توران شاه، لضم اليمن وإقامة حكم أيوبي مباشر فيها.

ويورد المؤرخون تفسيرات مختلفة للدوافع الكامنة وراء مجيء الأيوبيين إلى اليمن فمنهم من يذهب في تفسير ذلك إلى رغبة صلاح الدين في التخلص من منافسة أقوى إخوته ـ توران شاه ـ بإرساله على رأس حملة إلى اليمن. ومنهم من يذهب إلى أن البعض قد زين لتوران شاه غزو اليمن لتوريط صلاح الدين وإشغاله باليمن عن حماية دولته في مصر، الأمر الذي يمكن أن يسهل للفاطميين القضاء عليها وإحياء الدولة الفاطمية. ومنهم من يقول إن أهل تهامة قد استنجدوا بصلاح الدين من ظلم حاكمهم عبد النبي بن علي بن مهدي، أو أن الشريف قاسم بن غانم السليماني عبر عن استياء أهل تهامة من حاكمهم المذكور في شكوى رفعها إلى الخليفة العباسي، ودعاه إلى إنقاذهم، فأمر الخليفة العباسي صلاح الدين بإنفاذ حملة

لتخليص أهل اليمن. . . وإلى غير ذلك من تفسيرات[٣٣]. ولكن من الأرجح أن مجيء الأيوبيين لليمن تكمن وراءه نظرة سياسية بعيدة تتمثل ـ كما يبدو ـ في رغبة صلاح الدين في تأمين عمق استراتيجي لمصر يسهل حماية مصر من أي تآمر صليبي قد يستهدف محاصرتها من الشمال ومن الجنوب بالتنسيق مع الحبشة، كما يشكل منطقة بديلة وبعيدة يسهل الانتقال إليها في حالة تعرض الدولة الأيوبية للتهديد في وجودها من قبل الخلافة العباسية أو من قبل نور الدين محمد زنكي حاكم الشام.

وقد بدأت عمليات توران شاه العسكرية بالقضاء على إمارة بني مهدي وعاصمتهم زبيد ثم واصل عملياته حتى قضى على الإمارات اليمنية المستقلة القائمة حينذاك، كإمارة بني زريع وعاصمتهم عدن وإمارة بني حاتم وعاصمتهم صنعاء وإمارة الإشراف السليمانيين في بلاد عسير والإمامة الزيدية وعلى رأسها الإمام المتوكل أحمد بن سليمان في صعدة[٣٤]. وبعد أن تمكن توران شاه من القضاء على الإمارات اليمنية المستقلة اختط مدينة تعز في موقع ذي عدينة لتكون مقراً لحكمه.

وباحتلال الأيوبيين لليمن أمكنهم السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر إلى جانب مصر المتحكمة في مدخله الشمالي،وبذلك أمكنهم أن يبسطوا نفوذهم على منطقة البحر الأحمر، وأخذوا يهتمون بتنشيط الموانىء اليمنية، وخاصة ميناء عدن الذي تضاعف دخله في عهدهم إلى أربعة أضعاف ما كان عليه قبل احتلالهم اليمن[٣٥].

كان قد مضى على توران شاه عاماً واحداً في اليمن عندما أحس بالرغبة في العودة إلى مصر وراسل أخاه صلاح الدين، الذي مانع في بادىء الأمر ورغّب لتوران شاه البقاء في اليمن، إلا أن توران ظل يلح على أخيه حتى وافق على عودته. فأناب عنه عدداً من النواب كل على منطقة من مناطق اليمن التي استولى عليها، فأناب أبا ميمون مبارك بن كامل على زبيد، وعثمان الزنجبيلي على عدن، وياقوت التعزي على تعز، ومظفر الدين قاتماز على جبلة، والسلطان علي بن حاتم على صنعاء[٣٦].

استمر نواب توران شاه يبعثون إليه الخراج حتى توفي في الإسكندرية عام ١١٨١ م. فتغلب كل منهم على ما تحت يده وضرب السكة باسمه،واستطاع نائب

عـدن عثمان الزنجبيلي أن يضم حضرموت إليه ويولي عليها نائباً عنه. ولما بلغ الأمر هذا الحد وكادت اليمن تخرج عن سيطرة الدولة الأيوبية في مصر، أرسل صلاح الدين أخاه طغتكين ليتولى حكم اليمن. واستطاع طغتكين أن ينهي استقلال النواب ويعيد المناطق التي كان قد احتلها أخوه توران إلى حظيرة الدولة الأيوبية، كما استطاع أن يوسع رقعة سيطرته لتضم مناطق جديدة لم يكن أخوه توران قد وصل إليها، ومنها مناطق في مخلاف الحجرية ومخلاف جعفر وبلاد العدين وإب وبلاد ريمة وعتمة... إلخ.

وفي عام ١١٩٤ م توفي السلطان طغتكين ودفن في مدينة تعز، ويعتبر طغتكين المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية في اليمن، فقد أرسى قواعدها ووضع قوانينها، وحدد نظامها الضريبي، وبنى الحصون والقصور، وجدد سور مدينة زبيد، ووسع سور مدينة صنعاء بعد أن ضم إليه بستان السلطان، الذي سمي باسمه، وهو معروف في صنعاء حتى الآن. قد بنى فيه الدور وأقام حولها الحدائق وأوصل إليها المياه من غيل البرمكي. وكان طغتكين قد أراد شراء جميع الأراضي الزراعية في اليمن وتأجيرها للفلاحين، كما كان الحال عليه في مصر آنذاك[٣٧]، إلا أنه توفي قبل أن ينفذ مشروعه.

وقد ظلت اليمن خلال العهد الأيوبي امتداداً للدولة الأيوبية في مصر حتى مات آخر سلاطينهم فيها ـ أي في اليمن ـ وهو السلطان المسعود بن الكامل، وهو في طريقه إلى الشام ليتولى حكمها بأمر من أبيه. وكانت وفاته في مكة وذلك عام ١٢٢٨ م. وكان قبل مغادرته اليمن قد أناب عنه فيها نور الدين عمر بن علي رسول. ويقال أنه أوصاه عند مغادرته بقوله: «إنني قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبي، فإن مت فأنت أولى بملك اليمن من إخوتي، لأنك خدمتني وعرفت منك النصيحة والاجتهاد، وإن عشت فأنت على حالك. وإياك أن تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي ولو جاء الملك الكامل والدي مطوياً في كتاب، فإذا ألح عليك أعلمتني حتى اجتمع أنا وعمي الأشرف عليه ونحاربه ونشغله»[٣٨].

وبغض النظر عن صحة أو عدم صحة هذا القول المنسوب إلى السلطان المسعود الأيوبي، فقد انفرد نائبه نور الدين عمر بن علي رسول بحكم اليمن، وأخذ يرتب أموره للاستقلال عن الأيوبيين، واستطاع أن يمد حكمه إلى حضرموت، كما استطاع أن يستولي على مكة التي كان يحكمها الأيوبيون[٣٩]، وفي عام ١٢٣٣

أسقط اسم السلطان الأيوبي من الخطبة وأمر الخطباء أن يخطبوا له ـ أي لنور الدين ـ في أنحاء اليمن، وضرب السكة باسمه واتصل بالخليفة العباسي في بغداد مستمداً منه الشرعية[٤٠].

وكانت الدولة الرسولية التي حولت اليمن من التبعية لمصر الأيوبية إلى الولاء الاسمي للخلافة العباسية في بغداد، هي نفسها التي عادت لتستعين بمصر المملوكية وذلك في عهد السلطان المجاهد علي بن يوسف بن عمر بن علي رسول، فقد نشبت صراعات حادة بين المجاهد وبين القوى المنافسة له ومن بينها بعض أقاربه، فلجأ إلى الاستعانة بقوة خارجية وهي قوة المماليك في مصر، فراسل سلطان مصر المملوكي محمد بن قلاوون طالباً منه العون، وسرعان ما جاءته نجدة عسكرية مصرية وصلت إلى اليمن عام ١٣٢٥ م إلا أنها لم تمكث طويلاً فقد أمرها بالعودة إلى مصر بعد أن شعر أن خصومه قد نجحوا في التأثير عليها وكادوا يستميلونها إلى صفوفهم[٤١].

وقد مثلت الدولة الرسولية قوة سياسية وعسكرية ذات شأن استطاعت أن توسع رقعة نفوذها منافسة بذلك النفوذ المصري في الجزيرة العربية، وكانت مكة نقطة احتكاك بين القوتين أخذتا تتنازعانها وتتناوبان السيطرة عليها، وقد أدى هذا الوضع إلى اعتقال السلطان المجاهد الرسولي في مكة على أيدي الجنود المصريين وإجباره على الذهاب معهم إلى مصر، وذلك عندما حج عام ٧٥١ هـ (١٣٥٠ ـ ١٣٥١ م) وشك المصريون في أنه ينوي أن يستولي على مكة ويولي فيها والياً من قبله. وقد مكث المجاهد هذا في مصر عاماً واحداً عومل فيها معاملة كريمة ثم سمح له بالعودة إلى اليمن[٤٢].

وفي عام ١٥١٦ م عاد المماليك إلى اليمن ضمن ظروف تاريخية جديدة وضمن عصر جديد اصطلح على تسميته في التاريخ العالمي بالعصر الحديث. ومع أننا نتعامل مع هذه التقسيمات التقليدية لعصور التاريخ بحذر وتحفظ، حيث إنها قد وضعت من منظور أوروبي يتناسب مع مراحل التاريخ الأوروبي، ولا ينطبق بالضرورة مع تاريخ الشعوب الأخرى وليس هنا على أي حال مجال مناقشته، إلا أننا سوف نتبع هذا التقسيم لاعتبار واحد، وهو أن دخول أوروبا في العصر الحديث كان له تأثير حاسم بالنسبة لعلاقات القوى العالمية والمحلية في المنطقة العربية بشكل عام والعلاقات اليمنية ـ المصرية بشكل خاص.

العلاقات اليمنية ـ المصرية في العصر الحديث

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر جرت أحداث تاريخية ترك كل منها، بشكل أو بآخر بصماته على مسار التاريخ اللاحق،وأثر في أحداثه التالية ولا زال يؤثر حتى اليوم. ويرجع المؤرخون، عادة، بداية التاريخ الحديث إلى واحد أو أكثر من هذه الأحداث، باعتباره أو باعتبارها علامة بارزة تصلح للتمييز بين العصر الوسيط والعصر الحديث. ومن هذه الأحداث احتلال العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣ وانتقال كثير من علمائها إلى إيطاليا،حيث بدأت على أيديهم النهضة الفكرية والفنية والعلمية، التي امتد تأثيرها إلى البلدان الأوروبية الأخرى، ومن هذه الأحداث أيضاً الكشوف الجغرافية أواخر القرن الخامس عشر،والتي كان اكتشاف الأمريكتين أهم نتائجها... إلخ. وهي أحداث مرتبطة بالتاريخ الأوروبي بالدرجة الأولى، إلا أنها قد أثرت في مسار التاريخ العالمي بشكل عام(٤٣).

ويهمنا في هذا السياق، من بين تلك الأحداث، الكشوف الجغرافية. فقد كان تأثيرها على العالم غير الأوروبي أسرع وأوضح، وخاصة على الأمريكتين والمنطقة العربية وأفريقيا وجنوب القارة الآسيوية. فقد كانت حركة الكشوف الجغرافية مقدمة للحركة الاستعمارية، التي بسطت نفوذها على هذه البلدان ولا زالت تمارس نفوذها، بهذا القدر أو ذاك، حتى اليوم. لقد حدثت في الأوضاع الداخلية في أوروبا تغيرات بدأت مقدماتها مع نهايات القرون الوسطى، وأخذت تنضج مع بداية العصر الحديث. حيث أخذ النظام الإقطاعي يتراجع مخلياً مواقعه لطبقة جديدة أكثر طموحاً وهي الطبقة البرجوازية التي تعاظمت قوتها مع ازدياد التراكم الرأسمالي ورافقت صعودها تغيرات مست جميع أوجه الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فتكونت بفضلها الحكومات الوطنية والمركزية، وتلاشت الحواجز الجمركية التي كانت قائمة بين الإقطاعيات المختلفة، وتكون السوق الرأسمالي الداخلي ضمن إطار واسع لم تعرفه أوروبا في عصورها الوسطى،ونشطت حركة التبادل التجارية وازداد الإنتاج السلعي، وأخذت الطبقة الناشئة الطموحة تمد بصرها إلى خارج أوروبا، حالمة بمزيد من الثراء، مستهدفة بصورة أساسية السيطرة على تجارة الشرق لتجني بذلك مزيداً من الأرباح التي استأثر بها حتى ذلك الحين تجار البندقية إضافة إلى بلدان أخرى غير أوروبية كمصر واليمن.

وبادرت أقوى دول أوروبا حينها (إسبانيا والبرتغال) إلى تشجيع الكشوف

الجغرافية في محاولة للوصول مباشرة إلى منابع السلع الشرقية. فاتجه النشاط الإسباني نحو الغرب، على أمل الوصول إلى الهند في الشرق، وذلك تحت تأثير فكرة كروية الأرض، وهي فكرة كانت مقبولة في عصر الثقافة اليونانية، ثم رفضها الفكر الديني في العصور الوسطى، وعادت لتصبح مقبولة من جديد مع الاتجاه الإحيائي الذي ساد أوروبا وهي تتحلل من أثقال العصور الوسطى. أما البرتغاليون فقد ركزوا جهودهم بصورة رئيسية باتجاه الشرق مباشرة، واستطاعوا اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٥٩٨ م(٤٤).

وباكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وجهت ضربة اقتصادية عميقة الأثر للوسطاء التقليديين في تجارة الشرق، وعلى رأسهم مصر واليمن والبندقية، وانتقل الثقل التجاري من البحرين الأحمر والأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي عبر الطريق المباشر بين الهند وأوروبا. وأخذ البرتغاليون يبسطون نفوذهم على المحيط الهندي بقوة أساطيلهم المسلحة تسليحاً متفوقاً، ويهاجمون السفن التجارية العربية والقلاع والمواقع والموانىء المطلة على المحيط، ومنها الموانىء اليمنية واحتلوا جزيرة سقطرة عام ١٥٠٧، وجزيرة كمران عام ١٥١٣، وهاجموا ميناء عدن في نفس العام(٤٥).

وكانت اليمن في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر تتنازعها عدة قوى سياسية محلية متصارعة، ففي حضرموت والمهرة كانت تدور صراعات قبلية على السلطة حالت دون وجود قوة سياسية قادرة على التصدي للبرتغاليين. كما كانت الدولة الطاهرية، وهي أقوى كيان سياسي في اليمن حينذاك تبسط سلطانها على معظم مناطق اليمن، من عدن وبعض أجزاء حضرموت وحتى حدود صعدة والمخلاف السليماني(٤٦)، وكانت أي الدولة الطاهرية، تعيش أزهى عهودها تحت حكم أعظم حكامها وهو السلطان عامر بن عبد الوهاب. وكانت هناك الإمامة الزيدية في صعدة، وكان الصراع الدائر بين الطاهريين والإمامة واحداً من عوامل الضعف التي حالت دون تحقيق مواجهة ناجحة للبرتغاليين. أما العامل الأكثر حسماً فقد كان تحول الطريق التجاري إلى رأس الرجاء الصالح، مما سبب نقصاً متزايداً في إيرادات الدولة الطاهرية وإمكانياتها المادية.

أما مصر فقد كانت تعيش تحت حكم المماليك، الذين استطاعوا أن يحققوا ثراء كبيراً من وراء عملية الوساطة التجارية. وقد أدى تحول الطريق التجاري على

أيدي البرتغاليين والأعمال العسكرية التي أخذوا يكثفونها في المحيط الهندي وعند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر إلى تدهور الحياة الاقتصادية في مصر.

ورغم الضرر الذي أحدثه النشاط البرتغالي بالنسبة للوضع الاقتصادي في كل من مصر واليمن، في آن واحد، إلا أن القوتين الرئيسيتين في المسرح السياسي في البلدين، وهما المماليك والطاهريون، لم تعملا معاً في جبهة واحدة قادرة على مواجهة الخطر المشترك. فقد انبرى الطاهريون إلى التصدي للبرتغاليين في مواجهة يائسة، فجهز السلطان عامر بن عبد الوهاب حملة بحرية مكونة من أربع عشرة سفينة نقل عادية على ظهرها ست مئة مقاتل(٤٧). أبحرت من ميناء عدن في شهر مارس ١٥٠٧ باتجاه الهند، ولم يسمع عنها خبراً بعد ذلك، ولا شك أن البرتغاليين قد تمكنوا من سحقها بسهولة(٤٨). ولم يحاول السلطان عامر بعد ذلك إرسال أي حملة بحرية أخرى إلى الهند، وفضل تركيز دفاعاته على الموانىء اليمنية نفسها.

وأما المماليك في مصر وهم قوة عسكرية برية بالدرجة الأولى، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مواجهة الخطر البرتغالي مواجهة بحرية، فأمر السلطان قانصوه الغوري ببناء أسطول بحري مستعيناً في بنائه بالبندقية التي ألحق النشاط البرتغالي وتحول الطريق التجاري باقتصادها أضراراً فادحة أيضاً،فقامت بمد مماليك مصر بالأخشاب والفنيين. وتمكن المماليك من بناء ثلاث عشرة سفينة مجهزة بالمدافع، غادرت ميناء السويس عام ١٥٠٧ م بقيادة حسين الكردي متجهة نحو الهند. وقد توقفت هذه الحملة البحرية أمام ساحل عدن، حيث قام حاكم عدن الطاهري بتزويدها بالمؤن اللازمة لمواصلة رحلتها إلى الهند(٤٩). وقد تمكنت الحملة المملوكية بالتعاون مع مسلمي الهند أن تحقق بعض الانتصارات في بادىء الأمر، إلا أنه تم في عام ١٥٠٨ م القضاء عليها في معركة (ديو) الشهيرة، التي حسمت الموقف نهائياً لصالح البرتغاليين، فأصبحوا بعدها سادة البحار الشرقية دون منازع(٥٠). وقد استطاع قائد الحملة المملوكية حسين الكردي، أن ينجو بنفسه ويعود سالماً إلى مصر.

وبعد القضاء على هذه الحملة جهز المماليك في مصر حملة جديدة بقيادة حسين الكردي نفسه قوامها عشرين سفينة، لكن هدفها هذه المرة كان اليمن وليس الهند.

وبدلا من أن يعمل المماليك على حشد القوى السياسية اليمنية وتوجيه جهودها نحو مواجهة الخطر البرتغالي، الذي كان قد توغل إلى داخل البحر الأحمر وتحالف مع الحبشة، دخلوا في صراع عسكري مرير مع القوى المحلية، وعلى رأسها الدولة الطاهرية، استنزف جهودهم وإمكانياتهم وجهود وإمكانيات اليمنيين. وقد استطاعوا بعد معارك دامية أن يحتلوا زبيد وتوغلوا نحو الداخل حتى مدينة صنعاء، وتمكنوا من قتل السلطان عامر بن عبد الوهاب، قرب صنعاء، والقضاء على الدولة الطاهرية، متعاونين مع حليفهم الإمام يحيى شرف الدين، الذي لم يلبث بعد زوال منافسيه الطاهريين أن اشتبك في صراع مع حلفائه المماليك[٥١]. وقد ظل بقايا الطاهريين يحكمون عدن ويقاومون محاولات البرتغاليين والمماليك للسيطرة عليها حتى استطاع العثمانيون أن يحتلوها عام ١٥٣٨ م.

وحول أسباب إقدام الحملة المملوكية على احتلال اليمن يورد المؤرخون أسباباً متباينة منها[٥٢]:

١ ـ احتجاز نائب السلطان عامر بن عبد الوهاب في الحديدة سفن الإمداد المتجهة إلى القوات المملوكية في جزيرة كمران.

٢ ـ رفض السلطان عامر بن عبد الوهاب معاونة الحملة ضد البرتغاليين.

٣ ـ طلب الإمام يحيى شرف الدين من الحملة التدخل للقضاء على خصمه عامر بن عبد الوهاب.

ولعلنا نستطيع أن نتبين سبباً أكثر وجاهة أملته ظروف المواجهة العسكرية البحرية مع البرتغاليين. فلا شك أن الاعتبارات العسكرية قد دفعت المماليك إلى العمل على إحكام قبضتهم على الشواطىء اليمنية، للتحصن فيها باعتبار أنها تقدم شروطاً أفضل لتنظيم عملياتهم الدفاعية والهجومية، من تلك الشروط التي توفرها الجزر المعزولة في مدخل البحر الأحمر كجزيرة كمران التي كانوا قد استولوا عليها وتمركزوا فيها.

لقد تعرضت مصر واليمن للتهديد البرتغالي، الذي استطاع أن يلحق بهما هزائم عسكرية وأن يشل اقتصادهما. وبدلاً من أن يدفعهما ذلك إلى التنسيق والتعاون وإيجاد جبهة عسكرية ـ اقتصادية ـ سياسية واحدة، تقف في وجه الخطر البرتغالي، انبرت كل بلد بمفردها لمواجهة البرتغاليين، وأدت هزائمهما لا إلى

إقناعهما بضرورة التعاون بل إلى لجوء المماليك في مصر إلى شن حرب ضد القوى السياسية المحلية في اليمن، والقضاء على أهم قوة سياسية قادرة على الإسهام في عملية المواجهة وهي الدولة الطاهرية. كل هذا في محاولة من قبل المماليك للانفراد في السيطرة على مدخل البحر الأحمر.

ولكن سلطة المماليك في مصر نفسها ما لبثت أن انهارت تحت ضربات قوة العثمانيين. وباحتلال العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ م أعلنت الحملة المملوكية في اليمن ولاءها للدولة العثمانية. واستمرت في اليمن تمثل ـ اسمياً ـ الدولة العثمانية.

وباستيلاء العثمانيين على مصر وإنهاء حكم المماليك فيها، وإعلان الحملة المملوكية في اليمن ولاءها للدولة العثمانية، ورث العثمانيون دور ومهمة المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي عند البوابة الجنوبية للبحر الأحمر.

وقد مثلت مصر خلال الوجود العثماني في اليمن ـ يستوي في هذا الوجود الأول (١٥١٧ ـ ١٦٣٥) والوجود الثاني (١٨٤٩ ـ ١٩١٨) ـ القاعدة التي كان يتم فيها تجهيز الحملات العثمانية إلى اليمن، وذلك ضمن المحاولات المستمرة لضمان تبعية اليمن للدولة العثمانية، والإمساك بموقع استراتيجي متقدم يمكن منه مواجهة مطامع الاستعمار الأوروبي في البحر الأحمر والمحيط الهندي. وكان الولاة الأتراك في مصر يتولون عادة الإشراف على شؤون اليمن. ولكن بما أن الوالي العثماني في مصر لم يكن سوى منفذ لسياسة الباب العالي الخاصة باليمن، فإن العلاقة المصرية اليمنية لم تكن أثناء ذلك تترجم سياسة مستقلة أملتها اعتبارات سياسية أو عسكرية أو اقتصادية نابعة من ظروف البلدين، بقدر ما كانت جزءاً من السياسة العامة للدولة العثمانية. ولهذا فإننا في هذا الاستعراض السريع لن نتوقف عند الفترتين اللتين امتد فيهما النفوذ العثماني إلى اليمن، بل سنعمد إلى إبراز أهم معالم هذه العلاقات، ضمن إطار ظروف جديدة لم تحكم العلاقات اليمنية ـ المصرية فحسب، بل وحكمت أيضاً علاقات القوى السياسية العالمية، وهي ظروف التنافس الاستعماري. فقد وحد التنافس الاستعماري في المنطقة العربية مصير اليمن ومصر أكثر من أي زمن مضى، كما وحد أيضاً جهودهما في عملية مواجهة الأخطار الاستعمارية.

كانت أهم القوى الاستعمارية في المنطقة العربية هي فرنسا وبريطانيا، بعد أن تضاءل شأن البرتغاليين في البحار الشرقية وورثتهم بريطانيا وحلت محلهم. وكانت

فرنسا قد دخلت ميدان النشاط الاستعماري، واستطاعت أن تستولي على كندا وبعض جزر الهند الغربية، إلا أن بريطانيا أخذت تنافس فرنسا في مستعمراتها، وانتزعت منها كندا وأخذت تضايقها في مستعمراتها في الهند والمحيط الهندي. وقامت فرنسا بدورها بدعم الولايات البريطانية في أمريكا في ثورتها ضد وطنها الأم، وهي الثورة التي انتهت باستقلال تلك الولايات، التي أصبحت نواة للولايات المتحدة الأمريكية.

وكان الوطن العربي مسرحاً من مسارح هذا التنافس الاستعماري الذي امتد على امتداد العالم. وكانت بريطانيا قد حاولت أن تؤمن طريق اتصال بالهند عن طريق البحر المتوسط ومصر والبحر الأحمر، ولكن العثمانيين والقوى العربية المطلة بلدانها على البحر الأحمر وقفت في وجه هذه المحاولات لأسباب عديدة، منها أن الاحتكاك الأول مع القوى الأوروبية الطامعة، في العصر الحديث، والذي تمثل بالاحتكاك مع البرتغاليين، قد جعل العرب يخشون السماح لأي قوة جديدة بالدخول إلى البحر الأحمر (بحر العرب)، بعد أن كان البرتغاليون قد استطاعوا التوغل فيه والتحالف مع الحبشة وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة، ومن هذه الأسباب أيضاً أن الباب العالي كان يخشى أن يؤثر طريق مصر والبحر الأحمر تأثيراً سلبياً على طريق الشرق المار من الخليج العربي عبر دجلة والفرات إلى الساحل السوري، وكذا على الطريق الثالث المار عبر القسطنطينية، عاصمة الدولة العثمانية نفسها، وقد أثمرت محاولات البريطانيين هذه التوصل إلى اتفاقيات مع حكام مصر الفعليين (البكوات المماليك)، إلا أن تلك الاتفاقيات لم تعط نتيجة ملموسة[٥٣].

أما فرنسا فقد أخذت بدورها تفكر في الوصول إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، ولكن هذا التفكير لم يأخذ طريقه إلى حيز الفعل إلا بعيد الثورة الفرنسية التي هزت الأوضاع السياسية والاقتصادية والفكرية في أوروبا بشكل خاص وفي العالم بشكل عام. فقد قررت فرنسا بعد الثورة توجيه ضربة لبريطانيا، المنافس اللدود، في أهم مناطق نفوذها، أي في الهند، ومن أجل ذلك وجهت عام ١٧٩٨ حملة لاحتلال مصر على رأسها الجنرال بونابرت. وقد نتج عن احتلال الفرنسيين لمصر نتائج عميقة الأثر على الصراع الاستعماري في المنطقة من ناحية، وعلى أوضاع المنطقة السياسية والاقتصادية والفكرية من ناحية أخرى. فقد مثلت حملة بونابرت إلى مصر صدمة حضارية هزت المنطقة هزاً عنيفاً[٥٤]. إلى درجة يمكن

معها اعتبار أن العصر الحديث يبدأ بالنسبة للتاريخ العربي بحملة نابليون بونابرت. لقد مثلت تلك الحملة تحدياً فكرياً وعسكرياً وسياسياً ولد سلسلة من الاستجابات التي بدأت بمقاومة الحملة نفسها. وفي ظروف المقاومة مدت اليمن أذرعها إلى مصر بالدعم المادي والمعنوي، حيث أحست أن مصر ما هي إلا جسر للعبور إلى البحر الأحمر ومروراً باليمن ووصولاً إلى الهند، فالخطر الماثل واحد، وإن ابتدأ بمصر بحكم قربها من أوروبا. وكانت استجابة أهم قوتين في المنطقة (الدولة العثمانية وبريطانيا) على التحدي الفرنسي على النحو التالي:

نظرت الدولة العثمانية إلى احتلال الفرنسيين لمصر على أنه عدوان على سيادة الدولة العثمانية نفسها وانتزاع لجزء من أراضيها. ولما كانت الدولة العثمانية تعيش حالة ضعف سياسي وعسكري لما منيت به من هزائم أمام النمسا وروسيا، ولفقدانها معظم مناطق نفوذها في أوربا، وبسبب الصراعات السياسية الداخلية على السلطة، فقد لجأت بدلاً من التصدي العسكري لفرنسا إلى اصدار فرمان سلطاني وجهته إلى شريف مكة، تهيب فيه بالتصدي للخطر الفرنسي، واستخدمت فيه أسلوب إثارة الغيرة الدينية والحث على الدفاع عن الإسلام وعن الأماكن الإسلامية المقدسة[٥٥]. وتوالت المراسلات بين العثمانيين وشريف مكة وإمام اليمن، متضمنة الحث على تحصين المواقع والتعاون مع بريطانيا في سبيل دحر الفرنسيين في مصر[٥٦]. وبعد أن ألحقت بريطانيا الهزيمة بالفرنسيين في معركة أبي قير البحرية (عام ١٧٩٨ م) أعلنت تركيا الحرب على فرنسا وانضمت إلى الحلف العسكري الأوربي المضاد لفرنسا،وعقدت معاهدة مع روسيا عام ١٧٩٨م، ومعاهدة مع بريطانيا عام ١٧٩٩ م. وكان لذلك كله أثر في تشجيع مقاومة الشعب المصري للحملة الفرنسية في مصر نفسها.

وأما بريطانيا وقد رأت في احتلال الفرنسيين لمصر تهديداً مباشراً لمصالحها فقد أنبرت للتصدي عسكرياً وسياسياً، واستغلت رد الفعل لدى المسلمين تجاه العدوان الفرنسي، فعززت علاقاتها بهم، وقدمت نفسها كصديق وحليف للعرب والمسلمين. وتحت ستار التصدي للفرنسيين أخذت بريطانيا تحتل المراكز الاستراتيجية في البحر الأحمر وعلى طريق الهند. واستطاعت أن تدمر الأسطول الفرنسي الذي كان راسياً في أبي قير بمصر، وعملت على إفشال محاولات بونابرت للتنسيق مع الوهابيين في الجزيرة العربية[٥٧].

وأما الموقف اليمني فقد تمثل في التجهيز لحملة عسكرية كانت اليمن تنوي إرسالها لدعم المقاومة المصرية، إلا أن الفرنسيين انسحبوا من مصر قبل الانتهاء من تجهيزها. كما أن اليمنيين بادروا إلى تحصين المواقع والمراكز الهامة عند مدخل البحر الأحمر، وذلك لمنع وصول أي إمدادات للفرنسيين في مصر من المحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر. كما تعاونوا مع البريطانيين وسمحوا لهم بالتمركز في جزيرة بريم وفي عدن. ولم يكن تعاونهم هذا مجرد استجابة لنداء السلطان العثماني، إذ أن اليمن لم تكن تتبع الدولة العثمانية حينذاك سياسياً وإدارياً ولم تكن ملزمة بتنفيذ السياسة العثمانية، بل جاء هذا التعاون تحت الشعور بالخطر المشترك الذي يهدد مصر واليمن معاً من قبل الفرنسيين.

لقد فشلت الحملة الفرنسية في تحقيق أهدافها، فأخفقت في التمسك بمصر، كما أخفقت في ضرب المصالح البريطانية في الهند، ومع ذلك فقد سلطت الضوء بقوة على أهمية بوابتي البحر الأحمر، مصر واليمن، بالنسبة للمصالح الغربية، فأخذت بريطانيا تفكر جدياً في وضع يدها على المدخل الجنوبي وعلى مصر. ومضت تكثف نشاطها في المنطقة، فعملت على فرض وجودها على السواحل اليمنية، كما عملت على مد نفوذها إلى مصر عن طريق التحالف مع قادة المماليك.

وكانت مصر تعيش حالة فوضى واضطراب بعد انسحاب الحملة الفرنسية عام ١٨٠١م، وتهيأت الظروف لبروز قيادة مصرية قوية تمثلت في محمد علي باشا، الذي استطاع أن ينهي الفوضى، ويقضي على نفوذ قادة المماليك، ويبدأ باتخاذ خطوات جادة نحو التحديث[٥٨].

دخلت العلاقات اليمنية ـ المصرية في عهد محمد علي طوراً جديداً. وقد ساعد على ذلك طموح محمد علي في مد نفوذه خارج مصر، وتصاعد خطر الحركة الوهابية في الجزيرة العربية. فمن حيث طموح محمد علي في مد نفوذه خارج مصر يمكن القول إن محمد علي كان يحلم بإنشاء دولة قوية مستقلة عن الدولة العثمانية، تضم المشرق العربي. وأما خطر الحركة الوهابية التي تعاظم شأنها في الجزيرة العربية عندما تبنتها واحدة من أقوى الأسر الحاكمة وهي أسرة آل سعود، فقد أصبحت تهدد النفوذ العثماني في الشمرق العربي، وتشكل عقبة أمام تحقيق حلم محمد علي في إقامة دولة قوية تضم تحت جناحيها فيما تضمه الجزيرة العربية. وهنا التقت طموحات محمد علي بهموم الدولة العثمانية. ولما فشلت الدولة العثمانية في

سحق الحركة الوهابية، وكان محمد علي لا يزال يمثل قوة سياسية وعسكرية صاعدة في المنطقة وخاضعة اسمياً للدولة العثمانية، فقد رأى السلطان العثماني في تكليف محمد علي بالقضاء على الحركة الوهابية فرصة لإضعاف محمد علي نفسه، أما محمد علي فقد وجد في طلب السلطان فرصة لإثبات قدرته وتأكيد مكانته من ناحية، وخطوة نحو تحقيق مشروعه الكبير من ناحية أخرى[٥٩].

وكان العثمانيون، رغم انسحابهم من اليمن عام ١٦٣٥ لا يزالون يدعون تبعية اليمن لهم، إلا أن اليمن كانت تعيش منذ انسحابهم مستقلة يحكمها الأئمة الزيديون والشيوخ المحليون، وتسودها الصراعات الداخلية التقليدية قرابة قرنين من الزمن، حتى ظهرت الحركة الوهابية في نجد عام ١٧٤٠ م وتعاظم شأنها خاصة في مطلع القرن التاسع عشر[٦٠]. وأخذت تزحف على المناطق اليمنية الشمالية واحتلت عسير، مما دفع بالإمام المتوكل على الله أحمد بن المنصور علي بن محمد إلى الاستنجاد بالسلطان العثماني وبمحمد علي والي مصر[٦١].

وبناء على طلب السلطان العثماني توجهت قوات محمد علي إلى الجزيرة العربية عام ١٨١١م، واستطاعت أن تخمد الحركة الوهابية في نجد والحجاز عام ١٨١٨ م، ثم تحولت عملياتها إلى اليمن، وتمكنت تحت قيادة خليل باشا من احتلال صبيا عاصمة المخلاف السليماني، وبعض مناطق تهامة. لكن بقاء القوات المصرية ولم يطل في اليمن، فبعد مفاوضات مع إمام صنعاء تم تسليم المناطق المحتلة إليه، ما عدا منطقة أبي عريش التي سلمت لعلي بن حيدر، وذلك مقابل ولاء الإمام للدولة العثمانية ودفعه مبلغاً سنوياً للباب العالي. وعادت القوات المصرية إلى مركزها في الحجاز.

وفي عام ١٨٣٢ م وبعد أن ظهرت ميول محمد علي الاستقلالية وأصبح قوة يحسب لها حساب، انتهز محمد علي فرصة تمرد أحد قادته في الحجاز وهو تركي بلمز وفراره إلى اليمن وأرسل قوة عسكرية من الحجاز لتعقبه، وقد استطاعت هذه القوة أن تحتل تهامة وموانيها، أما تركي بلمز فقد فر على ظهر إحدى السفن البريطانية. ثم تمكنت القوات المصرية من احتلال عسير وتم تعيين القائد إبراهيم يكن والياً على اليمن من قبل محمد علي.

وقد أقامت القوات المصرية في المناطق اليمنية التي احتلتها إدارة حديثة[٦٢]،

واستطاعت أن تكفل فيها الأمن والاستقرار. ولم يحاول محمد علي أن يدفع بقواته للتوغل في المناطق اليمنية الداخلية، متعظاً في ذلك من تجربة العثمانيين المريرة مع المقاتلين اليمنيين في مناطق الجبال، وحرص على إقامة علاقات ودية مع إمام صنعاء. واكتفى بما تحت يده من المناطق التهامية، وأخذ يرنو ببصره نحو ميناء عدن الهام، ووصلته مراسلات من أعيان حضرموت يطلبون منه إرسال موظفين وجنود لتنظيم الأمور هناك وضمان الاستقرار والأمن فيها، وبناء على هذه المراسلات عين محمد علي والياً من قبله على حضرموت.

أثار وجود محمد علي في منطقة البحر الأحمر مخاوف بريطانيا التي ورثت البرتغاليين في السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي ومدخل البحر الأحمر، وفي التحكم في الطريق التجاري عبر رأس الرجاء الصالح فعملت على وضع أقدامها في السواحل اليمنية على البحر الأحمر، وقامت عام ١٨٢١ بقصف المخا وأجبرت الإمام أن يوافق على إقامة مركز لها على ساحل المخا، يحميه جنود مسلحون، وقد أقلق هذا الحادث محمد علي ووجه أوامره إلى حاكم الحجاز بأن يتخذ الإجراءات الكفيلة بضمان الدفاع عن سواحل البحر الأحمر، وأن يتخذ احتياطات كافية في وجه السفن الإنجليزية القادمة إلى المخا والحديدة، إلا أن محمد علي لم يستطع أن يعطي اهتماماً كافياً لليمن إلا عام ١٨٣٢ م، وذلك بسبب انشغاله بحملة السودان ثم القضاء على ثورة اليونان بتكليف من السلطان العثماني.

ومع أن محمد علي قد مهد لحملته باتصالات سياسية مع بريطانيا استهدف منها تحييد بريطانيا وإقناعها بأن المصلحة المشتركة تقتضي تحقيق الاستقرار في اليمن، لضمان سلامة الملاحة في البحر الأحمر إلا أنه لم يمضِ وقت طويل على الوجود المصري في اليمن، حتى كانت بريطانيا قد أدركت أن طموح محمد علي يشمل الاستيلاء على عدن وموانىء جنوب اليمن الأخرى في مدخل البحر الأحمر المطلة على البحر العربي. ولذا فقد قامت عام ١٨٣٧ م بلفت نظر محمد علي عن طريق ممثلها في القاهرة إلى خطورة إقدامه على تحقيق طموحاته. وفي نفس الوقت أخذت تفكر جدياً في احتلال عدن كنقطة ارتكاز تنطلق منها للسيطرة على السواحل اليمنية الجنوبية لتضمن بذلك سيطرتها على مدخل البحر الأحمر. وقد أقدمت فعلاً على احتلال عدن في مطلع عام ١٨٣٩ م. ولم يجهل محمد علي ما يمثله احتلال بريطانيا لعدن من خطر على وجوده في اليمن وما يمكن أن يؤدي إليه ازدهار ميناء

عدن تحت الإدارة البريطانية من خسائر مادية بالنسبة لإيرادات الموانىء اليمنية على البحر الأحمر، التي لا زالت تحت الإدارة المصرية. فأخذ يعزز قواته في اليمن ويحرض القبائل اليمنية المتاخمة لعدن ضد الوجود البريطاني، ويغري إمام اليمن بمهاجمة القوات البريطانية.

وهكذا شكل الوجود المصري في اليمن مصدر خطر على الاستعمار البريطاني في عدن وعلى المخططات البريطانية في منطقة البحر الأحمر، ولذا سعت بريطانيا إلى إجلاء قوات محمد علي من اليمن. وقد ساعدها في تحقيق هدفها إحساس القوى العالمية الكبرى بتعاظم شأن دولة محمد علي في المنطقة، وأنها أصبحت مصدر قلق لما تمثله من خطر على مصالح الدول الكبرى بما فيها تركيا. ولذا استطاعت بريطانيا وبدعم من تركيا والدول الأوربية التي تدخلت لتسوية النزاع الناشب بين محمد علي والدولة العثمانية أن تفرض على محمد علي تسوية لندن عام ١٨٤٠ التي سحب محمد علي بمقتضاها قواته من اليمن والجزيرة العربية.

ولم تنته العلاقة المصرية اليمنية بخروج قوات محمد علي من اليمن عام ١٨٤٠ م، فهذه العلاقة التي بدت عبر التاريخ وكأنها علاقة مصيرية حكمها كل من موقعي البلدين كبوابتين للبحر الأحمر قد وضعتهما معاً في دائرة التنافس الدولي.

فعندما انسحبت قوات محمد علي من اليمن تسلم حاكم أبي عريش، حسن بن علي حيدر المناطق التهامية التي كانت تحت سيطرة المصريين ليحكمها باسم الدولة العثمانية، التي قنعت بالسيادة الاسمية، واتخذ من الحديدة عاصمة له، وأخذ يوسع نفوذه حفى امتد من المخلاف السليماني إلى المخا، ودخل في صراع مع الإمام ومع الأمير محمد بن عايض، الذي أنشأ له إمارة مستقلة في عسير.

وقد ظلت علاقة اليمن بمصر علاقة وطيدة عن طريق حسن بن علي ومحمد بن عايض، وبلغت هذه العلاقة درجة سمحت لخديوي مصر إسماعيل باشا أن يتوسط بين السلطان العثماني ومحمد بن عايض، عندما ثارت عسير ضد السيادة العثمانية، كما أقنع الخديوي إسماعيل السلطان العثماني أن يمنح محمد بن عايض لقب الباشوية. ولما فشلت وساطة الخديوي شاركت مصر القوات التركية، مشاركة محدودة، في إخماد ثورة عسير.

وفي عام ١٨٤٩ م راسل حسن بن علي حيدر السلطان العثماني وطلب منه

إرسال من يتسلم المنطقة التي يحكمها وذلك نتيجة للاضطرابات السائدة. وجاءت على أثر ذلك حملة تركية بحرية قادمة من الحجاز ونزلت في الحديدة، وتمكنت من السيطرة على المناطق الساحلية ثم توغلت في الداخل حتى وصلت إلى صنعاء. إلا أنها جوبهت بمقاومة أجبرتها على الانسحاب إلى الحديدة. وفي عام ١٨٦٩ م افتتحت قناة السويس فدفع ذلك الدولة العثمانية إلى التفكير جدياً بحسم المسألة اليمنية، وأرسلت قوات التحقت بالقوات الموجودة في الحديدة، ثم تقدمت نحو الداخل واستطاعت بعد معارك عنيفة أن تحتل صنعاء.

ولم يستتب الأمر للعثمانيين في اليمن فقد استمرت الحروب بينهم وبين القبائل اليمنية التي كان يقودها الأئمة حتى تم عقد صلح دعان عام ١٩١١ م، الذي اعترفت فيه الدولة العثمانية بالزعامة الدينية للإمام يحيى بن محمد حميد الدين على المناطق الشمالية مقابل تسليم الإمام بسلطة العثمانيين السياسية والإدارية. وقد استمر العمل ببنود الصلح حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وانسحاب الأتراك نهائياً من اليمن عام ١٩١٨ م.

ولم يؤثر فتح قناة السويس على السياسة العثمانية في المنطقة فحسب بل أثر أيضاً على السياسة البريطانية. فقد كانت بريطانيا تواجه إلى جانب منافسها اللدود، فرنسا، نشاط ايطاليا في منطقة البحر الأحمر. إذ أن ايطاليا قد دخلت ميدان التنافس الاستعماري بعد توحيدها وأخذت تنشط تجارياً في البحر الأحمر واحتلت ميناء عصب لتتخذ منه قاعدة انطلاق لتحقيق أهدافها التوسعية في المنطقة. وحاولت الاستيلاء على جزيرة سقطرة عند مدخل خليج عدن إلا أن بريطانيا أفشلت هذه المحاولة[٦٣]. ولكن بريطانيا سرعان ما غيرت سياستها تجاه ايطاليا وأخذت تشجعها على التوسع لتضعها في مواجهة النشاط الفرنسي، الذي كان يمثل خطراً أشد على المصالح البريطانية. حيث أن الفرنسيين كانوا قد استطاعوا مزاحمة البريطانيين في منطقة البحر الأحمر فاستولوا عام ١٨٦٢ م على ميناء «أوبوك» على الساحل الصومالي المواجه لعدن وانطلقوا منه للتوسع في بلاد الصومال وأخذوا يزاحمون بريطانيا في السواحل اليمنية فحاولوا شراء منطقة الشيخ سعيد غربي عدن. وجاء فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ م على أيدي الفرنسيين ليزيد من حمى التنافس، وخشيت بريطانيا أن تقع مصر في قبضة فرنسا فيتحكم الفرنسيون في المدخل الشمالي للبحر الأحمر. ولذلك أقدمت بريطانيا عام ١٩٨٢ م على احتلال مصر

لتكتمل بذلك سيطرتها على بوابتي البحر الأحمر، مصر واليمن.

ورغم محاولات الأتراك ومنافسات الدول الاستعمارية كإيطاليا وفرنسا في منطقة البحر الأحمر إلا أن بريطانيا ظلت سيدة الموقف. وقد ازداد مركزها قوة بانسحاب تركيا من البلاد العربية إثر الحرب العالمية الأولى. واستمرت السيطرة البريطانية راسخة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

العلاقات اليمنية ـ المصرية في القرن العشرين

نشأت في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن علاقات من طبيعة خاصة لم تقم على المصالح الاقتصادية والسياسية، ربطت بين مثقفي اليمن ومصر، أساسها الثقافة والمدنية التي تشرب بها الرعيل الأول من أبناء اليمن في مصر كالمسمرى والعنسي والزبيري والنعمان وغيرهم، فوجدوا فيها ما أرضى طموحاتهم وألهب حماسهم ودفع بهم إلى طريق المخاطرة الثورية في محاولة لتغيير الواقع اليمني المتخلف.

ولم يقتصر تأثير مصر على الطلاب اليمنيين الذين درسوا فيها، بل امتد إلى داخل اليمن.. إلى الشباب المستنير في مدن اليمن المتفرقة، وذلك عن طريق الصحف والمجلات، وما كانوا يقرأونه من كتابات للأفغاني ومحمد عبده وطه حسين والرافعي وغيرهم، تتسرب مع القادمين من مصر أو عبر مواسم الحج. وفتحت مصر صفحات صحفها المتحررة لينطلق منها لأول مرة صوت الشباب اليمني يشرح قضيته ويعبر عن طموحاته إلى الحياة اليمنية الجديدة.

وقد أثمر احتكاك الشباب اليمني المستنير بمصر وثقافتها ومدنيتها وعياً وطنياً وضيقاً بالعهد الأمامي وجدا تعبيرهما في حركة المعارضة اليمنية التي فجرت محاولتها عام ١٩٤٨ م لادخال تعديلات جوهرية في نظام الحكم وتحقيق اصلاحات في الحياة اليمنية.

ومع ثورة يولية عام ١٩٥٢ م وإمساك مصر بزمام قيادة حركة التحرر العربية بدأت مرحلة جديدة من العلاقات اليمنية ـ المصرية. فقد قدر لمصر أن تواجه نفس الأعداء الذين تواجههم اليمن، فقد قضت على نظام ملكي وراثي فقضت بذلك على عزلتها السياسية وأخذت تلتحم بحركة التحرر العالمية وتحتل مكانة هامة في

صفوفها الأمامية، الأمر الذي وضعها في مواجهة مباشرة مع قوى الاستعمار الغربي القديم (بريطانيا وفرنسا) والجديد (أمريكا).

وكانت اليمن لا تزال تعاني من نير النظام الملكي الأمامي، الذي أغلق دونها كل نافذة يمكن أن تطل منها على العالم الحديث، كما كانت تواجه فوق أرضها الاستعمار البريطاني، الذي ظل ممسكاً بالبوابة الجنوبية للبحر الأحمر من قاعدة عدن وأخذ يتآمر لخلق وتكريس كيانات سياسية في الجنوب وفصلها عن اليمن الأم.

وعلى هذه القاعدة المشتركة المتمثلة بجبهة الأعداء الواحدة (الأنظمة العربية المعادية للحرية والتطور، والاستعمار الغربي) مدت مصر جسورها المعنوية والمادية إلى اليمن وأصبحت ملهمة لليمنيين وسندهم في معركتهم ضد الامامة وفي نضالهم التحرري ضد الاستعمار البريطاني في الجنوب.

لقد فتحت مصر لأبناء اليمن صدرها فاستقبلتهم ثواراً مطاردين واستقبلتهم طلاب علم يعدون أنفسهم لصنع اليمن الجديد. فمنذ الخمسينات أصبحت مصر قبلة الطلاب اليمنيين الذين لم يجدوا في ظل الإمامة إمكانية لارضاء طموحاتهم العلمية. فامتلأت القاهرة وطنطا والاسكندرية وحلوان وبني سويف بأعداد متزايدة منهم. كما كانت ملاذ المطاردين سواء من قبل السلطات الاستعمارية في الجنوب أو من قبل سلطات الإمام في الشمال وأخذت مصر ترعى الحركة الوطنية اليمنية وتمدها بالدعم المعنوي والمادي وأصبحت صوت العرب والصحافة المصرية منابر يسمع من خلالها صوت الحركة الوطنية اليمنية.

وقد استطاعت مصر أن تشد المواطن اليمني إلى القضايا العربية وقضايا التحرر في العالم وأن تخلق علاقة وجدانية بين الشعب اليمني والشعب المصري فريدة من نوعها في تاريخ البلدين. فقد كان الشعب اليمني يعيش إلى جانب همومه التي لعبت مصر دوراً رئيسياً في وعيه بها، هموم مصر والأمة العربية كلها. وقد عبرت هذه العلاقة الوجدانية عن نفسها في أكثر من مناسبة، كالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ والوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ والانفصال عام ١٩٦٢ والهزيمة العربية عام ١٩٦٧ وموت عبد الناصر عام ١٩٧٠ م، . . . إلخ.

وكان النظام الإمامي في شمال اليمن قد حاول أن يمد جسور التفاهم مع نظام الثورة المصرية هادفاً من وراء ذلك التأثير على مصر لتقوم بحصر النشاط السياسي

للتجمعات اليمنية في القاهرة إلا أن محاولاته سرعان ما كانت تكشف ويزداد التلاحم بين ثورة يولية وبن ثوار اليمن وكانت آخر المحاولات دخول اليمن في اتحاد فيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة، وقد انتهت هذه المحاولة إلى نهايتها الطبيعية عندما كشف الإمام أحمد عن موقفه الحقيقي من مصر ونظامها علناً وأخذ يهاجم شعراً ونثراً التجربة المصرية، وذلك على أثر انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة.

وخلال الفترات القصيرة التي كان الإمام يحاول فيها كسب ود مصر كانت مصر تبادر إلى إرسال الخبراء المدنيين والعسكريين والمدرسين لمساعدة اليمن والأخذ بيدها في طريق التحديث، وكان الإمام يضيق عليهم مجالات عملهم إلى درجة عجزوا معها عن تقديم خبراتهم وعلمهم لليمن.

وإذا كانت محاولات مصر الإسهام في تحديث اليمن بالطرق الرسمية قد باءت بالفشل فإن محاولاتها بالطرق غير الرسمية قد أعطت ثمارها. وقد تمثلت هذه المحاولات برصد المزيد من المنح الدراسية لأبناء اليمن عن طريق المنظمات الشعبية والسياسية اليمنية المختلفة، كما تمثلت برعاية القيادات السياسية اليمنية المعارضة للإمامة والمعارضة للوجود البريطاني في الجنوب. وأخذت مصر تنسق مع التنظيمات السرية في الشمال والجنوب بهدف إحداث تغيير شامل في اليمن، وسهلت لليمنيين أن يوصلوا أصواتهم ومواقفهم السياسية عبر أجهزة اعلامها المقروأة والمسموعة فأثمر ذلك وعياً سياسياً متعاظماً في أوساط الشعب اليمني الذي أصبحت مصر مصدر إلهامه.

لقد كانت فترة الخمسينات ومطلع الستينات من هذا القرن فترة خصبة أوجدت نوعاً من اتفاعل العضوي بين مصر الثورة واليمن المتطلعة إلى الثورة والتغيير وكانت مصر وهي تقدم دعمها غير المحدود للحركة الوطنية اليمنية تدافع بذلك عن ثورتها في وجه نفس الأعداء.

وأخيراً أثمر دعم مصر للحركة الوطنية اليمنية والتحامها مع هموم وقضايا اليمن، أثمر ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م التي فجرها تنظيم الضباط في الجيش اليمني بعد أن أكدت مصر استعدادها الكامل لدعمهم. وأحيطت الثورة اليمنية منذ أيامها الأولى بنفس أعداء الثورة المصرية: الأنظمة الملكية العربية والاستعمار الغربي.

وطوقت من الشمال ومن الجنوب. ورأت مصر في انتصار ثورة اليمن انتصاراً لها ودحراً لأعدائها وفي هزيمتها انتكاساً لها. وانطلاقاً من هذا الرابط المصيري بين ثورتي البلدين دفعت بإمكانياتها البشرية والمادية إلى الساحة اليمنية ليمتزج الدم اليمني بالدم المصري على قمم الجبال وسفوحها وفي سهول اليمن ووديانها في معركة المصير الواحد، كما حشدت خبرتها ومعارفها للأخذ بيد اليمنيين والانتقال بهم من عالم القرون الوسطى إلى العالم الحديث، فأسهمت إسهاماً أساسياً في بناء الدولة الحديثة في اليمن ابتداء ببناء أجهزة الدولة ووضع هياكلها وأنظمتها الإدارية، وانتهاء ببناء المدارس والمستشفيات وإنشاء البنوك ومختلف المؤسسات الخدمية والانتاجية.

وقد استمر الدعم المصري لليمن حتى قوى عود الثورة ونظامها الجمهوري وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها. ولما انسحبت القوات المصرية من اليمن على إثر هزيمة عام ١٩٦٧ م ظل الدعم المدني مستمراً. وقد تمثل هذا الدعم بصورة رئيسية بالخبراء والمدرسين. واستطاعت الثورة اليمنية أن تصمد في حصار صنعاء، الذي أعقب انسحاب القوات المصرية، معتمدة على قواها الذاتية، وفي مقدمة هذه القوى وحداتها المقاتلة التي تلقت تدريباتها العسكرية في مصر وجماهيرها التي أسهمت مصر إسهاماً كبيراً في انضاج وعيها بمصالحها.

ولم يقتصر دعم مصر لليمن على الدعم المقدم للنظام الجمهوري في الشمال بل تعدى ذلك إلى الإسهام في تفجير الثورة المسلحة في الجنوب ضد المستعمرين البريطانيين وإلى رعاية هذه الثورة، تدريباً وتسليحاً وتمويلاً وخبرة. ولم تنسحب القوات المصرية من شمال اليمن حتى كانت الثورة في الجنوب قد حققت أهدافها وتزامن انسحاب القوات المصرية من شمال اليمن مع تحقيق الاستقلال في جنوبها.

خاتمة

هكذا يتبين لنا من خلال الاستعراض السريع لأهم معالم العلاقات اليمنية المصرية منذ القدم أن مصير البلدين قد ارتبط عبر التاريخ، فواجه البلدان نفس الأعداء وتصديا لنفس الأخطار ودافعا عن نفس المصالح. ومثل هذا الترابط المصيري لا يمكن فهمه إلا إذا وضعنا الموقع الجغرافي للبلدين في اعتبارنا. فقد هيأ الموقع الجغرافي لليمن أن تكون البوابة الجنوبية للبحر الأحمر في حين تطل موانيها الجنوبية على المحيط الهندي أما مصر فهي بوابة البحر الأحمر الشمالية

وتطل موانيها على البحر الأبيض المتوسط. فهما يشكلان مع الممر المائي الهام بينهما (البحر الأحمر) أهم طريق اتصال بين الشرق والغرب وقد هيأ لهما هذا الموقع أن ينعما بالثراء الناجم عن الاشتغال بالوساطة التجارية بين أسواق الشرق وأسواق الغرب كما سبب لهما أزمات اقتصادية واضطرابات سياسية كلما تحولت التجارة عن هذه الطريق إلى طريق أخرى ملتوية، بفعل قوى خارجية. وهكذا كان البلدان مطمعاً لأهم امبراطوريتين عالميتين في التاريخ القديم، الفرس والرومان، كما كانا مطمعاً للقوى الاستعمارية الغربية في العصر الحديث.

الهوامش

(١) فخري، أحمد، اليمن ص ٦٠ - ٦١. وقارن أيضاً: باوزير، عبد الله، التاريخ القديم، ص ١١ - ١٢.
(٢) باوزير، عبدالله، التاريخ القديم، ص ١٢.
(٣) للمزيد انظر: فخري، أحمد، اليمن، ص ٦٣ وما بعدها.
(٤) قارن، باوزير، عبدالله، التاريخ القديم، ص ٢.
(٥) نفسه، ص ٣ وما بعدها.
(٦) فخري، أحمد، اليمن، ص ٦٥ - ٦٦.
(٧) نفسه، ص ١٢٣.
(٨) صالح، عبدالعزيز، شبه الجزيرة، ص ٣٢١.
(٩) نفسه، ص ٣٢٢.
(١٠) الصليبي، كمال، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص ٤٢.
(١١) باوزير، عبدالله، التاريخ القديم، ص ٩ وما بعدها.
(١٢) نفسه، ص ١٢.
(١٣) فخري، أحمد، اليمن، ص ٦٩ - ٧٠.
(١٤) باوزير عبد الله، التاريخ القديم، ص ١٥.
(١٥) نفسه، ص ١٤ - ١٥.
(١٦) للمزيد انظر: العلوي، سيرة الإمام الهادي، ص ٣٥ وما بعدها. وابن القاسم، غاية الأماني، القسم الأول مج ١، ص ١٦٧ وما بعدها. وزبارة، أئمة اليمن مج ١، ص ١١ وما بعدها.
(١٧) للمزيد انظر: الفقي، عصام الدين، اليمن، ص ١٢٧ وما بعدها.
(١٨) انظر مثلاً: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج ٣، ص ٣٦٠ وما بعدها. والزركلي، الأعلام، مج ٢، ص ٢٣٠.
(١٩) انظر: الهمذاني، الصليحيون، ص ٢١٣.
(٢٠) نفسه، ص ٢١٣ - ٢١٤.
(٢١) ماجد، عبدالمنعم، السجلات، ص ١٣٧ - ١٤٠.

(٢٢) انظر: الهمداني، والصليحيون، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٢٣) نفسه، ص ٢٣٠.
(٢٤) قارن: نفس المصدر، ص ٢٢٧ وما بعدها.
(٢٥) نفسه، ص ٢٢١.
(٢٦) نفسه، ص ٢١٤ وما بعدها.
(٢٧) للمزيد انظر: عمارة، تاريخ اليمن، ص ٦٧ وما بعدها.
(٢٨) للمزيد انظر: الهمداني، الصليحيون، ص ١٦٨ وما بعدها، ص ٢٣٠.
(٢٩) نفسه، ص ١٧٨ - ١٧٩.
(٣٠) قارن: نفس المصدر، ص ١٩٢ - ١٩٣.
(٣١) نفسه، ص ١٨٢ وما بعدها.
(٣٢) قارن: سالم، سيد، الفتح، ص ٤٧.
(٣٣) انظر: الحداد، تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.
(٣٤) محمود، حسن، تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٤٦.
(٣٥) العقيلي، المخلاف، جـ ١، ق ١، ص ١٩٦ (عن سيد، الفتح، ص ٤٦).
(٣٦) اليماني، تاج الدين، بهجة الزمن، ص ٧٦ - ٧٧ وكذا الحداد، تاريخ اليمن، ص ٢٤٠.
(٣٧) الحداد، تاريخ اليمن، ص ٢٤٢.
(٣٨) الخزرجي، العقود، جـ ١، ص ٤٧..
(٣٩) ابن البديع، الفصل المزيد، ص ٨٩.
(٤٠) الخزرجي، العقود، جـ ١، ص ٥٦ وكذا الحداد، تاريخ اليمن، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
(٤١) الخزرجي، العقود، جـ ٢، ص ٣٧ وما بعدها وكذا الحداد، نفسه، ص ٢٧٠.
(٤٢) الخزرجي، العقود، جـ ٢، ص ٧٦ وما بعدها.
(٤٣) قارن: البطريق، تاريخ أوربا، ص ٥ - ٦.
(٤٤) انظر: نفس المصدر، ص ٣١ وما بعدها. وكذا: الشيخ، أمريكا، ص ١٣ - ١٤.
(٤٥) للمزيد انظر: لقمان، تاريخ الجزر، ص ٩ وكذا: سيد، سالم، تكوين اليمن، ص ٨٠ وما بعدها.
(٤٦) أباظة، فاروق، عدن، ص ٣٧.
(٤٧) ابن الدبيع، الفضل، ص ٢٠٠ - ٣٠١.
(٤٨) سالم، سيد، الفتح، ص ٧٤ - ٧٥.
(٤٩) لطف الله، عيسى، روح الروح، ص ١١ - ١٢.
(٥٠) يحيى، جلال، العالم العربي، ص ٢٨ - ٢٩.
(٥١) شرف الدين، أحمد، اليمن، ص ٢٣٧.
(٥٢) قارن: سالم، سيد، الفتح، ص ٩٧ وما بعدها وكذا، الحداد، تاريخ اليمن، ص ٣٠٣ وما بعدها.
(٥٣) جلال، يحيى، العالم العربي، المدخل، ص ٨٢ - ٨٣.
(٥٤) قارن: نفس المصدر، ص ٨٥ وما بعدها.
(٥٥) محمود، صالح رمضان، ذكريات الشوكاني، ص ٣٧ وما بعدها. وكذا: سالم، سيد، نصوص، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٥٦) انظر نصوص المراسلات في: محمود، صالح رمضان، ذكريات الشوكاني، ص ٤٣ وما بعدها.

(٥٧) جلال، يحيى، تاريخ العرب، المدخل، ص ٨٤ - ٨٥:

(٥٨) انظر: نفس المصدر، ص ٨٩ وما بعدها.

(٥٩) قارن: محمود، صالح رمضان، ذكريات الشوكاني، ص ١٠٨.

(٦٠) للمزيد انظر:

Grunebaum in: Fisscher, Bd, 15, 5. 353

(٦١) حراز، الدولة العثمانية، ص ٨١.

(٦٢) اباضة، الحكم العثماني، ص ٣٧.

(٦٣) نفسه، عدن والسياسة البريطانية، ص ٤٦٨.

التبعية ـ المعوق الأساسي للتنمية في الوطن العربي

الدكتور خضر زكريا
جامعة دمشق

الملاحظة الأولى:

أنني سأنطلق من أن التنمية عملية واحدة شاملة متكاملة تهدف إلى تصفية نظام التخلف الذي كرّسه ويعيد تكوينه في بلادنا العربية الاستعمار الغربي بأشكاله المتعددة. ولذا لا يمكن، على ما يبدو لي، الفصل بين تنمية اجتماعية وتنمية اقتصادية وثالثة ثقافية.. إلخ. وهذا المنطلق سيقودني بالضرورة إلى الحديث عن مشكلات قد تبدو ذات طابع اقتصادي مثلاً، بينما أرى أنها تشكل واحدة من أهم المعوقات في طريق ما يسمى عادة بـ (التنمية الاجتماعية) ذاتها. وبوجه عام سأبحث فيما أسميه (الواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي) Socio-Economic أي دون وضع حرف العطف (و) بين الكلمتين، للدلالة على ميدان واحد من الواقع الاجتماعي يرتبط فيه الناس بموضوعات ووسائل العمل، فيما بينهم أثناء عملية العمل، بأشكال معينة من العلاقات. وهذه الطريقة في معالجة موضوع التنمية تختلف عن تلك التي تبحث في تفاصيل الواقع الاجتماعي (كالعادات والتقاليد، والعائلة، والصحة، والتعليم... إلخ). وبهذا أزعم أنني سأتناول ما هو أساسي، جوهري، أولي في الواقع الاجتماعي العربي. وعلى الرغم من أنني سأتحدث عن أشكال للتبعية (اقتصادية، وتكنولوجية وعسكرية وغذائية وثقافية... الخ) فلن يعني هذا أكثر من محاولة لتسهيل تناول الموضوع. ذلك أن منظومة «الهيمنة ـ التبعية» هي منظومة عضوية واحدة يقوم كل شكل من أشكالها، أو كل عنصر من عناصرها، بدور محدد في تدعيم هذه المنظومة الواحدة وإعادة تكوينها باستمرار.

الملاحظة الثانية:

إن الوطن العربي، رغم تجزئه إلى عدد من الأقطار المتفاوتة المتطور، ورغم تكون مصالح طبقية خاصة للفئات السائدة في كل من أقطاره، يشكل في نظرنا مجتمعاً متكاملاً، يعاني من مشاكل واحدة، أو متشابهة على الأقل. إن التجزئة ذاتها تشكل عقبة أساسية في طريق التنمية في الوطن العربي، بل ربما كانت أكبر العقبات على الإطلاق. لكن لا بد من البحث في الواقع الراهن كما هو. وهذا الواقع يطرح على الباحثين، من جهة، ضرورة دراسة الأوضاع الخاصة بكل قطر عربي على حدة وتحديد المشكلات الأساسية التي يعاني منها، وبالتالي معوقات التنمية فيه، ويطرح، من جهة أخرى، ضرورة دراسة السمات العامة للمجتمع العربي ككل، والعقبات الأساسية المشتركة بالنسبة لجميع أقطاره (أو لمعظمها) والتي تعرقل مسيرة تلك الأقطار لتصفية التخلف وتحقيق التقدم الاجتماعي.

وأعتقد أن التبعية المتعددة للعالم الخارجي، وبوجه خاص للغرب الرأسمالي، هي أول وأهم معوقات التنمية في الوطن العربي كله.

لن أدخل في تاريخ تكون التبعية الذي يعود إلى عهود السيطرة الاستعمارية على بلداننا العربية، بل سأكتفي بالتوقف عند الأشكال الراهنة لهذه التبعية.

لعل أهم أشكال السيطرة الاستعمارية هي السيطرة الاقتصادية التي انتقلت من سلب المواد الأولية والثروات الطبيعية، إلى تصدير البضائع، إلى تصدير الرساميل، إلى تصدير التكنولوجيا الحديثة وما يتبعها من خبراء وفنيين وإداريين. وأخيراً إلى تصدير المستهلكات الترفية لامتصاص كامل فائض المنتوج الاجتماعي في بلداننا. ورغم حصول معظم البلدان العربية على استقلالها السياسي منذ حوالي أربعين عاماً فإنها، شأنها شن البلدان المتخلفة الأخرى، تظل تابعة لرأس المال الأجنبي، مستثمرة، مستغلة من قبله.

التبعية التجارية:

فإذا أخذنا ميدان التجارة لاحظنا تزايد تبعية العرب للعالم الخارجي وخاصة الغرب الرأسمالي. لقد تزايد حجم التجارة بين المنطقة العربية والعالم الخارجي طول العقدين الأخيرين باطراد فقد نما من ١٢,٤ مليار دولار عام ١٩٦٠ إلى ١٥١

مليار عام ١٩٧٧، أي تضاعف اثنتي عشرة مرة. أما التجارة بين الأقطار العربية فقد زادت ٦ مرات فقط من ١,٣ مليار دولار إلى ٧,٧ مليار دولار.

من هنا فبينما كان حجم التبادل التجاري بين البلدان العربية هو ١٠,٥ بالمئة من تجارته الدولية عام ١٩٦٠ فإنها تقلصت لتصبح ٥,١ بالمئة فقط عام ١٩٧٧[١].

فإذا بحثنا في بنية هذه التجارة ظهر تزايد الاعتماد على العالم الخارجي على نحو أوضح. إن البنية القديمة للتجارة (تصدير المواد الخام واستيراد المواد المصنعة) تكرس وتعمق كل عام بدلاً من تعديلها لتصبح أكثر عدالة ومراعاة لحاجات تطور البلدان العربية.

«ففي عام ١٩٦٠ شكلت المواد الخام ٨٣ بالمئة من جميع صادرات الوطن العربي وفي هذا الإطار بلغ نصيب النفط ٥٢ بالمئة من مجموع الصادرات وفي عام ٩٧٧ زاد نصيب المواد الخام إلى ٩٥ بالمئة علماً بأن نصيب النفط زاد بدوره على ٨٧ بالمائة من مجموع الصادرات.

ومن ناحية الواردات بلغ نصيب السلع المصنعة والأغذية ٧٧,٤ بالمائة من مجموع واردات الوطن العربي عام ١٩٦٠ (٥٥,٣ و١٩,٢ بالمائة على التوالي) بعد هذا التاريخ بعشرين عاماً وصلت الواردات العربية من هذه السلع والمواد نفسها إلى ٨٥ بالمائة من مجموع الواردات (حيث بلغ نصيب السلع المصنعة ٦٩ بالمائة، في حين أن نصيب الأغذية بلغ ١٥,٣ بالمائة)[٢].

علماً بأن معظم التجارة الخارجية العربية تتجه صوب الدول الصناعية الرأسمالية ففي عام ١٩٧٨ ذهبت نسبة ٦٩ بالمائة من مجموع الصادرات العربية إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان في حين جاء ٧٤ بالمائة من مجموع الواردات من هذه البلدان نفسها[٣].

وعن طريق التجارة تبتز الشركات الاحتكارية الكبرى والدول الصناعية المتقدمة ثروات هائلة كان يمكن لها أن توظف للمساهمة في عمليات التنمية التي يعتبر توفر رأس المال أهم مقوماتها.

إن الدول النامية عامة تخسر تجارتها مع الدول الصناعية المتقدمة بين ٥٠

و ١٠٠ مليار دولار سنوياً (في أواسط السبعينات)[٤] وهي تصدر ١٢ سلعة رئيسية (مواد أولية بالدرجة الأولى) تقبض ثمنها حوالي ٣٠ مليار دولار (بعد رفع أسعار البترول) أما المستهلكون النهائيون فيدفعون حوالي ٢٠٠ مليار دولار ثمناً لهذه السلع والفرق يذهب بالطبع لخزائن الشركات العملاقة المستغلة بالاستخراج والتصدير والنقل والتأمين والعلاقات العامة وغيرها[٥].

التبعية الناجمة عن الاستثمارات الأجنبية:

كثيراً ما تسمع دعوات من النوع التالي: بما أن العقبة الأساسية في وجه التنمية في البلدان العربية هي نقص رؤوس الأموال، ونقص الخبرة والامكانيات التقنية فلا بد اذن من الاعتماد على رأس المال الأجنبي والخبرة الأجنبية. وكثيراً ما تتبجح الدول الغربية بالمساعدات التي تقدمها إلى البلدان النامية ومنها البلدان العربية.

والواقع أن خبرة عقود التنمية الثلاثة الماضية برهنت بما لا يقبل الشك على حقيقة تفقأ العين مفادها «أن التدفقات العكسية تفوق كثيراً ما يرد إلى الدول النامية، إذا أخذت في الاعتبار خسائر التجارة الخارجية» وهذه القاعدة صحيحة سواء بالنسبة لرأس المال الحكومي أو لرأس المال الخاص وصحيحة بالنسبة للقروض ولما يسمى بالمساعدات، كما تشير المعطيات التالية:

- يقول عادل حسين استناداً إلى دراسة لأمانة مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والانماء Unctad أن حصيلة رأس المال الخاص الذي تدفق عام ٩٦٧ إلى دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية كانت حوالي ٣٩٠٠ مليون دولار، بينما بلغت التدفقات العكسية لنفس العام ٥١٠٠ مليون دولار. أي أن الحصيلة الصافية للاستثمار الأجنبي المباشر كانت لصالح دول المركز بمبلغ ١٢٠٠ مليون دولار[٦]. وتشير آخر التقديرات إلى أن تدفق الرساميل من البلدان الفقيرة إلى البلدان الغنية يكلفها خسارة بلغت ١٣٠ مليار دولار في أمريكا اللاتينية وحدها و ٨٠ مليار دولار لدول آسيا[٧].
- طبقاً لحسابات الباحث السوفييتي ميخائيل أوتشكوف بلغ معدل ربح الاحتكارات الأمريكية في الدول الرأسمالي عام ١٩٨٠ ١٦,٦٪ في حين بلغ في البلدان النامية ٢٤,١٪ أما في أفريقيا فقد بلغ معدل الربح ٣٧,٨٪ ويذكر هذا الباحث أنه في أواسط السبعينات كانت أرباح الاحتكارات الأمريكي في أفريقيا قد

تجاوزت إلى ثلاث مرات الرساميل الموظفة. وأنه من حيث النسبة إلى رأس المال الموظف لم يكن الربح الصافي للشركات الأمريكية يزيد عن ذلك إلا في بلدان الشرقين الأدنى والأوسط[٨]. أي بلداننا العربية بالدرجة الأولى.

- تؤكد ذلك المصادر الأمريكية ذاتها كما يشير الجدول التالي:

معدل الربح للتوظيفات الخاصة المباشرة للولايات المتحدة في الخارج
(بالنسبة المئوية)

	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٩	١٩٨٠
في البلدان الرأسمالية	١٠,٩	١١,٩	١٩,٢	١٦,٦
في البلدان النامية	٢٩,١	٢٥,٢	٣٢,١	٢٤,١
بما في ذلك صناعة البترول	٢٨٨,٥	١٠٩,٩	١٤٤,٩	٥٠,٣

المصدر: Survey of Carrent Business october 1971-p 31, August 1977 p. 39, August 1981. p. 27.

- وتشير المعطيات المتعلقة بالتوظيفات المباشرة لرأس المال الأمريكي الخاص إلى أن كل «المساعدة» الحكومية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية والتي تطبل وتزمر لها توازي تقريباً مبلغ المداخيل التي يجنيها ويستخرجها من البلدان النامية الرأسمال الأمريكي الخاص بنقل توظيفاته المباشرة في هذه البلدان[٩].

- ولا يخرج عن هذا الاطار «المساعدات» التي تقدم للبلدان النامية من قبل الدول الغربية الأخرى في نطاق ما يسمى ببرنامج «الاسهام من أجل التطوير» وعلى سبيل المثال في عام ١٩٦٨ منحت حكومة ألمانيا الغربية البلدان النامية قروضاً وتسليفات على أساس ثنائي بمبلغ مليار ومائة مليون مارك، وسحبت من هذه البلدان أقل من مليار مارك بقليل بصورة أرباح.

ووقتها قال فشنيفسكي الذي كان وزير التعاون والاقتصاد في ألمانيا الغربية:

«إن مساعدتنا للتطوير تؤمن لنا اليوم التصدير وتخلق لنا سوقاً شاسعة للتصريف غداً»[١٠].

وفي السنوات الأخيرة أخذت ألمانيا الغربية توسع مواقعها في الشرق الأوسط.

ففي أواخر عام ٩٧٨ بلغت التوظيفات المباشرة لجمهورية ألمانيا الاتحادية ٢٧٥٣ مليوْن مارك كان زهاء ٤٦٪ منها من نصيب البلدان غير العربية.

(بما في ذلك ١٩,٢٪ لايران و٢١,٢٪ لاسرائيل) ونصيب الأردن ١٧,٥٪ وليبيا ١٣٪ والجزائر ٧,٩٪ ومصر ٦,٢٪[١١].

إن هذه الاستثمارات الأجنبية، وغيرها من أشكال التعامل مع الشركات المتعددة الجنسية بالاضافة إلى العجز الدائم في الميزان التجاري تؤدي إلى تراكم الديون فيتزايد الاقتراض ووتفاقم حالات التأخر عن الدفع. لقد بلغت الديون المترتبة على ٨٦ دولة نامية عام ٥٠٥٩١/٩٦٧/ مليون دولار فأصبحت عام ١٥١٣٩٩/٩٧٤/ مليون دولار. منها ديون بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط (أي البلاد العربية بالدرجة الأولى) كانت ٥٣٠٨ مليون دولار عام ٩٦٧ فصارت ٣٢٦٦١ مليون دولار عام ١٩٧٤[١٢] ٧ وهذا يعني أن ديون بلدان العالم الثالث ككل قد تضاعفت ثلاث مرات خلال سبع سنوات بينما تضاعفت ديون البلاد العربية خلال نفس الفترة أكثر من ست مرات.

وفي السنوات الأخيرة يتزايد حجم هذه الديون بوتائر مذهلة، نتيجة للأزمات التي تعاني منها البلدان العربية، وخاصة بعد الانخفاض الحاد في أسعار النفط، ونقص موارد هذه البلدان الآتي من البلدان المنتجة للنفط (دول الخليج بوجه خاص). كما أن استمرار الحرب المدمرة بين العراق وايران مدة ثماني سنوات زاد من استنفاد تلك الموارد.

وعلى سبيل المثال تقترب ديون مصر وحدها اليوم من ٤٠ مليار دولار[١٣]. أي أنها صارت تفوق بعدة مليارات ديون جميع بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط مجتمعة عام ١٩٧٤.

وقد صارت معروفة للجميع الشروط التي يحاول البنك الدولي وصندوق النقد الدولي فرضها على مصر لإعادة جدولة ديونها. وعلى رأس تلك الشروط رفع الدعم الحكومي عن السلع الأساسية وبالتالي المزيد من افقار جماهير الشعب. وقد قال الرئيس المصري حسني مبارك عن تلك الشروط أنها «غير معقولة». كما ترى جميع الأوساط السياسية في مصر على اختلاف مشاربها إن هذه الشروط «لا تراعي مصالح الشعب»[١٤]. ويساهم عدد من الشركات والمؤسسات الأمريكية في الضغط على

مصر بوضع شروط اقتصادية وسياسية للاستمرار في تقديم المساعدات الأمريكية التي يذهب ٧٥٪ منها لتسديد فوائد ديون مصر للولايات المتحدة.

إن هذه الوتائر المذهلة لزيادة المديونية في الثمانينات تشمل جميع بلدان العالم الثالث. فلقد ارتفعت هذه المديونية إلى ٨٠٠ مليار دولار عام ١٩٨٣ ثم إلى أكثر من ١٠٠٠ مليار دولار عام ١٩٨٦[١٥]، وهي تقدر اليوم (١٩٨٩) بحوالي ١٣٠٠ مليار دولار[١٦]. ولم تعد تنفع الاجراءات المؤقتة لتجنب الأزمات في النظام الرأسمالي العالمي كإعادة جدولة الديون، وتقديم مزيد من القروض للدول المعسرة، وخفض قيمة الدولار وغيرها. لقد تحولت مديونية بلدان العالم الثالث إلى مشكلة معقدة «نابعة أصلاً من بنية النظام الرأسمالي وتناقضاته ذاتها، وبالتالي فليس لها من حل حقيقي في اطار هذا النظام»[١٧].

قصدنا من عرض الأرقام الذي ربما بدا مطولاً إلى التأكيد أن استثمار الأموال الأجنبية في البلدان النامية، ومنها بلداننا العربية لا يمثل إضافة إلى الموارد المالية لهذه البلدان، بل هو في الغالب يفقدها جزءاً هاماً من ثرواتها، وإلى إثبات أن الاعتماد على رأس المال الأجنبي لتمويل مشاريع التنمية هو وهم خالص. ومع ذلك فالأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى تحديد مجالات استثمار الرأسمال الأجنبي. أن هذا الرأسمال، كما كان في السابق منذ عهود السيطرة الاستعمارية المباشرة، ما زال يبحث عن المجالات الأوفر والأسرع ربحاً والأقل مجازفة.

ودون الدخول في التفاصيل يمكن القول أن التقسيم الدولي القديم للعمل (الزراعة والمناجم في البلدان المختلفة والصناعة في البلدان المتقدمة) يكرس على نحو أعمق فأعمق مع تزايد تدفق الرساميل الأجنبية إلى البلدان المتخلفة. أما الصناعات التي صار يسمح بإقامتها في بعض هذه البلدان الأخيرة فلا بد أن تكون من النوع الذي لا يزاحم الصناعة الغربية، بل على عكس من ذلك، هي من النوع الذي يعتمد كلياً على المنتجات الصناعية الغربية المتجددة. بحيث يبقى احتكاراً للتكنولوجيا والصناعات الديناميكية، القادرة على تطوير ذاتها، في الدول المتقدمة.

إن جوهر عملية التصنيع وبالتالي عملية التقدم الاجتماعي في العصر الحديث، يكمن في انتشار الصناعة، والاعتماد على الآلة في جميع الميادين الاقتصادية وبالتالي رفع انتاجية العمل في المجتمع كله.

«أن عملية زيادة انتاجية العمل البشري، وانعكاسها على أسلوب استخدام وتوزيع الناتج الاجتماعي. هي جوهر عملية التقدم الذي أحرزته المجتمعات البشرية»[١٨].

وهذا بالذات ما لا يمكن للرأسمال الأجنبي أن يفعله. إنه ينشىء جزراً (متقدمة) في بحر كامل من التخلف، كما يقول ميردال دون الأخذ بعين الاعتبار مصالح التقدم الاجتماعي في البلدان التي يمارس فيها نشاطه. ويبدو لي أن أفضل تلخيص لهذه الفقرة هو ما قاله الدكتور فؤاد مرسي من أن الرأسمال الأجنبي «يعجز عن اجراء التنمية وبخاصة التصنيع. فهو لا يستمر إلابوصفه رأس مال احتكارياً، يحقق أرباحاً مرتفعة وسريعة، تصدر إلى الخارج بدلاً من اعادة استثمارها محلياً. وهو لا يستثمر إلا في صناعات لا تنافس منتجات موطنه الأصلي. وعندئذ فهو يفضل مجالات من التصنيع تضمن تبعية الاقتصاد المتخلف وتكرس التخلف فيه وبالتالي فإنه لا يمكن اجتذاب رأس المال الأجنبي إلا بشرط تجدد تبعية وتخلف البلدان المتخلفة. ويكون من الضروري عندئذ حسم الموقف بتصفية مواقع رأس المال الأجنبي التي تكفلت في الماضي بالحفاظ على أوضاع التبعية والتخلف»[١٩].

التبعية التكنولوجية

يفترض أن تؤدي الثورة العلمية التقنية التي اجتاحت العالم في النصف الثاني من القرن العشرين إلى تلبية أكبر لاحتياجات الإنسان نتيجة للارتفاع الهائل لانتاجية العمل والتنوع الكبير في المنتجات الذي وفره تقدم التكنولوجيا نتيجة لتلك الثورة. بل لقد وعد بعض المنظرين من علماء الاجتماع والاقتصاد في الغرب بقرب حلول العصر الذهبي للوفرة والفراغ الذي سيؤمنه عمل العبيد الآليين الألكترونيين، وعدوا بمجتمع السيبرنتيك الذي لن يبقى فيه فقر أو بؤس أو حرمان بل لن يبقى فيه حتى عمل جسدي متعب، المجتمع الذي سيقطف فيه الناس ثمار الوفرة المخلوقة أوتماتيكياً مالئين أوقات فراغهم الطويلة بالرياضة والفن وما إلى ذلك.

والواقع أن مثل هذه الأحلام تتحقق، لكن ليس للمجتمع البشري ليس لجماهير الكادحين كما وعد روستو، وغالبرايت وشتيرنبرغ وغيرهم بل لحفنة من مالكي الشركات متعددة الجنسية والاحتكارات الرأسمالية الضخمة الأخرى. أما العالم كله، أما بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فتعاني الأمرين من هذه الثورة

التكنولوجية التي أدت من جملة ما أدت إليه، إلى مزيد من تبعية البلدان المتخلفة للبلدان المتقدمة.

وترتدي هذه التبعية الجديدة أشكالاً متعددة لعل أهمها يتلخص في أن أي مشروع صناعي أو خدمي حديث لكي يكون اقتصادياً أي مربحاً (وهذا ما يبحث عنه الرأسمال الخاص سواء كان أجنبياً أم محلياً) يجب أن يعتمد على وسائل عمل متقدمة تكنولوجياً لا تملكها البلدان المتخلفة فعليها أن تستوردها بتكاليف مرتفعة جداً، وتستورد قطع غيارها وغالباً المواد الوسيطة اللازمة لتشغيلها.. الخ.

ومن جهة ثانية لا تملك هذه البلدان الخبرة اللازمة لتشغيل وإدارة وصيانة هذه الوسائل فتضطر لاستخدام الخبراء والفنيين الأجانب بأعداد متزايدة وبأجور مرتفعة جداً.

ومن جهة ثالثة يؤدي استخدام هذه الوسائل المتقدمة إلى الاستغناء عن أعداد متزايدة من الأيدي العاملة المحلية في قطاعات معينة دون أن يكون بالإمكان تشغيل هذه الأعداد في ميادين أخرى فتتفاقم البطالة والبطالة المقنعة. اضافة إلى تراجع العمل والانتاج في القطاعات التقليدية التي لا تقوى على منافسة القطاعات الحديثة (الأجنبية والمحلية).

ومن الأشكال الجديدة للتبعية التكنولوجية اشراك بعض البلدان النامية في صناعة بعض المنتجات التي «تعتبر حلقة واحدة أو أكثر من حلقات الدورة التكنولوجية، بحيث لا تكتمل السلعة أخيراً إلا في الخارج. وهي بذلك تعد صناعة محلية قد تكون متقدمة لكنها محكومة باستراتيجية خارجية لم توضع داخل البلد المتخلف وهي تعبر من ثم عن امكانية قيام صناعات تتوطن في أرضه، لكنها لا تساهم في تنمية اقتصاده»(٢٠).

وغالباً ما يستفاد في هذه الحالة من رخص الأيدي العاملة المحلية كما يستفاد من الأموال الفائضة في بعض البلدان المنتجة للنفط وبهذا تستخدم الدولارات البترولية لتعجيل عملية التطور الرأسمالي وتشديد تبعية بلداننا المنتجة وغير المنتجة للنفط، للاحتكارات والدول الرأسمالية المتقدمة وكثيراً ما يتم الانتاج وفق التركيبة التالية: «الدولارات البترولية» + المعونة التكنيكية والإدارة من الدول الرأسمالية + الأيدي العاملة المحلية.

إن التكنولوجيا ليست مجرد آلات ومنظومات انتاجية معقدة غالية الثمن بل هي نتاج لظروف تاريخية معينة، تكونت خلالها أنماط معينة لاستخدام العناصر التكنولوجية، ولذا لا يمكن نقلها ببساطة، بمجرد شرائها، كما يتصور بعض ساستنا ومفكرينا. يقول دي برنيس، في معرض رفضه لاستيراد لتكنولوجيا من البلدان الرأسمالية، إن الآلة الرأسمالية تحمل في طياتها سمات عملية الانتاج الرأسمالية. من الهيكل الهرمي والاستبدادي لعملية العمل، والفضل الحاد بين مهام الإدارة ومهام التنفيذ، والتمييز بين الأعمال الفكرية والأعمال اليدوية[٢١]. ولهذا غالباً ما تحمل التكننولجيا المستوردة من البلدان الرأسمالية أنماطاً من الهياكل الصناعية، لا تتفق مع مصالح الأغلبية الساحقة من سكان البلدان المتخلفة[*]!

التبعية العسكرية:

لعل أكبر وأهم قنوات تسرب الأموال العربية إلى خزائن الاحتكارات العالمية هي الإنفاق على التسلح، ولعل أخطر أشكال التبعية هي التبعية التكنيكية العسكرية للدول الامبريالية.

لقد ازدادت نفقات البلدان النامية على التسلح من عام ٩٦٠ إلى عام ٩٧٤ ثلاثة أضعاف.. رغم ما تنفقه الدول الكبرى على سباق التسلح فإن المتوسط السنوي لازدياد النفقات العسكرية العامة في العالم يبلغ ٢,٦٪ بينما يبلغ في البلدان النامية ١٠,٣٪ (وذلك حسب معطيات هيئة الأمم المتحدة)[٢٢] والمورد الرئيسي للأسلحة كما تعترف جريدة (نيويورك تايمز) هو «الولايات المتحدة الأمريكية التي تبيع في الخارج من الأسلحة أكثر مما تبيع البلدان الأخرى مجتمعة»[٢٣] والشرق الأوسط هو في طليعة مناطق العالم «ففي عام ١٩٧٧ على سبيل المثال بلغ ما استورده الشرق الأوسط من مجموع مبيعات الأسلحة من الولايات المتحدة (البالغة ١١,٢ مليار دولالار ما يزيد على ٧٥ بالمائة من هذا

(*) أرجو أن لا يفهم من هذا العرض إنني من دعاة العودة إلى الطبيعة أو إلى طرق الانتاج البدائية للاستغناء عن التكنولوجيا الأجنبية. نحن هنا نعرض لمشكلة التكنولوجيا بوصفها إحدى وسائل تكريس تبعية البلدان المتخلفة ومنها بلداننا العربية للبلدان الرأسمالية المتقدمة وشركاتها الاحتكارية وهذا لا يعني بالطبع عدم امكانية الاستفادة من التقدم التكنولوجي الحاصل في العالم من أجل تحقيق التنمية والتقدم الاجتماعي في البلدان النامية غير أن هذا الجانب من المسألة يخرج عن أطار بحثنا هذا.

المبلغ أي بحوالي ٨,٤ مليار دولار»[٢٤] وكانت بلدان الخليج العربي وحدها قد ابتاعت من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٤ أسلحة بمبلغ ٤,٣ مليار دولار[٢٥].

وتتزايد هذه المبيعات كل عام. فقد بلغ المتوسط السنوي لمبيعات الولايات المتحدة من الأسلحة للخارج خلال الثمانينات أكثر من ٢٠ مليار دولار كما أن الدول الغربية الأخرى تشارك في بيع الأسلحة إلى بلداننا بمعدلات كبيرة أحياناً. ففي تموز ١٩٨٨ أعلن عن صفقة أسلحة تبيع بموجبها بريطانيا إلى السعودية أسلحة بمبلغ ١٠ مليارات جنيه أسترليني (حوالي ١٦ مليار دولار) وهي أكبر صفقة أسلحة تمت في العالم حتى الآن. وقد أشارت الصحف البريطانية الصادرة صباح ١٩٨٨/٧/٩ إلى أن هذه الصفقة ستؤدي إلى تأمين آلاف فرص العمل الجديدة في مصانع الطائرات والسفن وغيرها من مصانع الأسلحة البريطانية[٢٦].

إن الدول الامبريالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. إذ تحث الدول الفتية على سباق التسلح، وإذ تدفعها إلى عقد العقود الحربية، لتبتز الأرباح الطائلة لصالح المركب الحربي الصناعي في تلك الدول، وتستعيد بذلك، أضعافاً مضاعفة، ما تكون قد دفعته لتلك الدول على شكل مساعدات «أو مساهمة في التطوير» أو ما شابه. لقد أعلن كالاهان في خطاب ألقاه في ٢١ نيسان ٩٧٨ أن البلدان النامية تنفق على الدفاع ما يوازي ثلاثة أضعاف ما تناله من باب المساعدة[٢٧].

قد يقال: إن ضرورات الدفاع عن النفس تفرض هذه النفقات الهائلة، وفي منطقتنا يقال إن ضرورات تحرير الأراضي المحتلة من العدو الصهيوني والدفاع ضد نزعاته العدوانية وشراهته إلى التوسع تفرض مثل تلك النفقات. ولكننا نعرف جميعاً أن أول شرط تفرضه الولايات المتحدة لبيع الأسلحة المتطورة إلى البلدان العربية هو عدم استخدام هذه الأسلحة ضد إسرائيل(*).

(*) أثناء الجدل الذي دار في الولايات المتحدة في مطلع ١٩٨٦، حول صفقة الأسلحة المقرر بيعها للسعودية، أعلن الرئيس ريغان أمام عشرات من الزعماء اليهود في الولايات المتحدة بتاريخ ١٩٨٦/٣/٥، أنه يعارض أية خطوة من شأنها تعريض أمن اسرائيل للخطر، بما فيها بيع أسلحة للدول العربية المعتدلة. وأضاف أن الولايات المتحدة ما كانت لتوافق على بيع أسلحة إلى الدول العربية لو كانت تعتقد بأن ذلك يمس بأمن اسرائيل. (انظر الصحف الغربية بتاريخ ١٩٨٦/٣/٦).

ومن جهة أخرى تعتبر بعض التجهيزات العسكرية المباعة إلى الدول النامية وخاصة الدول المصدرة للبترول (خارقة التعقيد وقلما تصلح للاستعمال في البلدان المعنية) وهنا تكمن الخطورة بتكون نظام من التبعية التكنيكية العسكرية محسوب لسنوات طويلة. وتتأمن إمكانيات واسعة للتأثير في ملاكات (كوادر) القوات المسلحة في هذه البلدان[٢٨].

علقت المجلة الأمريكية فورين أفيرز Foreign Affairs على مشتريات بعض البلدان (وخاصة إيران في عهد الشاه) للأسلحة الأمريكية قائلة إن هذا «مرتبط بعملية تزيد بالفعل التبعية حيال الغرب وخاصة الولايات المتحدة ذلك لأن التجهيزات والتكنولوجيا سواء لأجل السلاح الجديد أم لأجل الفروع الصناعية الجديدة، يجب أن تتوارد من الخارج، وتتوقف على قرارات الأجانب، وهذه التجهيزات والتكنولوجيا لعلى درجة من التعقيد بحيث إنه ينبغي جلب المئات والآلاف من الاختصاصيين الغربيين لأجل المساعدة على تعليم السكان المحليين[٢٩].

والمأساة الأكبر تكمن في أن هذه الأسلحة كثيراً ما تستخدم في حروب لا طائل منها بين البلدان النامية نفسها. ولعل الحرب العراقية ـ الإيرانية المدمرة أبرز دليل على ذلك.

فقد نشر أحد معاهد الأبحاث الغربية خلاصة دراسة حول تكاليف هذه الحرب، فتبين أن تكاليف الأسلحة وحدها قد بلغت ما يقرب من مائة مليار دولار. وهذا المبلغ يساوي نصف عائدات البلدين من النفط خلال أعوام الحرب الثمانية[٣٠].

في عام ١٩٧٧ (أي قبل الحرب الإيرانية العراقية بثلاثة أعوام) كتب أ فونتان في «الموند» يقول: «... هل هناك أشد مدعاة للأسى من رؤية الفقراء يسهمون في إغناء الأغنياء بشرائهم منهم، بالذهب وسائل الحرب ضد الفقراء الآخرين؟»[٣١].

التبعية الغذائية

يقال عن البلدان النامية، ومنها بلادنا العربية إنها بلدان زراعية، وإن القطاع

الأساسي للانتاج فيها هو القطاع الزراعي غير أن هذا لا يصح إلا من وجهة نظر التشغيل فحسب، أي أن أعداداً كبيرة من قوة العمل في هذه البلدان (النصف أو أكثر أحياناً) محشورة في القطاع الزراعي لكن انتاجية عملها ضئيلة جداً ووضع العملية الانتاجية الزراعية لا يحتاج في الواقع إلى هذه الأعداد الكبيرة من العاملين. وهذا الفيض النسبي للعاملين في الزراعة ناشىء بالدرجة الأولى عن عدم قدرة ميادين العمل الأخرى وخاصة الصناعة، على استيعاب قوة العمل الفائضة.

أما الانتاج الزراعي، وخاصة انتاج الأغذية، فيتراجع، أو يراوح في مكانه في أحسن الحالات كما يبين الجدول التالي:

علائم الانتاج الزراعي في البلدان النامية
(أعوام ١٩٦٩ - ١٩٧١ = ١٠٠)

	١٩٦٧	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	٩٧٧	٩٧٨	٩٧٩
كل المنتوج الزراعي	٩١	١٠٣	١٠٧	١١٠	١١٥	١١٨	١٢١	١٢٦	١٢٧
بالفرد الواحد من									
السكان	٩٧	٩٨	١٠٠	١٠١	١٠٣	١٠٣	١٠٣	١٠٠	١٠٤
انتاج الأغذاية	٩٠	١٠٣	١٠٧	١١٠	١١٦	١١٩	١٢٢	١٢٧	١٢٩
بالفرد الواحد									
من السكان	٩٧	٩٨	١٠٠	١٠١	١٠٤	١٠٤	١٠٤	١٠٦	١٠٥
بما في ذلك:									
في أمريكا اللاتينية	١٠٠	٩٧	٩٨	١٠١	١٠٢	١٠٥	١٠٥	١٠٦	١٠٦
في أفريقيا	٩٨	٩٧	٩٢	٩٦	٩٤	٩٩٤	٨٩	٩١	٩٠
في آسيا الغربية	١٠١	١٠٣	٩٦	١٠٢	١٠٦	١٠٩	١٠٤	١٠٦	١٠٣
في آسيا الجنوبية									
وجنوب شرقي آسيا	٩٤	٩٥	١٠٠	٩٦	١٠٢	١٠٠	١٠٤	١٠٥	١٠١

أدرجت أفغانستان ومصر وليبيا والسودان إلى آسيا الغربية.

المصدر: UNCAD, Hand book of International trade and development statistics supplement 1980 p. 347K«348.

وفي الوطن العربي انخفض انتاج القمح مثلاً من ٧,٥ مليون طن عام ١٩٧٠ إلى سبعة ملايين طن فقط عام ٩٧٧ أي بنقص قدره ٦,٥ بالمائة وذلك رغم تزايد عدد سكانه من ١٢٠ مليوناً عام ٩٧٠ إلى حوالي ١٦٠ مليوناً عام ١٩٧٩ (٣٣٪)[٣٢].

وعلى الرغم من أن المتوسط السنوي لاستهلاك الفرد الواحد من الغذاء في البلدان النامية هو حوالي ثلث متوسط استهلاك الفرد من الغذاء في البلدان الرأسمالية المتقدمة(*). فإن البلدان النامية تستورد قسماً كبيراً من حاجاتها الغذائية من البلدان الرأسمالية المتقدمة ويتزايد اعتمادها على المصادر الخارجية لتأمين الغذاء على نحو مخيف. وللبرهنة على ذلك سأذكر مثالاً من سورية، التي تعتبر من البلدان الزراعية في الوطن العربي والتي تبذل فيها جهود كبيرة لتطوير الريف وزيادة الانتاج الزراعي:

بلغت مستوردات سورية من الأغذية والحيوانات الحية ما قيمته حوالي ٢ مليار ل س عام ١٩٨٢ وارتفعت هذه المستوردات إلى ٣,٢٧٥ مليار ل س عام ١٩٨٣. وارتفعت الأرقامالقياسية للكميات المستوردة من هذه المواد من ١٠٠ عام ٩٨٠ (الذي اعتبر عام الأساس) إلى ١١٤ عام ٩٨١ - و ٩١ عام ٩٨٢ و ١٧١ عام ٩٨٣ كما زادت مستوردات بعض المواد الغذائية كالحليب والسمن والجبن والأرز والذرة والطحين والبرتقال والتفاح والسكر وكسب الزيتون (مجتمعة) كما يلي (بألوف الليرات السورية)[٣٣].

العام	قيمة المستوردات
١٩٧٩	٧٢١٤٧١
١٩٨٠	٨٨٢٨٤٨
١٩٨١	١٦٥٨٤٢٣
١٩٨٣	١٤٤٢٠٠٥
١٩٨٣	٢٥١٥٦٣٤

(*) ارتفع المتوسط السنوي لاستهلاك الأغذية بالفرد الواحد من السكان بالدولارات الأمريكية حسب أسعار ١٩٧٤ - ١٩٧٦ في البلدان النامية من ١١٣ دولاراً في ٩٦١ - ١٩٦٥ إلى ١١٩ دولاراً في ٩٧٦ - ٩٨٠ وهذا المؤشر بلغ على التوالي ٣٧٣ دولاراً و ٤١٤ دولاراً في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندة وجمهورية جنوب أفريقيا، و ٢٨٠ دولاراً - و ٣٣٠ دولاراً في سائر البلدان الرأسمالية المتطورة (تقرير أمانة مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والإنماء).

أما وتائر زيادة مستوردات الأغذية في الوطن العربي عامة فهي أكبر من ذلك بكثير:

لقد أعلن الشاذلي القليبي، الأمين العام للجامعة العربية. في افتتاح مؤتمر التنمية الزراعية المنعقد في دمشق عام ٩٨١ أن الدول العربية استوردت أغذية من الخارج قيمتها ٧ مليارات دولار عام ١٩٨٠ أي ثلاثة أضعاف ما كانت قد استوردته عام ١٩٧٨ والأرقام الأخرى التي قدمها أمين عام الجامعة العربية تؤكد أن الوطن العربي بات من أكثر مناطق العالم عجزاً عن توفير الغذاء لأبنائه وتوقع القليبي أن تزداد التبعية الغذائية في المستقبل لأن الإنفاق على الغذاء حتى عام ٢٠٠٠ سيصل إلى أكثر من /٢٠٠٠/ مليار دولار فهل ستتوفر لدينا هذه الأموال عام ٢٠٠٠ م ثم ألا يشكل هذا خطراً على سيادتنا القومية[٣٤].

لقد أكدت مصلحة المخابرات المركزية الأمريكية في تقرير أعدته عن قضايا الأغذية قبيل بداية مؤتمر التغذية العالمي (سنة ١٩٧٤) في روما (وقد تسربت معلومات عن هذا التقرير إلى الصحافة الأمريكية) إن نقص الحبوب في العالم يضع في يد الولايات المتحدة سلاحاً لم تكن تملكه من قبل[٣٥]. وعندما هدد العرب بقطع البترول عن الغرب في أعقاب حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣ هددت الولايات المتحدة بقطع القمح عن العرب (عدا عن تهديداتها الأخرى الكثيرة).

ولو تساءلنا عن أسباب هذه التبعية الغذائية المتزايدة الشدة والمتعاظمة الخطورة، على الرغم من أن الوطن العربي يضم رقعة شاسعة جداً من الأراضي الصالحة للزراعة، ويشتغل أكثر من نصف قوة العمل فيه في الزراعة، ويملك «أكبر ثروة عرفتها البشرية في تاريخها» (النفط).... لو تساءلنا عن الأسباب لتعددت الاجابات تعدد المصالح والمشارب والنزعات والاتجاهات. وليس من أغراض بحثنا الغوص في هذه المسألة، لكننا نرى أنه لا بد من الإشارة إلى أن تجربة عقود التنمية الماضية في بلادنا العربية برهنت على عدد من الحقائق بشأن المسألة الزراعية نشير إلى أهمها:

١ - إن التركيز على المدينة وإهمال الريف، وحتى التركيز على التصنيع (الذي لم يحقق هو أيضاً الأغراض المرجوة منه) أدى من حيث النتيجة إلى تدهور الزراعة، وزيادة بؤس الفلاحين وبالتالي تركهم العمل الزراعي وهجرتهم إلى

المدن، ليزيدوا فيض السكان النسبي فيها ومن حجم البطالة والبطالة المقنعة كما وأن أعداداً من أبناء الريف هاجرت إلى البلدان العربية المنتجة للنفط وتخلت بذلك نهائياً عن العمل الزراعي.

٢ ـ رغم أن الاصلاحات الزراعية التي طبقت في معظم البلدان العربية قضت على هيمنة العلاقات الاقطاعية في الريف، ومنحت الأرض لقسم من الفلاحين المحرومين، وربطت الريف بالمدينة وبالسوق الوطنية والخارجية، إلا أن هذه الاصلاحات لم تحل المسألة الزراعية حلاً جذرياً. لقد ظلت أعداد كبيرة من الفلاحين محرومة من الأرض وظلت أعداد قليلة من المالكين تتصرف بمساحات واسعة، كما أنها لم تهيىء الشروط اللازمة لتمكين الفلاحين المالكين الجدد من تطوير انتاجهم.

إن هذه الاصلاحات لم تتمكن من الانتقال بالزراعة إلى نظام انتاجي متقدم لأنها بقيت محصورة في اطار الملكية الخاصة للأرض ووسائل الانتاج الزراعية، ولم ترتق إلى خلق علاقات انتاجية متقدمة نوعياً.

٣ ـ كان للتجربة الجزائرية دلالات خاصة في هذا المجال. فقد ألغت الثورة الزراعية في الجزائر تقريباً الملكية الخاصة للأرض، وطورت الزراعة على أسس علاقات الانتاج الاشتراكية بشكليها (ملكية الدولة، والتعاون الانتاجي). غير أن هذه التجربة برهنت على أن ترابط القطاعات الانتاجية يجعل من غير الممكن بناء أحدها على أساس اشتراكي والآخر على أساس رأسمالي. إن ترك عمليات التوزيع والنقل والتبادل في أيدي القطاع الخاص أجهض الثورة الزراعية في الجزائر. بحيث بدا وكأن هذه الثورة بالذات هي المسؤولة عن الاخفاقات في ميدان تأمين الحاجيات الغذائية للسكان بالأسعار المناسبة. وفي الحقيقة إن تعدد الأنماط الانتاجية في البلدان النامية عموماً يجعل كل قطاع انتاجي معتمداً على الآخر «ولا يوجد أي قطاع (في المدينة أو القرية) تجري فيه عملية الانتاج وإعادة توسيعه على أساسه الخاص، أو ضمن حدوده وحدها. فكل قطاع في دورته الانتاجية ينقصه عنصر أساسي ما، ويتطلب فعالية متبادلة مع بقية القطاعات (سواء في الانتاج أو التبادل ـ أو التوزيع أو الاستهلاك) ليكمل وظيفته الاجتماعية الاقتصادية.

٤ ـ وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أثر وسائل الإعلام في بلداننا، وخاصة التلفزيون، في تشجيع استيراد الغذاء من الخارج والعزوف عن استهلاك المنتجات الغذائية المحلية، الأثر الذي يؤثر بدوره على انتاجها. إن الدعايات التي تستخدم فيها الشركات الأجنبية أحدث مبتكرات علم النفس الاجتماعي لتكوين أذواق المستهلكين، تجعل إقناع الناس بتناول المنتجات المحلية أمراً متزايد الصعوبة. حتى الأطفال في القرى التي يصنع فيها الفلاحون الأجبان مثلاً يطالبون بـ «لافاش كيري» فهم يغنون لها كل يوم، ويحصلون على «الهدايا» عن يطريقها.. الخ. وهكذا تباع أجبانا وألباننا رخيصة بينما تتزايد أسعار الأعلاف المستوردة، فيعزف المزارعون عن تربية الأبقار، ويضطر المستهلكون لشراء منتجات الألبان الأجنبية.. وتكون النتيجة أن انتاجنا من الغذاء ينخفض واستيرادنا منه يتزايد(*).

التبعية الثقافية:

إن تكريس نظام التبعية في جميع المجالات المذكورة بحاجة إلى تسويغ أيديولوجي ومعرفي تقوم به المؤسسات الثقافية والأعلامية في المجتمعات التابعة. ومنذ بداية عهود السيطرة الغربية على البلاد العربية بدأت التبعية الثقافية بالتكون عن طريق توظيف الثقافة والتربية والأعلام لخدمة الأهداف الاستعمارية. وعلى الرغم من فشل المحاولات الاستعمارية لمحو الشخصية الثقافية العربية، إلا أن تبعيتنا الثقافية والعلمية للغرب الرأسمالي تكرس باطراد على نحو أعمق فأعمق.

(*) يرى المفكر التقدمي المصري اسماعيل صبري عبدالله أن هذه الاتجاه نحو تزايد الاعتماد على استيراد الغذاء بدلاً من انتاجه، ناجم عن طبيعة الفئات الحاكمة من جهة، ومصلحة الدول الرأسمالية من جهة أخرى. إذ كتب يقول:

«ومن الأمثلة على ذلك التحول من الانتاج للاستهلاك المباشر إلى إنتاج محصولات تجارية، بخاصة تلك التي تصلح للتصدير. وكثيراً ما تشجع الفئات الحاكمة هذا الاتجاه رغبة منها في الحصول على عملات أجنبية لشراء سلع الاستهلاك الغربية أو معدات انتاج لصناعات تخدم في الأساس متطلبات الفئات الغنية والوسطى. ويلازم ذلك في العادة إهمال انتاج الحاصلات الغذائية لأن الدول الرأسمالية لديها فائض منها تقدمه لبلدان العالم الثالث في شكل معونات غذائية. ولقد ثبت أن اعتماد هذه البلدان على معونات الغذاء من أهم أسباب التقصير الشديد في تطوير الزراعة وبالتالي زيادة لفجوة الغذائية»

(انظر «المستقبل العربي» العدد ١٩٨٦/٨، ص ٧٢).

وسأكتفي بالإشارة إلى واقع العلوم الاجتماعية التي تسهم إسهاماًكبيراً في تكوين العقلية العربية، والتي يفترض أن تضع الأسس لرسم سياسات التنمية والتقدم الاجتماعي في البلاد العربية.

تشير الدراسات التي أجريت حول واقع العلوم الاجتماعية في الوطن العربي إلى أن العمل النظري والتأليف المدرسي والجامعي «كانا في بعد واحد هو المكتبة الغربية بجناحيها: الأوروبي (خاصة الفرنسي والانكليزي) والأمريكي». فأكثر من ٩٠ بالمائة من الترجمات هي عن هذا المصدر. بعضها كان باختيار، وبعضها فرضه إغراء مؤسسات كان سعيها نشر الفكر الغربي (. . .) أما المؤلفات فمعظمها يكاد يكون محاكاة ناقلة عن هذا المصدر. هي محاكاة اختلط فيها التأليف بالترجمة فلا تعرف حدود هذا من ذاك (. . .).

إن معظمنا يعيد إنتاج الفكر الغربي، استسهالاً للاستهلاك. وهذه مسألة حجمت العمل المنتج على مستوى أداء علم الاجتماع هناك تشابه بين إنتاج «السفن آب» أو ترجمة الأفلام الأجنبية والاقتباس منها، وبين تصنيع «الجينز» وبين ترجمة «كتاب مدرسي» مأخوذ عن المكتبة الأمريكية أو الإنكليزية. التشابه يأتي من قيم الاستسهال وبذل الجهد، ومتطلبات السوق ـ سوق التدريس والتوزيع الذي يلهث البعض خلفه تحسباً «للكسب المادي في وقت قصير نسبياً» ـ إذا ما قورن بالوقت والجهد والمعاناة التي تبذل في تأليف كتاب تأليفاً حقيقياً ـ فيه موقف المؤلف ورؤيته وإبداعه[٣٦].

ومن ناحية ثانية يوظف العلم في خدمة المصالح الامبريالية والأيديولوجيات الغربية عن طريق البحوث والدراسات التي تطلب اجراءها في البلدان العربية مؤسسات «علمية» وجامعات غربية (أمريكية بوجه خاص) لتساهم في إعادة أنتاج التبعية. ويلهث الباحثون ركضاً وراء هذه المؤسسات، ويتعاظم دور وتأثير الباحثين «الكمبرادوريين» التابعين فكراً ودخلاً وسلوكاً[٣٧]، تماماً كما يتعاظم دور وتأثير «البرجوازيين الكمبرادوريين» المرتبطين مصلحياً بالشركات الاحتكارية الأجنبية.

إنه لمما يؤسف له بالفعل «إن معظم الاقتصاديين والمفكرين في العالم الثالث، (وفي وطننا العربي بوجه خاص) ما زالوا في تبعية شبه كاملة لمصادر الفكر التنموي البرجوازي الغربي، يستمدون منه أفكارهم وإرشاداتهم، وإن معظم التناقضات

والتجارب الفاشلة في التطبيقات التنموية ترجع إلى التأثر ـ إلى هذا القدر أو ذاك ـ بتلك الأفكار والوصفات التنموية الغربية»[٣٨].

ولا شك في أن الأمر لا يتعلق بالمثقفين ورجال الفكر وحدهم، بل هو متعلق بالدرجة الأولى بالنظام السياسي، بالطبقة (أو الفئة الاجتماعية) الحاكمة التي تتعاون (عن وعي أو غير وعي) مع الشركات الاحتكارية الأجنبية لتكريس التبعية الثقافية. تلخص إحدى الدراسات الجادة العناصر المكونة للتبعية الثقافية على النحو التالي: «باختصار فإن التبعية الثقافية مكونة من أربعة عناصر متداخلة وموزعة حسب الوظيفة المحلية والتجليات الخارجية للتبعية الثقافية. العنصر الأول للتبعية الثقافية هو الجانب الفكري أو الأيديولوجي المبني على المذهب التنموي وما يعنيه هذا من تأقلم وليس التحرر من واقع التبعية، العنصر الثاني، هو الجانب السلوكي للتبعية الثقافية والمتمثل في نشر النزعة الاستهلاكية الترفيهية والتي تؤدي إلى زيادة استيراد السلع المصنعة من الدول الرأسمالية؛ العنصر الثالث، هو الجانب العلاقاتي والاجتماعي للتبعية والمتجسد في تحكم الطبقات الحاكمة المحلية في عملية الانتاج الثقافي وتسخير المؤسسات الرسمية لنشر الثقافة التنموية الاستهلاكية. أما العنصر الرابع، فهو العنصر التقني الخارجي والذي يعني تعاون الشركات الاحتكارية المتحكمة في مصادر المعلومات والأنباء ومراكز التعليم مع الطبقات الحاكمة المحلية في نشر ثقافة رأسمالية تجارية وتغريبية»[٣٩].

إن التبعية الثقافية تتأكد في مجموعة من القناعات والمباديء والقيم التي تحث على ما يسمى بالعصرنة والتحديث في الفكر والممارسة والتطلعات «فالإيمان بتقليد الغرب الصناعي ونقل إنجازاته وتبني نموذجه التنموي يشكل محور التبعية الثقافية والتي تعتنقها الشرائح الحاكمة في دول الأطراف وتتخذها كأيديولوجية رسمية. كما تقدم أجهزة الأعلام والدعاية، وكذلك المدارس والكتب ومعظم المثقفين التابعين للنظام والمهيمنين على الأنشطة الثقافية بنشر هذه الأيديولوجية، وبالتالي تطبيع واقع التبعية»[٤٠].

وتشكل وسائل الأعلام، وبخاصة التلفزيون، في السنوات الأخيرة، الأداة الأشد خطراً بين جميع الأدوات الثقافية الأخرى. ففي ظروف البلدان العربية التي ترتفع فيها نسبة الأمية (لتصل أكثر من ٥٠٪ على مستوى الوطن العربي عامة وتصل

إلى أكثر من ٨٠٪ في بعض أقطاره)، وفي ظروف تردي الأوضاع المعيشية لجماهير الكادحين، والفئات المتوسطة، وحتى الجمهرة العامة من المثقفين، واضطرار الجميع للعمل ساعات طويلة طيلة النهار، وأحياناً أجزاء من الليل، في ميادين متعددة لكسب وسال العيش الضرورية، وفي ظروف غلاء الكتب وارتفاع تكاليف دخول المسرح والسينما، . . أقول في هذه الظروف يتحول التلفزيون إلى الأداة «الثقافية» الوحيدة تقريباً التي تفرض نفسها على البيوت، وعلى جميع الأعمار، وجميع الفئات والطبقات الاجتماعية. وإدراكاً من الاحتكارات العالمية لهذه الحقيقة (التي صنعتها هي نفسها بالدرجة الأولى) تنفق الملايين والمليارات، وتتفنن في إنتاج المواد التلفزيونية المسلية والمغرية، إضافة إلى ما تبثه وكالات الأنباء التابعة لتلك الاحتكارات من أخبار ومعلومات، سياسية وغير سياسية، بغية إعادة تكوين العقول والأمزجة وأنماط السلوك في البلدان التابعة.

بعض الآثار الاجتماعية للتبعية

ربما كانت الآثار الاجتماعية للهيمنة الأجنبية أشد خطورة من جميع أشكال التبعية المشار إليها، وأشد استعصاء على الحل كلما طال بها الزمن. أن توسع القطاعات المرتبطة بالشركات الاحتكارية وتنوع نشاطها وأساليبها يؤدي إلى تكوين عدد من الفئات الاجتماعية الطفيلية التي تربط مصالحها كلياً بمصالح الاحتكارات وتبيع نفسها نهائياً للأجنبي. ويؤدي في الوقت ذاته إلى إضعاف مواقع الرأسماليين الوطنيين الذين يحاولون توظيف رساميلهم في القطاعات المنتجة وخاصة الصناعة. أما البرجوازية المحلية الكبرى التي تكونت بعض شرائحها في العهد الاستعماري وتوطدت مواقعها في بعض البلدان في المراحل الأولى للاستغلال، فقد تحولت بالتدريج إلى شريك للشركات متعددة الجنسية، وحتى للرأسمال الأجنبي الحكومي في بعض الأحيان، وإن كانت الشريك الأضعف، في نهب ثروات هذه البلدان واستغلال شعوبها. وفي كل الحالات اتجه الرأسمال المحلي الخاص أكثر فأكثر نحو النشاطات الطفيلية، وابتعد أكثر فأكثر عن القطاعات المنتجة.

صارت الوساطة بين الشركات الأجنبية والدولة، والاتجار والمضاربة بالعقارات، واستيراد وترويج البضائع الاستهلاكية الأجنبية هي القطاعات المفضلة لنشاط رجال الأعمال العرب. ولم يبق من أولئك الرأسماليين الوطنيين الذين حاولوا

الاشتغال في القطاعات المنتجة الا بقايا متناثرة لا دور يذكر لها. وإنني أتجرأ على القول أن البرجوازية الوطنية التي ناضلت ضد الاحتلال الأجنبي للبلاد العربية وخاضت بعض المعارك (الناجحة حيناً والفاشلة أحياناً) من أجل تحقيق بعض الاستقلال الاقتصادي لهذه البلدان، لم يعد لها وجود كطبقة اجتماعية ذات وزن. لقد سحقتها تماماً السيطرة الأجنبية وحولتها إلى مجرد تابع تافه صغير.

وربما كانت الدعامة الاجتماعية الأهم التي يعول عليها الامبرياليون لتكريس تبعية البلدان النامية لهم هي الجماعات البيروقراطية والتكنوقراطية التي تتعاظم أهميتها باطراد في البلدان العربية. فعن طريق هذه الجماعات تتمكن الشركات الاحتكارية الأجنبية من أن (تمد يدها) إلى القطاع العام (قطاع الدولة) الذي صار قوياً ومؤثراً في جميع البلدان العربية، ومهيمناً في بعضها. إن نشوء فئة اجتماعية جديدة تنشأ وتطور مع نشوء وتطور القطاع العام وتستفيد منه، هي ظاهرة عامة موجودة في جميع البلدان الاشتراكية والرأسمالية وبلدان العالم الثالث. غير أن الأمر الخطير في بلداننا هو أن هذه الفئة تتحول تدريجياً إلى طبقة سائدة، تتصرف بالانتاج الاجتماعي في جميع الميادين: فهي منذ اللحظة التي تحتكر فيها لنفسها جزءاً من الحظوة من موقعها في التقسيم الاجتماعي للعمل، وتبعد المنتجين المباشرين عن الرقابة الحقيقية على وسائل الانتاج، تكف عن كونها الأداة المنفذة لارادة المجتمع وتصبح الطبقة المتصرفة فعلياً بوسائل الانتاج بغض النظر عن الشكل القانوني لملكية تلك الوسائل. وفي ظروف مجتمعاتنا المتخلفة، ظروف ضعف الطبقة العاملة وتشتتها، وتداخل الطبقات الاجتماعية وتشابكها وعدم وعيها لمصالحها الحقيقية، في إطار منظومة القيم التي كرسها التاريخ في بلداننا. في هذه الظروف تصبح هذه الفئة (البيروقراطية) هي الأكثر تماسكاً وتجانساً ووعياً بمصلحتها الطبقية. والأكثر حيوية في فرض هيمنتها الاقتصادية والسياسية[٤١].

إنها تصبح أكثر فأكثر قدرة على استخدام وسائل الأعلام والدعاية ووسائل الرقابة والقمع والانضباط، بحيث تتمكن من توجيه حركة التطور الاجتماعي لمصلحتها الخاصة بالدرجة الأولى. ومن هنا تكمن خطورة الأساليب المتعددة التي تمارسها الشركات المتعددة الجنسية والدول الامبريالية لكسب هذه الفئة. لقد صارت الرشوة والفساد ظاهرة «طبيعية» مألوفة في جميع البلاد العربية. وأعتقد أن خطورة هذه الظاهرة لا تكمن فحسب في إفساد أخلاق الناس، وتدهور قيم الإخلاص

والشرف والأمانة، وتراجع كفاءات العمل، وغياب الاحساس بالمسؤولية... إلخ. بل تكمن أيضاً في الدور الكبير الذي تلعبه في تكريس التبعية لأولئك الذين خلقوا هذه الظاهرة ويشجعون على انتشارها وهيمنتها.

* * *

ولعل أبرز الآثار الاجتماعية للتبعية هي أنماط الاستهلاك التي تخلقها وتكرسها الشركات الأجنبية، ببضائعها وإغراءاتها ووسائلها الدعائية في الوطن العربي. إن أنماط الحياة التي تتكون «في المجتمع الاستهلاكي»[٤٢] هي الأسلوب الأحدث لامتصاص فائض الأموال لدى معظم فئات السكان، بما فيها الفئات المتوسطة بل والفقيرة أحياناً وتكديسها في خزائن الاحتكارات الأجنبية بدلاً من توظيفها في توسيع الانتاج وتطويره في البلدان التي ينتجها. وهي تساهم في زيادة الهوة بين الأغنياء والفقراء فضلاً عن أنها تشكل خطراً كبيراً على منظومة القيم الاجتماعية السائدة فيتعود الناس على أنماط من الغذاء واللباس والسكن والترفيه يصبح التخلي عنها فيما بعد (عند اتخاذ قرار بانتهاج سياسة للتنمية تعتمد على الذات بالدرجة الأولى وتلغي الاستهلاك الترفي) أمراً متعذراً. «فإذا كان الإنسان يستطيع التكيّف بسرعة مع مستوى معيشة أعلى، فليس في طوقه أبداً أن يتكيف مع الوضع العكسي»[٤٣].

لقد تكونت أنماط الاستهلاك هذه في البدان العربية المنتجة للنفط بالدرجة الأولى، لكنها انتقلت بسرعة إلى البلدان العربية الأخرى الفقيرة التي لا تتحمل وارداتها بحال من الأحوال، هذه النفقات الهائلة على الاستهلاك، والتي هي بأمس الحاجة لتوظيف كل قرش يمكن توفيره في القطاعات المنتجة. لكن الذي يحدث هو العكس فالأموال التي يجلبها المهاجرون تذهب بالدرجة الأولى لتوسيع نطاق الاستهلاك الرتفي. وعن طريق التقليد والمحاكاة. تنتشر أنماط الاستهلاك الجديد لتشمّل غير المهاجرين ويصبح هدف الجميع الركض وراء اقتناء البيت الفسيح والأثاث الفاخر، والفيديو وآلات التصوير السينمائي والتلفزيوني وغيرها مما تنتجه آلة الصناعة الغربية وتجدد انتاجه باستمرار لتغرق به أسواقنا، وتمتص عن طريقه مدخرات أبنائنا. في بحث أجراه عدد من طلبة علم الاجتماع بجامعة دمشق، بإشراف كاتب هذه السطور حول الآثار الاجتماعية للهجرة إلى البلدان العربية المنتجة للنفط في منطقة القلمون بسوريا (وهي من المناطق التي تنتشر فيها الهجرة انتشاراً واسعاً) صيف عام (١٩٨٥).

توزعت الاجابات عن سؤال حول كيفية إنفاق أو استثمار الأموال التي جلبها المهاجرون كما يلي:

في بناء أو شراء أو تحسين المسكن	لشراء الأثاث والسلع الاستهلاكية الأخرى وفي إنفاق غير محدد	على الزواج	في مشروع زراعي أو صناعي أو تجاري	ادخار في المصرف	المجموع
العدد ١٩٢	١٧٠	٤٨	٩٦	١٤	٥٢٠
النسبة المئوية ٣٧	٣٢,٧	٩,٢	١٨,٤	٢,٧	٪١٠٠

وفي مصر وجدت سوزان مسيحة في بحثها الذي أجرته على عينة من المدرسين المصريين المعارين إلى المملكة العربية السعودية أن مدخرات المدرسين في المتوسط توزع بالشكل التالي: ٢٨٪ للتجهيزات المنزلية، ١٣٪ للملابس، ١٢٪ للهدايا إلى الأقارب والأصدقاء، ١١٪ لسلع أخرى و ٣٠٪ حسابات في البنوك و ١٦٪ فقط إلى مجال الاستثمار المباشر. بمعنى أن المدرس العادي المصار إلى أحد الأقطار النفطية ينتهي به الأمر إلى إنفاق ٦٤٪ من مدخراته على السلع والمواد الاستهلاكية (عدا عما ينفقه في مكان عمله والذي يبلغ في المتوسط حوالي ٤٦٪ من دخله). وتصل الباحثة إلى استنتاج طريف مفاده أن المدرس ينفق على السلع الاستهلاكية في ختام سنوات إعارته الأربع، ما يعادل مجموع رواتبه في مصر طوال خمسة عشر عاماً تقريباً(٤٤).

فما الذي سيفعله زملاء هذا المدرس الذين لم يوافهم الحظ بالحصول على الاعارة بل ما الذي سيفعله جميع العمال والموظفين وغيرهم من ذوي الدخل المحدود؟

يجيب الدكتور سعد الدين ابراهيم قائلاً:

«إن التطلعات المادية تفوق بكثير الامكانات التي يتيحها مستوى الدخل لمعظم سكان مصر، الأمر الذي يجعل من العثور على فرصة عمل في بلد نفطي غني هو حلم كثير من المصريين، يستوي في ذلك أفراد جميع الطبقات والأعمار بطول المجتمع وعرضه. إن حلم الكسب السريع وبريق السلع الاستهلاكية التي

يمكن لهذه الأموال أن تشتريها قد أصبح في السنوات الأخيرة جزءاً من الحلم الشعبي المصري»[٤٥].

وإذا أضيف أنه صار جزءاً من الحلم الشعبي في جميع الأقطار العربية غير المنتجة للنفط.

غير أن هذا الحلم بدأ يتبدد الآن. لقد تراجعت الأعمال في الدول النفطية بعد انخفاض أسعار النفط وتحديد الانتاج، وبعد أن كانت تلك الدول قد تعاقدت على مشروعات «تنموية» ضخمة صارت تشكل الآن عبئاً على ميزانياتها... لكن الآثار التي خلفتها الهجرة وسلعها الاستهلاكية البراقة لم تتبدد، بل هي تستفحل وتتفاقم أكثر فأكثر. تتزايد النزعة الاستهلاكية ويحتقر العمل المنتج الشريف، وتتدهور أخلاقيات العمل ويتفشى الفساد والرشوة، وكافة أشكال الكسب غير المشروع، وتتضاءل أهمية العلم والثقافة، وتتفكك الأسرة، وتتبدل القيم على نحو مريع. ويصبح المال هو القيمة الوحيدة المعترف بها.

في يوميات بطل رواية حنا مينه «الثلج يأتي من النافذة» جوزيف التاجر الصغير المفلس، شقيق المليونير.

يسأل هناء (زوجته):

- ماذا تريدين اليوم يا مدام؟
- ثلاجة.
- ثم ماذا؟
- غسالة.
- وغيره؟
- سيارة.

ويعلق قائلاً: في القرية، وقبل الزواج كنت أسألها: ماذا تريدين يا هناء؟ حبك ثم ماذا؟ الزواج وبعده؟ كوخاً نجعله عشاً لغرامنا. ويتابع «رغبة مجنونة تتملك الجميع في الاثراء، دون أي اهتمام بالوسيلة، ورغبة مماثلة تتملك الناس في نسيان منشئهم. ميكيافيلية صريحة. الكنائس تمتلىء بالمصلين دائماً، وأحسب أن الجميع في ختام صلواتهم يطلبون غسالات وثلاجات وسيارات...».

ويختتم هذه اليومية بالكلمات التالية: (لا شيء ممنوع.. تستطيع أن تزني

وتسرق وتقامر وتهرب المخدرات، كما تستطيع أن تتاجر وتغش وتثري وتفلس وتنتحر على الروشة».

كتبت هذا الكلام في أواخر الخمسينات.

والآن صار هذا حال معظم الناس في وطننا العربي مع بعض التعديل.

فالزوجة والزوج صارا يطلبان أشياء تصنعها الشركات الاحتكارية في السبعينات والثمانينات: تبديل التلفزيون الملون بواحد أحدث، فيديو، فيديو آخر لرؤية الأفلام بجميع القياسات كاميرا للفيديو، كاميرا تصور لوحدها استبدال غرفة الضيوف الإيطالية بواحدة أمريكية... إلخ.

والممنوعات المباحة صارت من نوع آخر:

تستطيع أن تعقد صفقة بعشرات الملايين لبناء فندق لا ينام فيه أحد، إذا كنت ستحصل على بعض تلك الملايين. وتستطيع أن تعرقل معاملة لتوظيف شخص وإطعام أسرة أشهراً وسنوات إذا لم يعطك حصة من راتبه الذي لم يقبضه بعد، وأن تحصل على أجرك كاملاً وأنت جالس وراء الطاولة تدخن وتشرب القهوة وتغتاب الناس، أو وأنت مستلق على أريكتك في البيت تداعب طفلك أو كلبك أياماً، أشهراً، سنوات.. إذا كنت مقرباً من المدير.

هذا ما خلفته لنا النزعة الاستهلاكية، وما تكرسه وتكرس به التبعية وبعد:

لقد قلت حتى الآن ما قد توافقوني جميعاً عليه، لكني سأصل إلى استنتاج لا بد وأن يواجه أكثر من اعتراض واحتجاج. والاستنتاج متعلق بإعادة النظر في كثير مما كان يعتبر في أدبياتنا من المسلمات:

أنا الآن مثلاً لا أسلم بأن تأميم الممتلكات الخاصة وتدعيم وتوسيع القطاع العام يعتبر بحد ذاته، تحولاً ثورياً، فماذا لو صار القطاع العام تابعاً للاحتكارات الأجنبية الضخمة والشركات متعددة الجنسية؟

وسيطرت عليه فئة تربط مصالحها بمصالح تلك الشركات؟

ولا أسلم بأن الإصلاح الزراعي، وتحديث الزراعة، بل و«الثورة الزراعية» بحد ذاتها تؤدي إلى زيادة الانتاج الزراعي وتحسين حال الفلاحين وتلبية حاجات

الناس الغذائية. فماذا لو تعلق الأمر باستيراد الآلات والمعدات والبذور والمبيدات والأعلاف والحيوانات والخبرات... وكل شيء آخر من الغرب الرأسمالي بعملته الصعبة غير المتوفرة؟

وتعلق نجاح أو فشل الجمعيات التعاونية بأخلاق وسلوك القيادات المتنفذة فيها، والتي تتكون لها مصالحها الخاصة فلا تبحث إلا عن تلبية تلك المصالح؟

باختصار، أعتقد أن عدداً كبيراً من الأسئلة المطروحة أمام القوى الوطنية والتقدمية في الوطن العربي حول الأولويات:

- أولوية الوحدة أم الاشتراكية.
- أولوية تطوير الصناعة أم الزراعة أم الخدمات.
- أولوية التصنيع الثقيل أم الخفيف، كثيف العمالة أم كثيف رأس المال.
- أولوية تلبية الاحتياجات أم تحقيق التراكم.
- تدعيم القطاع العام أم الخاص أم المختلط.

كل هذه الأسئلة وغيرها تجد الاجابة في سؤال أشمل هو ما الذي يساعدنا على التخلص من التبعية؟

وبالتالي فإن أولى الأولويات هي أولوية التخلص من التبعية.

«لقد سحقت التبعية إنسانيتنا بما فيه الكفاية. وبقدر ما تستمر عملية السحق.

هذه تطول أزمنة التخلف وتزداد صعوبات التحرر، فلا يجوز انتظار حل من الغرب الذي يصر على علاقات التبعية. إن التبعية ليست مجرد سلب الموارد والأرض والممتلكات. إنها قبل كل شيء، سلب لانسانيتنا وهويتنا بالذات ولطاقاتنا على النمو والابداع والتفتح على العالم. نحن في نظر هذا الغرب مساحة لا إنسانية مسطحة ومجرد مورد وسوق. هذا هو كل اهتمامه بنا، ولا ينتظر أن يتغير طالما يسوده هذا النظام الرأسمالي الذي ينخر روحه هو بالذات كما ينخر روح العالم.

لذلك ليست عملية التحرر من التبعية مهمة سهلة ولا تتحقق في وقت قصير، غير أنها يجب أن تصبح في صلب تخطيطنا، وأن نحاسب أنفسنا باستمرار على الخطوات التي نخطوها بهذا الاتجاه[٤٦].

ومن هنا فإنني أعتقد أن التناقض الرئيسي في الوطن العربي اليوم: ليس بين الاشتراكية والرأسمالية، وليس بين الحداثة والأصالة، وليس بين العقائد المختلفة (أولئك الذين يبنون مشروعهم التحريري ـ الحضاري على أساس الإسلام، أو على أساس القومية العربية أو على أساس الماركسية... أو غيرها).

بل هو بين أنصار التبعية وأعدائها.

بين الطبقات والفئات والمجموعات والشرائح الاجتماعية التي ترتبط مصالحها بالهيمنة الأجنبية وبالتالي تعمل على تكريسها، والطبقات والفئات والمجموعات والشرائح التي تتعارض مصالحها مع تلك الهيمنة فتناضل للتخلص منها.

وهذه دعوة إلى توحيد جهود جميع القوى التي تمثل الفئات الأخيرة (المناهضة للتبعية) لتحقيق الهدف المباشر الرئيسي.

المراجع

(١) و(٢) المعطيات السابقة مأخوذة من: سعد الدين إبراهيم، النظام الاجتماعي العربي الجديد بيروت ١٩٨٢ ـ ص ٢٥٨ (اعتماداً على معطيات الأمم المتحدة ومعطيات الأوبيك الاحصائية).

(٣) نفس المصدر: ص ٢٥٩.

(٤) تقرير (نادي روما) الملخص في كتاب إبراهيم صلحي عبد الرحمن إقامة النظام الدولي الجديد، القاهرة ١٩٧٦ ـ ص ٦.

(٥) اسماعيل صبري عبد الله، نحو نظام عالمي جديد، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠٨.

(٦) عادل حسين، متابعة إيجابية لأدبيات التنمية، (دراسات عربية العدد ٢/١٩٧٩).

(٧) «اليوم السابع» العدد ٢٥٦، ٣ نيسان، ١٩٨٩.

(٨) ميخائيل أوتشكوف، تغلغل الاحتكارات الأمريكية، في كتاب (التوسع الاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية: آسيا وأفريقيا) أكاديمية العلوم السوفييتية، موسكو ١٩٨٥، ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٩) أنظر الجداول التي أوردها برونتس في البلدان المتحررة في السبعينات، دار التقدم، موسكو ١٩٨٢، ص ٢١٠ ـ ٢١١، ٢١٢ ـ ٢١٥.

(١٠) نفس المصدر ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(١١) نفس المصدر ص ٢٨٨.

(١٢) تقرير البنك الدولي لعام ١٩٧٦، ص ١٠١.

(١٣) أعلن الرئيس المصري حسني مبارك في تشرين الأول عام ١٩٨٦ أن ديون مصر بلغت ٣٧ مليار دولار، وأشارت صحيفة «الفيغارو» الفرنسية بتاريخ ١٩٨٦/١١/٢٨ أن هذه الديون تبلغ ٣٨,٥ مليار دولار.

(١٤) أنظر الأهرام ١٩٨٩/٣/٢٩.

(١٥) رزق الله هيلان، المديونية ـ حصان طروادة الجديدة في البلدان المخلفة، دمشق ١٩٨٧.
(١٦) «اليوم السابع» العدد المذكور.
(١٧) رزق الله يهلان، المرجع المذكور.
(١٨) فؤاد مرسي، التخلف والتنمية، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٨.
(١٩) نفس المصدر، ص ١٢٧.
(٢٠) نفس المصدر ص ١١٦.
(٢١) ذكرة فؤاد مرسي، مصدر مذكور ص ١٢٢.
(٢٢) بروتنس، مصدر مذكور ص ٢٤٨.
(٢٣) «The New York Times», 3 - III - 1975.
(٢٤) سعد الدين إبارهيم مصدر مذكور ص ٢٥٩.
(٢٥) Washington Post, 30 I, 1975.
(٢٦) «Financial Times», 9. VII. 1988.
(٢٧) بروتنس، مصدر مذكور ص ٢٤٨.
(٢٨) نفس المصدر، ص ٢٥٠.
(٢٩) «Foreign Affairs» October, 1977. p. 102.
(٣٠) «Finanical Times», 17. 1988.
(٣١) «Le Monde», 22. II. 1977.
(٣٢) سعد الدين إبراهيم، مصدر مذكور، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٣٣) حسبت الأرقام من الجداول الواردة في المجموعة الإحصائية السنوية لعام ١٩٨٢، المكتب المركزي للإحصاء، دمشق ٣٠٨، ٣١٦.
(٣٤) انظر: خضر زكريا، (المؤشرات الاجتماعية ـ الاقتصادية في الوطن العربي وآفاقها المستقبلية لعمليات التنمية) دراسات عربية، العدد ١٩٨٣/٦.
(٣٥) برونتس، مصدر مذكور ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٣٦) عبد الباسط عبد المعطي، في استشراف مستقبل عام الاجتماع في الوطن العربي: بيان في التمرد والالتزام: المستقبل العربي، العدد ١٩٨٥/١٢.
أنظر بهذا الشأن أيضاً البحوث والدراسات التالية:
ـ عارف دليلة، أزمة التنمية والفكر التنموي الجديد (دراسات عربية) العدد ١٩٨٠/٥.
ـ سالم ساري (علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية العربية. هموم واهتمامات) ورقة مقدمة إلى ندوة «نحو علم اجتماع عربي» أبو ظبي ٢٥ ـ ٢٨ نيسان ١٩٨٣.
ـ سمير نعيم (بحوث علم الاجتماع والالتزام بقضايا الإنسان العربي رصد تقويمي استشرافي.
ـ محمد الجوهري، آراء نقدية في تاريخ علم الاجتماع في مصر.
ـ مصطفى ناجي (علم الاجتماع في المنطقة العربية بين المحلية والدولية).
ـ خضر زكريا (علم الاجتماع والتنمية في سورية).
ـ أوراق مقدمة لموت مر (علم الاجتماع وقضايا الإنسان العربي)، الكويت، ٨ ـ ١١ نيسان ١٩٨٤.
(٣٧) سمير نعيم (بحوث علم الاجتماع والالتزام بقضايا الإنسان العربي)، مصدر مذكور.
(٣٨) عارف دليلة (أزمة التنمية والفكر التنموي الجديد). مصدر مذكور.
(٣٩) و(٤٠) عبد الخالق عبد الله، حول التبعية الثقافية، «المستقبل العربي»، العدد ١٩٨٦/١.

(٤١) خضر زكريا (المؤشرات الاجتماعية الاقتصادية). مصدر مذكور.
(٤٢) حول تعريف (المجتمع الاستهلاكي) وبعض خصائصه في الوطن العربي، أنظر «المجتمع الاستهلاكي والبلدان العربية والنامية»، ندوة شارك فيها: حنا مينه، سعد الله ونوس، صادق جلال العظم، رزق الله يهلان، خضر زكريا، عبد الله حنا.
(النهج)، العدد ٩ السنة الثالثة ١٩٨٥، ص ٢١٤ ـ ٢٥٥.
(٤٣) سعد الدين إبراهيم، مصدر مذكور، ص ١٣٩.
(٤٤) نفس المصدر، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٤٥) نفس المصدر، ص ١٣٩.
(٤٦) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٥٨.

الفكر السياسي في قصائد الثورة العربية الكبرى

الدكتور سعد أبو ديّة
جامعة اليرموك

مقدمة:

تعتمد هذه الدراسة على مسح جريدة (القبلة) التي أصدرها المغفور له الملك الحسين بن علي عام «١٣٣٥» لتكون منبراً معبراً عن فكر الثورة ونقل الرسالة إلى الناس في أرجاء الوطن العربي والتعبير عن آمالهم اعتمد الباحث في المسح على القصائد التي ظهرت ما بين ١٣٣٥ ـ ١٣٤٠هـ وهي السنوات التي واكبت الثورة العربية الكبرى.

بلغ مجموع القصائد والأناشيد (١٨٣) قصيدة موزعة كما يلي:

١ ـ القصائد العادية ١٥٠ قصيدة
٢ ـ الأناشيد ١٧ قصيدة.
٣ ـ القصائد البدوية ١٧ قصيدة

ويلاحظ أن القصائد العادية تضمنت شعراً حراً لم يذكر ناظموه أسماءهم خوفاً من ردّ الفعل آنذاك. ذلك أن الشعر الحر لم يكن قد عُرف بعد في تلك الفترة.

تحليل المضمون السياسي للقصائد:

تبويباً للبحث فإن الباحث يركز على قصائد سنة «١٣٣٥» ثم السنة التي تليها وهكذا، ثم يورد الملاحظات العامة بعد ذلك والفروق في الأفكار السياسية وتعريفاً بالشعراء المساهمين والبلاد التي ينتسبون إليها.

عام ١٣٣٥هـ:

بلغ عدد القصائد والأناشيد في هذه السنة ما مقداره (٣٢) قصيدة ونشيداً ومن أبرز الملاحظات عليها ما يلي:

أ - مساهمة شعراء المهجر في التعبير عن وجهة نظر الثورة العربية الكبرى بحيث أن نسبتهم بلغت الربع تقريباً، ومن أبرز الشعراء عباس أبو شقرا، جرجي حداد، إلياس عبدالله طعمه، الكسندرا فيزينوسكا، إبراهيم سليم نجار (باريس)، يوسف مراد الخوري، رشيد أيوب، يوسف فرج حريز. والباقون عرب محليون يقيمون بالحجاز أو من دول عربية مثل جميل العظم (سورية) والسلطان أحمد بن فضل بن علي (اليمن) ومحب الدين الخطيب وهو من (محرري صحيفة القبلة) وعبدالعزيز القاضي (قاضي قبيلة غامد) وهناك شعراء مسلمون مثل عبدالحق الأعظمي (من جامعة عليكرة بالهند).

ب - أبرز الأفكار في تلك القصائد:

١ - الاعتزاز بالقومية العربية؛

يلاحظ أن القصائد القومية والافتخار بالنسب قد ظهرت من البداية، مثلاً الشاعر جميل العظم في قصيدة بعنوان (قد قضي الأمر) يقول:

لقد دالت الأيامُ وانقلبَ الدّهرُ
فقلْ لبني جنكيز قد قُضِيَ الأمرُ
وقد أعاد أمرُ المسلمين لأهلهِ
وهل أهلُه إلا كنانةُ والنضرُ
أولئكَ قومي بارَكَ اللهُ فيهمُ
أُباهي الورى فخراً بهم ولي الفخرُ[1]

(١) نشرت قصيدة (قد قضي الأمر) في الكوكب والقبلة في ١٣ ربيع الأول ١٣٣٥ وهي للشاعر جميل مصطفى العظم وهو أديب دمشقي ولد بالأستانة عام ١٨٧٣ وتوفي بدمشق عام ١٩٣٣ وتعلم التركية والفارسية وأصدر مجلة البصائر وهو من أعضاء المجتمع العلمي العربي وله أشغال في الصحافة والتاريخ تاجر بالمخطوطات وصنف كثيراً منها انظر خير الدين الزركلي، الاعلام (بيروت ١٩٦٩) ط ٣ خير الدين الزركلي، الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: ١٩٦٩) ج ٢ ط ٣ ص ١٣٤.

وللشاعر نفسه قصيدة بثَّ فيها الوعيَ القوميَّ وتغني بأمجادِ المسلمين يقول في قصيدة بعنوان (أنجز الله وعده):

بني يعـربٍ قد أنجـزَ اللّهُ وعدَه لكم...؟ مني كانت كأضغاث حالمِ
لئن لم تذبّوا عن حماكم وعزكم رعاكم علوجُ القوم رِعيَ السّوائِمِ[1]

وركزّ جرجي الحداد على موضوع اللغة العربية إذ يقول:

ذودوا عن اللغـة التي وردت بها آي الكتـابِ وأُنـزلـتْ تنْـزِيـلاً[2]

وقد بثّ بعضُهم الشعور القومي ضدَّ (ألمانيا) وليست الدولة العثمانية يقول رشيد الهاشمي البغدادي (أبو الحقائق) في قصيدة (صرعوا بحب بلاديه) ما يلي:

وارحـمـتـاه لـفـتـيـةٍ صُـرعـوا بحبِّ بـلاديَـهْ
من كـلِّ مفتولِ الـذِّراعِ أغـر تـحت الـنـاصيَـهْ
نحـو الوغَى نحـو الوغَى لا تختشوا جـرمـانيَـهْ
الـيـوم ننـقـذُ مـوطـنـاً لـعبتْ بـه ألمـانيَـهْ[3]

٢ ـ التغنّي بالعرب وأمجادهم:

ظهر هذا النوع من الفكر في القصائد التي نظمها شعراء المهجر والشعراء المسلمون مثلاً (عبدالحق الأعظمى) في قصيدة (الآن قد صفت المشارب).

يقول:

للّهِ درُّ العربِ إن لهم بهدى الناس ثائب[4]

وفي قصيدة (الكسندرا دي افير ينوه فيزينوسكا) تأكيد على الشيء نفسه:

فليفخر العربُ الكرامُ بملكه ولنستـزيـد غبـطةً وهنـاءَ

---

(١) القبلة ٨ ربيع الثاني ١٣٣٥م.
(٢) القبلة ١٩ ربيع الثاني ١٣٣٥ جرجي الحداد: ابن ساره اليازجي الذي أنشأ من سان باولو (البرازيل) جريدة القلم الحديدي عام ١٩١٣ وأصدر جريدة الفجر عام ١٩١١م.
(٣) القبلة ٢٦/ ربيع الثاني ١٣٣٥ ونشرت في صحيفة المقطم ٩/ ربيع الأول سنة ١٣٣٥م.
(٤) القبلة ٢٨/ جمادي الأولى ١٣٣٥هـ.
الثائب/ ماء البحر الغائض بعد الجزر وماء البئر يعود بعد النزح.
عبدالحق الأعظمى: أستاذ الآداب العربية في الكلية الإسلامية بجامعة عليكرة/ الهند.

أعجزْتَ في الفضلِ الملوكَ جميعَهُمْ وأنا بمدحك أعجزَ الشعراءَ[1]

٣ ـ التركيز على اساءة العثمانين للإسلام والعرب:

ظهرت في القصائد هذه الناحية. ففي قصيدة (اليتيمة العربية)[2] وصف (نيرون) بأنه رفيق الفؤاد مقارنة (بجمال باشا).

فإذا رجعت إلى جمال وفعله ألفيْتَ نيروناً رفيق فؤاد

عادوا على الإسلام أكبر سبة

وعلى عباد اللّهِ شر عباد

٤ ـ التغني بالشخص وبالمكان:

معظم القصائد تغنت بالشريف الحسين بنسبه وصفاته الحميدة وتغنت بالحجاز مثلاً قصيدة الشاعر (قسطنطين يني) وصف النهضة بأنها نهضة الحجاز.

فأنظروا نهضةَ الحجازِ على القسطاسِ قامت لتنقذَ الأقواما[3].

وللشاعر نفسه قصيدة بعنوان ليهنأ بك العيد يتغنى بالملك يقول:

وليفخر المسلمون العربُ أنّ لهم ملكاً تجدد أكرم فيه تجديد[4]

ويتغنى الشاعر عبد المحسن الصحاف[5] في قصيدة بالملك يقول فيها:

لولا وجودُك فينا أيُّها الملكُ

لما افتخرْنا بعيدٍ فيه نشتركُ

---

(١) القبلة ٦/ جمادى الثانية ١٣٣٥هـ. ـ لا تتوفر معلومات عن الشاعرة وصفتها القبلة بأنها (الخنساء).

(٢) القبلة ٤/ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ ـ القصيدة لشاعر مصري مجهول وصفته القبلة بأنه أشعر الشعراء.

(٣) القبلة ٢٠/ رمضان ١٣٣٥هـ.
المناسبة/ ترحيب بوفد المسلمين الذين حضروا من المستعمرات الايطالية.

(٤) القبلة ٧/ شوال ١٣٣٥هـ.
ولا تتوفر معلومات عن الشاعر (قسطنطين يني).

(٥) عبدالمحسن الصحاف: عبدالمحسن يعقوب الصحاف (١٨٧٤ ـ ١٩٣١) شاعر بحريني عاش في البحرين قبل أن ينتقل لمكة وهو طفل وتعلم فيها «مدح الملوك والأمراء» شعره حماسي وغزلي. يبدو أنه لم يجمع بعد. توفي في مكة: أنظر الزركلي ـ مصدر سابق ج ٤ ص ٢٩٦.

أنتَ الشريفُ حسين والمليكُ بها
أحييْتَ للعرب العرباءَ ما تركُوا[1]

ويضيقُ المجال عن سردِ القصائدِ الّتي تغنّتْ بالحجازِ وبالملك حسين.

قصائد عام ١٣٣٦هـ:

يلاحظ الباحث في قصائد هذا العام ما يلي:

١ ـ ظهور شعراء الثورة وبدا عبد المحسن الصحاف وكأنه من شعراء الثورة إذ ظهرت له ست قصائد بين أربعٍ وعشرين قصيدة أي ربع القصائد.

٢ ـ ظهر شعراء سوريون ومصريون وفلسطينيون ومن مصر ظهر أحمد فريد الرفاعي ومن فلسطين أحمد شاكر الكرمي وعلي الريماوي ومن سوريا محمد الفراتي.

٣ ـ يلاحظ غياب شعراء المهجر عن المشاركة في هذه الفترة.:

قد يكون سبب ذلك أن الشعراء المحليين والعرب قد زادت مشاركتهم بحيث لم تفسح لشعراء المهجر مجالاً للمشاركة والواقع أن عدد القصائد قد قل بشكل عام عن السنة التي سبقت.

٤ ـ المضمون السياسي للقصائد:

أ ـ التغنّي بالانتصارات في المعارك: أصبح المضمون السياسي للقصائد ليس فخراً بالماضي وإنما بالواقع ويظهر في قصيدة عبدالمحسن الصحاف وهي بعنوان «عم خيراً قال سعد السعود»[2].

يقول:

فكم لجندك في الباغي مهاجمة
كذا وفي الخط ما زالت اغاراتُ
هذا عن النبأ البرقيِّ أذكرُه
عن نجلكم فيصل تروى انتصاراتُ

---

(١) القبلة ١١/ شوال ١٣٣٥.
(٢) القبلة ١٣/ محرم ١٣٣٦.
(ألقيت القصيدة بمناسبة رأس السنة الهجرية).

وفي قصيدة محمد مهدي البصير (من حلة العراق) يتغنى بالنصر يقول في تلك القصيدة بعنوان (إلى جلالة ملك العرب):

وحاربت عنها الترك حتى تساقطوا
فأفناهم في زحفك القتل والأسرُ
هززت لهم سيفاً خطبت به الوغى
وليس سوى حفظ الكيان لها مهرُ[1]

وظهر الفخرُ بالنصر مثلاً في قصيدة مطلعها ما يلي:

وباكيةٍ في الليلِ والليلُ مظلمٌ تودُّ انتباه الناسِ والناسُ نُوّم[2]

إلى أن يقول:

ولا تجزعي مما دهاك وتفزعي فأهلك في بطحاء مكة خيّموا
فخاضوا غمار الموت إما لموتةٍ وإمّا لعزّ حوضُه لا يعدّمُ
يقودهم ملك إلى ساحة الوغى بعز المعالي ذلك الملك مغرمُ

وشارك شعراء من فلسطين بالتغني بالنصر يقول أحمد شاكر الكرمي في قصيدة بعنوان (بيضوا وجهنا):

هذه دورهم وهذي المغاني قف عليها ودع غرام الغواني[3]

---

(١) القبلة/ ١٦ محرم ١٣٣٦م البصير: من شعراء ثورة العراق البارزين ١٩٢٠. درس في جامعة آل البيت التي أسسها الملك فيصل في بغداد. له عدة أعمال منها ديوان البركان. يهاجم البصير الترك ويتهمهم بالاساءة للإسلام مثلاً يقول

تغالط بالإسلام عابثة به ومن بغيها الإسلام يبرأ والكفر

وفي قصيدة الصحاف في ١٣ ـ محرم ١٣٣٦ المشار إليها سابقاً فإن الصحاف تغني بالانتصار على الشركس وانهزام جيشهم. محمد مهدي البصير ١٨٩٤ ـ ١٩٧٤ ولد في الحلة. ترعرع فيها عمل بالسياسة. عام ١٩٢٠ أصبح خطيب الثورة العراقية. عمل في جامعة آل البيت في الأعظمية ثم درس في فرنسا عن الشعر الغنائي لكورنيه بعد رفض مشروعه عن الشعر الجاهلي. من مؤلفاته عصر القرآن، في الشعر العباسي، نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر.

(٢) الشاعر مجهول.

(٣) النهضة/ ١٨ جمادي الثانية ١٣٣٦هـ.
أحمد شاكر الكرمي: ـ ولد عام ١٨٩٤م وتوفي في عام ١٩٢٧م من آثاره الكرميات، خالد، في الخريف والربيع وهو من محرري القبلة وابن الشاعر سعيد الكرمي وشقيق حسن الكرمي أنظر يعقوب العودات أعلام الفكر والأدب في فلسطين (عمان: ١٩٧٦) ص ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩.

وفي قصيدة أخرى بعنوان (أيها العيد):[1]

عبث الأعداءُ بالدين القويمِ واستهانوا بأسودِ العربِ
فأبى سيدُنا أن يستنيم ورماهم بالرّدى من كثبِ

وفي قصيدة محمد الخضر الشطي فإنه يردد الأفكار نفسها:

يقول مصوراً النصر الذي فخرت به مكة المكرمة:

به مكة الغراء جرت ذيولها على الأرض تيها إذْ بها غز الغرِّ[2]

وبدأ بعض الشعراء في مهاجمة الترك والتهكم على سياستهم مثلاً عبد المحسن الصحاف يذكر في قصيدة بعنوان (بمناسبة خطبة الطاغية)[3].

يقول:

كذبت يا جمالُ بما زعمتا أتنسى كم شنقتَ وكم قتلتا
فتعساً ثم تعسا ثم تعسا لأسوأ خطةٍ فيها مشيتا
وكم أفسدت إفساداً صريحاً وبالشرع الجليلِ قد ازدريتا
وكم مالٍ غصبتَ بغيرِ حقٍّ وحقٍّ للأرامل قد سلبْتا
زميلُك أنورٌ في كل جرمٍ وقبحٍ في الوئام له انتميتا
فما ملكَ البلادَ سوى (حسينٍ) شريفِ الأصلِ من منه اندهشّتا

ويذكر الشاعر (محمد الفراتي) المعنى نفسه في قصيدته التي مطلعها:

مليكٌ دعا للحربِ دعوةَ حازمٍ فلبّتْ دعاه الصيدُ في البرِّ والبحرِ[4]

وبدأ يظهر التهكم على الأتراك والألمان مثلاً في قصيدة (جنت على أهلها

---

(١) القبلة/ ١١ شعبان ١٣٣٦هـ.
(٢) القبلة/ ١٧ شعبان ١٣٣٦هـ.
محمد الخضر الشنقيطي: قاضي للقضاة في حكومة رشيد طليع الأولى ١٩٢١/٤/١١.
(٣) القبلة/ ٩ رمضان ١٣٣٦هـ.
(٤) القبلة/ ١٢ رمضان ١٣٣٦هـ.
محمد الفراتي من دير الزور في سوريا ولد في أواخر القرن الماضي وبعد انهيار الحكومة الفيصلية غادر للعراق ثم دول الخليج العربي تغنى كثيراً بالثورة العربية الكبرى انظر محمد صبري الاشتر الشعر العربي في سورية بين الحربين العالميتين (رسالة ماجستير) معهد الدراسات العربية العالمية ـ الجامعة العربية صفحات المقدمة رقم (ب).

براقش) يقول الصحّاف:

يا خيبةَ الألمان مما نالهم من هولِ خطبٍ مزعجٍ وهجاءِ
أو ما ترى غليومَ بات يئنّ من سحقِ الهجومِ وحسرةِ الضغطاءِ

يا تركيا كنت الفتاة بما مضى
والآن شبه أسيرة شمطاء
نوحي على الاستانة العذرا التي
ملكت بنفخ البوق والإغراء
فالاتّحاديّون في أرجائِها
عاثُوا فساداً (؟) الأعداء[1]

وفي شعر الصحاف أكثر من إشارة لهزيمة الأتراك يقول في قصيدة بعنوان:

يا بني العرب هلمّ إهجمُوا
ليس يأتي الموتُ إلاّ بالأجلْ
نجمُ فخري وجمالٍ قد أفَلْ
واختفى جيشهما بلْ واضْمحلْ[2]

ب - نصرة الإسلام:

اعتبر الشعراءُ أن النصر على الأتراك كان نصراً للإسلام والعرب بالإضافة للملاحظات السابقة التي وردت فإن الشعراء ركزوا على بعث وابداء الدين الإسلامي من جديد مثلاً في قصيدة (شاكر)[3].

إن كبّر المسلمون اليوم من طرب بمقدم العيد عيد البر والقربِ
فإنّهم كبروا من قبلِه فرحا بعودة الملْكِ والسلطانِ للعربِ
إذا نسينا فلا ننسى لسيدنا تخليص أقوامه من مخْلب العطبِ
ونصره الدين والإسلامَ في زمنٍ عمت به بدعُ الالحادِ والرِّيبِ

(١) القبلة/ ١٩ ذو القعدة ١٣٣٦هـ.
(٢) القبلة/ ١٦ رمضان ١٣٣٦هـ.
(٣) القبلة/ ٣٠ رمضان ١٣٣٦هـ.
يبدو أن الشاعر الذي لم يذكر اسمه كاملاً هو (أحمد شاكر الكرمي) لأن أحمد شاكر اسم مركب بالإضافة أن الشاعر نفسه عمل في الجريدة نفسها.

وبدأت تظهر الاشارات بعودة السلطة في مكة إلى العرب في قصيدة (شاكر) أيضاً بعنوان «تقبَّلْ أيا مولاي ـ تبريك أمه»[1] يقول:

هنيئاً لمن حجُّوا ولبُّوا وكبّروا ... وعجُّوا بذكرِ اللّهِ واللّهُ أكبرُ
أتوْا من بلادٍ نائياتٍ قصيّةٍ ... ليحظوْا بغفرانِ الذنوبِ ويؤجرُوا
فكانَ لهمْ حجّانِ حجٌّ إلى التي ... أناخُوا حواليها وطافُوا وقصّرُوا
وحجٌّ إلى بابِ الحسينِ مليكنا ... أمامُ الهُدى ليثُ العرينِ المظفّرُ

وفي قصيدة «علي ريماوي» أمام المسجد الأقصى اشارة لعودة الدولة العربية يقولُ مخاطباً الملك حسين[2]:

أعدَت إلينا دولةَ العُرب الّتي ... عفتْ دارُها في عهدها المتقدّمِ
فقمتَ وقامتْ دولةٌ عربيةٌ ... بنيْتَ لها صرحاً بحزمٍ ولهْدمِ

وظهر في القصائد على نحو لوحظ في قصيدة الصحاف بأن الأتراك ابتعدوا عن الإسلام مثلاً قصيدة الصحاف التي تطرق فيها لصفات جمال باشا (السفاح).

قصائد عام ١٣٣٧هـ:

وصل عدد القصائد في هذه السنة الذروة بحيث بلغت ٦٣ قصيدة ويلاحظ فيها ما يلي:

١ ـ مشاركة شعراء من المغرب العربي وشمال أفريقيا مثلاً العدل صالح بن النجار من القيروان، ومحمد أنيس من السودان. . . . غير أن نصيب الأسد كان لشعراء سوريا ولبنان وفلسطين يمكن القول أن هذا هو أبرز الفروق بين شعراء عام ١٣٣٧هـ إذ أن المشاركة العربية من سوريا ولبنان وفلسطين جاءت بعد تحقيق النصر وإن شعراء المهجر الذين ساهموا في مرحلةٍ مبكرة من الشعر كانوا بعيدين عن بطش الأتراك فعبّروا بحريةٍ عن رأيهِمْ من بعد في وقتٍ كان يخشى العرب في سوريا ولبنان وفلسطين أن يفعلوا ذلك قبل انسحاب الأتراك وبعد

---

(١) القبلة ١٧ ذو الحجة ١٣٣٦هـ.

(٢) القبلة ٦ ذو الحجة ١٣٣٦هـ.
علي ريماوي: الشيخ علي الريماوي (١٨١٠ ـ ١٩١٩).
مواليد بيت ريما درس في الأزهر أصدر جريدة بيت المقدس عام ١٩٠٧ في القدس ثم النجاح اشتهر بشعره الوطني.
أنظر يعقوب العودات، مصدر سابق.

تحقيق الانسحاب فإن مساهمتهم بدت واضحة جداً عام ١٣٣٧هـ.

ولوحظ ارتفاع عدد الشعراء من فلسطين الذين زاروا الملك ومنهم سليمان التاجي الفاروقي (من أعيان فلسطين ورجال الأدب فيها) وسعيد الكرمي مفتي بلدة طول كرم وارتفاع عدد الشعراء من سوريا ولبنان مثلاً شفيق جبري، عبدالله نديم الجر الطرابلسي وأنيس سلوم ومصطفى الغلاييني وحليم دموس ومحمد فهمي الأتاسي.

المضمون السياسي للقصائد:

أ - استمرار التغني بالنصر والتهجم على الأتراك:

ظهر في القصائد موضوع الفخر بالنصر يقول عثمان قاضي[1]:

بعزمِ مليكِ العربِ قد عاد مجدُنا
ونلْنا أمانينا وحقّ لنا الهنا
ألا ابْشروا يا قومُ كل موحد
بأنّ ديارَ الشامِ قد فُتِحتْ لَنا

ب - استمرار وتكرار موضوع الدفاع عن الإسلام يقول عثمان القاضي:

وإنّ لنا عزماً شديداً وهمَّةً
تخرُّ بها الأملاكُ ساجدة لنا
نصونُ بها ديناً حنيفاً وملّةً
ونغْدو لها حِصْنا حصيناً محكّماً[2]

جـ - التركيز على البلاد العربي المفتوحة في الأشعار مثلاً ذكر الشام حيث يقول الشاعر:

هناك، دمشقُ الشامِ يبسمُ ثغرُها
لفتحك والنصرُ العظيمُ وذا الهنا

---

(١) موظف البرق بالعاصمة بالحجاز
انظر القبلة غرة محرم ١٣٣٧.
هناك وصف متكرر للأتراك (بني جنكيز) يقول عثمان القاضي:
إن بني جنكيز طاشت سهامهم وخابت أمانيهم بتشتيت شملنا

(٢) المصدر السابق.

لقد فكّ سيفُ الهاشمي مليكنا
قيودَ البغاةِ الكارهين لفخْرنا[1]

وفي قصيدة الأستاذ التاجي (من فلسطين) تصوير أوضح يقول فيه:

هي العرب لازالت وأنت أميرها فإن تفتخر فأهل فخورها
وكان العدى يخشون أمر اتحادنا فقد ثلجُت مما رأته صدورها
أمولاي أن الترك عاثت وأسرفت وقد أركبتنا خطة لا نسيرُها
غادت ولجت في غواية أمرها وجازت حدود الصّبر فأشرورُها
صبرنا وقلنا القومُ في الدين إخوةٌ فكان وراء الحلم منا صرورهَا
ولما أردا اللّهُ تقويضَ ملكِها وحقَّ عليها فسقُها وفجورُها
أتاح إليها من حُثالةِ قومِها زعانفُ باسم الاتحادِ تديرُها
إلى الحربِ للألمانِ لا لمحمّدٍ ولا غضباً للدينِ كان نفيرُها
سيوفٌ لغيرِ اللّهِ كان امتشاقُها دماءٌ لغيرِ الله فاضَ غزيرُها[2]

وكرر الشيخ محمود شويل الشيء نفسه يقول:

فإن الترك قد عاثُوا فساداً
ولم يرعَوْا حراماً أو حلالاً

وفي الوقت الذي كان يوصف به الأتراك بالفساد فإن الملك حسين كان يوصف بالتدين والطيبة الكرم يقول الشاعر نفسه:

أشدّهم على الأعداء بطشاً وأحسنُهم لدينِ اللّهِ حالاً[3]

وبدأ بالتغني بفتح سوريا مثلاً في قصيدة (قسطنطين يني) يقول الشاعر:

سر فاتحاً يجيوشك العربية أرض الشآمِ محرّراً سورية
صبرت على جورِ الطغاةِ فجاءها فرج أعاد لأهلها الحريّةْ

---

(١) المصدر السابق.
(٢) القبلة ١٨ ـ ربيع الأول ـ ١٣٣٧ هـ. سليمان التاجي الفاروقي (١٨٨٢ ـ ١٩٥٨) ولد في الرملة وتخرج من الأزهر أصدر جريدة الجامعة أصبح عيناً في مجلس النواب الأردني.
(٣) القبلة ١٨ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ.
الشيخ محمود شمويل من علماء المدينة ومدرس الحرم النبوي الشريف كان اضطهد من قبل العثمانيين الأتراك ونفي.

فتنفّسوا الصعداءَ بعد كروبهم وتهلّلوا بـزوالِ كـلِّ زريّـةْ
فتحُوا صدورَهمُ لملقى جيشِك الغازي وطـلعـةِ فيصـل المـلكيّـهْ
جيشٌ أرى الأتراكَ أنّ قوامه الدينُ الحنيفُ وصمَّةٌ عربيّةْ[1]

وفي القصيدتين للشيخ جرجي الحداد[2] وايليا سليم عطيه[3] يتكرر المعنى نفسه يقول ايليا سليم عطيه ما يلي:

لا تقصدي غيرَ الهمامِ الفيصلِ وبغير ساحةِ فيصلٍ لا تنزلي
فلكلِّ نجم في المنازلِ رتبةٌ والعينُ تعشقُ بدرَ تمّ اكملِ
يا قائدَ الجيشِ المظفّرِ سِرْبِهِ فله بأرضِ الشامِ أكرمُ منزلِ
أ (دمشقُ) قد زالَ العناءُ فكبرى لطليعةِ الجيشين فيكِ وهلّلي[4]

وفي قصيدة (شفيق جبري) يلاحظ الشيء نفسه يقول:

مـروج الشام وغيـطانها سقتـك السحـائب هتـانهـا
وهبت عليك نسيم الصبا تناغي الورود وأغصانها
فلله مجـد ينته لنـا قـريش رعى الله بنيـانهـا[5]

وفي قصيدة العلم الواحد لابراهيم سليم النجار يتغنى بالدولة العربية وأيامها الغابرة وينادي بالوحدة العربية يقول:

أبني الشام أتم ربكم لكم ما شئتموه في الفلاح الكامل
أعلام مكة والعراق وسوريـا في واحد فرد كبيـر شامـل
سنعـزه علماً ونـرفـع شـأنـه رغم المصاعب والزّمان المائل[6]

---

(١) القبلة ١٥ محرم ١٣٣٧هـ.
(٢) القبلة ٢٢ محرم ١٣٣٧هـ.
(٣) القبلة ٢٢ محرم ١٣٣٧هـ.
(٤) نظم الشاعر قصيدته قبل وصول خبر فتح دمشق.
(٥) القبلة ١٨ ربيع الثاني ١٣٣٧ ونشرت في لسان العرب الدمشقية.
شفيق جبري (مواليد دمشق ١٨٩٥) عمل رئيساً للمعارف مدة طويلة وعميد لكلية الآداب في الجامعة السورية بدمشق وهو عضو المجمع العربي العلمي بدمشق. له دراسات حول كتاب الأغاني وأدب الجاحظ والمتنبي. انظر محمد صبري الأشتر، مرجع سابق ص (ب) في المقدمة.
(٦) القبلة ٢٥ ربيع الثاني ١٣٣٧.

تكرر هذا الموضوع هذا العام (١٣٣٧) هـ أكثر من غيره مثلاً في مدح الأمير فيصل يذكر (حسين روحي)[١] ما يلي:

التـرك تسـطو في القتـال كسـطوة الكلب العقـور
ورمـاح فيصل في الـوغى بين الأضالـع والنحـور
وأتى دمشق بصـولـه شمـاء كـالأسـد الهصـور
وأبـاد ظلم الترك من أرض الشـام بـلا فتـور[٢]

د ـ مبايعة الملك حسين ملكاً للعرب:

ظهر الولاء واضحاً للحسين بن علي كملك للعرب وبالإضافة لما ذكر سابقاً فإن الحديث عن البيعة ظهر واضحاً جلياً بعد استرداد دمشق[٣].

يقول فؤاد الخطيب في قصيدة ألقاها في حضرة الملك حسين:

أهـلاً بأكـرمِ سيّـدٍ ومؤمّـلِ في النائباتِ ولات حين معوّلِ
أنتَ المؤيّدُ بالعنـايةِ والّـذي قد جاء حبُّك في الكتاب المُنْزَلِ
إنْ بايعتكَ بنو الشآمِ فقد رأتهْ نورَ النبوّةِ من جبينكَ يَنْجَلِي
هي بيعةُ الرّضوانِ لابنَ محمّدٍ عادتْ مع التّاريخِ لم تتبدّلِ

وفي قصيدة «عبدالله نديم» فإن المديح نال أبناء الحسين من المجاهدين حيث أطلق الشاعر على الأمير علي (زين المجاهدين) وشطر قصيدة الفرزدق المشهورة بقوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ودار طـه به تـزهـو وتبتسمُ
هذا الذي تعرفُ الأكوانُ سوءدده والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلّهم شخصُ النبوة حقّاً فيه مرتسمُ

---

(١) سكرتير المعتمد البريطاني بجدة آنئذ ثم جاء لامارة شرق الأردن ومكث في الأردن وعمل في حقل التعليم.

(٢) القبلة غرة محرم ١٣٣٧ نظم القصيدة في ٢٨ نيسان سنة ١٣٣٦.

(٣) القبلة ٥ محرم ١٣٣٧ فؤاد الخطيب (١٨٧٩ ـ ١٩٥٧) من مواليد شحيم قرب بيروت تخرج من الجامعة الأميركية عام ١٩٠٤ لقب بشاعر الثورة العربية تولى تحرير (القبلة) في مكة وأصبح وكيلاً للخارجية في عهد الحسين بن علي ولازم الملك فيصل ثم الملك عبدالله بن الحسين وأصبح مستشاراً له انظر الأعلام ج ٥ ص ١٦٠.

هذا الغضنفرُ بطشاً بالمها خفراً هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلَمُ[1]

وفي قصيدة الشاعر «سعيد الكرمي» من فلسطين يشير لعودة الحكم العربي ويظهر في القصيدة ولاء الشاعر للحكومة الجديدة يقول:

وعادت قريش في منصة عزها تقيم لواء المجد فليفرح النصرُ
فلله مولانا وللسيد الذي أعاد معالي قومنا الحمد والشكرُ[2]

وفي قصيدة الشيخ «عبدالله كمال القاضي»[3] يصف هذه الفتوحات في سوريا بأنها مثل الفتح النبوي.

يقول الشيخ عبدالله كمال قاضي:

فتوحٌ لدارِ المصطفى جاء بالبشرى وأورث كلَّ الناسِ من لُطْفِه بِشْرا
فتوحٌ مبينٌ قد أتى آلهنا لسيِّدنا فيهِ البشائرُ والنّصرا
فلا برّح النصرُ العزيزُ حليفَهم ولا زال عونُ الله يصحبُهم طُرّا

وفي هذه الأبيات يلاحظ اشارة لافتتاح سورة الفتح في البيت الأول وفي البيت الثالث لقوله تعالى ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾.

وفي قصيدة (نهضة الأسد)[4] يتغنى الشاعر بأهل الشام لباني النهضة يقول:

ومشى لك (الأمويُّ) فهو أراكةٌ (والغوطةُ) الغنّاءُ فهي حمامُ
ولا قبلت (بردى) تجد وتلتوى ولها هتافٌ تارةً ونغامُ

---

(١) القبلة ١٨ جمادى الثانية ١٣٣٧.
عبد الله النعيم ابن حسين الجسر الطرابلسي (١٨٧٩ ـ ١٩٣٤) من طرابلس الشام ولد هناك وتولى تحرير جريدة طرابلس الأسبوعية كان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني ورئيساً لمجلس الشيخ والنواب اللبناني فيما بعد تولى رئاسة محكمة الاستئناف توفي بطرابلس انظر خير الدين الزركلي الاعلام. ج ٦ ص ١٠٦.

(٢) القبلة ٢٦ ربيع الأول ١٣٣٧هـ سعيد الكرمي (١٨٥٢ ـ ١٩٣٥) من مواليد «طول كرم» درس في الأزهر أصبح قاضياً للقضاة) في شرق الأردن وهو مفتي بلدة طول كرم وأحد كبار علماء فلسطين أسس المجمع العلمي في شرق الأردن انظر يعقوب العودات مصدر سابق، ص ٥٤٧ ـ ٥٣١.

(٣) قاضي الطائف، محقق، وعالم وقاضي القصيدة بعنوان قصيدة الفتح النبوي نشرت في القبلة عدد ١١ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ.

(٤) القبلة ٢٣ جمادى الأولى للشاعر سمير الرافعي من ضباط الجيش العربي في دمشق.

هي في يمينك في السلام صحيفةٌ تزْهُو ي يوم الخصام حسام

وبعد فتح حلب زاد الحماس والتغني بالمدن المفتوحة[1].

مثلاً بعد فتح حلب فإن الشاعر الطيب الساسي المدني يتغني بحلب:[2]

ويا حلب ارفلْي بثوب عز بجحفل فيصل الشهم الهمام
هزبر من سلالة هاشم أزال من الأعادي كل هام
ألا يا منقذا للعرب يا من تعالى شأوه عن كل سام

ولقد ظهر التضامن والمشاركة العربية في قصيدة العدل صالح بن النجار من تونس ومطلع القصيدة:

أراك سعيدَ الحظِّ والسعدُ مقبلٌ كأنّك تحظى بالّذي أنت آملُ
أيا ابنَ عليّ فزتَ يا أشرفَ الورى على بابكم وفدٌ لتونسَ حافلُ
يهنِّيكَ بالعيدِ الذي أنتَ عيدُه ويدْعو لكم بالنّصر والله يَقْبَل[3]

وظهر الشيء نفسه في قصيدة محمود أنيس من السودان[4].

ظهر موضوع السلام في القصائد وتغنّى به الشعراء ففي قصيدة (حسين روحي) (الصلح قد عم الأنام) يقول:

زمن الحروب والانتقامُ ولى وقد جاء السلامْ
والاختلافَات انتهتِ والصلحُ قد عمَ الأنامْ

---

(١) كان الفخر دائماً بالهاشميين غير أن حسين روحي وبسبب وظيفته على ما يبدو فإنه كان يشيد بالحلفاء ويهاجم الألمان مثلاً بعد فتح حلب وفي قصيدة حسين يوم ٢٦/ديسمبر ١٩١٨ التي نشرت بالقبلة في ٢٢/محرم/١٣٣٧ يقول:

وقد فازت الحلفاء في كل جبهة اهلكت الاداء في السهل والغب
وقد أصبح الألمانُ في الحرب وحدهم أمام جنود فاقت الرمل والحب
وبرلين بات الضيفُ فيها مخيّما وأضحى بنوها والأرامل في نحب

(٢) القبلة في ٢٥ محرم ١٣٣٧ عنوان القصيدة (أعدتم بالقنا مجدا اثيلا).

(٣) القبلة ٢٣ صفر ١٣٣٧هـ.

(٤) القبلة ٢٥ جمادي الثانية ١٣٣٧هـ مطلع القصيدة:

هنيئاً يا بني العرب الكرام بما نلتم من النصر المرام

والشيء نفسه يقال عن قصيدة الطيب العقبي في القبلة ٢٩ جمادي الثانية ١٣٣٧ ومطلعها:

هنيئاً لك الملك الذي أنت مالكه وكم ملك ضاعت عليه ممالكه

التـركُ والألمـانُ والنمسـا ومن بـدأ الـخصـامْ
وقعـوا بـأنيـاب الـرّدى وعـظيم دلّ وانهـزامْ[1]

ويكرر الشاعر المعنى نفسه في قصيدته (قرِّب الصلح يا إلهي)[2] يقول:

ضجَتْ النـاسُ من حـروب هـالَت الخلْقَ في البـدَايـةْ
كـان أسـبـابـهـا رجـالٌ جُـبٌّ أعـمـالـهُـم غـوايَـةْ
آلـةُ الـحـرب أعـدمـوهـا واتـقـنـوا آلـة الـثـنـايـةْ
واجعلوا النـاسَ في نـعيـمٍ كي بـه تُحمـدِ السـرايـةُ
قـربِّ الـصلح يـا آلـهي وأصلح الحالَ في النِّهـايـةْ

بروز نجم الملك فيصل والحديث عنه كمنقذٍ للعرب:

ركز الشعراء على الملك فيصل بشكل كبير فظهرت مثلاً القصائد التالية:

قصيدة يا ربة الشعر للشاعر (حليم دموس) يقول بعد عودة الملك فيصل من مؤتمر الصلح[3]:

يا ربة الشِّعر حيّي فيصلَ العربِ أسمعيه حديثَ الشوقِ عن كَثَبِ

وفي قصيدة تحية الامارة يقول (محمد فهمي الأتاسي)[4]:

ومـا أنـت: ألا فـيـصـل الـشـرق الـذي
جـلا حـدَّه الـمـاضـي نـزارٌ ويـعـربُ

ويذكر الشاعر «أنيس سلوم» في قصيدته (الندى الرطيب في واجب الترحيب)[5]:

---

(٣) القبلة ٩ صفر ١٣٣٧هـ.
(٢) نظمت القصيدة في ١١ ربيع الثاني ١٣٣٧ ١٤/ يناير ١٩١٩ ـ القبلة ١٩ ربيع الثاني ١٣٣٧.
(٣)) القبلة ١٩ شعبان ١٣٣٧.
حليم دموس (١٨٨٨ ـ ١٩٥٧) حليم ابراهيم جرجس دموس ولد ونشأ في زحلة في لبنان وشارك في تحرير جريدة امهذب من آثاره ديوان حليم الثالث والثاني ورسالة الأغاني الوطنية وقاموس العوام ويقظة الروح ورباعيات وتأملات ذات في جونية انظر الزركلي، الأعلام ج٢.
(٤) القبلة ٢٦ شعبان ١٣٣٧ محمد فهمي الأتاسي من دمشق.
(٥) القبلة ٢٦ شعبان ١٣٣٧هـ أنيس سلوم (١٨٦٣ ـ ١٩٣١) ولد في حمص وتوفي في دمشق كان عضواً بالمجمع العلمي العربي.

وأجـدادك الأشـرافُ مـن آل هـاشـمٍ
وأنـت عـمـيـدُ الـعـربِ فـيـصـلـهـا الـفـرْدُ

وفي قصيدة (سعيد الكرمي) بعنوان (أمير سورية) يمدح الشاعر الأمير[1]:

مـن ذا يـكـون كـفـيـصـل فـي مـجـده
وعـلاه وهـو سـلالـةُ الأمـجـادِ

وفي قصيدة (فؤاد الخطيب) «إلى أمير سورية» يمتدح الملك فيصل بقوله[2]:

ومـا فـيـصـل إلا حـسـامٌ مـجـرّدٌ
وفـي يـدِ جـبّـار حـمـائـلـه

وفي قصيدة «مصطفى الغلاييني» (تحية سوريا إلى أميرها المحبوب).

يمتدح الشاعر الملك فيصل:

يا فيصل العرب ان العرب قد عرفت لك الجميل وسيف الترك يغريها[3]

وفي قصيدة بعنوان (الأمير فيصل في باريس) فإن الشاعر «زهير» يمتدح فيصلاً يقول:

يا ويلكم هذا الذي أجداده هزموا الفرس والرومان[4].

بيد أن بعض القصائد ركزت على مدح الملك حسين مثلاً (اسكندر حنا) من (بيونس ايرس) يمتدح الملك حسين في قصيدة (الأمنية العربية)[5] في النهضة

---

(١) القبلة ٢٦ شعبان ١٣٣٧.
(٢) القبلة ٢٦ شعبان ١٣٣٧.
(٣) القبلة ٢٦ شعبان ١٣٣٧.
مصطفى الغلاييني: (٨٨٦ - ١٩٤٤) مصطفى محمد سليم الغلاييني ولد وتوفي ببيروت من تلاميذ الشيخ محمد عبده عهد إليه الأمير عبدالله بن الحسين بتعليم نجله نصب رئيساً للمجلس الإسلامي في بيروت وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي من آثاره نظرات في اللغة والأدب وعظة الناشئين ولباب الخيار في سيرة النبي المختار والإسلام روح المدينة يرد فيها على كرومر وله ديوان وله رجال المعلقات العشر.
انظر الزركلي، الأعلام، مصدر سابق ص ١٤٦.
(٤) القبلة ٢٦ شعبان ١٣٣٧هـ (زهير: مجهول الهوية).
(٥) القصيدة في (بيونس ايرس) في ١٩١٩/٥/٢٦م - ٣٠ - شوال - ١٣٣٧.

الهاشمية وفي قصيدة (حسين روحي) تتطرق للشيء ذاته مع دعوة للوحدة بعنوان (يا أمة العرب الكرام تنبهي)[1].

قصائد عام ١٣٣٨هـ:

بلغ عدد هذه القصائد (١٦) قصيدة وفيها يظهر ما يلي:

١ ـ عودة شعراء المهجر للمشاركة ثانية.

٢ ـ اختفاء أسماء كثير من الشعراء الذين ساهموا في الكتابة.

نوعية الشعراء: معظمهم شعراء سوريون أو لبنانيون من المهجر في غالبيتهم.

المضمون السياسي لهذه القصائد:

أ ـ تركزت قصائدهم على:

المفاخر والاعتزاز بالاستقلال والاشارة بالمواقف الوطنية مثلاً (الياس فرحات) في قصيدته بعنوان (تحرسك عين عناية الرحمن) فإن الشاعر يشيد بتضحية وجهد الملك فيصل يقول:

العرش عرشُك يا فتى عدنانِ ... ابطأت أم أسرعت في الاعلانِ
تهدى الشام إلى علاك أريكة ... ميمونةً محروسةَ الأركانِ
فرشوا النفائسَ في طريقك عندما ... علموا بيوم قدومك المحسانِ
ولو أنهم فرشوا القلوب لما وَفْوا ... ديْنا تسجّل بالنقيعِ القاني[2]

وفي قصيدة أخرى فإن شاعراً عراقياً (لم يذكر اسمه) يشيد في قصيدته بعنوان (تحية ملك العرب)[3]:

ألا حيّيا عني سراة بمكة ... وبثا لهم شوقي وصدق مودتي
أيا منقذ الأعراب من كل ورطةٍ ... ويا قائد الجيش الهمام لغارةِ
وأنت الذي ألّفت بين قلوبهم ... وأسكتّهم من بعدِ شغب وضجّةِ

---

(١) القبلة ١٢ شعبان ١٣٣٧.

(٢) الياس فرحات، من مواليد عام ١٨٩٣ في كفرشيما/ لبنان. هاجر للبرازيل. عمل بالتجارة. أصدر مجلة الجديد. له ديوان رباعيات فرحات وأحلام الراعي.
القبلة ٢٧ محرم ١٣٣٨هـ.

(٣) القبلة ٢٣ صفر ١٣٣٨هـ ١٩١٩/١١/٦.

وفي قصيدة لشاعر آخر ظهر الاعتزاز بالملك فيصل وبالثقافة العربية يقول الشاعر:

ولبس عبـاءة وحليب نـوق أحب إليّ من حلوى الفرنج
ودبكات البداوة في الصحارى أحب إليّ من رقص وغنج
اصـوات المهابـج في خيام أحب إليّ من عـود وصنج
أنـا بـالأصـل سـوري ولكن لغير العرب نصراً لا أرجّى
أميري فيصل أنت المـرجى أنا ما هاجم الاعجام برجي
بك السوري حاز اليوم مجدا لـديه ذلّ تـركيٌّ وكـرجي[1]

والشيء نفسه يقال عن قصيدة للوليد بن عبدالله بن طعمه المسيحي اللبناني كما وصفته القبلة يقول:

جـزيـرة الـعـرب قـد هـبـت عـواصفـهـا
فـلن يـقـوم بـهـا لـلـتـرك بـنـيـان

ويقول في قصيدته الثانية:

يمشـي النـصـارى ويمـشي الـمسـلمـون معـاً
فـنـحـن أبـنـاء عـم يـوم نـنـتـسـب

وهكذا يلاحظ في القصائد الشعور الوحدوي على المستوى القومي والمستوى الديني وبلغ الشعور بالفخر والاعتزاز بالاستقلال ذروته في قصيدة الشاعر «فؤاد الخطيب»[3]:

---

(١) الشاعر مجهول نشرت قصيدته في صحيفة الاتحاد العربي والقصيدة على غرار قصيدة ميسون الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان وفي القصيدة دعوة للتمسك بالقيم (التصريح والبيان) نشرت عام ١٩١٧ بالولايات المتحدة الأمريكية.
القبلة ٨ ـ ربيع الأول ـ ١٣٣٨.
نشرت عام ١٩١٧ في الولايات المتحدة.

(٢) الشاعر عرفته القبلة بأنه (صاحب العربيات) ونفحة الورد والأنفاس العربية نشرت قصائده في الولايات المتحدة وصاحب نشيد:
حيـوا الحريـة يـا عـرب واحمـوا رايتكم والـوطـنـا

(٣) القبلة ٢٧ جمادى الثانية ١٣٣٨هـ القصيدة قيلت في ١٨ ـ ٣ ـ ١٩٢٠ (بمناسبة اعتراف هولندا بالحكومة الهاشمية) وفي القبلة ١٤ شعبان ١٣٣٨هـ قصيدة للبناني مهاجر النفس المعنى.

حي الشريف وحي البيت والحرما
إنهض فمثلك يرعى العهد والذمما

إلى الشام إلى أرض العراق إلى
أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ويظهر في قصيدة (قسطنطين يني) «كن فينا الاماما» اعتزازاً ومدحاً مماثلاً:

بطل العرب الهماما طال صمتي فإلى مط
أنت في التدبير شيخ تستحق الاحتراما
فيصل العرب امط في محضر العرب اللثاما
انظر الناس تحييك جلوسا وقياما[1]

ب ـ التنمية:

بدأ يظهر موضوع الاهتمام بالتنمية مثلاً (قسطنطين يني) في قصيدته يمتدح اهتمام الملك بالعلم:

مليك قد بنى للعلم صرحا يهذب فيه أفكار الجماعة[2]

وقصيدة «محمد حبيب الله الشنقيطي» تكرر المعنى نفسه:

أدام ربي ملكُه وعمرا به البلاد والعلوم نشرا[3]

قصائد عام ١٩٣٩:

يبلغ عدد هذه القصائد حوالي ٢٢ قصيدة.
أبرز الملاحظات عليها ما يلي:

١ ـ نوعية الشعراء:

ظهر الشعراء السوريون في هذه الفترة وتحدثوا عن الجهاد ضد فرنسا وشارك معهم قليل من شعراء المهجر ثم ظهر الشعراء العراقيون بعد تتويج الملك

---

(١) القبلة ١٦ رجب ١٣٣٨هـ.
بيونس ايريس ٢١ كانون ١٩١٩.
(٢) القبلة جمادي الأولى ١٣٣٨هـ.
(٣) القبلة ١٦ رجب ١٣٣٨هـ.
محمد حبيب الله الشنقيطي: ـ علاّمة ومحقق وأديب.

«فيصل» على عرش العراق.

٢ ـ المضمون السياسي للقصائد:

أ ـ الجهاد في سبيل الوطن:

ظهرت الأطماع الاستعمارية ووقع الصدام في سوريا بين الملك فيصل وفرنسا.(١)

كثير من القصائد التي ظهرت هذه السنة حثت على موضوع الجهاد في سبيل الوطن العربي:

في القصيدة الدمشقية يقول الشاعر:

وتعال نقسم قائلين لأمنا أرض الشام نموت كي نحييك

وفي القصيدة الباريسية يقول الشاعر:

شُلّت يمين المسلم العادي على أخوانه في الشام كي يفديك(٢)

وفي قصيدة (أبو فراس الصغير) بعنوان «دمعة ثائر من سوريا» يقول فيها:

لسخرت من قلبي ومن وجداني إن كنت تعذلني على الأشجان
أرأيت كيف أبيح للباغي الحمى ما زال من عز ومن سلطان
وغدا يقسم كل أرض قسمة متصرفاً بأزمّة الخوان
وكأنه قد جاء ينقذ أهلها ويجيرهم من برح نير ثاني
حتى إذا نفدت بها أوطاره أودى بهم جذباً بكل عنان
ولقد شفى من كل نفس حرة سيف تألق في سماء معان
فأنظر إلى علم كنسر خافق فوق الأسود وغابة المران
لبيك يا سيف الحسين المنتضى لله والتاريخ والأوطان(٣)

ب ـ الهجوم على الغرب:

بعد تنكر الحلفاء للعرب وما وقع في سوريا فإن الشعور ضد الغرب قد تعبأ

---

(١) القبلة ٣٠ صفر ١٣٣٩ قصيدتان ظهرتا في العدد الأول من سوريا الجديدة في ريو دي جانيرو في البرازيل.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) القبلة ٩ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ.

وقد أخذ يظهر في القصائد مثلاً قصيدة الياس فرحات (أيها الغرب)[1]؛

عذرتك لو وجدت لديك عذرا ولكني أراك أتيت نكرا
ولا تتلوا لنا الانجيل انا كتبناه لكم سطر فسطرا
بعثنا في الدنيا صلاحا فلما صار فيكم صار وزرا
أفيصل والمطامع محدقات بنا وحوادث الأيام تترى
تراب الرافدين وأنت منا بعزة نفس الأبطال أدرى
أنا واطئته رجل الظلم أمسى كبارود وضعت عليه حجرا
وإن نفشل ويغشى الشآم ضيم جعلنا الشام للأعداء قبرا

ويهاجم فتى الإسلام النجفي فرنسا في قصيدته (هذه عواطفنا):

غورو أتئد هل أنت تحسب هذه احدى الغنائم
هيهات كفي يا ذئاب فمما رى قومي بهائم
كم تدعين العدل فينا يا فرنسا والمراحم
الشام مأسدة الكماة حذار منها يا نعائم[2]

جـ - الالتفاف حول الملك فيصل:

بعد مغادرة الملك فيصل لسوريا اثر معركة (ميسلون) فإن الاحتفالات تتالت ترحيباً به وقيل في هذه المناسبة عدة قصائد:

مطلعها:

بضياء وجهك يشرق الدهر وبحسن عطرك يطرب العطر[3]
الكون يطرب والآفاق تبتسم والارض يشرق منها الطل والأكم[4]
من قادم هشت له البطحاء وتعطرت من ذكره الأرجاء[5]

---

(١) القبلة ٤ رجب ١٣٣٩هـ.
(٢) القبلة طهران ايران ١١ محرم ١٣٣٩.
(٣) فتى الإسلام الخليلي النجفي مؤسسي ورئيس المنتدى الأدبي ومحرر صدى طهران الفارسية ومحرر في جريدة رعد الفارسية.
(٤) القبلة ٢٠ شعبان ١٣٣٩هـ «عبداللطيف الجلوي» طالب في مدرسة الفلاح أمام سمو الأمير فيصل.
(٥) القبلة ١٤ شعبان ١٣٣٩هـ في استقبال سمو الأمير فيصل بالعاصمة القصيدة من القاء (هاشم السباك).
القبلة ٢٤ شعبان ١٣٣٩.

رب العظائم والمكارم والسياسة فيصل ذو العزة القعساء:

بـشـرى يـا أكـرم وافـد أحيـا النفوس وخيـر قادم[1]

د. التغني بتأسيس مملكة العراق والمباركة للملك فيصل:

شاعر عراقي يهنىء الشريف حسين بالملك فيصل بعد تتويجه ملكاً على العراق يقول:

نهنيك يا خير الأنام بفيصل غدا بتكاليف العلا خيـر قائم
نهنيكم أهل العراق بفيصل غدا الدهر يزهو فيه بالبشير باسم[2]

ويقول الشاعر اللبناني (ايليا سليم عطية):

اليوم تبتهج الأوطان والعرب هل بعد هذا لنا يا قوم مطلب[3]

وألقى فضيلة الشيخ (عُمر كردي) مفتي الشافعية بالمدينة المنورة قصيدة مطلعها:

حققت وحـدة أمـة عـربيـة لقد استقر التاج فوق عراق
تتـوج التيجـان منـك إنهـا لبنـاك تصبح حُـرة الآفاق[4]

استمرت القصائد تركز على هذا الموضوع بشكل كبير جداً.

قصائد عام ١٣٤٠:

معظم الشعراء في هذا العام محليون يقيمون بالحجاز أي أن الشعراء من المهجر وسوريا لم يعد لهم وجود على النحو السابق الذي لاحظناه في السنوات التي مضت.

وبدا أن الشعراء موظفون محليون، مدير أموال ينبع له قصيدتان من مجموع احدى عشرة قصيدة وهناك أربع قصائد «لفؤاد وشفيق الخطيب» وهناك قصيدة لمفتي الشافعية بالمدينة ومندوب الحضرة الامامية الشريفة والطيب السامي ومحمد لطفي

---

(١) التلميذ نجيب الحوتي من تلاميذ المدرسة لراقية الهاشمية العبكة ٢٧ شعبان ١٣٣٩هـ.
(٢) القبلة ٢١ ذو الحجة ١٣٣٩هـ.
(٣) القبلة ٢٥ ذو الحجة ١٣٣٩ هـ عنوان القصيدة:
«هل دورنا في غد يأتي».
(٤) القبلة ٢١ ذو القعدة ١٣٣٩.

الحموي مدير امن العام ويلاحظ احتفاء الأسماء التي ظهرت في السنوات الماضية...

المضمون السياسي للقصائد:

معظم القصائد كانت في المجاملات والمديح ولم تركز على المواضيع السابقة التي ذكرت.

مثلاً في ذكرى البيعة فإن الشيخ (عُمر كردي) ألقى قصيدة:

ليوم من سناك قد استضاء تبدي يملأ الدنيا ضياء[1]

وموضو وموضوع المجاملات والمناسبات الاجتماعية تكرر ثانية وإلى (شفيق الخطيب) قصيدة مطلعها:

عقد النصر للأمير علي مفخر العرب وابن نبت النبي
يا ابن الحسين ويا ابن أكرم مرسل صدق النبي فـ (لا فتى إلا علي)[2]

ومدح الشاعر نفسه (الأمير زيد) بقصيدة:

حي الأمير شريف النفس والحب من شاء للعرب مجدا غير محتجب
يا زيد أنت كحصن للبلاد فلا تحيا البلاد بلا حصن لدى النوب[3]

ملاحظات عامة:

يلاحظ ما يلي:

١ ـ مساهمة شعراء المهجر في قصائد عام ١٣٣٥هـ وهذه ظاهرة واضحة وسببها تحرر إرادة الشعراء من القيود المفروضة على أبناء المنطقة من جهة واعتزازهم بالقومية العربية ومشاركتهم وتضامنهم.

٢ ـ مضمون القصائد في بداية الثورة ركز في الناحية السياسية على ما يلي:

أ ـ الاعتزاز بالقومية والتغني بالعرب وأمجادهم.

ب ـ مهاجمة أعداء العرب (ألمانيا) واعتبارها عدواً.

---

(١) القبلة ٤ محرم ١٣٤٠ ١٩٢١/٩/١٢ (في ذكرى البيعة).
(٢) القبلة ٢٥ جمادى الأولى ١٣٤٠هـ.
(٣) القبلة ٢٥ جمادى الأولى ١٣٤٠هـ.

جـ ـ التركيز على مهاجمة العثمانيين للإسلام.

د ـ التغني بالشخص (الإنسان) والمكان تغنى الشعراء بالشريف حسين وبالحجاز مكاناً.

٣ ـ يلاحظ في سنة ١٣٣٦هـ تضاؤل دور شعراء المهجر وظهور شعراء الثورة العربية الكبرى والشعراء السوريون والفلسطينيون وأبناء بادية الأردن.

٤ ـ يلاحظ ظهور القصائد البدوية في بداية الثورة لتوعية أبناء الجزيرة العربية وبادية الشام.

٥ ـ بدأ الشعراء يتغنون بالنصر ويتهكمون على الأتراك.

٦ ـ استمرار الربط بين الإسلام والنصر والحديث عن ابتعاد السلطة العثمانية عن الإسلام.

٧ ـ في عام ١٣٣٧هـ استمر بالاعتزاز بالنصر والتغني بالبلاد العربية المحررة.

٨ ـ ظهور الاعتزاز بالقيادة العربية بعد مبايعة الملك حسين ملكاً على العرب.

٩ ـ ظهور الاعتزاز بشرعية الملك فيصل منفذاً ومحرراً للعرب.

١٠ ـ عودة شعراء المهجر للظهور مرة ثانية بعد ظهور الخطر الفرنسي وبداية تأزم العلاقات بين فرنسا والملك فيصل في سوريا، وتظهر العلاقة واضحة جداً بين شعراء المهجر ودورهم في التصدي للخطر المحيق بالوطن العربي وهناك علاقة بين ظهور هؤلاء الشعراء وتحرر إرادتهم ومقدرتهم على التعبير وصورة أفضل لابتعادهم عن مصادر الخطر.

١١ ـ الاعتزاز بالتراث العربي.

١٢ ـ ظهر شعر يتحدث عن التنمية.

١٣ ـ في قصائد عام ١٣٣٩ وبعد تأزم الموقف والمواجهة مع الفرنسية العربية في سوريا فإن الشعور ضد الغرب أخذ يتعبأ وظهر ذلك في القصائد التي أخذت تهاجم الغرب وبالتحديد فرنسا والتف الشعراء حول الملك فيصل وتغنوا به وبخاصة بعد تتويجه ملكاً على العراق.

١٤ ـ عندما ظهرت نوايا فرنسا في سوريا فإن الشعراء حثوا على الجهاد.

١٥ ـ في عام ١٣٤٠ وبعد استقرار الوضع فإن الشعر أصبح شعر مجاملات ومديح ولم تعد هناك مناسبات يتعامل معها الشعراء. ويلاحظ أن الشعر هو وليد الظروف السياسية حيث أن الشعراء تكيفوا مع الأوضاع وجاءت قصائدهم معبرة عن حال ووضع الأمة في البداية كان الفكر السياسي في القصائد مرتكزاً على تحديد العدو ومهاجمة هذا العدو ثم بدأ الشعراء يتغنون بالنصر وبالبلاد العربية المفتوحة وعندما قلب الحلفاء ظهر المجنّ للعرب فإن الشعراء هاجموا أعداء العرب والغرب بعامة وطالبوا الجهاد ضد فرنسا. . . وعندما استقرت الأمور فإن الفكر السياسي ارتكز على الجهاد ضد فرنسا. . . وعندما استقرت الأمور فإن الفكر السياسي ارتكز على السلام وأهمية السلام ثم التنمية وبالتحديد العام حيث ركز الشعراء على هذه الأهمية. وفي غياب المناسبات القومية فإن الشعراء عبَّروا عن الواقع وأصبح شعرهم شعر مجاملات.

١٦ ـ يلاحظ أن الثورة العربية الكبرى أثرت على الأفكار السياسية للشعراء فظهرت قصائدهم القومية الرائعة معبرة عن آلمال الأمة مساهمة في خلف الرأي العام وبث الشعور القومي.

١٧ ـ أظهرت القصائد سرعة تفاعل شعراء المهجر مع المناسبات القومية سواء تعلق الأمر بالسلطة العثمانية مع الغرب.

١٨ ـ وبشكل عام يلاحظ نبل المشاعر الوطنية والوعي السياسي عند الشعراء ويلاحظ ما يلي:

أ ـ اهتمام الشعراء المسيحيين بالطرح القومي وارتفاع عدد الشعراء المسيحيين.

ب ـ كثرة عدد الشعراء السوريين ومرد ذلك نسبة التعليم من جهة ومن جهة أخرى الاضطهاد الذي تعرض له بعض السوريين في أواخر العهد العثماني.

جـ ـ تفاعل شعراء المهجر العضوي التلقائي.

د ـ تطور الاتحاد في الأفكار السياسية حسب الظروف وأن الثورة العربية الكبرى شكلت مناخاً وحفزت الشعراء الذين أخذوا يتكيفون مع الأوضاع وأبرزها الوضع القومي الذي اعتز بالعرب حكاماً ومحكومين وتراثاً ولغة وأن الاتحاد كان طبيعياً جداً.

«بسم الله الرحمن الرحيم»

فهرس القصائد

الأناشيد

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١٠ شعبان ١٣٣٥	نشيد طلاب المدرسة الهاشمية	نشيد المدرسة الهاشمية في الاحتفال الكبير بذكرى الاستقلال يوم ٩ شعبان ١٣٣٥ شاركت به المدارس الهاشمية مع الوحدات العسكرية والموظفين بمناسبة رفع الاعلام العربية على الدوائر في تلك اللحظة.
٢٩ محرم ١٣٣٧	ع. أ. ع: مكة المكرمة.	تحية العالم العربي الميمون
٦ جمادى الأولى ١٣٣٧	أمين ظاهر خير الله الشويري شاعر مُبدع له كتاب «البلبل الغريد في مطرب النشيد» رفعه إلى أعتاب جلالة الملك. وزع هذا الكتاب على طلاب المدارس الهاشمية.	أناشيد الأمراء نشيد سمو الأمير علي نشيد سمو الأمير عبد الله نشيد سمو الأمير فيصل نشيد سمو الأمير فيصل نشيد سمو الأمير زيد «انظر القبلة ٦ جمادي الأولى ١٣٣٧ ص ٣».
٢٣ محرم ١٣٣٦	عمر عبد الجبار: تلميذ بالمدرسة الحربية الهاشمية. أنشودة وطنية	
٥ جمادى الأولى ١٣٣٧		النشيد الأول النشيد الغني النشيد الثالث (لجلالة الحسين)
١١ جمادى الأولى ١٣٣٧	عبد الله نديم بن الشيخ حسين الجسر.	العلم العربي

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١٢ جمادى الأولى ١٣٣٧	أمين ظاهر خير الله الشويري	أناشيد عربية
١٨ جمادى الثانية ١٣٣٧	اسكندر الصيفي: من طلاب المدرسة الشرقية الجديدة	البشرى بالنصر وباحياء دولة العرب وبطلعة الأمير نشر الخطاب مع القصيدة في عدد ١٩١٩/٢/١٣ من التايمز اللندنية بمناسبة زيارة سمو الأمير فيصل للندن.
٥ محرم ١٣٤٠	(م - ح - ع): جدة (كان الشاعر يتردد في ذكر اسمه لأن الشعر المطلق كان شيئاً محدثاً ويخشى الشاعر ردود الفعل والنقد).	تحت أفياء اللواء (شعر مطلق) تغزل بالراية العربية
١٣ ربيع الأول ١٣٣٥	جميل العظم	قد قضي الأمر (نشرت في الكوكب)
٨ ربيع الثاني	جميل العظم	أنجز الله وعده نشرت في الكوكب بالقاهرة يوم الأحد ١٩١٦/١٢/١٧م.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١٢ جمادي الأولى ٣٧	أمين ظاهر خير الله الشويري	نشيد الاستقلال
٢١ ذو الحجة ١٣٣٩	(ب - ن)	الراية العربية (شعر مطلق) نشرت في العراق وسمته عواطف مرصونة
١٩ محرم ١٣٤٠	م - ح - ع جدة	النهضة العربية نطلب العزة أو يهرق دم نشرت في جريدة العراق يتغزل فيها الشاعر بالراية العربية.
١٩ ربيع التي ١٣٣٥	عبدالعزيز القاضي: قاضي قبيلة غامد (البادية)	ليس اسماعك بالأذنين كالنظر
١٩ ربيع الثاني	جرجي الحداد: شاعر وصفته جريدة القبلة بأنه من أفصح الشعراء المسيحيين في أمريكا.	في ذكرى المولد النبوي الشريف

٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٥	أبو الحقائق «رشيد الهاشمي البغدادي»	صرعوا بحب بلاديه (نشرت في المقطم) يوم ٩ ربيع الأول ١٣٣٥.	٢٩ ربيع الثاني	الشاعر المغترب الياس عبدالله طعمه: صاحب جريدة الحمراء في أمريكا اللاتينية.	يا مي لا تبكي رجالك أنهم كرماء في السراء والضراء.
٤ جمادى الأولى ١٣٣٥	قصيدة مع خطبة جلالة الملك	الله أكبر نور الحق قد ظهرا. المناسبة بعد اتمام البيعة مع جلالة الملك.	٢٥ جمادى الأول ١٣٣٥	الطيب السوسي. المدني الايمان والإسلام	(سعدت بطلعة بدرك الأيام) مطلع القصيدة سعدت بطلعة بدرك الأيام.
٢٨ جمادى الأولى ١٣٣٥	عبد الحق الأعظملاً أستاذ الآداب العربية في الكلية الإسلامية	(الآن قد صفت المشارب) (مهداة إلى الحضرة الملوكية) الهاشمية.	٦ جمادى الثانية	الكسندرا فيزينوسكا	تحية عربية لنهضة قومها مرفوعة إلى مقام الحسين بن علي في ٢٩ ربيع الأول ١٣٣٥.
٦ جمادى الثانية	شاعر عربي معاصر مشهور لم تذكر الجريدة اسمه	اليتيمة العربية «نشرت في الكوكب الغراء».	١٩ رجب	محب الدين الخطيب	الاياب السعيد.
٢٣ رجب	علي عبدالله الطيب الأزهري المدني	ايه الشكر والامتنان لملك دولة العدل والاحسان.	٢٣ رجب ١٣٣٥	السلطان أحمد بن فضل بن علي	وخصمي ما معه شيء قوم تبع «من الشعر البدوي».
٧ شعبان ١٣٣٥	ابراهيم سليم نجار: (باريس)	أمراء الشرق صونوا أمة.	٧ شعبان ١٣٣٥	يوسف مراد الخوري: صاحب جريدة الشعب (نيويورك)	مصر ومكة والشام (نشرت في الشعب).
١٤ شعبان	قسطنطين يني	تحية الراية العربة.	٢١ شعبان	مصطفى بن السيد أحمد غزولي	عماد الدين. المناسبة زيارة جلالة الملك لمدرسة الفلاح.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٢ رمضان	كاتب تحريرات ينبع	عيد الاستقلال «وصف الاحتفال بالعيد».
٢٠ رمضان	قسطنطين يني	الترحيب بالوفد الإسلامي الايطالي من مستعمرات ايطاليا حضروا للتعارف على مسلمي الحجاز.
١١ شوال	عبد المحسن الصحاف	تهنئة جلالة الملك بالعيد.
٣ ذو القعدة	التلميذ تاج كتبي	ترحيب ودعاء لجلالة الملك بمناسبة احتفال مدرسة الفلاح
١٩ ذو القعدة	الطيب المدني	لسان الحال المدينة المنورة
١٤ ذو الحجة	—	الشعر أعذبه في المديح
١٧ ذو الحجة ١٣٣٥	—	حججنا وتم النسك

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٩ رمضان	أبو الحقائق رشيد الهاشمي البغدادي	أيها العرب
٧ شوال	قسطنطين يني	ليهنأ بك العيد «مناسبة عيد الفطر».
٢٨ شوال	مجموعة شعراء: عبدالله كمال قاضي. علي الطيب المدني الأزهري.	عيد تلاميذ المدارس الهاشمية.
٩ ذو القعدة	محمد زين الدين الحسيني المدني	الشكر والواجب
١٧ ذو الحجة ١٣٣٥		شريف مكة
١٤ ذو الحجة	الشيخ علي الطيب المدني	آيام مجدك
٢٤ ذو الحجة	الطيب يوسف فرج حريز: من أدباء زحلة في لبنان ومحرري جريدة المستقبل في باريس.	برغم هرقل وابن كسرى وتوران. «مرفوعة إلى أعتاب الملك الهاشمي».

غرة محرم ١٣٣٦	أحمد فريد الرفاعي	عصر الحسين الذهبي	٥ محرم	الشيخ عبد المحسن الصحاف	عمّ خيرا «مناسبة رأس السنة الهجرية»
١٣ محرم	الشيخ عبد المحسن الصحاف: شاعر أديب.	الله قال من الهناء لطه «في عيد الاستقلال»	١٦ محرم	محمد مهدي البصير: «حلة العراق»	إلى جلالة ملك العرب
١١ صفر	عبدالمحسن الصحاف	بلسان حال مدينة الرسول	٢٥ صفر	أحمد فريد الرفاعي	إلى مولانا الحسين.
١٠ ربيع الأول	—	نشيد مدرسة الفلاح «المولد النبوي»	٧ جمادى الأولى	ضابط مجهول	تطوف به الأمجاد «في مدح الحسين في الكوكب في عددي ٧٨/٧٩».
١٨ جمادى الثانية	أحمد شاكر الكرمي	بيضوا وجوهنا «نشرها الكوكب»	٥ شعبان	الشيخ أحمد عباس سندي	قصيدة ترحيب بجلالة الملك عند زيارته لدار بلدية العاصمة.
١١ شعبان	أحمد شاكر الكرمي	أيها العيد	١٣ شعبان	تلميذ بمدرسة الفلاح/ جدة	في احتفالات عيد النهضة
١٧ شعبان	الشيخ مصطفى غزولي	بمناسبة تشريف جلالة الملك دائرة البلدية الأولى في دوائر البلدية ١٧٣٠ شعبان		الشيخ محمد خضر الشنقيطي	بمناسبة زيارة الملك لثغر جدة
٥ رمضان	الشيخ عبدالمحسن الصحاف	تهنئة بالاياف الملوكي ودخول شهر رمضان	٩ رمضان	الشيخ عبدالمحسن الصحاف	بمناسبة خطبة الطاغية.
١٢ رمضان	محمد الفراتي (الجيش العربي المالي)	مليك دعا للحرب دعوة حازم	١٦ رمضان	الشيخ عبدالمحسن الصحاف	يا بني العرب هلموا واهجموا.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٣٠ رمضان	شاكر (؟)	تهنئة بعيد الفطر المبارك
٧ شوال	علي عبدالله الطيب المدني	روى المجد والمعروف والعدل.
١٧ ذو الحجة	شاكر	تقبل أيا مولاي تبريك أمة
غرة محرم ١٣٣٧	عثمان قاضي: «أحمد موظفي البرق بالعاصمة»	بعزم مليك العرب
١٥ محرم ١٣٣٧	فؤاد الخطيب	أهلا بأكرم سيد ومؤمل. ١٥٣٠٠ محرم
١٨ محرم ١٣٧٧		قمت لله مخلصا فحياك النصر
٢٢ محرم ١٣٣٧	الشيخ جرجي حداد	عنوان الروح القومية العربية «بمناسبة دخول الأمير فيصل دمشق منتصراً».

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٧ شوال	الشيخ عبدالمحسن الصحاف	تهنئة بالعيد
١٩ ذو القعدة	الشيخ عبدالمحسن الصحاف	جنت على نفسها براقش
٢٤ ذو الحجة	علي ريماوي «مدرس بالمسجد الأقصى»	حسين وما قولى حسين تجروء
غرة محرم ١٣٣٧	حسين روحي	لله درك يا أمير.
	قسطنطين يني	سر فاتحا بجيوشك العربية.
١٨ محرم ١٣٣٧	التلميذ جنيد بن السيد أحمد الجنيد: من مدرسة حارة الباب الهاشمية.	زمن المجد والسرور.
٢٢ محرم ١٣٣٧	إيليا سليم عطيه	قصيدة مرفوعة لسمو الأمير فيصل بمناسبة دخوله ظافراً لدمشق مطلعها «لا تقصدي غير الهمام فيصل وبغير ساحة فضله لا تنزلي.

٢٢ محرم ١٣٣٧	حسين روحي	الاستيلاء على حلب تطوى البلاد وأهليها كتائبه طيا كما طوت الكتاب للكتب.	٢٥ محرم	الطيب الساسي المدني	اعدتم بالقنا مجد اثيلا.
٩ صفر ١٣٣٧	حسين روحي «سكرتير المعتمد البريطاني بجدة»	الصلح قد عم الأنام	١٣ صفر	حسين روحي	أهلا بطلعة وجهك المتهلل.
٢٣ صفر	العدل صالح بن النجار «القيروان»	تهنئة إلى جلالة ملك العرب	١٨ ربيع الأول	الأستاذ التاجي «سليمان التاجي الفاروقي» من أعيان فلسطين ورجال	قصيدة ارتجلها الشاعر أمام جلالته أثناء الزيارة لجلالته
١٨ ربيع الأول	الشيخ محمود شويل: من علماء المدينة ومدرس الحرم النبوي الشريف ومن الذين كانوا قد تعرضوا لاضطهاد السلطة العثمانية.	شددنا نحو ساحتك الرحالا. قصيدة ارتجلها الشاعر أمام جلالته في المناسبة نفسها.	٢٣ ربيع الأول ١٣٣٧	حسين روحي: سكرتير المعتمد البريطاني بجدة.	
٢٦ ربيع الأول ١٣٣٧	الأستاذ سعيد الكرمي: مفتى بلدة طولكرم:	وما هي أولى الخير من أرض مكة	٢٩ ربيع الأول ١٣٣٧		الهي تكرم بالسلام وبالرأب.
٧ ربيع الثاني	ايليا سليم عطيه: العربي اللبناني	دمعة على الوطن	١١ ربيع الثاني ١٣٣٧	عبدالله كمال القاضي قاضي الطائف	قصيدة الفتح النبوي

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١٤ ربيع الثاني	الشيخ علي فالح الظاهر المدني مع خطبة الطيب الساسي.	قصيدة شكر لجلالته من أهالي المدينة المنورة بمناسبة فتح المدينة.
١٨ ربيع الثاني ١٣٣٧	حسين روحي	قرب الصلح يا الهي
٢٥ ربيع الثاني ١٣٣٧	ابراهيم سليم النجار	العلم الواحد
١٥ جمادى الثاني	حسين روحي	فخذوا بنصحي واعملوا
٢٦ جمادى الثانية	محمود أنيس: «السودان»	صوت عربي سوداني
١٣ رجب		شرف الكرام رفيع مقام جل عن وصف شاعر وباهر آيات لأهل البصائر.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١٨ ربيع الثاني ١٣٣٧	شفيق جبري	أمس واليوم نشرت في لسان العرب الدمشقية.
٢١ ربيع الثاني ١٣٣٧	عبدالمحسن الصحاف	فتح طيبة الغراء في انتصار بني الزهراء
١٣ جمادى الأولى	الضابط سمير الرافعي	نهضة الأسد.
١٨ جمادى الثانية	عبدالله نديم الجسر الطرابلسي	تشطير قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين والثناء على زين المجاهدين (المناسبة نفسها التي قيلت فيها قصيدة حسين روحي السابقة.
٢٥ جمادى الثانية	الطيب العقبي	هنيئاً لك الذي أنت مالكه
٢٣ رجب ١٣٣٧	حسين روحي	بحمد الله افتتاح الكلام.

١٢ شعبان ١٣٣٧		ذكرى عيد الاستقلال السعيد	١٢ شعبان	حسين روحي	يا أمة العرب الكرام تنبهي.
١٩ شعبان ١٣٣٧	حليم دموس	يا ربة الشعر	٢٦ شعبان	محمد فهمي الأتاسي (دمشق)	تحية الامارة
٢٦ شعبان	الأستاذ أنيس سلوم: «دمشق»	الندى الرطيب	٢٦ شعبان	سعيد الكرمي	أمير سورية. (نشرت في المقتبس).
٢٦ شعبان	الشيخ فؤاد الخطيب	إلى أمير سورية	٢٦ شعبان	مصطفى لغلايني	تحية سورية إلى أميرها المحبوب.
٢٦ شعبان	زهير	الأمير فيصل نشرت في مجلة المستقبل	٣٠ شوال ١٣٣٧	اسكندر حنا بيونس ايرس الأرجنتين	الأمنية العربية في النهضة الهاشمية تاريخ القصيدة ١٩١٩/٥/٢٦.
٧ ذو القعدة ١٣٣٧	عبدالله بن أحمد بافقيه.	تهنئة سمو الأمير عبدالله بتقليد سيف النصر.	٢٦ ذي الحجة	عائدة خليل: (مصر)	عاطفة العبودية.
٣ محرم ١٣٣٨	الشيخ عمر كردي: مفتي السادة الشافعية	عيد البيعة لك الدهر ملك والأنام عيد.	٢٧ محرم ١٣٣٨	الياس فرحات	تحرسك عين الرحمن.
٢٣ صفر ١٣٣٨ ١٩١٩/١١/٦	عراقي مقيم بالخرطوم لم يذكر اسمه.	تحية ملك العرب	٢٣ صفر ١٣٣٨ ١٩١٩/١١/٦	شاعر لم يذكر اسمه	أميري فيصل نشرت في صحيفة الاتحاد العربي وهي قصيدة على غرار قصيدة ميسون الكلبية وجة معاوية بن أبي سفيان في القصيدة مدعوة للتمسك بالقيم.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٨ ربيع الأول	الوليد بن عبدالله ابن طعمه.	التصريح والبيان نشرت عام ١٩١٧ بالولايات المتحدة.
٢٦ جمادى الأولى		لسان فلسطين نشرت في سوريا الجديدة
٢٧/ ج ٢ ١٩٢٠/٣/١٨	فؤاد الخطيب	حي الششريف مناسبة اعتراف هولندا بالحكومة الهاشمية.
١٦ رجب	الدكتور جورج صايا	كن فينا الاماما بيونس ايرس ٢١/ك ١٩١٩.
١٤ شعبان	لبناني في المهجر	أن من البيان لسحرا قصيدة ألقيت رداً على قصيدة ألقاها لبناني آخر بشكل مغاير للمسالك
٢٧ رمضان ١٣٣٨	أحد الأدباء	تهنئة في رمضان

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١ جمادى الأول	قسطنطين يني	سمعا وطاعة في افتتاح المدرسة الزراعية بالعاصمة
١٧ جمادي الثانية ١٩٢٠/٣/٨	داود مجاعص	من المفاخر القومية. نشرت في الحاوي
٩ رجب ١٣٣٨	تلميذ بمدرسة الفلاح عبد القادر عثمان	
١٦ رجب	محمد حبيب الله الشنقيطي علامة ومحقق وأديب	كلمة نصح لأبناء البلاد.
٢٠ رمضان	اسكندر حنا	استقبلي وهللي. نشرت في الحاوي.
١٠ ذو القعدة	الياس شبل خوري: رئيس الجامعة الوطنية عالية.	نفثات وطني ألقيت في مدرسة الجامعة في الحفلة النهائية

٣٠ صفر ١٣٣٩		الدمشقية والباريسية: قصيدتان ظهرتا في العدد الأول من سورية الجديدة وهي مجلة صدرت في ريو دي جانيرو فيالبرازيل ونشرت القبلة القصيدتين الحماسيتين اللتين تدعوان للجهاد في سبيل الوطن العربي.	٢١ ربيع الأول ١٣٣٩	حسان الصغير وصف نفسه بنزيل أم القرى.	أيها النيران
٢١ ربيع الأول ١٣٣٩	فتى الإسلام الخليلي النجفي رئيس المنتدى الأدبي مجاهد عربي في طهران/ ايران مؤسس المنتدى الأدبي في طهران ومحرر (صدى طهران) الفارسية ومحرر في جريدة رعد الفارسية.	هذه عواطفنا في مدح جلالة الملك والأمير فيصل نشرت القبلة القصيدة بعنوان صوت عربي من بلاد العجم... في رسالته إلى الصحيفة يذكر بأنه حمل سياسة فرنسا عند احتلالها المنطقة الشرقية.	٩ جمادى الثاني ١٣٣٩	الياس فرحات	أيها الغرب
٩ جمادى الثانية ١٣٣٩	ابراهيم الرحيمي	مناقب العرب. نشرت في جريدة الاستقلال الغراء التي تصدر في بغداد.	٤ رجب ١٣٣٩	أبو فراس الصغير	دمعة ثائر على سوريا
٢٠ شعبان ١٣٣٩	عبد اللطيف النجاوي تلميذ في مدرسة الفلاح	مجد العرب مجموعة أبيات شعرية أمام سمو الأمير فيصل	٢٠ شعبان ١٣٣٩	طاهر الدباغ رني الأموال بجدة	مجموعة أبيات أمام سمو الأمير فيصل

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٢٤ شعبان ١٣٣٩	هاشم السباك	في حفل استقبال الأمير فيصل في العاصمة.
٢٧ شعبان ٩	التلميذ صالح حوتي: من المدرسة الراقية الهاشمية	بشرى يا كرم وافد أحيا النفوس وخير قادم استمرار الاحتفالات في استقبال سمو الأمير فيصل.
٢٧ شعبان ١٣٣٩	الطالب حمزة المرزوقي	زهت مكة
١٨ رمضان ١٣٣٩ ١٩٢١/٥/١٧	صارخ؟ من حلب ١٩٢١/٤/٢٣	«أن الصروح على العلوم تقام» نشرت جريدة الحقيقة البيروتية في عدد ١٤٦٥ وتاريخ نظمها كان في ١٩٢١/٤/٢٣ ظروف نشر القصيدة كانت في فترة ظهرت فيها المسألة اليونانية وحرب الأناضول وربط الحلفاء مصالحهم بمصالح الأفراد.
٢١ ذو الحجة ١٣٣٩	عبدالرحيم تره مصر	ببابك ثغر الزمان ابتسم تعقيباً على قصيدة الشبيبي وفي الحفلة نفسها التي أقيمت احتفالاً بتتويج الملك فيصل.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٢٤ شعبان ١٣٣٩	القبلة	من قادم هشت له البطحاء. في استقبال سمو الأمير فيصل.
٢٧ شعبان ١٣٣٩	الطالب ابراهيم نوري	تحية مدرسة الفلاح لسمو الأمير فيصل
٨ رمضان ١٣٣٩	ايليا سليم عطيه من مصر	أمل يتحقق
١ ذو القعدة ١٣٣٩	محمود علي منصور	أبا فيصل
٢٥ ذو الحجة ١٣٣٩	ايليا سليم عطيه شاعر لبناني مقيم في جدة	هل دورنا في غد يأتي

١ ذو القعدة ١٣٣٩	مساعد السيد عبدالله الكويتي	أجل ملوك العرب.	٢١ ذو الحجة ١٣٣٩	شاعر عراقي	(نهنيك يا خير الأنام بفيصل غدا بتكاليف العلا خير قائم) احتفال بتتويج الملك فيصل ملكاً على العراق وخطبة جلالة الملك.
	الشيخ عمر كردي ابراهيم النجفي	هنئت هذا اليوم احتفال بتتويج الملك فيصل. أعلاك ربك وأعز وأشرفا	٤ محرم ١٣٤٠ ١٩٢١/٩/١٢	الشيخ عبدالرحيم ترة: مدرس بالمدارس الثانوية الشيخ عمر الكردي مفتي الشافعية بالمدينة المنورة	جدد الأنس احتفال بتتويج الملك فيصل عيد البيعة فؤاد الخطيب يا ابن الحسين ويا ابن أكرم مرسل خطاب وقصيدة.
٩ ربيع الثاني ١٣٤٠	ألبرت عطايا	قصيدة أرسلت إلى الأمير فيصل يوم كان يحارب الأتراك	٩ ربيع الثاني ١٣٤٠	محمود لطفي الحموي مدير الأمن العام بالعاصمة	لا زلت أصبر في الهوى والاطف
٢٥ جمادى الأولى	شفيق الخطيب	تحية عربي للأمير زيد	٢٥ جمادى الأولى	السيد محمد بن محمد بن يحيى	صرخة من اليمن
٢٥ جمادى الأولى	مندوب الحضرة الأمامية الشريف.	من قصيدة: الامام يحيى حميد الدين	١٦ جمادى الثانية ١٩٢٢/٢/١٣	فؤاد الخطيب	تلبية على قصيدة الحضرة الإمامية.
١٧ جمادى الثانية	محمد صبحي: مدير أموال ينبع	صدى الوحدة العربية رداً على قصيدة الامام حميد الدين	١٧ جمادى الثانية	أبو بكر: شريف حجمي	تحية الوسام العربي نشرت في الوقت نفسه مع قصيدة محمد صبحي.

التاريخ	الشاعر	القصيدة
١٤ رجب ١٣٤٠	الطيب الساسي	جمرة العرب ألقاها أثناء مقابلة سمو الأمير فيصل
١٦ ربيع الأول ١٣٣٥ ص ٣	عبدالله بن صقر الطويزقي.	هو سيفنا المجرود واحنا حميله ظهرت هذه القصيدة في فترة مشرقة في تاريخ العرب اعتراف انجلترا وفرنسا بالعرش الهاشمي.
٢٩ ربيع الثاني ١٣٣٥	أ. ح: (من شرق الأردن على ما يبدو ولم يكتب اسمه كاملاً).	أنشودة عرب الشمال: تحركت عاطفة الشاعر بعدما ظهرت عدة قصائد في القبلة عن أناشيد القبائل.
١٤ جمادى الأولى	جمهور ؟	سلام يا من عزه الله وقدمه
١٠ جمادى الثانية ١٣٣٥	عطا الله بن محمد خزيم	زين النشيد

التاريخ	الشاعر	القصيدة
٢٩ شعبان ١٣٤٠	الشيخ محمد صبحي مدير أموال ينبع	جل المصاب وعزت الأنصار تضامناً مع الشعب العربي الذي هضمت حقوقه.
٢٣ ربيع الأول ١٣٣٥	عليان بن مرزق العوفي	قصيدة عوفيه مطلعها: «بديت باسم الله في كل مهجه».
١١ جمادى الأولى	عابد بن فهد الزيادي	الروح البدوية في الشعر البدوي.
١٤ جمادى	محمد بن ماضي الأولى	يا إله العرش يا رب العباد
٢٤ جمادى الثانية	ينية وابن مستور	مساجلة شاعرين في الطائف. يروى المسسالات محب الدين حيث يذكر بأنه وجهت إليه دعوة من الشريف حمود بن زيد وكيل امارة الطائف لسماع مساجلة شاعرين من شعاء البادية هما عيضة بن مستور الزيدي من قبيلة

					ناصرة والثاني بنيه المولد وهو شاعر من موالي بني سعد وذلك بمناسبة وصول فريقين من القبيلتين للالتحاق بالقتال وهذه المساجلات ارتجالية تتغنى بالقبيلة ومفاخرها.
٣ شعبان ١٣٣٥ ص ٤	محمد بن ماضي) (المعايدة)	في النهضة المباركة	٢٧ رمضان ١٣٣٥	جمهور ؟	حسيات البادية
٢١ ذو الحجة ١٣٣٥	مخلد القثامي	في النهضة المباركة يا الله يا مرقب على كل القطار	٢٣/١٢ محرم ١٣٣٦	حامد بن عبدالله: (من شيوخ تربه)	الأوله يا الله يا قايد الرحا الأوله يا الله يا قايد الرجا.
١٤/١٣ صفر ١٣٣٦ ص ٣	سعيد بن سالم باكلكا	قصيدة حضرمية مطلعها يا راحلاً من فوق مهرة قوية.	٢٥ صفر ١٣٣٦	محمد بن ماضي	يا الله يا عالم خفيات الأسرار
١٥ ربيع الثاني ١٣٣٦ ص ٣	محسن بن سعود العدواني	بديت بذكر الله قوى العزايم	١٤ جمادى الأولى ١٣٣٦ ص ٣	سعيد بن سالم باكلكا	قصيدة حضرمية مطلعها: يقول بن حمير وفد لي عالم أهلاً بالوفود.
٤ ربيع الثاني ١٣٣٧	محمد بن يحيى الشايف	قصيدة يمانيه مطلعها: بسم الله الرحمنْ نتوكل.			

السكة ودور الضرب في اليمن منذ فجر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري[1]

الدكتور سعيد محمد مصيلحي
قسم الآثار

تعتبر منطقة الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي بين قارات حضارية وباعتبارها معبراً متوسطاً بين الشرق والغرب فإنها أثرت وتتأثر دائماً بمجريات الأحداث والتقلبات الاقتصادية التي تصيب المنطقة وليس لدينا صورة لأول نقد ضرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام ولكن الواضح لدينا أن سكانها تعاملوا بعملات الدول المجاورة خاصة الفرس واليونان والرومان ويبدو أن أغنى منطقة بالعملات هي جنوب الجزيرة العربية فكان طبيعياً أن نجد عملات سكت فيها[2] وكان في دنانير حمير ودراهمها صورة الشمس والقمر والكواكب لأنهم كانوا يعبدونها واسمها عندهم عشتر والقمر هيس والنجوم اللامقه والواحد المق ويلحق لذلك سموا بلقيس يلمه[3] وهذه الرموز المحلية نقشت بجوار الرموز الأجنبية رغبة على ما يبدو في رواجها وضمان تداولها بين الناس في الأسواق العربية والتي لعبت دوراً هاماً في تسويق العملات ويربو عدد الأسواق على عشرين سوقاً[4].

دور ضرب اليمن في العصر الأموي: لا نعرف حتى الآن أي نقد ضرب في اليمن خلال العصر الأموي[5] ولكن يجب أن نشير إلى تطور هام جرى للنقود في خلال هذا العهد حيث تم تعريب النقود والدواوين والطراز واستكمل بذلك أسس الدولة العربية الإسلامية وتخلصت الحضارة العربية الإسلامية من رواسب الماضي وهذا إشارة إلى أن الحضارة العربية قد وصلت إلى مرحلة النضوج مما دعاها إلى أن تتحرر من رواسب الماضي وهذا ما فعلته الأمة العربية الإسلامية.

إن النقود العربية الإسلامية أصبحت خالية تماماً من أي أثر قديم ما خلا التقيد

ببعض الأعراف المالية كالوزن وعيار المعدن ومع ذلك فإن عبد الملك بن مروان عندما سك الدينار العربي الذي لا زال متأثراً بالنمط البيزنطي (لأنه يحمل صورته) جعل وزنه مثل وزن السوليدس البيزنطي ٤,٥ جم ولكن عندما عرب الدينار التعريب النهائي جعل وزنه ٤,٢٥ جم من أجل معادلته مع عدد الدراهم الذي يساويه وكان في الأصل عشرة دراهم وذلك حرصاً على التوازن من أجل دفع أموال الزكاة.

ولكن إذا كانت السكة الإسلامية بأنواعها قد تحررت حقيقة على يد عبد الملك من التأثيرات المسيحية منذ سنة ٧٧ هـ على الأقل فإنها لم تستطع أن تتحرر من أسماء هذه السكة إلى يومنا هذا بل حتى بعد إصلاح عبد الملك شابهت وحدات السكة الإسلامية وحدات السكة البيزنطية ففي مقابل الدينار Dinarius أو النومزما Nomisma الذي كان يحتوي على ٤,٥٢ جم من الذهب الخالص ضرب الدينار الإسلامي الذي كان يحتوي رسمياً على ٤,٢٥ جم وفي مقابل الملياريزون Miliaresion البيزنطي من الفضة الذي كان يساوي عشر دينار نجد الدرهم الإسلامي من الفضة كل عشرة منه تساوي ديناراً واحداً وأخيراً نجد السكة النحاسية البيزنطية وهي Follis تتحول عند العرب إلى الفلس(٦).

وفيما يتعلق بمسكوكات اليمن في العصر الأموي فإنه لم يصل إلينا أي نقود تحمل نص ضرب في اليمن ويرجع ذلك إلى نظام العملة في ذلك العصر إذ أن الخلفاء الأمويين لم يذكروا أسمائهم أو أسماء أحد أبنائهم أو عمالهم على الدينار أو أجزائها كما لم تحمل هذه السكة الذهبية الأموية أية إشارة إلى مكان الضرب ولعل السبب في ذلك أن هذا النوع من السكة قد خضع لنظام مركزي حتى أنه لم يسمح بضربه في غير المدن الرئيسية فقد كان يضرب في العصر الأموي بدمشق وتسمى الدنانير الدمشقية. وفي مصر ولم يكن ظهور الدينار سنة ١٠٥ هـ في مصر في زمن أمير المؤمنين بالحجاز إلا استثناء يقدم تأييداً لهذه القاعدة سيما إذا لاحظنا أن الدنانير الأموية بعد سنة ١١٤ هـ على الأقل في كل الأقاليم الإسلامية قد تشابهت عياراتها وتوحدت كتاباتها والدلائل المادية من السكة الأموية تؤكد أن سلسلة الدنانير الأموية تخلو من الإشارة إلى مكان الضرب ولكن من المرجح أن ضرب الدنانير وهي السكة الرئيسية كان يتم في مصر أهم الولايات الإسلامية أو دمشق العاصمة الأموية ويصعب جداً أن نميز بين تلك الدنانير التي ضربت في دمشق وتلك التي ضربت في مصر مادام كلاهما يخضع للمظهر الإسلامي العام الذي حدده إصلاح

عبدالملك للسكة فاتحدت عيارات الدنانير وتشابهت أوزانها وأصبحت تسير على وتيرة واحدة في طرازها[٧].

أما الدراهم الأموية فيمكن القول أنه منذ سنة ١٠٦ هـ قد اتحد طرازها في مختلف الولايات الأموية في واسط واستمر ذلك إلى سنة ١٢٦ هـ على الأقل وقد أشار المقريزي إلى هذه الحقيقة: فلما قام هشام بن عبدالملك وكان جموعاً للمال أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ست ومائة من الهجرة أن يعيد العيار إلى وزنه سبعة دوانيق[٨]، وأن يبطل السكك من كل بلد إلا واسطاً فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة عشرين ومائة وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة دوانيق وضربها بواسط وحدها حتى قتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة» غير أن الدكتور عبد الرحمن فهمي يرى أن هذا التركيز لا يعقل أن يكون قد تم بالنسبة لواسط وحدها دون العاصمة فقد كانت الدراهم تضرب في واسط وفي دمشق على الأقل وقد ذكر دنجفليش أن الدراهم الأموية «ضرب الأندلس» و «ضرب أفريقية» وجد عدد كبير منها في واسط كان معداً لتصديره منها أي أن معظم دراهم الولايات الأخرى كانت تضرب في هذه المدينة[٩].

مما سبق يتضح لنا السبب في عدم وجود مسكوكات يمنية من الدنانير والدراهم تحمل عبارة «دار الضرب باليمن» ويتركز هذا السبب في مركز ضرب العملات خلال العصر الأموي، فقد سكت الدنانير في دمشق ومصر والدراهم في مدينة واسط.

في العصر العباسي: استمرت دنانير الولايات العباسية متشابهة فصعب التفريق بين دنانير كل ولاية والولايات الأخرى وذلك حتى عام ١٩٩ هـ حين بدأت تظهر مدن الضرب على السكة العباسية الذهبية لأول مرة في عهد المأمون وتوزع ضرب الدنانير في عدة مدن حتى أصبحت هذه السكة الذهبية تضرب في أهم حواضر الولايات الإسلامية بعد سنة ٢١٢ هـ.

والواقع أن واحداً من العباسيين لم يذكر اسمه على الدنانير أو غيرها قبل هارون الرشيد فهو الخليفة الذي ظهر اسمه لأول مرة على الدنانير العباسية ويمكن القول بأنه منذ عصر الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) حدث تطور هام في نظام السكة

العربية وذلك عندما أمر الخليفة أن يكتب اسمه واسم ابنه الأمين على السكة الذهبية كما وهب الحقوق عينها لوزرائه والولاة وعمال المال وتنازل الخليفة من هذا التاريخ عن حقوقه المباشرة على السكة ومشارفتها وقد عبر المقريزي عن ذلك بقوله: «وهارون الرشيد أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم»[١٠].

أما عن العملات اليمنية في خلال العصر العباسي فإنه مع بداية هذا العصر واستقرار الأمر فيها للخلفاء العباسيين لحقت اليمن بالعواصم الإسلامية الأخرى وبدأت تضرب العملة من دنانير ودراهم وفلوس لتغطي المعاملات المالية ويصعب تحديد أول سنة ضربت فيها العملات الإسلامية في اليمن وذلك لقلة الموجود بين أيدينا مما ظهر وبندرة المعلومات المسجلة في ذلك العصر وتوجد أقدم عملة إسلامية يمنية وصلتنا بمتحف الآثار التركية باستنبول وقد ضربت عام ١٥٦ هـ في عهد أبي جعفر المنصور على نمط العملات الإسلامية في ذلك الحين وقد نقش عليها: «مما أمر به المهدي محمد بن أمير المؤمنين» وكان الوالي على اليمن حينئذٍ يزيد بن منصور. ولدينا فلس آخر ضرب سنة ١٥٨ هـ كتب عليه «ضرب هذا الفلس باليمن سنة...» ولم نعثر بعد ذلك على عملات أخرى حتى عام ١٦٧ هـ[١١].

يتضح من النص الوارد على هذا الفلس مكان الضرب وهو اليمن ولكن اليمن دولة واسعة الأطراف ولما كانت عاصمة هذا الإقليم ومقر الحاكم هو مدينة صنعاء فإنه من المؤكد أن هذا الفلس وما سبقه قد ضرب بتلك المدينة.

ويرد اسم صنعاء صراحة على العملات اليمنية التي بين أيدينا على نصف درهم ضرب سنة ١٦٩ هـ محفوظ بمتحف قطر الوطني يليه نصف درهم عباسي ضرب سنة ١٧٣ هـ ثم درهم ضرب سنة ١٧٣ هـ ويحمل اسم هارون الرشيد والغطريف[١٢] (بن عطاء الكندي) الذي حكم اليمن من ١٧٠ ـ ١٧٣ هـ وإذا نظرنا إلى أسلوب زخارف وكتابات هذه العملات فإننا نجده هو نفسه الذي ساد في عاصمة الخلافة ولذلك فإنه من الراجح أن قوالب السك قد سبق إعدادها في بغداد في حين أن المعادن نفسها قد سكت في مدينة صنعاء[١٣].

وأقدم إشارة إلى دار ضرب صنعاء جاء ذكرها في المصادر التاريخية هي تلك التي أنشأها محمد بن خالد البرمكي الذي جاء والياً على صنعاء عاصمة إقليم اليمن

سنة ١٨٣ هـ ويقول الرازي : بنى محمد بن خالد البرمكي سنة ١٨٣ هـ دار البرمك التي كانت تعرف بدار الضرب بصنعاء وكانت هذه الدار في الموضع الذي يقال له سوق التبانين وكانت لها أبواب بالعقود الكبار وكانت داراً واسعة وقد بقي من عقود دار الضرب عقدان إلى سنة سبع وأربع مئة وبنى محمد بن خالد بن برمك بصنعاء مسجداً عند دار الضرب وهو المسجد الذي يعرف اليوم باسم مسجد سوق اللساسين»[١٤] وقد استمرت دار الضرب معروفة في صنعاء إلى القرن ١٢ هـ فقد قال محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (١٠٩٩ ـ ١١٨٢ هـ) وهو في السجن مشتكياً من أصوات مطارق اليهود بدار الضرب قرب محبسه:

وجاورت دار الضرب كرهاً وبئس ذا ... جوار يهود ما لهم في الهدى ثبت
مطارقهم هن الطوارق للفتى ... فما لمنام العين في ضربهم بخت
فأنشدت بيتاً قد تقادم عهده ... ولا عوج فيه لمثلي ولا أمت
ومن أعجب الأشياء أني مسلم ... حنيف ولكن خير أيامي السبت[١٥]

نستفيد مما سبق أن دار الضرب بصنعاء أنشأها محمد بن خالد البرمكي سنة ١٨٣ هـ وظلت مستمرة في عملها حتى القرن الثاني عشر الهجري ولكننا لا ندري هل الدور التي أطلق عليها بعض مؤرخي اليمن اسم دار الضرب متعددة أم دار واحدة؟

وقد وصلنا من القرن الثالث الهجري أقدم الدنانير التي تحمل اسم صنعاء وسكت فيها إذ أنه لم يصل إلينا أي دينار سك في هذه المدينة قبل سنة ٢٢١ هـ[١٦] وهي دنانير سوية وزنها حوالي ٤ جم ولكن أخذ ينقص وزنها بعد المعتصم حتى وصل إلى وزن النصف دينار[١٧] وقد أورد كريستوفر تل قائمة بالدنانير الذهبية التي ضربت بصنعاء في الفترة من ٢٢٢ ـ ٣٤٠ هـ[١٨] يتضح منها كقاعدة عامة أن أي منها لم يصل إلى الوزن العادي للدينار الإسلامي وهو ٤,٢٥ جم[١٩]، ولذلك فإن العملات اليمنية تمتاز بأنها كانت ذات أوزان أخف[٢٠] من تلك التي كانت سائدة في الولايات الأخرى أما فيما يتعلق بالفترة السابقة على سنة ٢٢٦ هـ فإن غياب الدنانير الذهبية في اليمن كوحدة أساسية للنقد طوال هذه الفترة الطويلة يمكن تفسيره أن الغرض من دار الضرب كان لإعداد المال اللازم لدفع الخراج أكثر من ضرورتها لتسهيل أمور الحياة اليومية في البيع والشراء[٢١].

إن المسكوكات المبكرة ضرب صنعاء تماثل طراز المسكوكات العباسية ذلك أن السكة الذهبية التي ضربها الولاة من قبل الخليفة العباسي أو سكها قواد طامعون لم تختلف في طرازها العام عن السكة العباسية حيث سجل عليها شهادة التوحيد ونصها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فضلاً عن تاريخ الضرب واسم الخليفة وألقابة مع تطور تدريجي منذ سنة ٢٢١ هـ وفي الفراغات الدائرية الواقعة داخل الإطارات سجل أسماء الولاة الذين حكموا اليمن والواردة أسماؤهم في المصادر التاريخية وهذه قائمة بأسماء الولاة الواردة على العملات اليمنية خلال القرنين الثاني والثالث الهجري:

الغطريف	١٧١ ـ ١٧٢ هـ	الغطريف بن عطاء الكندي
يزيد	١٧٣	
العباس بن محمد	١٧٩ ـ ١٨٠[٢٢]	
عبدالله بن مسعود	١٨٠ ـ ١٨١	
حماد	١٨٤ ـ ١٨٥[٢٣] ـ ١٨٩	حماد البربري
	١٩١ ـ ١٩٢	
هاشم بن عبدالله	١٩٤ ـ ١٩٥ هـ	
ابن الوضاح	٢٠٧ ـ	نعيم بن وضاح الأزدي (٢٠٦ ـ ٢٠٨ هـ).
ايتاخ	٢٣٠ ـ ٢٣١ هـ	ايتاخ: التركي[٢٤].
المظفر حاجي	٢٩٥ هـ	مظفر بن حاجي (٢٩٣ ـ ٢٩٨ هـ).
محمد بن المظفر	٢٩٨ هـ	

وإذا كانت هذه القائمة تخلو من أسماء الخلفاء العباسيين الذين كانت أسمائهم تسجل على مسكوكات صنعاء كما هو الحال بالنسبة لباقي المسكوكات الإسلامية في الولايات الأخرى إلا أن ذلك لا يعني أن السكة اليمنية قد جاءت خالية من أسماء الخلفاء تماماً إذ أنه منذ أيام المهدي بن المنصور قد بدأ ضرب العملة باليمن وكذلك في كثير من الأمصار مثل الري وأرمينية وباران والمحمدية وغيرها وذلك في منتصف الأربعينات من القرن الثاني للهجرة وخلال عهد خلافة أبيه المنصور وهنا نص واضح على العملة المذكورة نصه: «مما أمر به المهدي

محمد بن أمير المؤمنين» وكان الوالي على اليمن حينئذٍ يزيد بن منصور خال المهدي.

ويعتبر دينار سنة ١٧١ هـ والذي يرجع إلى عهد الخليفة هارون الرشيد أقدم دينار يمني يحمل اسم الخليفة العباسي والوالي على إقليم اليمن وكتاباته:

الوجه: المركز: لا إله إلا ـ الله وحده ـ لا شريك له

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

الظهر: المركز: الغطر ـ محمد رسول الله ـ الخليفة هارون ـ يف

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينر سنة إحدى وسبعين ومئة

ويلاحظ أن اسم الوالي قد كتب على الدينار فالكلمة «الغطريف» والتي كتب نصفها من أعلى والنصف الآخر من أسفل هي أول اسم الغطريفْ بن عطاء وهو أول اسم لوالي يرد على سكة العملة باليمن بل وحتى أول اسم خليفة يكتب على السكة المضروبة باليمن وهو الخليفة هارون الرشيد(٢٥).

وإذا كان أقدم دينار ضرب في صنعاء يرجع إلى سنة ٢٢١ هـ فقد وصلنا دينار عباسي يرجع إلى سنة ٢٠٢ هـ وزنه ٣,٩٨ جم ولكن ليس عليه مكان الضرب وكتاباته كالآتي:

الوجه: المركز: لا إله إلا ـ الله وحده ـ لا شريك له ـ محمد

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

الظهر: المركز: محمد رسول الله

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينر سنة اثنين ومئتين

وهذا الدينار يعتبر واحداً من أقدم الدنانير العباسية في اليمن وإن ورود اسم «محمد» في مركز الوجه يرجح أن يكون الأمير الذي أمر بسك هذه العملة هو محمد بن زياد الوالي العباسي في منطقة تهامة ومؤسس مدينة زبيد ويصحح هذا

الدينار معلومة تاريخية إذ يؤكد أن محمد بن زياد قد جاء إلى اليمن سنة ٢٠٢ هـ وليس سنة ٢٠٣ هـ كما تذكر المصادر التاريخية[٢٧].

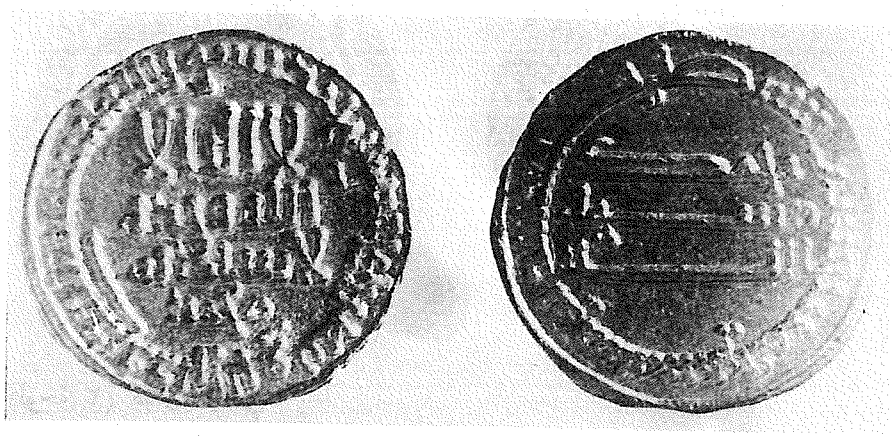

(لوحة ١) دينار عباسي
عبد الله المأمون ووالية «محمد»
بدون تحديد دار الضرب ـ سنة ٢٠٢ هـ.

وقد وصلنا دينار ضرب صنعاء سنة ٢٢٣ هـ وزنه ٣,٦٥ جم وكتاباته:

الوجه: المركز: لا إله إلا ـ الله وحده ـ لا شريك له
الهامش: في سطرين
أ ـ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله
ب ـ بسم الله ضرب هذا الدينر بصنعا سنة ثلث وعشرين ومئتين

الظهر: المركز ـ رسول الله ـ المعتصم بالله ـ ع
الهامش: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[٢٨]

(لوحة ٢) دينار عباسي
المعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ).
صنعاء ٢٢٣ هـ.

ونستطيع القول أنه منذ سنة ١٩٩ هـ تغيرت العبارات الدينية المسجلة على السكة العربية فظهرت الآية القرآنية التي أصبحت تميز السكة العباسية الذهبية منذ عهد المأمون ونصها: «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» وقد سجلت على وجه الدينار في هامش إضافي آخر إلى الخارج حول هامش الكتابة الذي ينص على تاريخ الضرب ومكانه وكذلك أكملت العبارة القرآنية في هامش ظهر الدينار فأصبحت ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ وأحياناً ﴿محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ولم يكن من الميسور إكمال هذا النص بغير زيادة قطر الدينار العباسي عن الدينار الأموي لإفساح المجال أمام الحفار لنقش النص كاملاً[٢٩].

(لوحة ٣ أ) دينار عباسي
المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)
صنعاء ٢٧٧ هـ.

(لوحة ٣ ب) دينار عباسي
المعتضد بالله
صنعاء ٢٨٦ هـ.

(لوحة ٣ جـ) دينار عباسي
المكتفي بالله
صنعاء ٢٩٢ هـ.

ويرى Doarn أن حرف الـ ع في الدينار السابق الذي يقع في السطر الرابع في مركز الوجه ربما كان يشير إلى أول حرف في اسم الحاكم عبـد الرحمن بن جعفر والذي تولى السلطة في اليمن فيما بين سنتي ٢٢٠ ـ ٢٢٥ هـ(٣٠).

ويبدو أن دار ضرب صنعاء كانت دار الضرب الرئيسية في اليمن طوال القرن الثالث الهجري (٩ م) إذ لم يصل إلينا عملات ضربت في أي مدينة يمنية أخرى فيما عدا أنه في سنة ٢٩٨ هـ وصل إلينا ثلاث دنانير ضرب صعده وهذا واضح من قائمة الدنانير التي أوردها كريستوفر تل والتي سكت في اليمن من سنة ٢٢٠ هـ ـ ٣٤٠ هـ وكلها ضرب صنعاء (لوحة ٣ أ، ب، جـ)، فيما عدا سنة ٢٩٨ هـ ذكر ثلاث دنانير ضرب صعده وهي تلك الدنانير التي ضربها الإمام الهادي إلى الحق وقد نشر Doarn إحداها (لوحة ٤) ووزنه ٢,٨٨٥ جم والثاني وزنه ٢,٨٢ جم والثالث ٢,٨٥ جم.

وفي خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (٩ م) زادت قوة الولاة العباسيين فقامت الأسر المستقلة في المناطق المختلفة وفيما يتعلق بصنعاء فقد

حكمها محمد بن يعفر[٣٢] وأولاده الذي كان مضطراً بين فترة وأخرى إلى الاعتراف بسلطة الحكومة الزيادية وهي الأسرة السنية الحاكمة في مدينة زبيد أما الشيعة فإن الإمام الراشد الهادي إلى الحق حاكم صعده[٣٣] والذي غزا صنعاء لأول مرة سنة ٢٨٨ هـ[٣٤] وضرب عملاته بها وسجل اسمه عليها وقد نشر Doarn إحداها (لوحة ٥) وكتاباته كالآتي:

الوجه: المركز: لا إله إلا ـ الله وحده ـ لا شريك له ـ محمد رسول الله

الهامش الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله

الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينر سنة ثمان وثمنين ومئتين.

الظهر: المركز: الهادي إلى ـ الحق أمير ـ المؤمنين بن ـ رسول الله

الهامش: وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين[٣٥]، (لوحة ٥).

ويعتبر دينار سنة ٢٨٨ هـ والذي ضربه الإمام الهادي إلى الحق أقدم عملة رسيه[٣٦] ضرب صنعاء ففي تلك السنة غزا الإمام صنعاء ودخلها في ٢٢ محرم وقد انتهى هذا الفتح الرسي في ١١ جمادى سنة ٢٨٩ هـ عندما اضطرهم اليعفريون إلى أن يغادروا صنعاء وإن الكتابات القرآنية من سورة الإسراء على هذا الدينار يعتبر أول ظهور لها على هذه المسكوكة ويرى Lowick أن هذا يعتبر تغييراً كبيراً في كتابات العملات اليمنية وتشير إلى الثورة على الخلافة العباسية يؤكد هذا اختفاء اسم الخليفة العباسي مما يشير إلى استقلال صنعاء في تلك الفترة عن الخلافة[٣٧].

وعلى ضوء هذه الأحداث السياسية المتقلبة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (٩ م) من الممكن أن نتصور الأوضاع التي كانت سائدة في عملية سك العملة ذلك أن هذه الصناعة لا بد أن تكون قد تأثرت بطريقة أو بأخرى باحتلال القرامطة[٣٨] لمدينة صنعاء

في القرن الرابع الهجري: إن ضعف العلاقة بين الخلافة العباسية وولاتها في

صنعاء خلال هذا القرن ترتب عليه ظهوردور ضرب أخرى في مناطق متعددة باليمن مثل بيش[٣٩] (دنانير مؤرخة بسنوات ٣٣١ ـ ٣٣٦ ـ ٣٣٨ ـ ٣٤٣ هـ)،وبيس[٤٠] التي وصلنا منها ديناران مؤرخان بسنتي ٣٣٩ ـ ٣٤٠ هـ وذمار والمعروف منها اثنان حتى الآن ٣٣٧ أو ٣٣٩، ٣٣٩ هـ (لوحة ٦) وعدن والمعروف منها تسعة دنانير مؤرخة فيما بين سنتي ٣٣٧ ـ ٣٤٩ هـ ودنانير عثر[٤١] أربعة مؤرخة فيما بين سنتي ٣٤٢ ـ ٣٤٨ هـ (لوحة ٧ أ، ب)، وزبيد حيث حكمت أسرة منحدرة من أسرة عبيد الله بن زياد الأموي وقد بقي لهذه الأسرة شأن وسمح لها المأمون أن تحكم زبيد في اليمن وأهم أمير زيادي هو إسحق بن إبراهيم الذي ظهر اسمه على الدنانير العباسية المضروبة في زبيد فيما بين سنتي ٣٤١ ـ ٣٦٢ هـ (لوحة ٨)[٤٢]، وأن ظهور دور الضرب هذه في خلال القرن الرابع الهجري لا يعني أن صنعاء قد أُهملت كدار للضرب إذ وصلنا من الدنانير المضروبة في صنعاء الكثير.

بالإضافة إلى دور الضرب السابقة فإن دار ضرب صعدة تعتبر واحدة من أهم الدور خلال القرن الرابع الهجري وقد سبق أن ذكرنا أنه قد سك بها دنانير سنة ٢٩٨ هـ ونستطيع القول أن هذه الدار كانت داراً نشطة نستنتج ذلك من بعض العبارات التي أوردها الهمداني (لسان اليمن) في كتابه الجوهرتين العقيقيتين إذ يقول: «أمر يحيى بن الحسين العلوي أبا إسماعيل بن عبد الرحمن صاحب عياره بصعدة أن يحمي الدنانير بعد الطبع». «وكان أبو إسماعيل إبراهيم ابن محمد ابن عبد الرحمن صاحب عيار صنعاء وصعدة يبتدي ضرب العيار...» .. «وخبرني أبو إسماعيل إبراهيم بن محمد صاحب عيار صعدة وصنعاء[٤٣] وقد ذكر الهمداني أنه أقام في صعدة مدة عشرين سنة»[٤٤].

وفيما عدا صنعاء فإن دور الضرب الأخرى لم تحمل أسماء الحكام المحليين وهي تشبه العملات العباسية مثلما كان الأمر بالنسبة لصنعاء التي أحدثت تغييراً بدأ سنة ٣١١ هـ واستمر بعد ذلك حيث سك في ذلك الوقت دينار وزنه ١,٨ جم يحمل اسم الخليفة ولكنه ذو طراز خاص مميز وقد ضرب دينار سنة ٣٢٥ هـ يحمل عبارة «أمر به الأمير» وذلك في الهامش المحيط بالمركز ويرى Bikhazi أن هذا الدينار قد ضربه بعض الأمراء المستقلين والذين أرادوا أن يؤكدوا استقلالهم عن الخلافة العباسية عن طريق ضرب عملات خاصة بهم لولاياتهم ولكن من هو الأمير الذي أمر بسك هذه العملات هل أسعد اليعفري أم أنه حاكم بن زياد والمعروف باسم أبو الجيش إسحق بن إبراهيم[٤٥]؟

ملخص

السكة ودور الضرب في اليمن منذ فجر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري.

د. سعيد محمد مصيلحي.

يتناول الموضوع مقدمة عن السكة اليمنية قبل الإسلام وأن هذه المنطقة تعتبر أغنى منطقة بالعملات وأن دنانير حمير ودراهمها كانت تحمل صورة الشمس والقمر والكواكب.

وفي العصر الأموي لم يصلنا أي نقد يحمل اسم اليمن ويرجع السبب في ذلك إلى أن ضرب الدنانير كان يجري في دمشق ومصر والدراهم في مدينة واسط.

في العصر العباسي: استمرت دنانير الولايات العباسية متشابهة فصعب التفريق بين دنانير كل ولاية والولايات الأخرى ومنذ سنة ١٩٩ هـ بدأت تظهر مدن الضرب على السكة العباسية الذهبية لأول مرة أما فيما يتعلق بالفلوس فقد ضرب عام ١٥٦ في عهد أبي جعفر المنصور وكذا فلس آخر ضرب سنة ١٥٨ هـ كتب عليه «ضرب هذا الفلس باليمن» ويرد اسم صنعاء لأول مرة على العملة وذلك على نصف درهم ضرب سنة ١٦٩ هـ يليه درهم سنة ١٧٣ هـ يحمل اسم هارون الرشيد ووالية الغطريف بن عطاء الكندي.

وتعتبر دار ضرب صنعاء من أهم دور الضرب في اليمن وقد تحدث عنها الرازي في مؤلفه تاريخ مدينة صنعاء وقد استمرت هذه الدار تعمل على الأقل حتى القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) وفضلاً عن دار ضرب صنعاء كانت هناك دور ضرب أخرى ورد ذكرها على النقود اليمنية مثل بيش، بيشه، ذمار، عدن، عثر، زبيد فضلاً عن دار الضرب الهامة في صعدة.

وقد تعددت مسميات العملات اليمنية فبالنسبة للدنانير نجد الدينار المطوق، العلوي، اليعفري، الجبابي.

أما الدراهم فمن مسمياتها الدرهم القفلة، السديس والثلث والربع.

المرجح أن يكون الأمير أسعد هو الذي أمر بسك هذه العملة إذ أنه مما لا شك فيه أن الأمير أسعد قد ضرب سكة باسمه نسبت إليه وقد أشارت المصادر التاريخية إلى الدينار الأسعدي وذلك حسبما جاء في كتاب غاية الأماني في أخبار القطر اليماني إذ يذكر مؤلفه ضمن أحداث سنة ٤٥٨ هـ: «استولى آل نجاح على خزائن الصيلحي حتى لقد حكي أن رجلاً مر بصندوق مملوء بدنانير أسعدية فرغب عنها وقال أريدها حاشدية. . . والأسعدية ضربة أسعد بن يعفر الحوالي»(٤٦).

مسميات العملات في خلال القرن الرابع الهجري (١٠ م) والقيم النسبية بينها:

إن القيمة أو النسبة بين العملات الذهبية والفضية والنحاسية في اليمن خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين تعتبر معقدة على أساس أن هذه الولاية تعتمد بصورة كبيرة على العملة الذهبية والفضية منذ بداية العصر العباسي.

ولقد ذكر ابن رستة في الأعلاق النفيسة حوالي سنة ٣٠٠ هـ أن الناس في صنعاء تعاملوا بالدينار المطوق والدرهم السديس والفلوس وقد ارتفعت قيمة الدرهم إلى الدينار ووزن الدرهم السديس يعادل سدس الدرهم الكامل وأن الـ ٢٤ فلساً تعادل درهماً كاملاً.

أولاً: العملات الذهبية:

تعددت تسميات الدنانير الذهبية اليمنية فيذكر الهمداني في الجوهرتين: «أن عيارات الدنانير كثيرة وجيدها أكثر من أن يحصى إلا أنه خير ما عمل في الإسلام. . والمطوقة والوازري والعلوي الصعدي وهو أرفع من الوازري»(٤٧)، فضلاً عن ذلك فقد أشار إلى عيارات أخرى للدنانير الذهبية ومن أهمها الحبابية(٤٨).

أ ـ الدينارالمطوق: يذكر المقدسي أن أهل مكة كانوا يستعملون الدنانير المطوقة ويشبهها بالدراهم اليمانية فهي كالملكية تقبض عداً ويساوي الدينار منها ثلث مثقال. يؤيد ذلك الهمداني في صفة جزيرة العرب إذ يقول: إن الدينار المطوق يعادل الدرهم القفلة. ويقول في الجوهرتين: المطوق ثلثا مثقال وأن المطوق ثلثا مثقال وحبتان(٤٩) والعشرة مطوقة وقية وهي سبعة مثاقيل(٥٠).

ويروي الهمداني في الجوهرتين: «كان يقع المطوق من الفضة عشرين درهماً

فضة وبالمثقال قراب ثلاثين درهماً فلما انقطع المعدن صارت الفضة بصنعاء إلى وقية بدينار مطوق فلما وقعت باليمن حطمة سنة تسعين ومائتين عادت إلى السعر الأول عشرين درهماً فضية وهي وقيتان بدينار مطوق وبلغ صرف الدوانيق تسعة وتسعين بمطوق فذلك ستة عشر درهماً وسدس».

أما عن شكل الدينار المطوق فنعرفه من وصف الهمداني يقول: «ومن الطبع ما هو على طوق، ثلث طوق، وعلى نصف طوق ما كان الدينار والدرهم أوسع من الطوق مخرمة جميعاً وذو الثلثين ما وقعت حروفه في نصف الطوق فامتد فصار تاماً ويسمى المردود.. وذو النصف يكون قصيراً تأخذ حروفه أداني الطوق فإذا أمد في الحديد أخذ الطوق أكثر من نصفه إلى ثلثين والدور حفرها»[٥١]. ووفقاً لما ذكره الهمداني يرى كريستوفر تل أن مساحة سطح الدينار المطوق إتسعت بحيث صارت تقريباً بشكل الدنانير المعهودة رغم أنها أقل وزناً منها بالثلث ولهذا فإنه من الممكن أن يفهم معنى المصطلح دينار مطوق بأنه دينار محلى بطوق نتيجة الاتساع لدى الضرب. ولكن لماذا سمي الدينار اليمني بالدينار المطوق؟ فالدنانير الأخرى يكتب عليها أيضاً. يرى تل أنه لا علاقة للفظ طوق بأي من الجذور العربية وما زالت صيغة فعّل تحمل المعنى المجازي للفظة الأصلية كقولهم طوقه بالصعاب أو الثناء.. والطوق هو الممكن لعمل شيء وفي الجوهرتين مطوق بالنار مقابل صليب على النار[٥٢].

وزن الدينار المطوق: يرى تل أن الدينار المطوق استعمل بين عامي ٢٣٨ ـ ٢٤٩ هـ ولكن من الواضح أنه قد استمر استعماله بوزنه الذي قدره تل حتى عام ٣٠٦ هـ وذلك اعتماداً على قائمة الأوزان للدنانير اليمنية وهذه الدنانير كانت بوزن الدرهم أي ٢,٩٨ جم وبقي مقدار مساحته دون تغيير يذكر وكان مقدار تنقيص القطر ٧٥, . مم وكانت النقود لا ينقص وزنها عن الدرهم إلا قليلاً وفي عام ٣٠٧ هـ بدأت تحل الدنانير محل الدنانير المطوقة التي كانت تقل في وزنها عن جرامين وينقص قطرها مليمتراً واحداً ولكن النص عليها « ضرب هذا الدينر » وليس هذا النصف أما نقصان الوزن فلا يمكن الحكم عليه دون أن تفحص النقود نفسها فقد يكون بسبب الطوق الذي يرقها كما يفهم من كلام الهمداني أو قد يكون بسبب تغير العيار[٥٣].

الدينار العلوي: ينسب إلى الدولة العلوية التي حكمت اليمن حقبة طويلة من

الزمن وأول أئمتها الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم يتصل نسبة بالإمام علي - كرم الله وجهه - ومن هنا جاءت التسمية وقد استقر في صعده سنة ٢٨٤ هـ واستمر حكمه حتى وفاته سنة ٢٩٨ هـ وقد سكت الدولة العلوية نقوداً منذ عهد الإمام الهادي كما يتضح من ثناء الهمداني على عيار سكته وما جرى له من محاورة مع صاحب دار ضرب السكة في عهده ويجب ألا نغفل أن الهمداني قد عاش في صعدة حوالي عشرين عاماً[٥٤].

ويمتاز هذا الدينار العلوي بأنه يحمل أسماء الأئمة في وسط الظهر مثل اسم الإمام الهادي فقد جاء على الظهر كالآتي: الهادي إلى - الحق أمير - المؤمنين - بن رسول الله فضلاً عن ورود الآية القرآنية ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وذلك في هامش الظهر. وكتابات الدينار العلوي في كل من صنعاء وصعدة متشابهة والكتابات القرآنية من سورة الإسراء على هذه العملة اليمنية تعتبر أول ظهور لها على هذه المسكوكة ويرى Lowick أن هذا يعتبر تغييراً كبيراً في كتابات العملات اليمنية ويشير إلى الثورة يؤكد هذا اختفاء اسم الخليفة العباسي[٥٥].

(لوحة ٤) دينار رسي .

الإمام الهادي إلى الحق .

صعدة ٢٩٨ هـ .

(لوحة ٥) دينار رسي
الإمام الهادي إلى الحق
صنعاء ٢٨٨ هـ.

الدنانير الحبابية: ينسب إلى ابن الحباب يقول عنه الهمداني: «وخبرني أبو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن عبدالرحمن صاحب عيار صعدة وصنعاء أن جعفر بن دينار لما قدم اليمن سنة اثنين وثلاثين ومئتين وهي سنة بويع للمتوكل صير على العيار بصنعاء ابن الحباب وفوضه في دار الضرب وأسبابها فكان يستقصي على الناس في عياراتهم فإذا بلغت أمرهم بالانصراف وأمر بإحضار السباك ثم دعا بجراب الصلاح فيؤتى إليه بجراب فضة مهرجة من الزرسيم فيطرح على الثابه جزءاً كبيراً ويأخذ مكانه ذهباً. فدنانيره المثاقيل الحبابية واضحة بيضة على كثير فيها اسم المتوكل وإيتاخ ثم فورت بعد ذلك في اليمن فأخرجت أوساطها فتعامل بها الناس هي الدنانير الحادة وزنها نصف مثقال وكانت من نقش عيار ابن الرومي الضراب... ثم جنح الناس باليمن ومكة وكثرت شائعته عند جعفر وبقيت الحبابية إلى عصر الهمداني يتثاقل بها الناس وما تقع في يد أحد لسبب إلا دعا على ابن الحباب لأنه من مفسدي النقد[٥٦].

الدينار اليعفري: أو الأسعدي: هي تلك الدنانير التي أمر بضربها الأمير أسعد

اليعفري ونسبت إليه حسبما جاء في كتاب غاية الأماني في أخبار القطر اليماني وطراز هذه المسكوكات غير معروف الآن ومن المرجح أن تكون من الدنانير الأميرية - ويبدو أن هذه الدنانير ظلت مستعملة لمدة قرن أو أكثر بعد وفاته[٥٧] واستمرت تحمل اسم الأمير فضلاً عن اسم الخليفة العباسي كحاكم من قبله ولكن سلطة الخليفة في ذلك الوقت كانت اسمية فقط وكم عانى موظفو دور الضرب من التقلبات السياسية الداخلية وهذا ما جرى في كثير من الولايات الإسلامية نتيجة للفوضى السياسية والدينار الأسعدي ضرب في صنعاء وفي ذمار فيما بين سنتي ٣٢٥ - ٣٤٠ هـ.

العملات الفضية

ذكر ابن رسته حوالي سنة هـ أن الناس في صنعاء تعاملوا بالدينار المطوق والدرهم السديس والفلوس وقد ارتفعت قيمة الدرهم إلى الدينار ووزن الدرهم السديس يعادل سدس الدرهم الكامل وأن الـ ٢٤ فلس تعادل درهم كامل.

ويقول الهمداني في الجوهرتين: فكان يقع المطوق من الفضة عشرين درهماً قفلة وبالمثقال قراب ثلاثين درهماً فلما انقطع المعدن صارت الفضة بصنعاء إلى وقية بدينار مطوق فلما وقعت باليمن حطمة سنة تسعين ومئتين عادت إلى السعر الأول عشرين درهماً قفلة وهي وقيتان بدينار مطوق بلغ صرف الدوانيق تسعة وتسعين بمطوق فذلك ستة عشر درهماً وسدس. ويقول الهمداني الصفة: «الدينار المطوق هو على وزن الدرهم القفلة فكان وزن الدرهم القفلة يساوي عشر سبعة مثاقيل ومن هذه العبارة نستنتج قيمة الدرهم القفلة بالتقريب.

ويرى تل أن درهم قفلة يعني درهم جملة أي درهم كامل دون نقص ويشبه هذا المعنى ما قرره بيستن حيث اعتبر قوله تعالى «دراهم معدودة» مستوحاة من تعبير يوناني ويقول أن لفظ قفلة ليس نعتاً مشتقاً للفظ درهم وإنما هو اسم جامد ومحله من الإعراب بدلاً من درهم[٥٨].

الدرهم السديس: كلمة السديس تصغير لرقم ٦ ولذلك فإن وزن هذا الدرهم يتراوح بين ٤٩ جم - ٣٢,جم معتمداً على أن الوزن الأساسي هو وزن الدرهم القفلة ٢,٩٧جم وليس هناك عملات باقية من دار ضرب صنعاء ولكن عثر على بعض عملات بهذا الوزن من صعدة والراجح أن هذا الوزن كان شائعاً في صنعاء

ومعظم الدراهم العباسية النادرة المضروبة بصنعاء وزنها أكثر قليلاً من ٧,جم وهي تساوي ٤/١ الدرهم القفلة وعلى كل حال فإنه قد وصلنا قطعة واحدة وزنها ٧٥, جم نشرها Miles تتضمن كتابات بالخط اللين وهي تعادل في وزنها ثلث الدرهم اليمني المكون من عشر قراريط ١,٩٥ جم وهذا الدرهم قد استخدم كذلك خلال القرن ٨ هـ/١٤ م في اليمن ويبدو أنه مطابق للسدس درهم والذي ذكره ابن رسته والعلوي وأورد سيرجنت قائمة بأسماء العملات اليمنية وأوزانها يجب أن نذكرها وهي:

ذهب	دينار مطوق	٢,٩٧ جم
فضة	درهم قفلة	٢,٩٧ جم
	ثلث درهم	,٩٩ جم
	ربع درهم	,٧٤ جم
	سدس درهم	,٤٩ جم
	درهم يمني من عشر قراريط	١,٩٥ جم
	ثلث الدرهم اليمني	,٦٥ جم
	سدس الدرهم اليمني	,٣٢ جم[٥٩].

(لوحة ٦) دينار
المستكفي بالله
ذمار ٣٣٧ هـ.

(لوحة ٧ أ) دينار
الأمير أبو جعفر
عثر ٣٧٥ هـ.

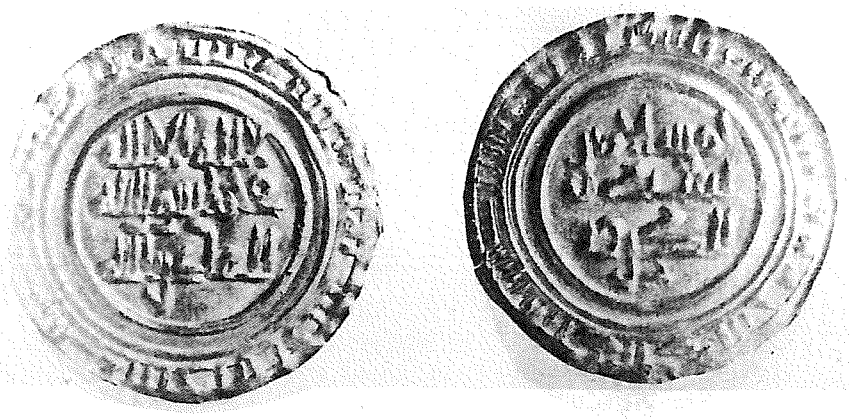

(لوحة ٧ ب) دينار
تسيج بن الطوفة
عثر ٣٩٣ هـ.

(لوحة ٨) دينار زيادي
أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم
زبيد ٣٤٦ هـ.

الهوامش:

يسرني أن أتقدم بالشكر للأخ عبدالوهاب عسلان بقسم الآثار جامعة صنعاء للخدمات التي أداها لي في فترة إعداد البحث.

(١) أ ـ السكة بكسر السين وتشديد الكاف كما يقول ابن خلدون هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش به صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدنانير والدراهم فتخرج رسوم النقوش عليها ظاهرة مستقيمة.. ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من البهرج بين الناس في النقود عند المعاملات ويثقون في سلامتها من الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة.

والماوردي يقول: السكة هي الحديدة التي يطبع عليها الدراهم ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكة.

والمقريزي يطلق لفظ السكة على النقود المتعامل بها.

د. عبدالرحمن فهمي محمد: موسوعة النقود العربي فجر السكة العربية. ١٩٦٥ ص ٢٥.

ب ـ دور الضرب

لا شك أن إنتاج الدنانير عن طريق الضرب على قالب بالمطرقة فوق السبيكة الذهبية كان معروفاً في معظم البلاد الإسلامية وتشير كتابات السكة الذهبية نفسها سواء الدنانير أو أجزائها إلى أن إنتاجها جاء عن طريق الضرب وخاصة في العبارات الهامشية على ظهر السكة فنجد مثلاً ضرب هذا الدينار أو «ضرب هذا النصف» أو «ضرب هذا الثلث». فأصبحت الدار التي تجري فيها عملية صنع النقود تعرف بدار الضرب.

المرجع نفسه ص ٢٢١

وقد وصلت دور الضرب في العالم الإسلامي إلى حوالي ١٤٠٠ مدينة ضرب وقد ظهرت لأول مرة أسماء مدن الضرب على الدنانير الإسلامية وعليها الكتابات العربية زمن الخليفة العباسي المأمون سنة ١٩٨ هـ وكانت باسم مدينة السلام وعلى الدراهم سنة ٩٨ هـ وكانت في أرمينية وعلى الفلوس سنة ٨٥ هـ.

وهذه الدور بالرغم من جعلها عربية زمن عبدالملك بن مروان سنة ٧٧ هـ فإنها قد استمرت تعمل في دور الضرب البيزنطية والساسانية القديمة وبأيدي الصناع المحليين الأصليين أو المسلمين على السواء في جميع الولايات الإسلامية.

محمد باقر الحسين: مدن الضرب على النقود الإسلامية
مجلة المسكوكات العدد ٥ ١٩٧٤ ص١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري:
أثر الفنون العربية قبل الإسلام في الفن الإسلامي.
الآثار الإسلامية في الوطن العربي. صنعاء ـ ربيع الآخر ١٤٠٠/فبراير ١٩٨٥ المؤتمر التاسع للآثار. تونس ١٩٨٥ ص ١٥٣.

(٣) الحسن بن أحمد الهمداني (لسان اليمن) (٢٨٨٠ ٨ ٣٤٥ هـ)
الجوهرتين العقيقيتين المائعتين الصفراء والبيضاء.
أعده للنشر: حمد الجاسر الرياض ١٤٠٨/١٩٨٧ ص ١٨٧.

(٤) د. عبدالرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص ١٥٣.

(٥) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية الإكليل. وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء.
العدد الخامس. سبتمبر ١٩٨١ ذو القعدة ١٤٠١ ص ٤١.

(٦) د. عبدالرحمن فهمي محمد: المرجع السابق ص ٥٣.

(٧) المرجع نفسه ص ٦٢.

(٨) دوانيق
الدانق إحدى وحدات وزن الأشياء النفيسة كالمعادن ولكن الدانق الدوانيق الدوانق ـ عند الهمداني يقصد بها نقود لعلها فلوس تصرف بها الدراهم كما ذكر أن حبة البز المستعملة في الوزن تكون على وزن أثمان الدانق والدانق يساوي $\frac{2}{5}$ ٨ ثمان حبات شعير وخمسا حبة أي سدس الدرهم وكلمة دانق تعريب دانك الفارسية أي وزن حبة حنطة.
الهمداني: المرجع السابق ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٩) عبدالرحمن فهمي المرجع السابق ص ٧٦

(١٠) المرجع نفسه ص ٨٨.

(١١) أحمد محرم: عملة عباسية في اليمن.
الآثار الإسلامية في الوطن العربي ١٩٨٥ ص ٢٢٦.

(١٢) هو أبو العطاء الجرشي خال هرون الرشيد قدم اليمن والفوضى منتشرة والحبل مضطرب والخلاف على أشده بين المخلافين الجند وصنعاء فوصل الحبل ورأب الصدع ولأم ما بينهما من شقاق وخلاف وعادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية والأحوال إلى هدوء وطمأنينة وقد أقام في اليمن ثلاث سنين وسبعة أشهر وكان الغطريف كيساً لبيباً بصيراً بالأمور تولى للهادي والرشيد خراسان واليمن وغيرهما وبرهن على مقدرة.
أبي الضياء عبدالرحمن علبد علي بن الربيع الشيباني الزبيدي (ت ٩٤٣):
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون.
حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع الحوالي القاهرة ١٣٧٤ هـ الجزء الأول ص ١٢٨ حاشية ١.

(١٣) Sirgant: San'a An Arabian City p. 303.

(١٤) الرازي: أحمد بن عبدالله الرازي الصنعاني: تاريخ مدينة صنعاء عني بتحقيقه ووضع فهارسه: حسين عبدالله العمري، عبدالجبار زكار الطبعة الأولى ١٩٧٤ ص ١٠٦ - ١٠٧.

(١٥) الهمداني: المرجع السابق ص ٢٦٦.

(١٦) Sirgant: Op Cit 303.

(١٧) د. محمد أبو الفرج العش: المرجع السابق ص ٤٢.

(١٨) دكتور كريستوفرتل: مصطلحات عربية في المعايير والأوزان من كتاب الجوهرتين العتيقيتين للهمداني.
ترجمة دكتور: يوسف محمد عبدالله.
مجلة العرب. جـ٣، ٤ س ٢٢ رمضان/شوال ١٤٠٧ دار اليمان للنجف والنشر والترجمة ص ١٨٢ - ١٨٣.

(١٩) د. عبدالرحمن فهمي محمد: المرجع السابق ص ٣٠.

(٢٠) Robert E Darley-Doarn: Examples of Islamic counage from Yemen 3000 Years of Civilization. p. 182.

(٢١) Sirgant: Op. Cit p. 303.

(٢٢) هو العباس بن محمد بن إبراهيم الهاشمي الذي كان والياً على اليمن من قبل والده محمد بن إبراهيم الهاشمي الذي جمع له الحجاز واليمن.
ابن الربيع الشيبان: المرجع السابق ص ١٢٩.

(٢٣) ولي حماد البربري اليمن بعد محمد بن يرمك الذي قدم اليمن وعامل أهلها بالعنف والجبروت وقتل جماعة من رؤسائهم وشرد جمعاً كثيراً حتى دانوا له وسلموا الواجب وزيادة وعمرت اليمن خاصة صنعاء.
المرجع نفسه ص ١٣١.

(٢٤) كان ايتاخ غلاماً طباخاً لسلام الأبرش فاشتراه المعتصم منذ سنة تسع وتسعين وكان شجاعاً فرفعه المعتصم والواثق وضم إليه أعمالاً كثيرة وكان المعتصم بيد ايتاخ يقتل وبيده يحبس.
المرجع نفسه ص.

(٢٥) أحمد علي محرم: دنانير إسلامية من أوائل العصر العباسي باليمن دراسات يمنية عدد ٣ أكتوبر ١٩٧٩/ذو القعدة ١٣٩٩ ص ٢٤ - ٢٥.

(٢٦) Doatn: Op. Cit p. 183.

(٢٧) جاء في بهجة الزمن: وكان المأمون قد قلد محمد بن عبدالله بن زياد الأعمال التهامية وما استولى عليه من الجبال سنة ثلاث ومئتين واختط مدينة زبيد سنة أربع ومئتين.
تاج الدين عبدالباقي بن عبد المجيد اليماني (ت ٧٤٣ هـ).
بهجة الزمن في تاريخ اليمن.
تحقيق عبدالله محمد الحبشي، محمد أحمد السنباني دار الحكمة اليمانية. صنعاء ص ٢٨.

(٢٨) Doarn: Op. Cit p. 183.

(٢٩) د. عبدالرحمن فهمي محمد: المرجع السابق ٨٩ - ٩٠.

(٣٠) Doarn: Op: Cit P. 83

(٣١) كريستوفرتل: المرجع السابق ١٨٢ - ١٨٣.

(٣٢) وردت كتب الموفق إلى محمد بن جعفر بن عبدالرحمن الحوالي بولاية اليمن فوجه عماله إلى المخاليف وفتح حضرموت وكان مع غلبته على صنعاء والجند وحضرموت يوالي ابن زياد صاحب زبيد ويحمل الخراج إليه يريد أنه نائب عنه لعجزه عن مقاومته وفي أيام الأمير محمد بن يعفر حصل في صنعاء سيل عظيم فأخرب دوراً كثيرة وأتلف أموالاً عظيمة.
ابن الربيع الشيباني: المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٢ - ١٦٣.
تاج الدين عبدالباقي: المرجع السابق ص ٤٥.

(٣٣) هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ابن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب يكنى أبا الحسين ويلقب بالهادي إلى الحق خرج إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ فدخل صعدة وتعرف إلى أهلها وتقدم نحو همدان مجتازاً الجوف إلى نهم حيث حط رحاله في قرية الشرفة ثم غادر اليمن ثم عاد إليها ووصل خولان سنة ٢٨٣ هـ ودخل صعدة وحسم الصراع الناشب بين سعد والربيع.
ابن الربيع الشيباني: المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٨ حاشية ١.

(٣٤) استدعى أبو العتاهية بن الروية المحجي الإمام الهادي من صعدة إلى صنعاء فدخل صنعاء في المحرم سنة ٢٨٨ هـ ودعى إلى نفسه فبايعه الناس وضرب اسمه على الدنانير والدراهم وكتب الطراز ووجه عماله إلى المخاليف.
- شمس الدين أبي الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن الخزرجي الأنصاري: العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك.
ج. ع. ي. مشروع الكتاب. دار الفكر. دمشق طبعة ثانية مصور. ص ٢٥.
- تاج الدين عبدالباقي: المرجع السابق ص ٤٧.
يرى الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي في تعليقه على هذا الحادث أن الإمام الهادي قد دخل صنعاء سنة ٢٨٨ هـ في ظل مؤامرة حاكها أبو العتاهية.
ابن الربيع: المرجع السابق جـ ١ ص ١٧٣.

(٣٥) Doarn: Op. Cit p. 183.

(٣٦) جبل الرس بالمدينة المنورة.
ابن الربيع: المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٧.

(٣٧) Doarn: Op. Cit p. 183.

(٣٨) القرامطة:
فرقة من الباطنية وهي منظمة سرية خطيرة تكونت من جماعة فارسية من المجوس اندست بين المسلمين متظاهرين بالدين والورع وهدفها تقويض دعائم الإسلام وإعادة السيادة الفارسية ثم اتخذت التشيع لها شعاراً لما أعجزتها الحيل وقد تسمى هذه الفرقة الإسماعيلية لقولهم إن اسماعيل ابن جعفر الصادق إماماً ويقال لهم السبعة لأنهم ذهبوا إلى أن النطقاء بالشريعة سبعة وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والمهدي سابع النطقاء وبين كل اثنين من النطفاء سبعة أئمة يقتدى بهم ويقال لهم الباطنية لأنهم يقولون لكل ظاهر باطن.
ابن الربيع: المرجع السابق جـ١ ص١٦٦ حاشية ٣٠.
(٣٩) بيش: تقع في الطريق بين مكة واليمن.
الهمداني: المرجع السابق ص ٣٨١.
هو دارس فيه مصدر يقال لها أبو تراب لكثرة الرياح والسواقي فيها وبيس لا يزال معروفاً فيه قرى ومزارع وسكان كثيرون ويقع في مقاطعة جازان.
المرجع نفسه ص ٣٤٠.
(٤٠) في تلك الجهة قرية تدعى المعدن بمنطقة الخضراء على وادي هرجات من قرى بن واهب من شهران وأخرى تدعى المعامل على وادي بن هثيل بن قرى بن بجادن سكران.
المرجع نفسه ٣٤١.
(٤١) عثر
يقول الهمداني: في وصفه محجة صنعاء إلى مكة طريق تهامة ثم عثر ثم بيض ثم ضنكان.
نفسه ص ٣٨١.
(٤٢) د. أبو الفرج العش: المرجع السابق ص ٢١١.
(٤٣) الهمداني: المرجع السابق: ص١١٣ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٤٤.
(٤٤) نفسه ص ٢٠.
(٤٥) Sirgant: Op Cit p. 304.
(٤٦) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (١٠٣٥ - ١١٠٠)
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني.
تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، د. محمد مصطفى زيادة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٨ ص ٢٥٧.
(٤٧) الهمداني: المرجع السابق ص ١٣٩.
(٤٨) نفسه ١٤٤ - ١٤٥.
(٤٩) انظر حاشية ١٠.
(٥٠) نفسه الهمداني ص ٢٥٧ - ٢٥٨.
(٥١) نفسه ١٩٧.
(٥٢) كريستوفرتل: المرجع السابق ص ١٨١.
(٥٣) نفسه ١٨١.
(٥٤) الهمداني: المرجع السابق ١١٣ - ١٢٦ - ١٤٤.
(٥٥) Doarn: Op. Cit p. 183.
(٥٦) الهمداني: المرجع السابق ١٤٤ - ١٤٥.
(٥٧) يحيى بن الحسن بن القاسم: المرجع السابق ٢٥٧.
(٥٨) الهمداني: المرجع السابق ٣٢٧٣ ٢٧٤.
(٥٩) Sirgant: Op. Cit 304.

اليمن في أوائل القرن السابع عشر

ك. خ. براور و أ. كيلانيان.
عرض وتلخيص الدكتور محمود عبد الرازق
الأستاذ في قسم الآثار

يستعرض الكتاب في جزئه الأول فترة الاحتلال العثماني من ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥، وقد اهتم المؤرخون بهذه الفترة التي بدأت بفتح سليمان باشا الخادم، المفاجيء لعدن عام ١٥٣٨. ولقد تأثرت البلاد في أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية. وكان لإنضمام اليمن إلى الدولة العثمانية أثره البالغ من وقف التوسع البحري البرتغالي من المحيط الهندي والبحر الأحمر.. وقد أثر هذا بالتالي على تجارة العرب والهند وأوروبا في تلك المناطق.

وقد اهتم جمهرة المؤرخين بهذه الفترة من تاريخ اليمن وهم على سبيل المثال Stripiling و Kammerer والبطرق وسيد مصطفى سالم و Stookey والبحراري Blackbarn و Braower و Serjeant ، وهي تتفق في مجموعها على تقديم سرد مرتب زمنياً للأحداث العسكرية والسياسية بوجه عام. ولقد حصلنا على منشورات Grohmann و Becker التاريخية والاقتصادية. وكذلك ملاحظات Cowick و Serjeant على خلوها من المواد الجوهرية حول العصر العثماني.

ولقد اشتملت دراسة سيد مصطفى سالم للحوليات اليمنية، وحول الفتح العثماني الأول لليمن مكاناً مركزياً ضمن مصادرة، ظلت في الطليعة، كما جمعت قوائم المخطوطات بواسطة أيمن فؤاد وسيد الحبش بعد ذلك ببضع سنوات.

كما تناول المؤلف سيد سالم بالنقد حيث ذكر أنه حوَّل الحوليات وتراجم الأعيان «العمود الفقري» لرسالته قلت بها المادة الاقتصادية والاجتماعية الموجودة بها قد جعلت صعوبة التاريخ غير السياسي.

كما أن التراجم الكجراتية والسورية والتركية، وكذلك المؤلفات الإسلامية مثل «البرق» بقلم النهروالي حيث يكثر الإستشهاد بها كانت هذه غنية بالمعلومات البحرية والاجتماعية والاقتصادية وكانت مصدراً هاماً للتعرف على الأحداث السياسية والعسكرية في ذلك الوقت.

كما أن العمل في هذا المجال يستوجب دراسة المؤلفات الجغرافية والأدلة البحرية الرحلات والعروض الزراعية والرسائل المستعرضة لجباية الضرائب والمكوس والأعمال حول الحسبة ومجموعات الفتاوي كما وصفها إبن المجاور لعدن، الغني بالتفاصيل للملاحة والمكوس والبضائع والمتاجر ومن أمثلة هذه المصنفات، يرجع إلى العصر العثماني حيث يجد المؤرخ نفسه أمام منطقة بكر تماماً.

كما أن بناء التاريخ اليمني متصل بها. ويركز المؤلف إهتمامه على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لتاريخ اليمن إن على الوثائق التي صورت المكاتب الحكومية أو الجمعيات أو الأفراد مثل رسائل النقل وسجلات الوثائق لأنظمة السوق وقوائم المكوس وعقود البيع أو الشراء ودفاتر والحسابات والمراسلات الرسمية أو الشخصية ورسائل التعيين وغيرها. وكذلك على قانون صنعاء الذي يعود إلى القرن الثامن عشر..

وقد عرض الكتاب الوثائق التي تعرضت للتلف قبل أن ينشرها مسئول وذلك في مقدمة نشره والحديث عن الوثائق التي جمع أكثر من خمسين وثيقة في الفترة بين ١٦٣٦ ـ ١٩١٦ م. حيث أن الدخول إلى الأرشيف الحكومي والحصول على المعلومات المطلوبة لا تزال ـ كما يقول الكتاب ـ في طور أحلام المستقبل (على حد قوله).

وقد أشار الكتاب فيما ذكر إلى إمكانية عمل الوثائق التركية فيما رواه Lewis عام ١٩٥١ م التي حفظت تحت سيطرة العثمانيين. وقد أشار Ozbaran ويلكورن إلى هذه السجلات فيما يختص باليمن.. كما أن الوثائق المحفوظة في الأرشيف التركي «باش وكالت أرشيف» تشير إلى تسجيل الكيان الإداري للإيالة، ونظام دفع الرواتب وتحركات السفن ومشتريات التوابل والتحصين العسكري وأيضاً ضرب السكة وجباية الضرائب وغيرها..

وقد تناول بلكيورن فترة إندثار السلطة العثمانية بين ١٥٦٠ ـ ١٥٦٨ م فقط من الوجهة العسكرية والسياسية دَوّنَ الاهتمام بالمصادر الاقتصادية والاجتماعية ترافق الوثائق المقتبسة التركية من بعض أجزاء «جهة دفترلاي» ويدل الكتاب على أن هذه الوثائق زادت غزارة وقد وصلت تباعاً إلى تركيا..

وقد لعبت بعض الدول البحرية في القرن السادس عشر (مثل البرتغال وإنجلترا وهولندا) في القرن السابع عشر كما توجد مستندات في الأرشيف للتاريخ الاستعماري.. من بر لشبونة وكذلك مستندات شركة الهند الشرقية الانجليزية والتي تحفظ في سجلات وزارة الهند في لندن.. ولو أن هذه السجلات لم يستعملها المؤرخون، بل إعتمد المؤرخون على النصوص الإخبارية التي من السهل التوصل إليها.

المصادر الهولندية ١٦١٤ ـ ١٦٣٠

تناول البحث من هذه المصادر على أنها وفيرة وغنية. وهي الموجودة في الأرشيف «شركةالهند المتحدة الهولندية» الهائلة الحجم.. وهي تعتبر أضخم وأقوى شركة تجارية في العالم في القرن السابع عشر. وابتداءاً من عام١٦١٤حتى أواسط القرن الثامن عشر وكانت هذه الشركة المعروفة بإسم V.O.C إختصاراً لاسمها المعروفة به وكانت متصلة بجنوب العربة بشكل وثيق.. وفي بعض الأحيان كانت للشركة محطة تجارية ثابتة في المخا.. أسكنت فيها عدداً من المستخدمين، كما كان الحال في بداية القرنين السابع عشر والثامن عشر وأحياناً كانت العلاقة هي زيارة إحدى السفن الخاصة بالشركة للميناء وتبادل فيها التجارة على خطر السفن.

وقد انعكست نشاطات الـV.O.C على مئات الوثائق ذات الطابع التجاري والاقتصادي التي تمدنا بمعلومات واسعة حول تصرفات منافسة لشركة الانجليزية والهنود حول التطورات المحلية آنذاك.. وقد ساعدت هذه المعلومات الشركة في نجاحها للحصول على الربح...

وتنقسم هذه الوثائق إلى دفاتر حوادث السفن وكتب القرارات والتعويضات والتعليمات المساحية. والرسائل الرسمية على مختلف المستويات. وأوصاف المدن والسواحل وكشوف الاقتراع ولوائح جرد البضائع وأوراق الشحن وقوائم الأسعار

والمكوس وقوائم السفن والوصايا وكشوف الاقتراع وسجلات الرواتب وغيرها. . وقد حفظت هذه الوثائق بعناية وفي متناول يد الباحث. .

وقد وصف (تريسترا) عمليات الشركة في مدة تأسيسها ١٦١٤ ـ ١٦٢٤ م أي منذ إنشائها ومزاولة نشاطها وإنشاء المحطة التجارية التي كانت إستعمارية. كما وصف براود الصراع المذكور بين الهولنديين والبكلربن ١٦٢٢ ـ ١٦٢٤ م. ولم يكن إهتمامه بالنواحي الاقتصادية يزيد كثيراً عن سابقه، ولم يستند على عدد أكبر بكثير من وثائق الشركة فقط بل يرجع إلى مصادر عربية اللغة أيضاً وخاصة «البغية» بقلم كاني شلبي. وقد أدى موقفه الحيادي إلى إساءة الظن ببعض أعمال الشركة وإلى رد الاعتبار الجزئي للباشا.

وقد عرض (تريسترا) المشاكل السياسية التي تورط فيها مستخدموها في الجزيرة العربية في الفترة من ١٦١٤ ـ ١٦٢٤ م كما تعرض وكلاود في دراسته في تحركات الشركة العربية أثناء السنوات ١٦٠٢ ـ ١٦٥٠ إلى العمليات الهولندية في البحر الأحمر.

كما تعرض كلاً من وبراور وفان سانتس للنواحي الاقتصادية وتعرض بالتحديد لتجارة القهوة التي مارستها الـ V.O.C في الفترة ما بين ١٧٥٠ ـ ١٧٢٧ م وجمع براور كل المعلومات عن رحلة (فان وربروكة) إلى اليمن عام ١٩٢٠ فيما يتعلق بالسفينة وطاقمها شحنها وطرق شحنها التي تقوم بها الشركة خلال السنوات ١٦٢٠ ـ ١٦٩٠ م من سورات والمخا.

وقد ساعدت رحلات V.O.C على هذه الملاحية والتجارة الأهلية السوراتية الهادفة لليمن. كما أوضح (مايلفك ـ رولوفس) التجارية المخاوية الخارجية في التجارة الآسيوية العامة في الأرخبيل الأندلسي حتى حوالي ١٦٣٠ م. ومن قبلها كان (فان لوير) في دراسته الأساسية التي قدمت زوايا جديدة حول «التجارة الآسيوية لتجارة البائعين المتجولين».

وقد زادت هذه الأبحاث معلوماتنا عن اليمن وماضيها حيث لعبت شركة V.O.C الدور الفعال فيها، فإن هذه المعلومات لا تخدم بشكل فعال في كتابة تاريخ اليمن. وذلك فيما يتعلق بمؤلفات (بلبقار) وبكنجهام وبيرن وسارجنيت وماكرو وكناية Yemen وبدول وغيرهم. وهي تدور في علاقاتها وموضوعاتها عن تاريخ

الجزيرة العربية. وعلى العموم فإن التجار الهولنديين أو القراصنة الهولنديين من حين لآخر كانوا أبطال رواياتهم في الحقيقة.

وقد حدثت للنقائض الخطيرة التي تسربت إلى بعضها، وكانت تتابع ترجمتي قلعجي والعمري العربيتين. وكذلك الدراسات التي نشرها المحامي وجاد طه وأباظة وغيرهم.

كما أن الدراستين الوحيدتين اللتين استعملت منهما المصادر الهولندية بطريقة منتظمة في التاريخ اليمني فهما بحث (ماكرو) حول مدينة المخا في القرن السابع عشر إلى العشرين وكذلك بحث (براور) السابق ذكره حول فضل الله باشا، وبنى الباحث الأول دراسته فقط على دفتر الحوادث لـ(فن دي بروكة) في شكله المطبوع. كما أن البحث الثاني عن التطورات السياسية يستند على العديد من الوثائق..

وهذه الوثائق من القرن السابع عشر والثامن عشر (العصر العثماني) لم تمتحن حتى وقتنا هذا بطريقة نظامية، وإنطلاقاً من وجهة نظر اليمن حول معلوماتها الاقتصادية والاجتماعية. كما أنها لم تمتحن عملاً ولم تسجل أو تصنف أو تلخص. كما أن لوبيه وهيرس وتريسترا، وكولبترندر، ودنلوب وكولهاس لم يحقق إلا حفنة صغيرة من هذه المستندات. كما دعا (كاهان) المؤرخين عام ١٩٦١ إلى الانتباه إلى الشركة الهولندية في دراستهم للتاريخ الإسلامي من مناطق المحيط الهندي. ولقد استمر هذا التجاهل لهذه الوثائق حتى عام ١٩٧٧، حيث أشار «برادرن» إلى الأهمية الجوهرية لهذه الوثائق الهولندية بالنسبة للتاريخ الإقتصادي والاجتماعي في أوائل القرن السابع عشر.

وعليه فإن هذا الكتاب يقدم للمؤرخين التي تهدف أبحاثهم العصر العثماني في تاريخ اليمن مجموعة الوثائق الهولندية المختلفة. شكلاً ومضموناً للفترة ما بين ١٦١٤ ـ ١٦٣٠. تلك الفترة الهامة جداً نظراً للثورة الناجحة التي قادها الإمام القاسم المنصور بالله وأبناؤه ضد قوات الاحتلال العثماني. وهذه المعلومات الاقتصادية والاجتماعية لم تقتصر عليها فقط بل أن الهولنديين قد لعبوا دوراً تاريخياً هاماً باليمن. وهي المرة الأولى التي نقلت فيها من وثائق الـ V.O.C. من اللغة الهولندية التي كانت مستعملة في بداية القرن السابع عشر إلى اللغة العربية مباشرة. وكذلك إلى لغات أوروبية أخرى.

وعليه فإن هذا العمل لتمكين الباحث والمؤرخ العربي من حيث تقديم النصوص الهولندية واستعمالها على النحو الصحيح حول الأشخاص والمواضيع بالإضافة إلى الملاحظة الوثائقية، كما توضح النصوص بموجز عام للجمهورية الهولندية وشركة الهند الشرقية وعلاقاتها بمنطقة جنوب الجزيرة العربية، ولأرشيفها كذلك، كما تساعد الباحثين في تاريخ اليمن الاقتصادي والاجتماعي.

الجمهورية الهولندية ١٥٨٨ ـ ١٧٩٥

نشأت الجمهورية الهولندية سياسياً وحربياً وبحرياً مع نشأة نفوذها التجاري والاقتصادي في مدة قصيرة من الزمن وبلا مثيل. وكان الاعتماد في اقتصادها على صيد السمك والملاحة التجارية نتيجة للموقع الجغرافي الصالح على بحر الشمال وعلى مصب نهري الراين وحوز. . وكانت الأراضي المنخفضة ملتقى التجارة ببحر البلطيق (القمح والخشب وغيرها) والتجارة بالبرتغال (الملح والخمر وغيرها)، وفي القرن السادس عشر اتسعت التجارة الهولندية بشكل كبير، واحتلت أمستردام مركز أنتودين على نطاق واسع وأصبحت مخزن قمح أوروبا.

وتبعاً لتغلغل السفن الهولندية في البحر المتوسط حوالي عام ١٥٩٠. ونشأت بعد ذلك ببضع سنوات الملاحة المنتظمة إلى المشرق. حيث أدت كثافتها إلى زيادة التمثيل الدبلوماسي بين هولندا والباب العالي (تركيا) فكان «كورملس هاجا» أول سفير هولندي في استنبول. وعين مساعده «كوزيس باو» قنصلاً عاماً في المركز التجاري بحلب. ومنذ ذلك التاريخ بدأت التجارة المستقلة الموجهة إلى جزر التوابل الآسيوية. وذلك من أجل تجنب سوق الفلفل في لشبونة الذي كان واقعاً تحت الرقابة الأسبانية منذ عام ١٥٨٠. وفي السنوات ١٥٩٥ ـ ١٥٩٧. قامت أول رحلة هولندية بواسطة «دي هوتمان» حيث مرت على طريق رأس الرجاء الصالح قاصداً أرخبيل الهند الشرقية، كما تأسست شركة الهند الغربية عام ١٦٢١ على طرازها وهي التي كانت قد أنشئت بهدف جنوب المصالح الأسبانية في الأمريكيتين. وجرّدت هذه الشركة، البرتغال من أنغولا والبرازيل مؤقتاً، وأسست عدة تحصينات ومحطات تجارية ومدن مثل أمستردام الجديدة وهي نيويورك حالياً. ومارست تجارة الرقيق المربحة جداً.

وقد تحولت المنطقة التجارية إلى إمبراطورية شاسعة بعد أن كانت منتصرة

فقط على شمال غرب أوروبا وامتد نفوذ هذه الامبراطورية إلى جميع أرجاء العالم. ولم تكن البرتغال وأسبانيا من القوة بحيث توقف توسعها. وكان بطبيعة الحال أمستردام هي مركز هذه الامبراطورية. وكانت تخزن في مخازنها وبكميات كثيرة المنتجات المتنوعة من كل أنحاء العالم. وتجني نظير توزيعها المبالغ الطائلة. وقد نتج عن ذلك أن تدفقت هذه الأموال الطائلة إلى مشروعاتها المفيدة مثل تجفيف البحيرات داخل البلاد. أو إقراض ملوك أوروبا المولعين بالحروب. وفي القرن الثامن عشر استمرت أموالها في تيار الصناعة الإنجليزية الناشئة. ولعب البنك المصرفي الذي تأسس عام ١٦٠٩ دوراً رئيسياً في تجارة النقد الدولية المتزايدة النفوذ. وقد زاد بذلك سكان أمستردام من ٣٠,٠٠٠ عام ١٥٦٩ إلى ١٦٠,٠٠٠ عام ١٦٤٨، فتغيرت معالم المدينة وبنيت حلقات القنوات المشهورة أو شيدت أكبر وزارة بلدية في القارة الأوروبية عام ١٦٥٨ م.

وبطبيعة الحال كان لازدهار التجارة لازمة هامة وهي ازدهار صناعة السفن، فتعددت الترسانات في المدن المختلفة، وكان أهمها أمستردام ومدلبورج ومنطقة نهر الزان. وكذلك تطورت الصناعات المساعدة لذلك وهي معامل نشر الخشب وفتل الحبال وحياكة الأشرطة، كما تطورت السفن الحديثة.

وقد استتبع الازدهار الحادي الانتشار الثقافي فتأسست جامعة ليدن عام ١٥٧٥ م. وتأسست العلوم المختلفة فيها من فيزياء وقانون ورياضة وخلافه...

شركة الهند الشرقية المتحدة ١٦٠٢ ـ ١٧٩٩

عادت أول الرحلات بالتوابل عام ١٥٦٧ إلى هولندا. ولم تكن هذه ارحلة ناجحة، ولكنها أثبتت نجاح الهولنديين بالقيام بالرحلات مستقلين بآسيا، وقد تغلبوا على مقاومة البرتغاليين. وأرسل الرحلات من ١٥ أسطولاً... حتى عام ١٦٠٢. ولقد اضطربت الأمور بعد حدوث تعدد الشركات مما دعا (فن أولد نبر نقلت) إلى التوحيد بين هذه الشركات وذلك في ٢٠ مارس ١٦٠٢. وبمقتضى هذا أعطيت «شركة الهند الشرقة المسجلة الهولندية المتحدة» حق احتكار الملاحة شرقي رأس الرجاء الصالح وعبر مضيق مجلان.

وقد بدأت الاتجاهات العسكرية للقضاء على نفوذ البرازيل بضرب معاقلها في

آسيا وقد عين الهولنديون «حاكماً عاماً» يساعده مجلس استشاري. وتغلبت القوة والأساطيل على الإنجليز والجاكرتيين والبناميين؛ وعلى موقع جاكارته شيدت مدينة «باتافيا»، أنشئت بها المستودعات، وبنيت ترسانة أيضاً. وبلغ عدد سكان المدينة عام ١٧٠٠ حوالي ٧٠٠٠٠ نسمة، منهم ٦٠٠٠ من أصل أوروبي، أما السكان الصينيون فكان عددهم كبير.

وقد إتسعت هذه التجارة من مناطق آسيا من اليابان إلى اليمن بالشكل السلمي أحياناً وبالقوة أحياناً أخرى. . وقد تم طرد البرتغاليين من أمبون عام ١٦٠٥. وأبرمت عقود التوابل مع سكان جزر «مالدكو» وكذلك أجبرت جزر «نبذة» في الفترة بين ١٦٢١ ـ ١٦٢٢ على إحتكار جوز الطيب والبسباس. وفيما بعد احتكرت تجارة القرنفل وأبرمت عقود التسليم مع إتش وبالمبانغ عام ١٦٤١ بعد طرد البرتغاليين من ملقا.

وتأسست عام ١٦٠٩ في هيرادو في اليابان محطة تجارية، ووجب نقلها عام ١٦٤١ إلى جزيرة «ريشيما» الصغيرة مقابل «ناجازاكي»، وفي عام ١٨٥٣ م كان الهولنديون هم الوحيدين الذين سمح لهم بالبقاء فيها. كما فتحت «فرموزا» عام ١٦٢٤، ثم ضاعت عام ١٦٦٢. وكذلك أقامت الشركة في الهند مقرات تجارية مؤقتة في تونكين وياتاتي وبيغو وآراكان، وكذلك محطة «هوغلي» التجارية التي جعلت منها محطة بالياكتة المؤسسة الرئيسية. كما أسست هناك حصن عام ١٦١٣. وفي داخل البلاد في أحمد أباد وأكرا وغيرهما. وكانت محطة «خمرون» أي بندر عباس من فارس التي أنشأها (هوبرت نسخ) عام ١٦٢٣، التابع لمقر سورات التجاري وفي محطة المخا كان يترأسها (هرمن ڤن خل) منذ عام ١٦٢١.

وكذلك حصلت V.O.C. على إحتكار القرفة. وكذلك الفلفل من كوشين بعد طرد البرتغاليين من كوشين عام ١٦٦٣. ولتنظيم العمل أنشئت محطة تغذية في رأس الرجاء الصالح لكي تزود الأساطيل المبحرة من هولندا إلى الهند الصينية بالغذاء الطازج والماء للشرب. وكانت جزيرة ماوريتسيوس تابعة لهذه المحطة ولقد استطاعت الشركة بإبعادها بعد اكتشاف غينيا الجديدة وإسترالية ونيوزيلندا وغيرها.

وقد وردت التقارير التي تختص بالعملة التجارية والوصفية لمناطق اليمن المختلفة وقد تناول مجموعة من هؤلاء القواد لهذه البعثات التجارية إلى مناطق اليمن المختلفة.

وأول من بدأ هذا العمل هو «فن دن بروكة» الذي بدأها في ٣٠ مايو ١٦١٣ حتى ٢٣ ديسمبر ١٦٢٩. وقد قام بوصف ميناء «عدن»، ومدخله وسور المدينة العظيم والمواقع التي وضعت عليه. ومادة هذه المواقع المعدنية والحديدية، ونوعية القنابل الحجرية على طراز الـ (يوتسهونت). كما تعرض لطريقة بناء البيوت، وهي عادة من الحجر الأزرق والآجر الأحمر. كما أن البيوت كانت متفرقة.

كما توجد في المدينة خمسة مساجد ذات أبراج (مآذن) وكذلك مركز الجمرك والذي يصف ميزان هذا الجمارك أنها أخف من الأوزان الهولندية بمقدار ١٤٪. ويدفع واحد في المائة أجر الوزن. وكخدمة المسافر يوجد هنا عمال وحمالون رجال لنقل السلع إلى المنزل مثل ما يحدث في أوروبا تقريباً. وتنقل معظم البضائع من مكان إلى مكان بواسطة الجمال مما يكون ذا سهولة كبيرة بالنسبة للتاجر..

وتعرض الكتاب أيضاً إلى أن الأتراك يمتلكون الجياد العربية الأصيلة. أما المجموعة الكبرى من السكان فهم من العرب. والبنائيين الذين يعملون كتجار وبائعين متجولين وصناع. والآخرون فهم تكجراتيون وهنود وعدد من اليهود غير المحبوبين من الشعوب الأخرى والذين كانوا يعملون في تقطير العرق والمشروبات الكحولية المتنوعة بالإضافة إلى التعامل بالربا مع الناس.

والسوق يقام في الصباح والمساء نظراً لشدة الحرارة أثناء الصباح. كما أن العلاقة بين العرب والأتراك كانت على غير ما يرام نظراً لأن الأتراك قد فتحوا البلاد الإسلامية.

ويصف النساء بأنهن معزولات، وكانت الثريات منهن يحرسهن الطواش حراسة صارمة. أما غير الغنيات فكن يمشين في الشوارع مرتديات رداءاً طويلاً.

وتنفصل عن المدينة جزيرة صغيرة، فصلت بفعل الأيدي العاملة، يطوف الناس حولها. وفي حالة الجزر فإن الناس تمر من المدينة إلى الجزيرة في الماء الذي يصل إلى وسطهم. وفوق الجزيرة تقع قلعة مثلثة، شيدت بطريقة متينة من الحجر لها أبراج مستديرة. وتوجد دورة مبنية تمتد من أسفل إلى أعلى داخل الحصن بها العديد من التحصينات من الحجر الجيري للالتجاء إليها. ويوجد إلى أسفل أيضاً متراس مفتوح أحد الجوانب عليه مدافع معدنية بسيطة. مصوبة تجاه البحر لحماية المرسى.

وكانت المياه تخزن في صهاريج حجرية فوق الحصن لمدة عام كامل بلا إنقطاع لمواجهة الهجوم، والمدينة هامة في التجارة. وكانت تقع تحت حكم ملك عربي إسمه «عبد الله». وبالرغم من أن المكان حصين إلا أنه كان يدفع إتاوة للبرتغاليين. الذين كانوا ملوك البحر في ذلك الوقت. وحيث أنها كانت مركزاً تجارياً مشهوراً، فقد لجأت تركيا إلى احتلالها. فأرسلت تركيا من ١٦ إلى ١٨ غراباً (مركباً حربياً) عبر البحر الأحمر ليقوم بحملة حربية معينة على الساحل الهندي تحت قيادة (سليمان باشا). وكان هذا الباشا قد أتى هنا من قبيل الصدفة لتزويد سفنه بالماء العذب.. وقد زعموا أن الباشا هذا كان طريح الفراش. فصعد الملك نفسه على ظهر السفينة بلا إرتياب للترحيب به جالباً معه الغذاء الطازج وهدية فخمة. وعندما كان على ظهر السفينة، أمر الباشا بقطع رأسه ظلماً وتعسفاً. ونزل الباشا بعد هذا بكل قواته إلى البر. وفتح البلاد، ووضعها تحت سيطرة سيده. وقد كلفه ذلك خسارة كبيرة في الأرواح. ومنذ ذلك الوقت خضعت البلاد لحكم السلطان العثماني في القسطنطينية. وكان الوالي هذا يستبدل بآخر كل ثلاث سنوات في العادة.

وكانت المحاصيل متوفرة في هذه البلاد مثل القمح والأرز والدخان والفاصوليا وأنواع الفواكه المختلفة. كالتفاح والليمون والكباد والشمام والرمان والسفرجل والتمر والتين واللوز والبرقوق الأزرق والأبيض. والقهوة والشاي والتي ظهرت خلال القرن الثامن عشر. وذلك بالإضافة إلى العقاقير الثمينة والتي تنقل بكميات كبيرة إلى أوروبا عن طريق البر. ومن الثروة الحيوانية يوجد الثيران والخراف والماعز والإبل والأرنب البري والسمان. وأنواع أخرى من الدواجن. ويعتبر السمك من الأطعمة المهمة إذ كان في الإمكان إحكام طاقم سفينة عددهم ٦٣ رجلاً طوال اليوم بما يساوي ١/٤ قطعة من ذات الثمانية ريالات.

وقد كانت أعمال الشراء من الأعمال التجارية مقابل المعادن الكريمة، وفي البداية لم يكن يرسل سوى قطع الثمانية ريالات الأسبانية. ومع مرور الزمن أضيفت إليها الـ (ليوندالدرس) والـ (رايكسر الدرس) الهولندية. وكذلك سبائك الذهب بكميات أقل من سبائك الفضة. ومن أجل ازدياد تدفق المعادن الكريمة بشكل غير مقبول قررت الشركة أن تنشط من تجارتها بين مقاطعة آسيا المختلفة، وهكذا كان الهولنديون يبتاعون المعادن الكريمة في المخا وسورات وفارس واليابان مقابل الفلفل. ومن ثم يشترون المنسوجات في سورات وكوروماندل والبنغال مقابل هذه

المعادن الكريمة. وبالمسنوجات أمكنهم الحصول على الفلفل وغيره. وفي أرخبيل الهند الشرقية لسد حاجات السوق الأوروبية. ومن هنا لم يكن تصدير المعادن الكريمة من هولندا إلى الهند الشرقية زائداً عن الحاجة أبداً حتى عام ١٩٦٠ حيث إنقلبت الأرباح الناتجة عن التجارة بين المناطق الآسيوية إلى خسارة.

وينتقل في سرده إلى بلاد أخرى هي «سهيرس» يخصها بالذكر أن بيوتها كانت من الطين وخارجها من الجير. وتوجد بها قلعة من الطين أيضاً وبها ثلاثة مساجد. وملكها عربي. يدفع ضرائب للوالي التركي مقدارها ٤٠٠٠ قطعة الثمانية ريالات. ويسكن هذه المدينة من الشعوب الأجنبية الكثير إلا أن البانبانون لهم المركز الرئيسي. الذي يصفهم المؤلف أنهم أشد الناس مكراً؛ والسفن في الميناء مشحونة بالأقطان، وأقمشة الـ (دونيا) والكثيرة والـ (لنكن) والبفتة، بالإضافة إلى العمائم والنيلة، وترسل النيلة إلى القاهرة والكثير من البضائع إلى جزر القمر ومدغشقر وإلى ساحل مالندة. وتحمل هذه في عدتها الأرز والدخان والزنوج والعنبر الأبيض. ومن الساحل المقابل والمسمى «زيلع» كان يأتي الكثير من الماشية من الثيران والخراف ذو الذنب والدجاج. ومن قرية «دُردُرة» المقابلة «سهيرس» تأتي سنوياً كميات كبيرة من سلال التمر والأشياء الأخرى التي تباع في كل أنحاء الجزيرة العربية.

وفي «سهيرس» تصنع النيلة. ومن «هوربوبت» تأتي سنوياً كميات كبيرة من الآفيون ـ ويعيش هنا أيضاً البانيانيون. ومعظمهم من الحرفيين وصناع الفضة وآخرون. والنساء يرتدين الرداء الطويل.

وأرض الجزيرة العربية في كل الجوانب البحرية شديدة القحل وغير خصبة ولكن حالما يقطع المرء ميلاً أو ميلاً ونصف داخل البلاد تصبح شديدة الخصوبة. والمواشي هنا متوفرة.. والفلاحون ينتجون هنا زبدة جيدة. وينقلونها إلى السوق في جلود المَاعز أو الخراف. ويوجد جزء من الدخن والقمح وفي المساء بإمكانك الإختيار بين أنواع مختلفة من سمك البحر اللذيذ الطعم. أما ماء الشرب فهو ليس ممتازاً.

كما تعرض لمدينة «كسيني» في مدخل البحر الأحمر .ذات خليج جميل، ملكها عربي وكان يحارب الباشا، وله اتصال بالبرتغاليين في الهند الذين كانوا

يساعدونه ضد الترك. وكان يرسل لهم سفناً محملة بالخيول العربية التي تعود لهم بالذخيرة الحربية مقابل الخيول.

وفي خلال الأشهر (ديسمبر ويناير وفبراير) تصل إلى المدينة سفن صغيرة من الهند مكتظة بالبانيانيين. محملة بالبضائع الثمينة التي يجلبها هؤلاء البانيانيين. وكذلك إلى المخا وجدة ومصر. وكذلك إلى مدغشقر وجزر القمر وسقالة وساحل مالندة محملة بالأقمشة الكجراتية الخام وكمية من الأفيون التي تتقايض مقابل الأرز والدخن والقليل من العنبر والزباد والزئبق.

ويذكر (فن رن بروكه) زيارته في مايو عام ١٦١٦ في مقابلة الباشا حيث يصل مدينة «شتا» وركب فرسه وقد استقبل استقبالاً حافلاً. ثم ذهب مع رجاله إلى قلعة المدينة حيث شاهد أكثر من ١٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال التابعين للذين يحكمون المدن والقرى والحصون. ويسلم رجال الحكم هؤلاء أنباءهم وإخوانهم وأصدقاءهم المقربين كرهائن (كفالة) لولائهم للباشا. وبهذه الطريقة تكبح جماح البلاد، وذلك لأنه يستحيل عليه بطريقة أخرى السيطرة على البلاد نظراً لقلة أعداد الأتراك الموجودين هناك.

وتحتفظ الخزينة في الحصن المذكور أعلاه. كما أن النقود تسك هناك أيضاً. ويشاهد المرء هنا أيضاً الكثير من الآثار القديمة. وخاصة المنزل الذي تسكن فيه نساء الباشا والذي يقال أن إبن نوح قد بناه. ويذكر أن الباشا قد رفض رفضاً باتاً أن يقوموا بترك بعض الرجال الهولنديين الذين يعرفون اللغة العربية وبالبضائع كنواة جالية أو مكتب تجاري في المخا إلا بإذن من السلطان العثماني.

ويذكر أن مدينة (شبا) على حدود اليمن يربطها سور من نوع من الطوب اللبن الرمادي والصلب والثابت على الزمان، به أبراج صغيرة مستديرة بعيدة على مسافات بينية. وأبواب السور من الحجر المنحوت الأزرق. وبها أروع أنواع المساجد، كما يوجد الكثير من البيوت والحدائق والحمامات، بالإضافة إلى مبانٍ أخرى جميلة جداً ورائعة. وتطبق في المدينة القوانين التي تطبق في القسطنطينية.

والنساء محجبات يصطحبن إماءهن وهن في الطريق إلى الحمام. ويذكر في هذا الصدد أن الباشا قد استمر في حكمه تسع سنوات لأنه كان يحارب العرب.

ويذكر في أحد التقارير في ٢٤ مايو ١٦١٦. إن البيوت جميلة معلقة الجوانب

ومشابهة للقلاع، ويمكن لمائه جمل أو فرس الإقامة فيها. وتغلق هذه الأبواب في الليل ضد قطاع الطرق المتواجدين في الطرق بكثرة. ويستحيل السفر بأمان دون وجود محطات للاستراحة. وهذا يستحيل أيضاً التنقل بالبضائع بالليل بلا خفير.

وفي يولية ١٦١٦

يصف التقرير المركز التجاري المشهور داخل البحر الأحمر. وهو ميناء المخا. وهوكبير المساحة، جدار يقع من الشاطيء في مكان قاحل وغير خصيب، وليس مسوراً بل مفتوح من كل الجوانب، ويزينه عدد من البيوت الجميلة الكبيرة المبنية من الحجر المنحوت الأزرق والأبيض. ولكن معظمها مبني من الآجر الأحمر. والباقي من القصب والطين، والتي لها سقوف من القصب حسب تقاليد هذه البلاد. وفي المدينة مسجدان. وشمال القلعة مدينة مبنية من الحجر المنحوت الأزرق على الجانب البحري لحماية المرسي الذي ترسو فيه الغربان (السفن) مزودة بمدافع معدنية ذات قنابل حديدية. كما يقع على الرصيف المنحدر إلى البحر والذي تأتي البحارة بالقوارب إليه تقدم الكثير من المكوس. وعلى بعد أقل من ميل من المدينة تقريباً يقع داخل البر ضحل معترض. ولذلك عليك أن تبقى حسب غاطس سفينتك على مسافة من البر لتجنبه قبل فوات الأوان. وحسب ما فهمنا كانت «المخا» قبل ٥٠ ـ ٦٠ عاماً قرية للصيادين (صيادي السمك) يسكنها القليل من العرب. ولكن منذ بداية سيطرة التركي على هذه المدينة تحسنت أحوالها تدريجياً. ويتضح هذا لنا إذا علمنا أنها قد أصبحت الآن أهم وأكبر مركز. وقد أخذت هذه المدينة تزدهر نتيجة لكثرة مجيء السفن التجارية الهندية التي كانت تزور عدن في السابق. هذا لأن موقع المخا أفضل للتجار بسبب حضور الـ (كفيلا) أي الـ (كودردن) إليها سنوياً من فوق.

ويسكن المخا عدد لا بأس من السكان، كما يقطنها الكثير من الشعوب الأجنبية المختلفة. أما الحاكم ومعظم أصحاب السيادة ومالكي زمام الحكم فهم من الأتراك في معظمهم. وكذلك القسم الأكبر من الجنود الذين يبلغ عددهم أكثر من ٣٠٠٠ من البانيانيين، ومعظمهم من الصناع والقليل منهم من التجار. (كما يوجد بينهم) الكثير من الصيارفة وصياغ الفضة والمتاجرين بالعقاقير والأشياء الصغيرة الأخرى. وهم يعيشون في فقر شديد وببؤس. وقد شبههم المؤلف بالصينيين. وإذا أراد الأتراك ممارسة أية تجارة فإنهم يعتمدون على معرفة البانيانيين كلياً. ويرهب النّاسَ

الأتراك هنا ويسكن هنا الكثير من اليهود، وهم غير مرغوب فيهم من سكان البلاد. ويشتغل القسم الأكبر منهم من التعامل بالربا ومن تقطير السوائل الكحولية..

قائمة المكوس والأوزان وأنواع العملة وأسعار السلع السارية في المخا وسهيري وسورات وبروج وكالتكِوت والسفن التي رحلت إليها - حررها فن دن بروكه عام ١٦١٦

قدم المؤلف النسب الموضوعة على البضائع المستوردة والمصدرة والتي كانت في رأي المؤلف أجوراً باهظة، ويذكر أسماء السفن المسافرة والعائدة، ونوعيات البضائع. وأسعار بعض السلع مثل الخزف (الصيني) والفلفل والقرفة واللبان الجاوي والبسباس وبخور العقاب، وأنياب الفيل والشمع والنيلة والسكر والقصدير والرصاص والنحاس والحديد والتبغ وما شابهها من منتجات.

ومما يذكر أن المراكب الهولندية كانت تبيع إنتاجها وتحفظ بالآخر لكي تنقلها إلى أوروبا. ثم إنها تتحرك إلى ميناء جدة. وهو ميناء يوصل إلى مكة. ولا يجوز لغير المسلمين التجارة فيها ومن يخالف ذلك يعاقب بالإعدام. ويصل إلى هذا الميناء السلع التي يبتاعها أو يقايضها الحجاج المسلمون.

ومن هذا فإن التجارة في المخا تعتبر أربعة أضعاف تلك التي تتم في جدة وتنتقل معظم السلع إلى السويس وإلى موانيء البحر الأحمر والتي تصل بعد ثلاثة أيام سفر إلى القاهرة بالبر..

وتقدر التقارير الثروات الطائلة التي يحصل عليها الباشا الحاكم لليمن في شخصية «يفرباشا» الذي عزل عن منصبه في عام ١٦١٦ وترك البلاد عبر مكة والقاهرة الكبرى ثم حلب. وقد جلب معه ١٣٠ جملاً محملة بثراء وافر بكميات كبيرة من الذهب والبضائع الثمينة ومنها كمية ذات شأن من العنبر والكثير من الأحجار الكريمة. وقد حكم ما يقارب عشر سنوات.

وإذا ما تعرضنا للمكوس التي كانت تدفع وضخامتها فقد ذكر أحد التقارير في ١٨ أغسطس ١٦١٧ كانت ثلاث سفن راسية في المخا. وقد دفعت واحدة منها أربعين ألف ريالاً وأخرى خمسة وعشرين ألف قطعة الثمانية ريالات. وقد ذكر أيضاً أن المدافع لم تكن توضع في المراكب الهندية على خلاف السفن الهولندية والذي

سهل للسفن الهولندية ضرب السفن الأخرى والإستيلاء عليها وفي ١٦٢٠ اجتمع مستشارو الشركة وقرروا بعد دراسة الأحوال التجارية وعدم قدرتهم للحصول على أقمشة ومنسوجات مطلوبة لتجارتهم وأن الواجب أن تبادر بعملية ضرب السفن البرتغالية والإسلامية (الهندية) حتى تجد لنفسها موضعاً في التجارة الدولية.

وفي ٢٢ أغسطس ١٦٢٢.

حصلت الشركة على الموافقة من السلطات العثماني في إقامة محطة عدن أو المخا وقد أصدر فرمان بذلك للسماح للهولنديين بالقيام بالمتاجرة دون إعاقة مع كل من يرغبون في المتاجرة معهم.

كما تتابعت التقارير (دي ملده) رئيس المحطة التجارية الهولندية في محطة المخا وسورات. وهذه التقارير في معظمها تظهر علاقة الشركة بالوالي (الباشا) وبرغبته في مصادرة هذه المراكب لنفسه وبيعها في حالة طلب استردادها. كما يذكر التقرير عدد السفن وأسماءها التي تأتي من السويس سنوياً، ومع عام ١٦٢١ بدأت الشكوى من رخص الأسعار للمواد التي يحضرونها وأن التجار والمراكب كانت عليها أن تتخلص من حمولتها بأرخص الأثمان. وعادة ما تأتي السفن من السويس محملة بالأقمشة الصوفية الإيطالية والزئبق والبضائع الأخرى المطلوبة.

ثم يتطرق التقرير بعد ذلك إلى وصف كل صنف وسلعة مثل حبوب الطيب وحركة البيع والشراء والمواد الأخرى مثل القرنفل والفلفل والبسباس واللبان الجاوي. وتتابع التقارير. وأذكر التقرير رقم ١٣ على سبيل المثال جرد والسلع التي تم الاستيلاء عليها من السفينة (محمد) من شول في عام ١٦٢٢.

ويذكر التقرير رقم ١٤ في أغسطس ١٦٢٣ تقرير عن حركة السفن التي وصلت من أماكن مختلفة مثل: ديو ودابول وكارافاتن. وكوشين وكانانور ونامن وكرمين.. ومن نخنا وسورات وكمبايا والسند إلى المخا وقد بلغت بضائعها ما يساوي ١.٤٦٠,٠٠٠ قطعة من ذوات الثمانية ريالات.. وكذلك حركة السفن المتبعة بعد ذلك إلى أماكن أخرى.

وفي التقرير الخامس عشر يذكر فيه أن في ميناء المخا من كان له سلطة أقوى من سلطة الوالي نفسه. وكان يعمل له حساب من جانب الترك، وأنه بعد وفاته

حصل الوالي التركي على كل ثروته.. كما إن دخل هذا الوالي اليومي كان أكثر من ألف قطعة من ذات الثمانية ريالات.

كما تعرض هذا التقرير أيضاً للأوزان المستعملة في المخا والعملة مثل البندقي أو الدوكاتية المجرية التي تساوي ١٣/٤ ريالاً والتي تستعمل عادة لتذويبها إلى الذهب. كما توجد عملة أخرى يسمونها (منخراب) تقل قيمتها عن ١/٤ ريال وهي من الذهب الأقل نقاء. وتبلغ قيمة الريال الواحد من ٥٠ ـ ٦٠ و٦٤ (كبيراً) وأثناء الموسم حتى ٦٨ (كبيراً) ويساوي الكبير الواحد ٤ فلوس، وهي قطعة نحاسية صغيرة مثل الـ (دوميت). ويساوي الفلس الواحد ٢ (دَرْس).

ويذكر أحد التقارير وهو السادس عشر عام ١٦٢٣ أسعار بعض السلع، كما تباع في المخا سوار الوارد منها من مصر أو غيرها وهي: الفوّه والـ (بون) والـ (أمغيون) وأنياب الفيل والمرجان والزئبق والزعفران والزنجفر..

ويشرح التقرير ٢٤ حالة اليمن خلال عام ١٦٢١ م والاضطرابات والحروب الشائعة في البلاد. ولم يبق للأتراك في البلاد إلا بلدتين هما المخا وسبايت؛ أما بقية البلاد فقد فتحها الإمام (محمد شرف الدين) وهو من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويقدسه أتباعه تقديساً عظيماً..

وقد أتت هذه الحروب على كل ما يملكه الهولنديين وحتى (دي ملده) لم يتم إخراجه من السجن ضماناً لهم، وسواء الأتراك أو العرب فيما بعد إتمام تحرير البلاد لمنع الهولنديين من مهاجمة الراكب الإسلامية التجارية. ونعتقد أن هذه سياسة ناجحة تماماً..

كما يحدثنا التقرير رقم ٢٨ عن حركة الرياح الموسمية في البحار الجنوبية والذي سجلته سفينة هولندية عام ١٦١٤ إذ ينص التقرير أنه من أرض الزنوج (شرق أفريقيا) وحتى التاسع عشر من سبتمبر على جنوب الجزيرة العربية قد «لقوا» هناك على العموم رياحاً من الجنوب الجنوب الغربي ومن الجنوب الغربي بلا إنقطاع كما لقوا منذ التاسع عشر من سبتمبر تحت ساحل الجزيرة العربية ريحاً من الشرق الجنوبي الشرقي وكانت التيارات البحرية تتجه إلى الغرب هذا بالإضافة إلى الكثير من ركود الرياح تحت البر أو عندما دخلوا البحر في نهاية أكتوبر لقوا رياحاً من الشمال الشرقي ومن الشمال، الشمالي الشرقي.

وفي بداية نوفمبر وعندما وصلوا إلى تحت خط الاستواء (لقوا ريحاً) من الغرب الشمالي الغربي. وعلى ٤ درجات من العرض الجنوبي (لقوا) ريحاً من الغرب الجنوب الغربي أوصلهم إلى بنتام.

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم عرض وتلخيص لأهم موضوعات الكتاب الذي احتوى على الكثير من المعلومات.. والتي هي في واقع الأمر مجموعة من التراجم لما كتبه المغامرون الهولنديون وأصحاب الأحلام في الثراء وإستعمار بعض البلاد ومطامعهم في جلب الخير إلى بلادهم. هذا وإن ينقصنا على أية حال الجانب الآخر عند الأتراك أثناء فترة حكمهم للبلاد.. وهل ما ساقه الهولنديون المغامرون من أسباب وآراء، هي في واقع الأمر صحيحة أو صحيحة بقدر ضئيل، هل يوجد من يكمل هذا العمل أو يظهر الوجه الآخر من العملة من واقع التقارير المحفوظة في بلاد اليمن والبلاد الأخرى التي كانت على اتصال بها في الشرق.

أرجو هذا.. والله الموفق.

مصطلحات

«علم» SCIENCE(*)

كلمة اصطلاحية، لا تعبر عن مجرد المعرفة، وإنما عن مستوى معين للمعرفة، وعن علاقة محددة بين عناصر هذه المعرفة. فالعلم هو مجموع المعارف المنضبطة، المترابطة، المنظمة التي يحصل عليها الإنسان خلال تاريخه الطويل. إنه خلاصة محاولة الإنسان لمعرفة قوانين الواقع المادي المحيط به، والواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه.

ولا يقف العلم عند حدود المعرفة المنضبطة لهذه القوانين، وإنما يتعداها إلى السيطرة على هذه القوانين وتوجيهها لمصلحة الإنسان. وتاريخ العلم هو تاريخ المجتمع البشري.

وتطور العلم مرتبط بتطور المجتمع البشري كذلك، فالعلم ليس حصيلة لتأمل الإنسان عبر التاريخ فحسب، بل هو حصيلة لممارسة العملية الاجتماعية كذلك. فرغم انتساب النظريات العلمية المختلفة إلى هذا العالم أو ذلك إلا أنها في الحقيقة ثمرة لما تمارسه المجتمعات البشرية من أعمال وما تحققه من منجزات.

والعلم ثمرة الممارسة الاجتماعية، ولكنه في الوقت نفسه أداة هذه الممارسة

(*) اتفقت هيئة تحرير مجلة كلية الآداب، باعتبارها مجلة تصدر عن مؤسسة علمية وتعليمية، وباعتبار أن الطلبة هم أيضاً من قرائها الأساسيين أن تخصص في كل عدد من أعدادها محوراً خاصاً يتعلق بتحديد واحد أو أكثر من المفاهيم العلمية والأدبية. وهذا هو المفهوم الأول الذي وقع عليه الاختيار.

لمزيد من المعرفة ولمزيد من السيطرة على الواقع ولمزيد من التقدم البشري. ولقد بدأ الفكر العلمي بالسحر. وكان السحر البدائي هو محاولة الإنسان الأولى لاكتشاف أسرار الواقع المادي والإنساني على السواء. فكانت الظواهر تفسر بقوى غامضة كالقدر، أو بأسباب هي انعكاس لمشاعر الإنسان وإسقاط لذاتيته على الطبيعة.

ثم خطا العلم خطوة موضوعية، بانتقاله إلى مرحلة اكتشاف القوانين الكامنة في قلب الأشياء خلال التجربة العملية. وأصبح العلمُ منهجاً محدداً لاكتشاف الحقيقة يقوم أساساً على التجربة، وتعميم نتائج التجربة في قوانين نظرية، ثم العودة إلى التجربة لاختبار صحة هذه القوانين. وأصبح العلم يهتم بالسؤال عن «كيف» يحدث الشيء، بعد أن كان السؤال الذي يطغى في المرحلة السابقة على النظرة العلمية، هو «لماذا يحدث الشيء». وكانت الإجابة دائماً إجابة غائية، تجعل لحدوث كل شيء غاية مسبقة، محددة منذ البداية. والعلم يهتم بالسؤال عن كيف يحدث الشيء، لكي يتعرف على العمليات الداخلية التي يحدث كل شيء بمقتضاها وبهذه المعرفة يستطيع العلم أن يسيطر عليها وأن يوجهها. على أن العلم يسأل أيضاً: لماذا يحدث هذا الشيء أو ذاك؟ على أن يكون سؤاله بحثاً أيضاً عن الضرورات والعلل التي حتمت حدوث هذا الشيء، على هذا النحو أو ذاك.

ويتميز العلم بالحرص على الجانب الكمي أساساً. والكم يتيح للعلم مزيداً من الدقة والموضوعية ويخرجه من الحدود الذاتية أو الكيفية الخالصة التي كانت تطغى على لمعرفة البشرية. على أنه ليس معنى هذا أن الدراسات الكمية هي وحدها الدراسات العلمية فهناك دراسات علمية غير كية. ولهذا فجوهر العلم هو النظرة الموضوعية، وهي الحرص على اختبار الأفكار اختباراً موضوعياً وامتحانها بالتجربة الحية المباشرة. والعلم لا يقتصر على المجالات الفيزيائية أو الكيميائية أو الفلكية أو الرياضية أو الاقتصادية فحسب، وإنما يمتد إلى الحياة الاجتماعية والنفسية والأعمال الأدبية والفنية والجمالية عامة.

إن العلم في جوهره ليس مجرد المعلومات المتراكمة المنظمة، بل هو المنهج الدقيق والنظرة الموضوعية. فليس العلم في الشطحات التجريدية البعيدة عن عالم التجربة والواقع، . . . إنما العلم هو كشف ما وراء هذه المحسوسات والجزئيات عن قوانين عامة مجرّدة، وهو الامتحان الدائم لهذه القوانين العامة المجردة، على أرض

الواقع المحسوس. إنه القدرة على استخلاص العام من الخاص، والكلي من الجزئي، وهو الحرص كذلك على اختبار العام بالخاص، وامتحان الكلي بالجزئي، والربط بين العام والخاص، والكلي والجزئي، ربطاً تجريبياً موضوعياً حياً.

ولقد كان العلم جزءاً من الفلسفة ثم تميز عنها، وتعددت فروعه وأقسامه. ولكنه لم ينفصل عنها انفصالاً كاملاً كما يقال.

فكما أن الفلسفة هي معرفة القوانين العامة لحركة الأشياء الطبيعية والإنسانية، فإن كل علم من العلوم هو معرفة القوانين الخاصة كحركة الأشياء في مجال خاص من مجالات الوجود الطبيعي أو الإنساني. ولهذا تُعنى الفلسفة بنتائج العلوم، كما تُعنى العلوم بتعميمات الفلسفة.

والعلم باعتباره ثمرة من ثمرات الممارسة البشرية عبر التاريخ هو أداة الإنسان للسيطرة على واقعه المادّي والاجتماعي، أي هو أداة ثورية تمكن الإنسان من تحقيق الحرية.

وتكاد المكتشفات والنظريات العلمية المختلفة أن تمثل مراحل التقدم البشري في طريق الحرية. ولهذا فالعلم في جوهره ليس مجرد ترف عقلي وإنما هو التزام بمعركة الحياة الإنسانية والتقدم والقهر. وما أكثر ما يجمد الإبداع والبحث العلمي نفسه بسبب ذلك.

ولهذا، فكما يسهم العلم في تحرير البشرية، يسهم تحرير البشرية كذلك في تحرير العلم نفسه.

يقول بيرجسون: «إن الفرق بين العلم والفلسفة، أن غاية العلم هي معرفة المادة، وغاية الفلسفة معرفة الروح، وتقع العلوم الإنسانية كعلم النفس والاجتماع بين الفلسفة والعلم...».

عن: الموسوعة الاشتراكية،
إعداد كامل زهيري وآخرين

ملف
الأسبوع الثقافي الأول

اللفظ والمعنى في لغة التنزيل

إبراهيم السامرائي
الأستاذ في قسم اللغة العربية

لعلي غير مفرّط لو أني قلت نظرية «الشكل والمعنى»، وذلك في الكشف عن أشكال نحوية عربية قديمة. وتعني «النظرية» النمط النحوي الذي درج عليه المعربون القدماء في عربيتهم الفصيحة، ولعل شيئاً من هذا «النمط» مما لم يعرض له النحاة الأقدمون.

وليس «الشكل» هو ما ألفه أهل الدرس في النقد الحديث ممّا يقابل لديهم «المضمون»[1]، ولكنه مصطلح اتخذته مصطلحاً في درسي هذا، فالنظر إلى «الشكل» الذي دعوته «نظرية» يقابل النظر إلى «المضمون» كما سأبيّن في درسي هذا.

وسأتخذ من لغة التنزيل العزيز مادة هذا الدرس استقريها فأقف على نماذج عدة أجعلها قواعد هذا البحث في العربية القديمة. ولست في درسي هذا متنكراً لما عرض له النحاة الأقدمون، ولكني أرمي إلى تفسير جديد ورؤية جديدة أجعل فيهما المادة النحوية مندرجة في علم لغوي أعمّ وأوسع من التوجيه النحوي الذي دار فيه النحاة.

وسيكون من منهجي الاستقرائي للآي الشريف نهج معجمي أدرج فيه المواد على حروف المعجم، ولكني سأبدأ ببسط مسألة منها لأقف الدارسين على ما أرمي

---

(١) أراد هؤلاء النقاد في عصرنا بـ«الشكل والمضمون» ما أراده الفرنسيون بـ«La forme» و«Le Contenu».

إليه من النظر إلى «الشكل» فأقول:

عرف الدارسون للنحو القديم وغيرهم من الذين اقتصروا في درسهم على النحو المدرسي، مادة في باب «التوابع» هي «النعت السببي» كقولهم: «مررت بزيدٍ العظيم أبوه»، فالعظيم نعت سببي وهو يصف موصوفاً له علاقة بالمتبوع، ولكنه يتبع في «إعرابه» المتبوع الذي يسبقه، ومن أجل هذا سُمِّي «النعت السببي وهو يقابل النعت الحقيقي الذي يصف المتبوع ليس غير.

أقول: وموطن الإشكال في هذه المقولة النحوية ما فيها من نقض للإسناد الذي تقوم عليه الجملة العربية، وذلك أن «العظيم» في الجملة الآنفة الذكر «مسند» وأن «أبوه» مسند إليه، فكيف يكون «العظيم» تابعاً في إعرابه للمتبوع وهو «زيد»؟

فهل لنا أن نقول: إن الجرّ في كلمة «العظيم» خطأ وصوابه الضم لأنه مرفوع باعتبار الإسناد؟ لا، لن نقول هذا لأن المعربين قد درجوا على الجر، وكلامهم حق، وما انطلق به المعربون هو العربية، فكان على النحاة أن يجدوا تفسيراً فيعملوا اجتهادهم في ذلك.

ولو أنهم ذهبوا إلى غير ما ذهبوا إليه في موضوع «السببي» لأدركوا أن حكاية هذه المسألة كحكاية اللغويين في مسألة «جُحْر ضبّ «خَرِبٍ»، فقد قالوا في جرّ «خَربٍ»: إن ذلك للمجاورة.

أقول: ربّما كان قولهم بـ«المجاورة» داخلاً في الذي أسميته «الشكل»، وأعني أن المُعرب يستوحي المشاكلة بين «خَرِب» والاسم الذي يسبقه وهو «ضَبّ». ومن هنا كانت «المجاورة» التي قال بها اللغويون هي «المشاكلة»، وهي ما دعوته بـ«النظر إلى الشكل».

وهذا النظر إلى «الشكل» هو الذي دفع أبا جعفر يزيد بن القعقاع أن يقرأ: «سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً»[1] في حين ذهب جمهور القرّاء إلى عدم التنوين في «سلاسل»، وهو الأصل.

هذان نموذجان روعي فيهما «الشكل»، وعلى هذا أيجوز لي أن أقول في

(١) ٤ سورة الإنسان.

جر: «العظيم» في قولي: «مررت بالرجل العظيمِ أبوه»: إن مراعاة الشكل قد جرى عليها المعربون على أنها من طبيعة اللغة.

وبعدُ، فهل لي أن أقول بهذا النظر إلى «الشكل» فأجري عليه قوله تعالى: ﴿ربَّنا أخرجْنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها﴾[1]، وهو القول بالجوار، واحتساب الجرّ للمشاكلة ابتعاداً من اللجوء إلى «السببيّ» الذي أشرت إليه آنفاً. ومثل هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ألَم تَرَ أنَّ الله أنزَلَ من السماء ماء فأخرَجْنا به ثَمَراتٍ مختلفاً ألوانُها﴾[2]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾[3].

وقد ينبري غير واحد من الدارسين فيردّ عليّ قولي هذا بالجوار الذي صرفته إلى «المشاكلة» متذرّعاً بما قال بـ«السببيّ».

وما أريد أن أفسد على هذا الذي يتصدّى راداً عليّ بقولي: إن الذهاب إلى «المشاكلة» بسبب الجوار يصرفنا افتعال شيء يقوم على أساس فاسد، وهو إذا كان النعت لمنعوت معروف فكيف يكون إعرابه مبطلاً العلاقة النحوية في الإسناد؟ والمشاكلة شيء جَرَت عليه العربية في مواضع كثيرة كما سنرى.

ولنعرض للمواد التي جاءت في لغة التنزيل مرتّبة على حروف المعجم:

١ ـ أمّة:

جاءت كلمة «أمّة» في اثنتين وخمسين آية، وهي اسم جمع، وهي مؤنثة، وقد وردت موصوفة مؤنثة نحو قوله تعالى: ﴿كان الناس أمّةً واحدةً﴾[4].

وفي وصف «الأمّة» بـ«واحدة مراعاة للفظ، وهي امطابقة بين المؤنث الموصوف والمؤنث الصفة. وجاء قوله تعالى: ﴿تلك أمّة قد خَلَت لها ما كَسَبَت...﴾[5] وفي هذه الآية مراعاة، للفّظ وإننا نتحقق في مجيء الفعل بعد «أمّة»، ويؤكد هذه المراعاة كذلك الضمير في «لها»، واسم الإشارة وهو «تلك».

وهذه المراعاة لجانب اللفظ هي ما دعوته «النظر إلى الشكل»، وليس من ضير

---

(١) ٧٥ سورة النساء.
(٢) ٢٧ سورة فاطر.
(٣) ٢١ سورة الزمر.
(٤) ٢١٣ سورة البقرة.
(٥) ١٤ سورة البقرة.

أن تدخل «المشاكلة»، وقد وُصِفت «أمّة» بصفة لا يتحقق حملها على جنس معيّن مذكراً كان أم مؤنثاً، وهي كلمة «وَسَطاً» كما في قوله تعالى: ﴿... وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً...﴾[1].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير...﴾[2] فنجد الفعل الأول يشير إلى الفاعل المؤنث، وهو: «أمّة»، والفعل مبدوء بتاء المضارعة، وليست هذه التاء إلّا علامة تطابق الفعل والفاعل. وفي هذا نظر إلى الشكل يبدو في المطابقة، ويلي الفاعل فعل مسند إلى ضمير الجمع، وهو الواو في «يدعون». وهذا يعني أن المطابقة قد زالت، وأن مجيء الفعل على ما جاء عليه يشير إلى مراعاة المعنى، وهو النظر إلى المعنى؛ و«الأمة» جماعة من الناس غُلِّب عليها التذكير وعلى هذا جاءت مراعاة المعنى، كما جاءت مطابقة اللفظ، وإن كانت مراعاة اللفظ أكثر في العربية كما دلّ الاستقراء في آيات عدّة وردت فيها كلمة «أمّة».

وقد روعي التأنيث في «أمّة»، ن ولو فُصل بينها وبين الفعل فاصل هو مذكر في لقطه، وهو الفاعل في ترتيب الجملة النحوية كقوله تعالى: ﴿... وهمَّت كل أمّة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل﴾[3] الفاعل للفعل «همَّت» وهو «كلّ» وهو كلمة مفردة مذكّرة باعتبار اللفظ، وقد كانت جمعاً في المعنى، وقد روعي الشكل في هذا البناء النحوي، كما روعي المعنى في الاسم والفعل، والفاعل في الأصل «أمة»، وهذا كله من خصائص لغة التنزيل.

ومن المفيد أن نختم الكلام على هذه المراعاة وتواترها بين الشكل والمعنى بقوله تعالى: ﴿وإن تُكذِّبوا فقد كذَّب أمَمٌ من قبلكم...﴾[4].

وفي هذه الآية مراعاة للمعنى بسبب ما ورد من الفعل الأول الذي جاء فيه الخطاب لجماعة الذكور عامّة، فلما جيء في الآية بعد ذلك بكلمة «أُمَم» طابقتها في مراعاة المعنى.

---

(١) ١٤٣ سورة البقرة.
(٢) ١٠٤ سورة آل عمران.
(٣) ٥ سورةغافر.
(٤) ١٨ سورة العنكبوت.

٢ - بَشَر:

وردت كلمة «بَشَر»[١] في سبع وثلاثين آية، وهاأنذا أعرض لتفصيل ذلك:

جاءت «بَشَر» في قوله تعالى: ﴿قالتْ رَبِّ أنَّى يكونُ لي وَلَدٌ ولم يَمْسَسْني بَشَرٌ﴾[٢].

أقول: لا بدّ أن نعرض لدلالة «بَشَر» ليتأتّى لنا أن نقول في مراعاتها والنظر إليها. وهي في هذه الآية: تعني «الرجل»، وهي على هذا مفرد مذكر، وكذلك جاءت مراعاةً للمعنى.

وجاءت في قوله تعالى: ﴿بل أنتم بشر ممّن خَلَق يغفر لمن يشاء...﴾[٣] وهي هنا جمع مذكر بدلالة الضمير «أنتم».

إن كلمة «بشر» نظير كثير من الكلم في العربية مما لا تنصرف إلى جنس بعينه، فهي تارة مذكر مفرد وأخرى مؤنث، ثم جمع بنوعيه، وقد وجدنا شيئاً من هذا.

٣ - بعض:

إن الكلام على «بعض» مفيد، فقد ذكر فيها المعنيون بهذه اللغة القديمة الشيء الكثير، فمنهم من قال دلالتها على الواحد، وفي هذا مراعاة للشكل، ذلك أن لفظ «بعض» هو الإفراد والتذكير. ومنهم من صرفها إلى الجمع، وكأن هؤلاء قد لمحوا فيها ما لمحوه في «بضع» ودلالة هذه الأخيرة على الثلاثة إلى العشرة.

ونخرج من «بعض» إلى أنها تدلّ على الواحد كما تدلّ على الجمع، وفي كليهما وردت شواهد غير ما ورد منها في لغة التنزيل، ولنبدأ بشيء من هذه

---

(١) قد يكون بين «بشر» و«بَشَرة» صلة دلاليةْ، و«البَشَرة» ظاهر جلد الإنسان، وكأنها حاصلة في كلمة «بَشَر» بدلالته على المفرد والجمع أي أنهم الناس الهالكون الذين من شأنهم الهلاك والفناء وهذه الدلالة تقابل الباقي الخالد الدائم وهو الله. وأنت حين تقرأ قوله تعالى: ﴿قل إنّما أنا بَشَر قد يُوحَى إليّ انما إلهكم إله واحد﴾. ١١ سورة العنكبوت، وقوله تعالى: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراكَ إلاّ بَشَراً مثلنا﴾ ومثل هذا متحقّق في آيات أخرى نلمحه كما لمحناه في سياق الآية.

(٢) ٤٧ سورة آل عمران.

(٣) ١٨ سورة المائدة.

الشواهد، وهي كثيرة، ثم نعقب عليها بما ورد من ذلك في لغة التنزيل».

ونفيد دلالة «بعض» على الواحد في قول لبيد:

تَـرّاكُ أمكنـةٍ إذا لَـم أرضَـهـا أو يَرْتبطْ بعضَ النفوس حمامُها[1]

وفي قول زهير:

ولأنت تَفري ما خَلَقْتَ وبَعضُ القومِ يخلُق ثمّ لـ يَقْري[2]

وفي قول بشار:

يا قومُ أذْني لبعض الحيّ عاشقةٌ والأُذْن تعشَقُ قبل العين أحياناً[3]

وفي قول أبي دُلامة:

أُقـاد إلى السجـون بغيـر ذنبٍ كـأنيّ بـعـض عُمّـال الخَـراجِ[4]

ثم نأتي إلى دلالة «بعض» على الواحد مع التكرار:

ومن هذا ما ورد في «الكامل» للمبرد في شرح قول النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: «لو تكاشَفتم ما تدافَنْتُم».

قال المبرّد: «يقول لو علم بعضكم سـريرة بعضٍ لاستثقل تشييعه ودفنه»[5].

دلالة «بعض» على الجمع من غير تكرار:

وتدلّ «بعض» على الجمع من غير تكرار كثيراً، وذلك في قول المرقش الأصغر:

شَهِـدتُ بـه عن غـارة مسبـطرّةٍ يُطاعِن بعضُ القوم والبعض طوّحوا[6]

وفي قول عبدالله بن رواحة:

ولو سألتَ أو استَنْصَـرْتَ بعضَهُمُ في جُلِّ أمركَ ما آووا وما نَصَروا[7]

وجاء في نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: «. . . .

---

(١) شرح القصائد التسع المشهورات للنحاس، القسم الأول ص٤١٧ (بغداد ١٩٧٣).
(٢) ديوان زهير.
(٣) ديوان بشار.
(٤) العقد الفريد ٢٦١/١.
(٥) الكامل للمبرد ٢٥٩/١.
(٦) جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) ص ٢٠١.
(٧) طبقات الشعراء لابن سلام (ط أوربا) ص ٨٨.

حتى يكون بعضكم أئمةً الضلالة»[1].

وقال جرير:

ألا ليت أن الظاعنين بذي الغَضَى أقاموا وبعض الآخرين تحمَّلوا[2]

وقال الفرّاء: «وبعض بني أسد وقضاعة ينصبون «غيراً» إذا كان في معنى «إلاّ»[3].

وجاء في «البيان والتبيين» للجاحظ: «وقال حين مَرَّ ببعض القوم فشتموه»[4].

وقد استوفينا من الشواهد ما يثبت أن «بعض» دلّت على الجمع من غير تكرار في الشعر والنثر في عدة مواضع مختلفة. وإذا كانت «بعض» قد دلّت على الواحد والجمع، فهي تدل على المثنّى أيضاً، فقد جاء في قول أبي العباس أحمد بن يحيى «ثعلب»:

«لأن بعض الأصابع يكون إصبعاً وإصبعين وأصابع»[5].

وقد قلت في أول الكلام على «بعض» إنها تومىء إلى «بضع» وكلاهما بمعنى ولكن العدد قد غلب على «بضع» دون العشرة كما قالوا:

وفي قول ابن أبي مقبل:

لولا الحياء ولولا الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَري[6]

والمراد: لعبتكما ببعض ما فيكما، ولم أتجاوزه إلى غيره.

ولنعد إلى استقراء «بعض» في لغة التنزيل فنقول: إنها جاءت للدلالة على الواحد كقوله تعالى: ﴿ولولا نزَّلناه على بعض الأعجمين فقرأه﴾[7]، والدلالة

---

(١) نهج البلاغة (ط. البابي الحلبي) ٢/٢٥١.

(٢) ديوان جرير (الصاوي) ص ٢٥٥. أقول: إن الكثير من هذه الشواهد وغيرها قد وردت أيضاً في كتاب للأستاذ صبحي البصام وهو:
الاستدراك على «قل ولا تقل». طبع في بغداد
ولكني اهتديت إليها، وهي في جُذاذاتي.

(٣) مختار الصحاح للرازي (غير).

(٤) البيان والتبيين (ط. السندوبي) ٢/٩٤.

(٥) لسان العرب (بعض).

(٦) المصدر السابق.

(٧) ١١٨ سورة الشعراء.

واضحة «بدلالة الفعل اللاحق «فقرأه». وفي هذه الآية فائدة لغربة أخرى هي النظر إلى «الشكل»، والشكل هنا هو اللفظ، وليس «المعنى» الذي هو إفادة الجمع.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وإذ أسَرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبّأت به»[1].

وقد يحمل «بعض» على الواحد دلالة معنوية، فيكون في ذلك مراعاة للشكل، وهو اللفظ المذكر الواحد، ولكن على الرجحان لا القطع كما في قوله تعالى: ﴿... وَأَلْقوهُ في غيابة الجُبّ يلتقطه بعض السيّارة﴾[2]، و«بعض السيارة» أحدهم استرجاحاً.

والكثير في «بعض» في كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ دالّ على الجمع استرجاحاً، وفي ذلك يتحقق النظر إلى المعنى في قوله تعالى: ﴿... إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[3]، وإذا كنت استرجح دلالة الجمع ففي دلالتها على المفرد قبول، و«بعض الآلهة» قد يكون جمعاً، وقد يكون واحداً، وفي كليهما ضرب من النظر يقوم إما على مراعاة الشكل أي اللفظ، وإما على مراعاة المعنى وهو الجمع.

قلت إن دلالة «بعض» على الجمع كثيرة، وهذا يتحقق في تكرارها كقوله تعالى:

﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ...﴾[4].
﴿تلك الرسلُ فضّلنا بعضَهم على بعض...﴾[5].
﴿وكذلك فتنّا بعضَهم ببعض لِيَقولوا أهؤلاء مَنّ الله عليهم﴾[6].

ودلالة الجمع تتحقق من المعنى، وقد تأتي مستفادة من قرينة دالة كقوله تعالى:

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾[7].

---

(١) ٦٦ سورة التحريم.
(٢) ١٠ سورة يوسف.
(٣) ٥٤ سورة هود.
(٤) ٣٦ سورة البقرة.
(٥) ٥٣ سورة البقرة.
(٦) ٥٣ سورة الأنعام.
(٧) ٧٣ سورة الأنفال.

﴿وأقبل بعضهُم على بعض يتساءلون﴾[1].

وقد تأتي «بعض» مكرّرة دالة على الواحد استرجاحاً، نحو قوله تعالى:

﴿وإن كثيراً من الخُلَطاء لَيبغي بعضهم على بعض﴾[2].

﴿. . . خصمان بَغَى بعضُنا على بعض. فاحكم بيننا بالحق﴾[3].

وجملة هذه الآيات تكشف عن أن «بعض» مفرد في لفظه، فروعي هذا في آيات، وجمع أيضاً فروعي هذا في آيات أخرى. وقد كنا وصلنا إلى شيء من هذا في طائفة من الشعر والنثر.

٤ ـ جبل:

و«الجبال» جمع «جَبَل» وقد روعيت في لغة التنزيل على أنها مؤنث، ولكن هذا المؤنث مع صفته الدالة على الجمع كان له مع الفعل نمط خاص، فهو فعل لحقته تاء التأنيث وتلحق الفعل إذا كان الفاعل مفرداً، ومثله نائب الفاعل، كقوله تعالى:

﴿ولو أنّ قرآناً سُيِّرت به الجبال. . .﴾[4].

ومثل ذلك إذا ابتدىء بها فجاء الفعل بعدها واقترنت تاء التأنيث كقوله تعالى:

﴿. . . وإذا الجبال نُسِفَت﴾[5].

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يوم تمور السماء مَوْراً وتسير الجبال سيراً﴾[6].

ومراعاة «الجبال»، وهي جمع مؤنث كمراعاة المفرد المؤنث يتّضح في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبالُ أوِّبي معه والطيرَ. . .﴾[7].

---

(١) ٢٧ سورة الصافات.
(٢) ٢٤ صورة «ص».
(٣) ٢٢ سورة «ص».
(٤) ٣١ سورة الرعد.
(٥) ١٠ سورة المرسلات.
(٦) ١٠ سورة الطور.
(٧) ١٠ سورة سبأ.

ويتبين هذا أيضاً في عود الضمير المؤنث المفرد على «الجبال» وهي جمع كقوله تعالى:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نَسْفا﴾[1].

غير أننا نجد «الجبال» وقد روعيت جمعاً مؤنثاً بدلالة الفعل بعدها مسنداً إلى نون النسوة كما في قوله تعالى: ﴿إنّا سخّرنا الجبال معه يُسبِّحْنَ بالعشيِّ والإشراق﴾[2].

وقد وُصفت «الجبال» بصفة مفردة مؤنثة في قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾[3].

وجملة هذا الذي بسطناه من الآيات الكريمة يشير إلى إن الجمع مؤنث، وإذا كان مؤنثاً فكلما جاء بعده من فعل وضمير يكون في سياق التأنيث، وقد يراعى المعنى فيثبت له الجمع وهو قليل.

٥ ـ جمل:

وقد جاء في لغة التنزيل «جمالة» اسم جمع لـ«جمل كالصحب والركب ونحوهما كقوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشَرَرٍ كالقَصْر، كأنه جمالةٌ صُفر﴾[4].

واسم الجمع في العربية يراعى مراعاة المفرد مذكّراً أو مؤنّثاً، فالغالب في «الركبْ» الإفراد والتذكير كالوَفد والخصم والقوم والشّرب ونحوه، ومثله اسم الجنس الجمعي كالشجر والتمر ونحوهما مما كان بالتاء التي تشير إلى الواحدة من جنسه وهي شجرة وتمرة...

غير أن «جمالة» قد وصفت بالجمع المؤنث وهو «صُفْر» جمع أصفر أو صفراء، وفي هذا نظر إلى معنى الجمعية دون «الشكل» وهو لفظ المفرد المؤنث»[5].

---

(١) ١٠٥ سورة طه.

(٢) ١٨ سورة «ص» ولعل اسناد الفعل إلى النون يعود إلىَ الجبال قد استعير لها ما يكون للعاقل، وهو التسبيح.

(٣) ٨٨ سورة النمل.

(٤) ٣٣ سورة المرسلات.

(٥) وقد قرئت «جمالة» هذه «جمالات» بمط فتحة اللام، أو كأنها تحولت لفظاً إلى جمع بالألف

٦ - رحم:

ونعرض في هذا الأصل لـ«رحمة» وهي اسم مؤنث في قوله تعالى:

﴿إنّ رحمةَ الله قريب من المحسنين﴾[1].

تعليق:

في هذه الآية وُصِفت «الرحمة» وهي اسم مؤنث حقيقي بـ«قريب» على التذكير وقد اكتفى النحاة بقولهم: إن ما جاء على «فعيل» يستوي فيه المذكّر والمؤنث وهذا كثير في كلامهم نحو: صَبور وغيره.

وقالوا أيضاً: أن «فعيل» الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث لا بدّ أن يكون بمعنى «مفعول»، وهو غير مطرّد، فقد يأتي منه بمعنى «فاعل» نحو: «قريب» الذي جاء في الآية.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾[2]، وليس هذا بعيداً عما ورد في قوله تعالى: ﴿وكأيِّن من نبيٍّ قاتَلَ معه ربِّيّون كثير﴾[3].

وقد انعدمت المطابقة في هذه الآيات بين الموصوف والصفة، والمسند إليه والمسند. وليس لنا أن نقول: هذا ما قلناه في مراعاة الشكل أو مراعاة المعنى، بل نقول شيئاً آخر يتصل بتاريخ العربية وتطورها. إن «ظهير» و«كثير» مفرد مذكر، فكيف جاءا على النحو الذي ورد في الآيتين؟ إن «ظهير» خبر، والمبتدأ «الملائكة»، وهي جمع مؤنث، و«ربِّيّون» جمع مذكر، و«كثير» صفة له وهي مذكّر.

قد يكون لي أن أقول: إن التأنيث حادث في العربية، وإن المذكر هو القديم، ومن أجل ذلك وصلوا إلى المؤنث بالعلامة، وهي الهاء أو غيرها. وكأن ورود

والتاء، وليس منه في الحقيقة، لأن المفرد «جمل» لا يجمع هذا الجمع المؤنث. وعلى هذا تكون «جمالات» في هذه القراءة اسم جمع مثل «جمالة» ومطل الحركة لا يؤدي إلى الجمع المؤنث بالألف والتاء لافتقار المفرد، والمطل للحركة في «غيابة» فصارت «غيابات» في قوله تعالى في «غيابة الجب».

انظر «الكشاف» للزمخشري في الكلام على هذه الآية.

(١) ٥٦ سورة الأعراف.

(٢) ٤ سورة التحريم.

(٣) ١٤٦ سورة آل عمران.

«قريب» و«ظهير»، وكان من المفروض أن يكونا «قريبة» و «ظهيرة»، يُشعرنا أن هاتين الكلمتين لم تلحقهما العلامة المميزة لتخصهما بالتأنيث.

ومثل هذا كلم كثير منه «زوج»، وما ورد على «فَعول» نحو: عروس وعجوز وغيرهما، وليس لنا أن نقول مقالة أهل اللغة الأوائل: إن هذه المواد مما يستوي فيه المذكّر والمؤنث. وسبيلنا في هذا ما قلناه في «قريب» و «ظهير»، وأنها بقيّة قليلة من الأبنية العربية التي لم تلحق بالعلامة الحادثة المميزة.

والذي يعضد هذا هو أن هذه المواد قد وردت في العربية القديمة مجرّدة عن العلامة، وأنها تكون للمذكر والمؤنث، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدمُ اسكُن أنتَ وزوجك الجنّة﴾[1]. ومن المفيد أن نقول: إن «الزوج» مذكّراً لم يرد في لغة التنزيل، ولكنه معروف في العربية.

غير أن العربية بعد أن فارقت عصر القرآن قد جدّ فيها شيء اقتضاه تحوّل الزمن الذي قضى بالتفريق بين المذكر والمؤنث دفعاً للبّس، ولأن الحياة الجديدة بعد تلك الحقبة كان فيها من العلم بحقوق المرأة «الزوج» وما يكون من حقها في الإرث والزواج والطلاق وسائر ما يدعى «الأحوال الشخصية» من خصوصية تختلف عنها في الرجل «الزوج»، كل ذلك كان من شأنه أن يميز في «زوج» لتدل على المرأة، لأن «زوج» للرجل والمرأة، وهكذا لحقت العلامة كلمة «زوج» للدلالة على المرأة فشاعت كلمة «زوجة».

ومن هذا ما جاء في شعر الفرزدق في قوله:

وإن الـذي يسعى ليفسدَ زوجتي كساعٍ إلى أسْدِ الشرَى يَستَبيلُها[2]

وفي قول ذي الرمّة:

أذو زوجةٍ بالمِصْرِ أم ذو خُصومةٍ أراكَ لهـا بالبصـرة اليومَ ثـاويا[3]

وليس عجيباً إذن أن نرى المتنبي يقول:

---

(١) ٣٥ سورة البقرة.
(٢) ديوان الفرزدق.
(٣) ديوان ذي الرمة.

لـكِ الله من مفجـوعـةٍ بحبيبهـا قتيلةِ شوق غيرِ مُلْحِقهـا وَصْما[1]

و«القتيل» على «فعيل» مما يستوي فيه المذكّر والمؤنث.

ومن الدليل على أن التأنيث حادث وليس بأصيل ميل العربية إلى الابتعاد عن المؤنث بجعل الفعل يَعرَى عمّا يشير إلى المؤنث الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وقال لهم خَزَنتُها سلام عليكم﴾[2]. وقد جاء من هذا قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾[3].

أن الفعل في الآية قد عَرِي عمّا يشير إلى أن الفاعل مؤنث وهو «خَزَنتها» بسبب الفاصل «لهم». وكأن الفاصل سوّغ الرجوع إلى الأصل، وهو التذكير في العربية، وهو صاحب الأصالة.

والفعل «قال» في الآية الثانية قد عَرِيَ عمّا يشير إلى أن الفاعل مؤنث حقيقي جَرياً مع اللغة التي ننظر إلى الأصل، وهو عدم العلامة المميّزة للمؤنث.

ولعليّ أُلحق بهذا ما ورد من مجيء الصفة مذكرة والموصوف مؤنث كقوله تعالى:

﴿خُشَعاً أبصارهم﴾[4]، إنّ خُشَّعاً» جمع «خاشع» مثل «ساجد» وجمعه «سُجَّد»، وهو يعود إلى الأبصار على طريقة النعت السببيّ، يومىء إلى إغفال المؤنث باعتبار التذكير وهو الأصل، في حين وصفت «الأبصار» بـ «خاشعة» وهي مؤنثة جرياً على ما انتهت إليه العرب في تطورها في قوله تعالى: ﴿خاشعةً أبصارُهم﴾[5].

وجاءت مراعاة المعنى في كثير من الكلم الذي قد يعني الكثرة كما رأينا في «بعض»، وكما هو الحاصل في «كلّ» و«جميع» كما سنرى، ولكنها تجاوزت هذا الحد إلى ما هو أقرب إلى الجمع ممّا له مفرد من لفظه[6] أو غيره. ومن هذا الضرب

---

(١) ديوان المتنبي.
(٢) ٧٣ سورة الزمر.
(٣) ٣٠ سورة يوسف.
(٤) ٧ سورة القمر.
(٥) ٤٣ سورة القلم.
(٦) قلت: مما له مفرد من لفظه، وأريد بذلك نحو «ذباب» ومثله كثير، وهو أصل أخذ منه المفرد =

الأخير «ذباب» فقد روعي إفراده وتذكيره، وإن كان منه «ذبابة» كسائر أسماء الجمع وأسماء نحو: شَجَر وشَجَرة، وتَمْر وتَمْرة، قال تعالى:

﴿وإن يَسْلُبْهُمْ الذُبَابُ شيئاً لا يستَنْقِذوه منه﴾[1]. وقد يُلحَق بهذا ممّا لم يأت منه مفرد كما في كلمات قد وُصفت، وهي اسم مؤنث، بصفة مجموعة جمعاً مذكّراً كما في قوله تعالى: ﴿ وله ذُرِّيّة ضُعَفاء﴾[2] وهذا يعني أن مراعاة المعنى قد غُلِّب في الوصف، ذلك أن «ذرِّيّة»، وهي لفظ مؤنث، تشمل على الذكور والإناث، والتغليب للذكورة.

غير أن مراعاة اللفظ، والنظر إلى الشكل قد تحقّق في هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿... قال ربِّ هَبْ لي من لدُنْك ذُرِّيّة طيِّبة﴾[3]، فقد وُصفت بصفة مفردة مؤنثة حملاً على لفظها أي شكلها. كما جاء مفرداً مؤنثاً في قوله تعالى: ﴿... ذُريّة بعضُها من بعض﴾[4].

٧ - رسل:

قال اللغويون القدامى: إن الجمع في العربية مؤنث على الغلبة التي يستبعَد منها جمع المذكر السالم[5]، وكانت النصوص مؤيّدة كثيراً هذا الذي ذهبوا إليه، ولنعرض لكلمة «رُسْل» في لغة التنزيل لنقف على «رُسْل» وكيف وردت في الآيات الكثيرة.

= «ذبابة» بالتاء، وهذا يشير إلى أن المفرد حادث، وذلك لأن الأصل الدالّ على معنى الجمع يشيع في الكلام فيميل المعربون إلى أخذ المفرد منه على حدّه، ألا ترى أن «الأسطورة» مثلاً جاءت من «الأساطير» التي هي جمع الجمع لـ «أسطار» وقد أخذ منها المفرد بعد انصراف دلالتها من الكتابة التي هي «سطور» إلى الحكاية ذات اللون الخرافي، ومثل هذا كثير من العربية.

(١) ٧٣ سورة الحج.

(٢) ٢٦٦سورة البقرة.

(٣) ٣٨ سورة آل عمران.

(٤) ٣٤ سورة آل عمران.

(٥) قلت: إن الجمع مؤنث غالباً وقد استُبعد منه جمع المذكر السالم، ومن المفيد أن أشير إلى أن ما أُلحق بهذا الجمع قد جَرَى، كما في «سنون» و «أهلون» و «مئون» ونحو ذلك. ولعل من المفيد أن أشير إلى «بنون» فقد رُوعِي فيها التأنيث لدلالتها المعنوية من أنها جمع «ابن»، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿إلّا الذي آمنتْ به بنو اسرائيل﴾، وقد تأوّلوا فقالوا: إن «بنو اسرائيل» في الآية يعني «أمّة»، فهي مؤنثة في المعنى.

ولا بد من القول: أن «الرُسُل» جمع «رسول»، وعلى هذا فالتذكير أصيل فيها إفراداً ودلالة في المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿... رُسُلاً مبشِّرين ومنذرين...﴾[1].

﴿يوم يجمع الله الرُسُلَ فيقول ماذا أجبتم﴾[2].

﴿يا معشَرَ الجنِّ والإنسِ ألم يأتِكمْ رُسُلٌ منكم﴾[3].

وقد روعي التذكير بالوصف المجموع وبالضمير الجمع المذكر العائد على «الرُسُل». غير أننا نجد النظر إلى الشكل يتحقق في التأنيث الذي نجده في الفعل وغيره كما في قوله تعالى:

﴿قد جاءت رُسُل ربِّنا بالحق﴾[4].

قوله تعالى: ﴿وإذا الرُسُل أُقِّتَتْ﴾[5].

٨ - ريح:

جاءت كلمة «الرياح» في لغة التنزيل، وهي جمع، وقد اعتُبر فيها التأنيث فوُصِفت بالجمع كما في قوله تعالى: ﴿وأرسَلْنا الرياحَ لواقِحَ...﴾[6].

﴿ومن آياته أن يُرسلَ الرياحَ مُبشِّرات﴾[7].

وقد يتقدّمها الفعل مشيراً إلى تأنيثها كما في قوله تعالى: ﴿... فأصبَحَ هشيماً تَذروه الرياحُ﴾[8].

٩ - زوج:

ويأتي الجمع «أزواج» في لغة التنزيل فيدلّ على أنه جمع لـ «زوج» وهي

---

(١) ١٦٥ سورة النساء.
(٢) ١٠٩ سورة المائدة.
(٣) ١٣٠ سورة الأنعام.
(٤) ٥٣ سورة الأعراف.
(٥) ١١ سورة المرسلات.
(٦) ٢٢ سورة الحجر.
(٧) ٤٦ سورة الروم.
(٨) ٤٥ سورة الكهف.

«زوج» الرجل، كما جاء جمعاً لـ «زوج» للأنعام وغيرها ممّا تنبت الأرض من الشجر والنبات.

فأما «الأزواج» في دلالتها على جمع «زوج» للرجل فقد جاء موصوفة بصفة مؤنثة مفردة، وفي ذلك مراعاة للحقيقة، ولكن الإفراد جَرَت عليه العربية في وصف الجمع ما عدا جمع المذكر السالم[1]، ومن هذه ورد في قوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرة﴾[2].

كما ورد الضمير العائد على «أزواج» مفرداً مؤنثاً وذلك في قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خَلَق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾[3].

غير أننا نجد «الأزواج» قد روعي فيها التأنيث والجمع فعاد عليها «النون» ضمير الإناث كما في قوله تعالى: ﴿والذين يتوَفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصْنَ بأنفسهن...﴾[4]. وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها النبيّ إنا أحلَلْنا لك أزواجك اللاّتي آتَيتَ أجورهُنَّ...﴾[5].

١٠ ـ سحب:

لقد ورد «السحاب» في جملة من الآي الكريم، وهو في بعض منها مفرد مذكر بدلالة الوصف، وهذا آتٍ من مراعاة اللفظ والشكل، فاللفظ مذكر كما في

---

(١) يوصف جمع المذكر السالم بصفة جمع مذكر فيقال: المسلمون المؤمنون، والزَيْدون الأفضلون، والمهندسون العلماء. ولكن الجموع الأخرى، وهي جموع التكسير، لا ضابط فيما يأتي بعدها من وصف فقد يكون مفرداً مؤنثاً، وقد يكون جمعاً مؤنثاً حقيقة، أو ما يُحمَل على التأنيث. وأما جمع المؤنث السالم فيوصف بالجمع المؤنث، وقد يأتي الوصف مفرداً مؤنثاً.

ومن المفيد أن نشير إلى أن جمع التكسير لا يوصف بـ «فَعْلاء بل يجمعها فيقال: «صحائف بيض» وليس «بيضاء» كما هو الشائع في عصرنا. وأمّا ما يتبع الجمع من اسم الجمع واسم الجنس فليس من ضابط فيه، فقد ينظر إلى لفظه فيأتي الوصف مفرداً مؤنثاً أو مذكراً، وقد يُنظر إلى معناه فيُلحق بالجموع فيوصف بالمفرد المؤنث أو الجمع المؤنث، وفي عرضنا هذا كفاية.

(٢) ٢٥ سورة البقرة.

(٣) ٢١ سورة الروم.

(٤) ٢٤ سورة البقرة.

(٥) ٥٠ سورة الأحزاب.

قوله تعالى: ﴿وإنْ يَرَوا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم﴾[1].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿والسحابُ المسخَّرِ بين السماء والأرض...﴾[2].

وقد يأتي بعد ضمير مفرد مذكّر يعود عليه نحو قوله تعالى: ﴿الله الذي يُرسل الرياحَ فتُثير سحاباً فيُبْسُطُه في السماء كيف يشاء﴾[3].

ولكنك تجد «السحاب» في آيتين قد وُصف بصفة مجموعة تخلُص للتأنيث، وهذا يعني أن القطر إلى المعنى كقوله تعالى: ﴿... ويُنشِىء السحابَ الثقال﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿حتى إذا أَقَلَّتْ سحاباً ثِقالاً﴾[5].

١١ - سبل:

ويحسن بنا أن نقف على «سنبلة» في لغة التنزيل فنجدها في قوله تعالى: ﴿إني أرى سبع بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنّ سبع عِجاف وسَبْعَ سنبُلاتٍ خُضُرٍ...﴾[6].

تعليق:

أقول: وجمع المؤنث في «سنبُلات» وغيرها هو جمع أدنى العدد (أي جمع القلّة)، وهو يفيد هذه الدلالة القليلة العدد في كل اسم يجمع هذا الجمع إلّا إذا كان الاسم لا يجمع إلّا بالألف والتاء نحو النبات، والهبات وغيرهما، فهو في هذه الحالة يدلّ على الكثرة، ولا يخلص إلى القلّة إلا بقرينةٍ دالة فيقال مثلاً: سَبعُ بنات، وعدّة هِبات، فإذا قلنا: سبع سنبُلات، فهو جمع قلّة من غير دلالة العدد عليه، ومثل هذا «بقرات» التي وردت في الآية، والجمع الكثير فيهما: سنابل وبقر.

وقد يعترض معترض فيقول: وردت «سنابِل» في القرآن، وهي مفيدة القلّة، في قوله تعالى: ﴿كَمثل حبّةٍ أنبتَت سبْعَ سنابل...﴾[7]، والجواب عن هذا أن «سنابل» تفيد الكثرة، وإنما أفادت القلة بوساطة العدد «سبع»، وليس في هذا ما

---

(١) ٤٤ سورة الطور.
(٢) ١٦٤ سورة البقرة.
(٣) ٤٨ سورة الروم.
(٤) ١٢ سورة الرعد.
(٥) ٥٧ سورة الأعراف.
(٦) ٤٣ سورة يوسف.
(٧) ٢٦١ سورة البقرة.

يخرج القاعدة، وهذا باب من فصاحة العربية. وجميل بي أن أقول مقالة أبي الفتح عثمان بن جني: ذلك «من شجاعة العربية».

١٢ - سوء:

ولنرجع إلى مراعاة المعنى في بناء الجملة القديمة فنجد «السيّئات» في قوله تعالى: ﴿ولئن أذَقناه نَعماءَ من بعد ضَرّاءَ مسَّتْه ليقولَنَّ ذَهَبَ السيّئات عنّي...﴾[١]، وفي هذه الآية جاءَ الفعل «ذَهَبَ وفاعلُه «السيِّئات» جمع مؤنث حقيقيّ التأنيث. ولو كان بين الفعل والفاعل فاصل من ضمير لقلت جاء الضمير حاجزاً فأبعَدَ التأنيث كقوله تعالى: ﴿فأصابَهم سيّئاتُ ما عمِلوا﴾[٢].

ولنقف قليلاً على «سَوْأَة» وهي ما يُستَر من عَورة الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿... كيف يُواري سَوأةَ أخيه﴾[٣]. وهذه تجمع على «سَوْآت» جمعاً مؤنثاً كقوله تعالى: ﴿يا بني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سَوْءاتِكم...﴾[٤].

ولكن هذه الكلمة قد وردت في الكلام على آدَم وحوّاء، فجُمعت ولم يُدَلَّ على التثنية وهي المقصودة في الآية إلّا بالضمير الذي عاد عليهما، قال تعالى: ﴿فوَسْوَسَ لهما الشيطان ليُبديَ لهما ما ووريَ عنهما من سوءاتهما﴾[٥]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فأكَلا منها فبَدَتْ لهما سَوْآتُهما﴾[٦].

أقول: وهذا باب من العربية يُراد به إحسان الأداء، وأن الكلمة «سَوْأة» لو ثُنِّيت فلحقها ضمير التثنية لم تكن حسنة مستملحة، ولفَقَدت شيئاً من طلاوة درجت لغة التنزيل على أن يكون فيها شيء كثير من الكلم النوابغ.

أقول أيضاً: وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿إنْ تتوبا إلى اللهِ فقد صَغَت قلوبُكما﴾[٧]، فقد جمع «القلب» ولم يُثَنَّ.

---

(١) ١٠ سورة هود.
(٢) ٣٤ سورة النحل.
(٣) ٣١ سورة المائدة.
(٤) ٥٤ سورة الشعراء.
(٥) ٢٠ سورة الأعراف.
(٦) ١٢١ سورة طه
(٧) ٤ سورة التحريم.

١٣ ـ شرذم:

قلت: إن إحسان الأداء وإصابة الغرض وإبداع القول من خصائص لغة التنزيل، ومن هنا وُصِفَت «شِرْذمة» وهي الفئة القليلة العدد بصفة جُمعت جمع تصحيح مذكر في قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء لشِرْذمة قليلون﴾[١] ولا أكتفي في النظر إلى هذه الآية بقولي: «رُوعِيَ فيها المعنى»، بل أضيف أن الوصف أدّى غرضاً خاصاً يكون به «وصول» إلى إحسان الأداء، فالسورة ينتظمها بناء يقوم على فواصل الآيات المنتهية بالنون، ومجيء «قليلون» يفي بهذا. ولا يفي بما قلناه لو كانت الفاصلة تنتهي بـ«شرذمة قليلة»، وكَلِمه سبحانه وتعالى، محرز للكمال.

١٤ ـ صحف:

وقد وردت «الصحف» في جملة آيات روعي فيها النظر إلى الشكل، وهي أنها جمع مؤنث، فكانت «الصحف» موصوفة بـ«الأولَى، ومُكَرَّمة، ومطهَّرة، ومُنَشَّرة، وليس لي أن أذكر قوله تعالى: ﴿الصحف نُشِرَت﴾[٢].

١٥ ـ ضيف:

وجاءت كلمة «ضيف» في بعض الآيات، ويراد بها الجمع كما جاءت في آيات أخرى لا يتجه فيها شيء إلى المفرد، فقد يكون ولا يكون، قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضَحون﴾[٤]. ودلالة الجمع في هاتين الآيتين واضحة مؤيّدة، غير أننا نجد قوله تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطَمَسْنا أعينهم﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿فاتّقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي﴾[٦] ولسنا على يقين من دلالة «ضيف» في هاتين الآيتين.

١٦ ـ طوف:

الطائفة جماعة، وهي مفردة مؤنثة باعتبار اللفظ، وجمع مؤنث باعتبار المعنى،

---

(١) ٥٤ سورة الشعراء.
(٢) ١٠ سورة التكوير.
(٣) ٢٤ سورة الذاريات.
(٤) ٦٨ سورة الحجر.
(٥) ٣٧ سورة القمر.
(٦) ٧٨ سورة هود.

ويتبيّن هذا في قوله تعالى: ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يُضلّونكم﴾[1]. إن الفعل «ودّت» تلحقه التاء، والفاعل «طائفة» وهو مؤنث، لفظه لفظ المفرد، وهو جمع في المعنى، فجاء الفعل اللاحق «يُضلّونكم» مسنداً لفاعل هو جماعة الذكور متصلاً بضميرالجمع المذكر.

على أننا نجد هذا الاسم مسبوقاً بالفعل «بيَّتَ» على أنه فاعل، وهو مفرد مذكر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فإذا برزوا من عندك بيَّتَ طائفة منهم غير الذي تقول﴾[2].

وقد وُصِفت الطائفة بصفة مفردة مراعاة للفظ فجاء قوله تعالى: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يُصلّوا فليُصلّوا معك﴾[3]، ولكن الفعل بعد الفاعل قد اعتبر فيه المعنى فلحقه واو الجمع المذكر.

ولنقف على مثنّى «طائفة» وكيف جاء في لغة التنزيل فنقرأ قوله تعالى: ﴿إذ هَمَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهُّما﴾[4]، وقد جاء الفعل بعد المثنى يشير إلى أن الاسم مسنًى بدلالة ألف التثنية فيه «تفشلا»، وفي هذا نظر إلى اللفظ أو الشكل وهو التثنية. غير أننا نجد في آية أخرى هذا المثنى وقد لحقه فعل قد اسند إلى جماعة الذكور كما في قوله تعالى:

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَت أحداهما فقاتلوا التي تبغي﴾[5]الحجرات، وفي هذه الآية نظر إلى المعنى وهو الجمع، على أنك تجد في آخر هذه الآية عوداً إلى اللفظ أو الشكل في ضمير التثنية المتصل في «بينهما»، وجملة هذا التحول بين التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية من خصائص لغة التنزيل العزيز.

١٧ ـ عنق:

وردت الأعناق في آية وقد وصفت بصفةٍ «مصروفة إلى الخبر» وهي جمع «خاضع» في قوله إلى: ﴿فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾[6]، ولا بد من جعل

(١) ٦٩ سورة آل عمران.
(٢) ٨١ سورة النساء.
(٣) ١٠٢ سورة النساء.
(٤) ١٢٢ سورة آل عمران.
(٥) ٩ سورة الحجرات.
(٦) ٤ سورة الشعراء.

«خاضعين» خبراً لـ «ظلّ» كما دأبنا في الدرس النحوي، غير أنك تتوقف قليلاً وأنت تنظر إلى الآية في حدود ما يوصف به العاقل وغير العاقل وذلك أن «خاضعين»، وهي جمع مذكر سالم لا يمكن أن يوصف بها «أعناق» وهو غير عاقل، ولكنك تجد في التأويل والدرس البلاغي سعة في قبول هذا، بل ساتحسانه في وروده في هذه الديباجة المشرقة من كلام الله تعالى.

١٨ ـ فلك:

وجاءت «الفُلك» في آيات كثيرة، وهي، في شيء منها، مؤنث مفرد، فاعل لفعل يسبقها، أو أنها مسند يتلوها فعل يشير إلى تأنيثها، وذلك في قوله تعالى:

﴿ولتجري الفلك بأمره﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿والفُلْك تجري بما ينفع الناس﴾[٢].

وجاءت في آيات أخرى متلوّةً بما يفيد أنها جمع مؤنث كما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجَرَين بهم بريحٍ طيّبة﴾[٣]، فالفعل «جَرَيْن» بنون الإناث يشير إلى أن «الفلك» جمع مؤنث. ومثل هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وترى الفلك مَواخِرَ فيه﴾[٤]، فوصف «الفلك» بـ «مَوَاخِر» يشير إلى أن الموصوف جمع مؤنث.

ونقرأ كل هذا ثم نقرأ قوله تعالى: ﴿فأنجَيْناه ومن معه في الفلك المَشْحون﴾[٥]، فنجد «الفُلك» قد وصف بـ «المشحون» وهو مفرد مذكّر.

١٩ ـ كلّ:

جاءت كلمة «كل» في أكثر من ثلاث مئة آية، وكلها يشير إلى أن «كلّ» تعني المفرد كقوله تعالى: ﴿إن الله على كلّ شيء قدير﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت﴾[٧]. وقوله تعالى: ﴿قلْ كلٌّ يعمل على شاكلته﴾[٨].

---

(١) ٤٦ سورة الروم.
(٢) ١٦٤ سورة البقرة.
(٣) ٢٢ سورة يونس.
(٤) ١٤ سورة النحل.
(٥) ١١٩ سورة الشعراء.
(٦) ٢٠ سورة البقرة.
(٧) ٣٥ سورة الأنبياء.
(٨) ٨٤ سورة الإسراء.

ولم نجد في مجموع هذه الآيات إلاّ قوله تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حُلاّ لبني إسرائيل﴾[1]، ففي هذه الآية نلمح في «كلّ» دلالة الجمع، وقد تحتمل معنى الإفراد.

غير أن «كلّ» في غير القرآن تأتي مفيدة للجمع كما تأتي مفيدة للإفراد، فيقال مثلاً: «كل الرجال حاضرون» والمعنى: «جميعهم»، وفي هذا نظر إلى المعنى بدلالة «حاضرون». ولنا أن نقول: «كلّ الرجال حاضر» والمعنى هو نفسه، ولكن قد روعيَ لفظ «كلّ» وهو مفرد مذكر، وهذا نظير «مَن» الموصولة، يقال: «رأيت مَن كان في الدار»، كما يقال: «رأيتُ من كانوا في الدار» غير أن مراعاة اللفظ، واعتبار «مَنْ» مفرداً مذكراً أكثر وأفصح.

ومثل هذا يقال في «كلا» و«كلتا» نحو: «كلا الرجلين فاضل، وكلاهما فاضلان»، والأول أكثر وأفصح.

٢٠ ـ نحل:

«النحل» من أسماء الجمع، والواحدة «نحلة»، وقد روعي فيها التأنيث والإفراد كما في قوله تعالى: ﴿وأوحَى ربّك إلى النحل أن اتّخذي بيوتاً﴾[2]، وفي هذا نظر إلى اللفظ.

وقد نقف إزاء هذه المسألة اللغوية الخاصة بالنحل فندرك أسلوب القرآن في مراعاتها، ثم نقف على جمع آخر وهو «النمل» فنقرأ قوله تعالى: ﴿قالت نملة يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم﴾[3]، فنجد «النمل» جمعاً مذكراً، وقد يكون هذا بسبب ما أسند إليه من صفات العاقلين وهو كلمة «القول» الذي جاء في الآية ﴿قالت نملة﴾، على أن هذا التأويل لا يدخل في النظام النحوي لبناء الجملة.

٢١ ـ نخل:

ورد «النخل» في إحدى عشرة آية، وهو مفرد مؤنث في بعض منها كما في قوله تعالى:

---

(١) ٩٣ سورة آل عمران.
(٢) ٦٨ سورة النحل.
(٣) ١٨ سورة النمل.

﴿كأنّهم أعجاز نخل خاوية﴾[1]. وقد يُدَلّ على الإفراد والتأنيث بما ولي «النخل» من ضمير مفرد مؤنث في قوله تعالى: ﴿وزروع ونَخْل طَلْعُها هضيم﴾[2].

وقد يأتي «النخل» جمعاً مؤنثاً بدلالة الوصف المؤنّث جمعاً كما في قوله تعالى: ﴿والنخلُ باسقات لها طَلْع نضيد﴾[3]، والضمير العائد عليها مفرد مؤنث.

وكما جاءت «النخل» مفردة مؤنثة كما مثلنا، وكقوله تعالى: «والنخلُ ذاتُ الأكمام﴾[4]، جاء أيضاً مفرداً مذكّراً كما في قوله تعالى: ﴿تنزع الناسَ كأنّهم أعجاز نخل مُنقِعر﴾[5].

تعليق:

أقول: لقد رأينا في اسم الجمع الذي جاء في لغة التنزيل موادّ تاريخية ذات قيمة كبيرة في فهم خصائص هذه اللغة الشريفة، وتأتي قيمتها ممّا تفرَّدت به من الظواهر اللغوية المختلفة، وهذا كله يشير إلى شيء من تاريخ العربية ومراحل تطورها. وأنت تدرك هذا حين تستقري الآيات التي ورد فيها «النّحل» و«النخل» مثل «النمل» و«الفُلك» وغيرها.

كلمة أخيرة:

لعل لغة القرآن بما تقدم من فوائد في هذه المسألة اللغوية التي بدا لي أن أجعلها في «نظرية الشكل والمعنى» فيما يتصل بالمطابقة وعدمها، هي أفضل المصادر لاستجلاء ما يتصل بأسلوب هذه اللغة المتباينة، وهي مادة حافلة بالأصالة الفريدة.

ومن المؤسف أن يقف الدارسون منها وقفة المكره المتعَب الذي ينظر إليها فيخطئه العلم ولا يهتدي بل يتعسَّف ويتكلّف، فيأتي بالغريب البعيد عن العلم ليكون ذلك شيئاً يعصم القواعد التي أصَّلها اللغـويون ولا يهدمها أو يلغيها. وكأنهم خشوا أن يقولوا: إنّ لغة القرآن في مسائل عدة غير ما كتبوا وقعّدوا، فراحوا يتعسّفون

---

(١) ٧ سورة الحاقة.
(٢) ١٤٨ سورة الشعراء.
(٣) ١٠ سورة «ق».
(٤) ١١ سـورة الرحمن.
(٥) ٢٠ سورة القمر.

سُبُلاً شاقّة عسيرة، ليوصلوا النص القرآني إلى ما قالوه في قواعدهم، ألا ترى أنهم ضعّفوا شيئاً من القراءات لمخالفته أقيستهم، فقال بعضهم: قراءة نافع ليس بشيء في مسألة «معائش» التي لا تُهمَز في زعمهم[1].

أقول: لو فطن أولئك المتقدّمون إلى القيمة التاريخية، وموضع النص القرآني فيها لأفادوا كثيراً ولأنتَهوا إلى أنّ هذه اللغة الشريفة غير ما قعّدوا في زعميهم.

والله أسأل أن ينفع بما حرّرت، إنه نعم المولى ونعم النصير.

(١) اقرأ تفسير الآية العاشرة من سورة الأعراف وهي ﴿وجعلنا لكم فيها مَعايش﴾ في كتب التفسير.

التوزيع الجغرافي للمراكز الحضرية في الجمهورية العربية اليمنية دراسة تاريخية

الدكتور حازم علي شكري
قسم الجغرافية

مقدمة

في هذه الورقة محاولة لدراسة التطور الحضري في اليمن عبر التاريخ متتبعاً مراكز النشأة والانتشار وصولاً إلى الطفرة الحضرية التي تشهدها اليمن في الوقت الحاضر، والتحدي الكبير الذي يقع على المخططين والدولة بإمكانياتها المحدودة، مفسرين الأسباب وراء ذلك والنتائج التي ترتبت على هذا التسارع للحضرية ونمو المراكز الحضرية في اليمن.

تحتل اليمن موقعاً جغرافياً فريداً في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية، كما تحتل مساحة من الأرض يتنوع تركيبها الجغرافي والمناخي مشكلاً بذلك تلك الخصائص والمميزات التي ميزت اليمن عن سائر أقطار الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ. إن اختلاف مظاهر السطح والتنوع المناخي وخصوبه التربة البركانية والموقع الوسطي لعبت دوراً هاماً في بناء الشخصية اليمنية، وآهلتها لاستغلال ذلك التنوع وذلك الموقع الوسطي عبر التاريخ، واستجابة لذلك كله تمكن الإنسان اليمني من إرساء قواعد لنظام اقتصادي متين ظل سائداً لقرون عديدة، قوامه تلك المشاريع العملاقة المتمثلة في بناء السدود والخزانات وقنوات الري لإقامة اقتصاد زراعي مستقر واحتكار التجارة مما أدى إلى ازدهار اقتصادي وحضاري وحضري استجابة لذلك النشاط المتعدد والمتنوع من قبل السكان.

كانت السهول والأودية الشرقية من اليمن لها السبق في البدايات الأولى

لجذب الاستقرار البشري وتكوين الممالك وعواصمها على ضفاف الأودية والسهول الفيضية الموسمية، وحيث وفرة المياه وصلاحية التربة والأرض للانتاج الزراعي واتساعها جعلها أكثر انتاجاً من المناطق الجبلية التي تقل فيها الرقعة الزراعية ويزداد انجراف التربة وصعوبة الاستقرار فيها في تلك البدايات الأولى. كما أن البحار والمحيطات التي تطل عليها اليمن ساهمت هي الأخرى في الاتصال والتواصل بين بيئات حوض المحيط الهندي ومنتجاتها وحوض البحر المتوسط وخصائصه مما ساعد على تكوين ثروات عظيمة من مرور القوافل والعمل في المجال الزراعي والتجاري والتبادل السلعي بين تلك البيئات المختلفة مما اكسب اليمن شهرة عظيمة ومركزاً مرموقاً في ذلك الوسط الحضاري والتجاري الذي كان يعيشه العالم القديم آنذاك، فأستحقت اليمن بذلك التسمية التي أطلق عليها كتاب اليونان والرومان وهي العربية السعيدة «ARABIA FELIX» وذلك تميزاً لها عن بقية أقطار شبه الجزيرة العربية نتيجة لكثرة الأمطار وقيام الاستقرار وتراكم ثروات كبيرة نتيجة لاستغلال الموارد الطبيعية المتعددة، والربط بين حضارتين دون أن يتم بينهما أي اتصال مباشر هما حضارة حوض المحيط الهندي وحضارة حوض البحر المتوسط[1].

لقد فتح هذا الموقع الوسطي الهام والازدهار الاقتصادي وتراكم الثروة التي كانت في اليمن شهية القوى الخارجية للسيطرة على اليمن وعلى ثرواتها عبر التاريخ القديم والحديث بدءاً بمحاولة الرومان لاحتلالها في العام (٢٤ .ق. م) أو الاحتلال الحبشي في الربع الأول من القرن السادس الميلادي أو التأثير الفارسي في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي أو حديثاً بالغزو العثماني (١٥٣٨) والاحتلال البريطاني لبعض مناطق اليمن في العام (١٨٣٩).

خرجت اليمن بعد كل ذلك منهكة ممزقة متخلفة متعزلة عن ركب الحضارة والحضرية، وأصبحت مرة أخرى متميزة عن بقية أراضي شبه الجزيرة العربية أو شبيهة بها وانتهت شهرتها القديمة من قوة وثراء وحضارة وأتساع وأصبحت اليمن منكفئة بين مرتفعاتها وصيهدها في الشرق وتهامة في الغرب ليست راضية ولكنها مجبرة على ذلك يحدوها وشعبها الأمل في يوم التغير الآتي.

وبقيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ بدأت اليمن تستعيد مجدها التليد من جديد وتحيَ أرض الجنتين وتعيد تشييد سد مأرب العظيم وتتوسع

في أستصلاح الأراضي وتقيم المشاريع الزراعية وتستغل ثرواتها الطبيعية وترسي نظام اقتصادي حديث، وبذلك بدأ الوجه الحقيقي لليمن يظهر بعد أن اختفى لقرون طويلة تحت عناكب الظلم والظلام نتيجة لتعدد الأنظمة والقوى السياسية التي توالت على حكم اليمن.

الحضر وظهور المدن القديمة في اليمن:

ازدهرت المدن في أول الأمر في منطقة الشرق الأوسط وبالذات في الأودية النهرية وسهولها الفيضية في كل من مصر والعراق وذلك في الألف الرابع ق. م. وفي اليمن وهي لا تبعد كثيراً عن هاتين الممنطتين وتتوفر بها ظروف مناسبة للاستقرار وتكوّن المدن لا يستبعد أن تكون البدايات الأولى للاستقرار في الألف الثالثة ق. م، بعد أن سبقت ذلك التعرف على الزراعة ووسائلها وأستئناس الحيوان لأغراض الزراعة والنقل وكذلك معرفة الإبحار، ولم تكشف لنا بعد المطمورات الحضارية التي يمكن بواسطتها الاستدلال العلمي للتاريخ الحقيقي للحضارة اليمنية. إن ظهور الحضارة ارتبط بتجمع الناس للعيش في المدن بسبب كلا الظاهلأتين لديهما مقومات جغرافية أساسية[٢]. والمدن والحضارة يتطلب ظهورهما مجموعة من الظروف المشتركة وبدون هذه الظروف لا يمكن أن توجد مثل هذه المجتمعات، ويعتبر فائض الغذاء في المناطق الريفية عن استهلاك وحاجة المنتجين، ومعرفة وسائل النقل لتوصيل هذا الفائض لمناطق أخرى لا تقوم بإنتاجه وإنما تستهلكه بحكم تركزها وقيامها بوظائف مدنية لخدمة سكانها وسكان الريف الذي استدعى وجودها. إن المدينة فن وثقافة ووظيفة سياسية وليس العدد هو الذي يحدد المدينة[٣]، هذه النشاطات الاقتصادية والثقافية والسياسية تركزت في بقعة محدودة تقدم خدماتها للمناطق المجاورة.

لا شك أن الاستقرار واحتراف الزراعة هو صورة من صور الحضر ولا بدّ أنه كان سابقاً لنشأة المدن، لأن سكان المدن لا بدّ أنهم يُدعمون بفائض الانتاج الزراعي لأنهم جماعة يقومون بوظائف غير زراعية، وقد عرفت اليمن في مطلع الألف الأولى ق. م سكنى المدن[٤] وتشييدها وبناء القصور والمعابد وتقسيم المدينة إلى أحياء خاصة، كما تخصصت مدنها القديمة بوظائف خاصة وجمعت بعض المدن عدداً من الوظائف تشبه مدننا الحالية، إذ لم تقتصر هذه المدن على الوظيفة السياسية أو على كونها مراكز تجارية لمرور القوافل بل كانت وظيفتها تمتد لتبادل

المعارف والخبرات والتصورات المتعلقة بأمور الحياة وشئونها الثقافية المختلفة[٥].

وقد انتشرت المدن اليمنية القديمة في النطاق الشرقي من البلاد وذلك في الأودية وعلى ضفافها حيث تتوفر المياه في هذه الأودية نتيجة لسقوط الأمطار على المرتفعات، وإن انتشار الزراعة اعتماداً على هذه المياه وتنظيم مشاريع الري وبناء السدود والقنوان ساعد على الاستقرار واحتراف الزراعة معتمدة على مياه السدود مما ساعد على وجود فائض تم تبادله مع سكان المدن، ويمثل سد مأرب في اليمن أول وأكبر سد عُمل في أي مكان في العالم ومكن من تخزين مياه الصيف لاستخدامها في بداية الربيع قبل مقدم الموسم الرطب التالي[٦]. وكانت المدن تمثل حواضر سياسية ومراكز تجارية لمرور القوافل التي كانت تنقل من سواحل المحيط الهندي عبر الطريق التجاري البري كمية كبيرة من المنتجات التي تزرع بها إلى سواحل البحر المتوسط أو إلى ما بين النهرين في شمال شرق الجزيرة العربية، وكان الجمل هو وسيلة النقل الرئيسية في الطريق التجاري البري الذي بدأ استخدامه في القرن ١١ ق. م[٧].

لقد انتشرت مجموعة من المدن والمراكز التجارية على الأودية وضفافها، ففي وادي أدنه وجدت مدينة مأرب، وعلى وادي بيجان وجدت مدينة تمنع، وعلى وادي عرمه ـ العطف وجدت مدينة شبوه كما وجدت مدن قرناو، كمنا، نشق ونشان على وادي الجوف، ووجدت مدن شبام، سيئون وتريم على وادي حضرموت[٨]. وكان كثير من هذه التجمعات الحضرية عواصم لممالك ودول يمنية قديمة مثل شبوه، تمنع، مأرب وقرناوعواصم لممالك حضرموت، قتبان سبأ ومعين على الترتيب، وهناك مدن كانت تقوم بوظائف الموانىء مثل لشحر، قنا وعدن على ساحل المحيط الهندي، وكانت القوافل التجارية تقوم برحلتها من السواحل الجنوبية لليمن حاملة معها اللبان والمر والتوابل والبهارات سواء ما كان ينتج محلياً أو من المنتجات التي كانت تجلب من بلدان حوض المحيط الهندي، وكانت هذه القوافل تتجه نحو الشمال مروراً بمراكز وعواصم الممالك اليمنية حتى تصل نجران، ومن هناك تنفصل القافلة حيث يتجه جزء منها نحو بلاد الرافدين بينما يواصل الجزء الآخر طريقه إلى سواحل البحر المتوسط، وهكذا ذاع صيت اليمن وكبر حجمها أمام معاصريها من المدن والحضارات التي وجدت في الشمال والشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية.

وظل التوجيه الجغرافي لليمن طوال عهد الممالك القديمة وحتى القرن الثالث الميلادي نحو الشرق، وظلت هذه المدن والمراكز التجارية تتمتع بشهرة عظيمة وغنى واسع واتساع في الأراضي المبنية، حتى أن مدينة شبوه كان يوجد بها سبعون معبداً وكانت مسورة وبها باب يفتح لاستقبال القوافل[٩]. ولا زالت معلوماتنا عن المدينة اليمنية القديمة وشكلها وخطتها وتركيبها المورفولوجي محدودة جداً بسبب قلة التنقيبات والأبحاث في هذا الاتجاه وظلت المناطق الشرقية من اليمن طوال الألف الأول ق. م. هي مراكز الثقل البشري والاقتصادي والسياسي حتى تكونت دولة يمنية كبرى موحدة لكل أراضي اليمن وجعلت من ظفار عاصمة لها وأتخذ ملوكها ذلك اللقب الطويل الذي اشتهرت به مملكة حمير وملوكها وهو «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وبدوها في طود وتهامة».

وبدأ التوجيه الجغرافي للبلاد يتغير وأصبحت ظفار هي محور ذلك التوجيه واستجابت لذلك طرق القوافل. وكذلك الاستيطان البشري الذي انتقل بدوره من الأودية والسهول الشرقية إلى مناطق الوسط حيث القيعان والمرتفعات وإلى السواحل الغربية وتأسست مدن وموانىء جديدة مستفيدة من التطورات العلمية والتكنولوجية التي بدأت تستخدم البحار للنقل والانتقال وبدأت المراكز الشرقية في الضمور والتدهور والاضمحلال وكذلك مشاريع الري التي أصابها الاهمال، وتحركت القبائل كرد فعل للظروف التي استجدت منقسمة في اتجاه تحركها، حيث اتجهت بعضها صوب العاصمة الجديدة ظفار وأخرى تحركت نحو عُمان وثالثة نحو الشمال. إن الأسباب الرئيسية وراء هجرة قبيلة الأزد تحت قيادة مالك ابن افهم إلى عُمان يعود إلى انهيار سد مأرب وانتقال التجارة من طريق اللبان والتوابل إلى الطريق البحري، والصراعات الداخلية بين القبائل[١٠]. وبانهيار سد مأرب تدهورت وانتهت تلك المراكز الحضرية في المناطق الشرقية. وإذا ما أصاب حضارة ما تدهور وتفتت فإن مراكز الحضارة والقوة والثقل السياسي قد تغادر مواقعها وقد تصل إلى مناطق أخرى أكثر ملاءمة حيث تتوفر لها فرص أفضل للانتعاش[١١].

كانت ظفار عاصمه مملكة حمير وذلك في نهاية القرن الرابع الميلادي، وقد استجابت الطرق التجارية لهذا التطور السياسي وبدأ خط تجاري موازٍ للخط التجاري الذي كان موجوداً في الشرق متخذاً من عدن قاعدة لانطلاقه عبر المراكز

الحضرية التي كانت تمتد على طول هذا الخط، وكان يطلق عليه درب أسعد الكامل نسبة للملك الحميري الذي عاش في تلك الفترة[١٢]. وكانت المراكز الحضرية سواء في الغرب أو في وسط اليمن أقل حجماً وأهمية. مقارنة بالمراكز الحضرية التي وجدت في الشرق. وفي العهد الحميري احتل الأحباش مدينة ظفار عاصمة المملكة الحميرية في الربع الأول من القرن السادس الميلادي (٥٢٥ ـ ٥٣١)[١٣]، وبالرغم من مقاومة اليمنين للغزو الحبشي إلا أن الأحباش تمكنوا من احتلال اليمن وتلقبوا بألقاب ملوك الحميرين التي كانت موجودة قبل احتلالهم، ومن هذه الألقاب التي استخدمها الأحباش «نائب ملك سبأ وذي زيدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طوراً وتهامة»[١٤].

وقد قام الأحباش بنقل العاصمة إلى مدينة صنعاء وبنوا بها كنيسة كانت تسمى «القليس» وكانت من الضخامة بحيث أنهم أرادوا صرف أنظار الناس عن الكعبة في تلك الفترة المبكرة من التاريخ.

وفي نهاية القرن السادس الميلادي وقعت اليمن تحت التأثير الفارسي حتى مجيء الإسلام حيث استجاب الشعب اليمني للدعوة الجديدة وهبّ مناصراً لها ومقاتلاً في جيوش الإسلام وأصبحت اليمن جزءاً من الدولة الإسلامية الحديثة التي تكونت في الأراضي المقدسة في شبه الجزيرة العربية.

التجمعات الحضرية في العهد الإسلامي وحتى الغزو التركي

ومع انبلاج النور القدسي من المدينة المنورة واليمن كانت تعيش محنتها مع الغرباء ومعارضاً شعبها لتسلطهم، وقبائلها مشتتة ومتحاربة فيما بينها، فجاء الإسلام ليضع حداً لذلك النزيف وهادياً للطريق القويم، فلبّى الشعب اليمني الدعوة، ودخل اليمنيون في دين الله أفواجاً ودون تردد. وتميزت هذه الحقبة من التاريخ بما يعرف بفترة الولاة حيث ظلت تابعة لدولة الإسلام في الجزيرة العربية.

ومع الزمن استمر التوجيه الجغرافي والثقل السياسي والبشري نحو الوسط والغرب وانتهت تلك التجمعات الحضرية التي ازدهرت في الماضي في المناطق الشرقية، وازدهرت التجمعات التي وجدت في الوسط والمناطق الغربية وتكونت تجمعات حضرية جديدة تمثل طرق الحجيج ورحلة الشتاء والصيف وأسواق العرب

التي نالت منها اليمن الشحر وعدن وصنعاء.

وتعددت المراكز الحضرية في هذه الفترة واختلف توزيعها الجغرافي وامتد معظمها في الهضبة الوسطى والساحل الغربي متخذة من القيعان والأراضي السهلية والأودية الفيضية الغربية مراكز لنشأتها حيث المساحات الواسعة والمياه الوفيرة والأراضي الزراعية الخصبة والطرق التي تسلكها القوافل أو الموانيء الساحلية.

ولا تختلف الحواضر الإسلامية في اليمن عن بقية أرجاء مناطق الدولة الإسلامية، فالمسجد والمدرسة الدينية والسوق والمركز الإداري ومقر الوالي والسور والمقبرة، كلها خصائص امتازت بها المدينة الإسلامية عن المدن السابقة. ومع تعاقب الدويلات اليمنية وتعددها واختلاف مؤسسيها وتبعية الدويلات اليمنية إلى دولة الخلافة أو الدول الإسلامية الأخرى التي تعددت مراكزها في العالم الإسلامي آنذاك تعددت بالمقابل المدن والحواضر اليمنية كعواصم ومراكز تجارية ومراكز علمية دينية وأسواق وموانيء لتلك الدويلات اليمنية مشكّلة بذلك سلسلة من المدن تتوزع بين الجنوب والشمال والغرب ومن أمثلة ذلك مدن زبيد، شبام كوكبان مذيخرة، صعدة، صنعاء، عدن، تعز، المقران وجبله. وكانت هذه المدن تمثل عواصم لتلك الدول اليمنية التي كانت تتعاصر وتتداخل تارة، وتارة أخرى تتباعد زمنياً وتستقل مكانياً ابتداء من القرن التاسع الميلادي. وتعتبر زبيد من المدن التي اختطت في بداية القرن الثالث الهجري، وأول من اختط المدينة محمد بن عبدالله بن زياد الأموي بأمر سلطانه عبدالله المأمون بن هارون الرشيد في يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان سنة أربع ومائتين[١٥]. وتكررت هذه الحواضر كعواصم لولايات أو دويلات ومراكز لتلقي العلم، وتعددت الوظائف التي كانت تقدمها المدينة اليمنية في هذه الحقبة من الزمن، كما أن غنى المدن اليمنية وازدهارها وزيادة عدد سكان الكثير منها ارتبط بالحركة التجارية وازدهار الدولة واستمرار اتجاه التجارة عبر الموانيء والبحار اليمنية، خصوصاً وأن في هذه المرحلة تعرضت الطرق البرية والبحرية للانقطاع والانتقال عبر الخليج العربي نحو بغداد ومنها نحو البحر المتوسط وذلك بسبب السيطرة العباسية على القوة آنذاك، ثم التطورات اللاحقة التي حدثت بالحضور الأوربي في المحيط الهندي ومعرفة رأس الرجاء الصالح الذي تحولت الطرق التجارية عبره بعيداً عن النفوذ والسيطرة اليمنية وبدأت الحواضر اليمنية في الانحسار من جهة والتركز من جهة أخرى.

وبمقدم الأتراك العثمانيون في القرن السادس عشر والمحاولة للسيطرة على الطرق التجارية والسيطرة على اليمن وبدء الصراعات الدولية حول المحيط الهندي والبحر الأحمر بحثاً على مواقع لتموين السفن وموارد جديدة لتغذية صناعاتها الناشئة وأسواق جديدة لتصريف منتجاتها، ودخلت اليمن مرحلة جديدة من تطورها وأصبحت تحت السيطرة التركية وسلطة الأئمة وقد استمر هذا الصراع فترة طويلة من الزمن كان نتيجته التخلف والعزلة كما سوف نرى ذلك فيما بعد.

التجمعات الحضرية في العهد العثماني والسيطرة البريطانية:

لقد كانت بداية الغزو العثماني في ١٣ أغسطس ١٥٣٨ م وكان تواجدهم بداية لفترة امتدت ما يقرب من ٣٨٣ عام لم يكن تواجدهم متصلاً طوال هذه الفترة، لكنهم بترددهم على اليمن أكثر من مرة ظلوا يفرضون سيطرتهم على شئونها وتركوا بصماتهم ماثلة في الكثير من العادات والتقاليد والتخلف الذي آلت إليه اليمن أثناء هذه الفترة التاريخية الطويلة، وبقيام الحرب العالمية الأولى وسقوط الامبراطورية العثمانية تمكن الإمام يحيى من مفاوضة الأتراك وعلى أثر هذه المفاوضات حصل اليمن على استقلاله في ١٩١٨ ولكن ظل الشطر الجنوبي تحت السيطرة البريطانية ابتداء من عام ١٨٣٩ حتى ١٩٦٧ حيث تم الجلاء لتلك القوات.

إن التواجد التركي لفترة طويلة من الزمن لم يَسْعَ خلالها إلى إحداث التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي يمكنها خلق تغير كبير في البنية الاقتصادية والتركيبة الاجتماعية في البلاد، بل ظلت اليمن تعيش صراعاً مريراً سواء مع العثمانيين أو في الخلافات بين الأئمة على السلطة.

وفي بداية الحكم العثماني الأول قسمت اليمن من الناحية الإدارية إلى تسعة أقسام وهي صنعاء ـ المخاء، زبيد صهله، تعز، كوكبان، طويلة، مأرب وعدن وذلك لإحكام قبضتهم على اليمن[١٦]. وفي هذه الفترة المبكرة تم التمثيل الدبلوماسي مع اليمن حيث أقام الفرنسيون واليونان والإنجليز قنصليات لهم في الحديدة، كما أقام الايطاليون قنصلية لهم في المخاء[١٧]. وظلت موانىء الحديدة والمخاء موانىء رئيسية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وحتى مطلع القرن الثامن عشر، وعند فتح قناة السويس زادت أهمية ميناء الحديده وارتفع بذلك عدد السفن التي تتردد على الميناء حيث وصلت إلى ٨٠ سفينة في الاسبوع[١٨]. «وقد كانت المخاء في القرن

الخامس عشر قرية صغيرة يسكنها القليل من العرب يعملون بصيد الأسماك ولكن في القرن السابع عشر ازدهرت هذه المدينة لكثرة السفن التجارية الهندية التي كانت تزور عدن في السابق، ويسكنها عدد لا بأس به من السكان كما يقطنها الكثير من الشعوب الأجنبية المختلفة، ويحكمها الأتراك... ويستقر بها حوالي ٣٠٠٠ من البانيان من كمبايه وكسجرات وساحل الهند، ومعظمهم من الصناع والقليل منهم من التجار ويوجد بينهم الكثير من الصيارفة وصياغ الفضة»[١٩]. وأغنى ميناء مجاور لميناء عدن كان المخاء الذي أصبح تحت السيطرة التركية وكان مركزاً للسفن الهندية ونهاية للقوافل المتجهة إلى حلب، كما قدر إنتاج البن اليمني نحو ٢٠ مليون رطل في السنة وذلك في نهاية القرن السابع عشر[٢٠]، وهكذا نجد أن ازدهار النشاط التجاري في مينائي الحديدة والمخاء يعود بدرجة رئيسية إلى انتشار زراعة البن اليمني الذي ذاع صيته في القرن السابع والثامن عشر، واشتغل به الكثير من السكان، وكانت المواني ء الساحلية مراكز للتصدير بينما كانت المناطق الداخلية هي بمثابة مناطق للتجميع وتجارة الجملة مثل بيت الفقيه.

وفي الفترة الثالثة من الحكم العثماني أعيد تقسيم اليمن من الناحية الإدارية إلى أربعة صناجق[٢١]، وهي صنجق صنعاء، تعز، الحديده وصنجق عسير، وكل صنجق ينقسم إلى مجموعة من الأقضية وكل قضاء يتبعه مجموعة من النواحي والقرى وفيما يلي هذه التقسيمات الإدارية.

١ ـ صنجق صنعاء وقد قسم إلى تسعة أقضية هي صنعاء، جبل حراز، كوكبان، آنس ضحية، ذمار، يريم، رداع وعمران ويتبع كل قضاء عدد من النواحي.

٢ ـ صنجق الحديده وقد قسم إلى تسعة أقضية هي الحديده، زبيد، جبل ريمه، حجور، بيت الفقيه، باجل وأبو عريش ويتبع كل قضاء مجموعة من النواحي والقرى.

٣ ـ صنجق تعز وقد قسم إلى ستة أقضية هي تعز، اب، العدين، قعطبه حجرية والمخاء ويتبع كل قضاء مجموعة من النواحي.

٤ ـ صنجق عسير وقد قسم إلى سبعة أقضية هي عسير، فحائل، رجال المع، قنفذه، بني شهير، غامد وصبيا ويتبع كل قضاء مجموعة من النواحي والقرى[٢٢]. ويتضح من هذا التقسيم أنه استبعد المناطق الشرقية وذلك لعدم

السيطرة عليها، كما أنه استثنى من التقسيمات الإدارية الشطر الجنوبي لأنه في هذه الفترة قد وقع تحت الاحتلال والحماية البريطانية. كما يتضح أيضاً من التقسيمات الإدارية أن عواصم الأقضية هي التي كانت تمثل الحواضر والمراكز الإدارية كما أن المدن الحالية ما هي إلّا تلك المراكز الإدارية التي قسمت في العهد التركي ولازالت تمثل كثير من المراكز الإدارية الحالية بالرغم من التعديلات التي حدثت بعد ذلك سواء قبل قيام الثورة أو بعد قيامها.

ولقد تميزت الفترة العثمانية بعدم وجود تطورات اقتصادية تساعد على تكون المدن أو مراكز حضرية وظلت السلطات التركية مشغولة بجباية الضرائب وتنقل الولاة دون النظر إلى الحياة الاقتصادية وإيجاد ذلك التغير المتوقع.

كما أن التجمعات الحضرية تميزت بخصائص لا تعدو أن تكون عواصم للصناجق والأقضية وبعض الموانىء التي ازدهرت في البدايات الأولى بسبب تجارة وازدهار البن اليمني واهتمام السلطة التركية بها لأنها تمثل مناطق دخول جيوشها. بالاضافة لما تمثله من نشاط تجاري يتبادله سكانها مع سكان الريف بالمواد الغذائية والمنتجات الريفية بما يستوردونه عن طريق الموانىء من منتجات أوربية حديثة.

وهكذا فلم تكن توجد حينذاك أية مراكز حضرية ولا مدن بالمعنى الحقيقي للكلمة[٢٣]. وبالرغم من انتعاش مدينة عدن واستقطابها للكثير من أبناء اليمن والذين وجدوا طريقهم إليها بسبب فساد الأوضاع والصراعات التي كانت سائدة آنذاك في اليمن إلا أنها ظلت محدودة في نشاطها كميناء، ولم يزد عدد سكانها منذ احتلالها عام ١٨٣٩ م وحتى عام ١٩٣٧ م عندما انتقلت السلطة من الحكومة الهندية إلى إدارة المستعمرات البريطانية عن ٥٠ ألف نسمة وذلك خلال قرن من الزمن[٢٤].

التجمعات الحضرية نموها وتوزيعها الجغرافي بعد قيام الثورة:

يتضح مما تقدم عدم وجود دراسات حول الحضر والمراكز الحضرية، وحتى الأرقام. السكانية التي وجدت بين صفحات كتب الرحالة والمؤرخين في حد ذاتها تخمينيه ولا تفي بغرض الدراسة، كما يتضح أيضاً من أن الدراسة للتجمعات والمراكز الحضرية في الماضي القديم وما قبل قيام الثورة هي عبارة عن تحليل تاريخي وصفي لعدم وجود الدراسات والاحصاءات التي بواسطتها يمكن للدارسين

تطبيق المنهج العلمي الاحصائي في التحليل والاستقراء، وحتى بعدد ستقلال اليمن عن الامبراطورية العثمانية، استمر الحكم الإمامي بنفس الاتجاه الذي كان سائداً في العهد التركي ولم يحدث أي تغيير في المجتمع، ولم يهيء أي فرص من فرص العمل والتي بدورها توفر بعض المعلومات والبيانات يمكن للدارسين الاستدلال بها والتعرف على التجمعات والمراكز الحضرية في اليمن، بل بالعكس فرض على البلاد عزله سياسية واقتصادية واجتماعية أثرت على مسار التطور الاقتصادي والاجتماعي حتى الوقت الحاضر. وكانت الهجرة الخارجية بحثاً عن العمل (الذي لم يستطع النظام القائم آنذاك توفيره في البلاد) كرد فعل لمجموعة متعددة من الأسباب حالت دون وجود الهجرة الداخلية وخلق أجواء مناسبة لنمو المراكز الحضرية وتطورها وازدهارها، وحتى عام ١٩٥٨ قدر عدد سكان مدينة صنعاء بنحو ٥٠ ألف نسمة ومدينة الحديده بنحو ٣٠ ألف نسمة ومدينة تعز بنحو ١٢ ألف نسمة والمراكز الحضرية الأخرى مثل اب، لحيه، يريم والمخاء لا يزيد عدد سكان كل منها عن ألفي نسمة[٢٥]وهذه المراكز والأرقام تمثل نسيه منخفضة للغاية في مجتمع قدر عدد سكانه في نفس الفترة بنحو ٤ مليون نسمة[٢٦].

وهكذا نجد أن نظام الأئمة هو امتداد تاريخي واقتصادي للحكم العثماني، ومع قيام ثورة ٢٦ سبتمبر الخالدة، اختزلت التاريخ وحركت دواليب التطور وحققت في عمرها القصير ما لم يتحقق لليمن خلال عشرات السنين من نمو حضري وتجمع عمراني وزيادة في عدد سكان المدن الرئيسية والثانوية والاختلاف في الوظائف التي تؤديها المدن والتركيب الاقتصادي للمدينة اليمنية، وأصبح معدل النمو مرتفعاً كما يتضح فيما بعد.

التعدادات السكانية والتوزيع الجغرافي للمراكز الحضرية والسكان الحضر:

اتضح من خلال الدراسة السابقة عدم وجود تعدادات للسكان يمكن من خلال بياناتها التعرف على المراكز الحضرية وتوزيعها الجغرافي بسبب تلك الظروف التي مرت بها اليمن خلال تاريخها الحديث. وكان أول تعداد للمساكن والسكان في اليمن قد نفذ عام ١٩٧٥، تلاه تعداد ثاني في عام ١٩٨٦، ومن خلال هذين التعدادين توفرت لأول مرة بيانات صحيحة تفصيلية عن السكان تمكن الباحث من

دراسة السكان وخصائصهم وتركيبهم ونموهم وتوزيعهم إلى حضر وريف، بالاضافة إلى الدراسات والمسوحات الأخرى التي تمت بين التعدادين.

إن تعريف المركز الحضري يختلف من دولة إلى أخرى وذلك لعدة عوامل (طبيعة الأقليم ـ التقدم الاقتصادي ـ خصوبة التربة عدد السكان وكثافتهم.. الخ) حيث نجد أن التجمعات السكانية تختلف نتيجة لتلك العوامل، ولذلك فإن اتخاذ الحجم السكاني كمعيار لتعريف المركز الحضري أصبح شائعاً ومعمول به في كثير من دول العالم، إلّا أنه لا يصلح أن يكون لوحده معياراً دقيقاً لتعريف المركز الحضري وهذا ما هو متبع. لذلك نجد أن تعريف المركز الحضري في الجمهورية العربية اليمنية في تعداد ١٩٧٥، اعتبر المنطقة الحضرية عواصم المحافظات وأي تجمع سكاني يزيد على ألفي نسمة[٢٧].

وقد اختلف هذا التعريف في تعداد ١٩٨٦ حيث اعتبر المنطقة الحضرية عواصم المحافظات وأي تجمع سكاني يزيد على ٥٠٠٠ نسمة. وبالرغم من اعتماد التعدادين على حجم السكان والوظيفة الإدارية في تعريف المركز الحضري إلا أن هذين المعيارين غير كافيين للتعرف على المراكز الحضرية في الجمهورية، لذلك نجد أن أحد الباحثين في دراسته للهجرة الداخلية في الجمهورية العربية اليمنية....[٢٨] اقترح تعريفاً مركباً للمركز الحضري عن النحو التالي.

١ ـ حجم السكان ٢ ـ الوظيفة الإدارية ٣ ـ طبيعة النشاط الاقتصادي ويتفق هذا التعريف مع تعريف الجهاز المركزي للتخطيط من خلال التعدادين السابقين وذلك في رقم واحد ورقم اثنين ويختلف معه في رقم ثلاثة حيث أضيف طبيعة النشاط الاقتصادي، وهذا التعريف المركب للمركز الحضري معروف ومتداول في كثير من الدول، ولكن المشكلة تكمن هنا في أن طبيعة النشاط الاقتصادي في هذه الحالة غير واضحة لأن الزراعة نشاط اقتصادي وصيد الأسماك يعتبر نشاط اقتصادي والتعدين والتجارة والصناعة والمواصلات... الخ كلها أنشطة اقتصادية، وتختلف الوظيفة الاقتصادية لأي مركز حضري باختلاف موقعه وطبيعة المجتمع ونشاط السكان وتطورهم التاريخي والنظام السياسي. لهذا لا بد من تثبيت نسبة معينة من السكان ممن يكتسبون قوتهم من الوظيفة الاقتصادية في المركز الحضري وبذلك يكتمل تعريف المركز الحضري. ونرى أن يكون التعريف للمركز الحضري هو: تعتبر مراكز حضرية عواصم الممحافات وأي تجمع سكاني يزيد عن ٥٠٠٠ نسمة

وأن يكون ٤٥٪ من السكان العاملين يعملون بغير الزراعة، وبهذه الطريقة نكون ثبتنا التعريف الذي يعتمد على الوظيفة الإدارية وعلى حجم السكان والوظيفة الاقتصادية التي بزاولها السكان وثبتنا صفة كمية لطبيعة النشاط الاقتصادي الذي يمارس حتى يمكن اعطائه صفة المركز الحضري.

ونظراً لاختلاف تعريف المركز الحضري في الجمهورية بين التعدادين فإن ذلك يخلق صعوبة كبيرة للتعرف على النمو الحضري في الجمهورية لذلك سوف نلجأ إلى دراسة النمو الحضري بين عواصم المحافظات لثبات التعريف في كلى التعدادين، وقد حسبت نسبة النمو الحضري السنوية[٢٩] بين التعدادين والتي يوضحها الجدول التالي.

(جدول ١) النمو الحضري السنوي في عواصم المحافظات في الجمهورية العربية اليمنية بين تعدادي ١٩٧٥ - ١٩٨٦

العاصمة	السكان ١٩٧٥	السكان ١٩٨٦	نسبة النمو السنوي
صنعاء	١٣٥٦٢٥	٤٢٧١٥٠	١٠,٤٣
تعز	٧٩٧٢٠	١٧٨٠٤٣	٧,٣٠
الحديده	٧٢٨٩٥	١٥٥١١٠	٦,٨٦
اب	١٧٤٩٦	٤٨٨٠٦	٩,٣٣
ذمـار	١٩٥٤٠	٤٧٧٣٣	٨,١٢
حجه	٣٢٩٤	١٥٨٧٨	١٤,٣٠
صعده	٣٨٠٦	١١٧٥٩	١٠,٢٥
المحويت	٥١٦٦	٢٢٩٢	٧,٣٩
البيضاء	١٠٤١٩	١٢٣٧٠	١,٥٦
مأرب	٢٩٢	١٤٥٧	١٤,٦١
الجوف	-	٢٢١٦	-
المجموع	٣٤٥٣٧٩	٩٠٥٦٨٨	٨,٧٦

المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي، وزارة التخطيط سنة ١٩٨٧.

بدراسة الجدول أعلاه تتضح الحقائق التالية:

١ - إن المعدل العام للنمو الحضري في عواصم المحافظات سجل ٨,٧٦٪ سنوياً خلال الأحدا عشرة سنة الماضية. وهذا المعدل يفوق ثلاثة أضعاف تقريباً معدل النمو السكاني السنوي في البلاد، وسبب هذه الزيادة في عواصم المحافظات يعود إلى الهجرة الداخلية بالاضافة إلى النمو الطبيعي للسكان.

٢ - إن المعدل السنوي للنمو الحضري في محافظتي مأرب وحجه يفوق المعدل العام للمحافظات وقد سجلت نمواً عالياً يصل إلى ١٤,٦١٪ و ١٤,٣٠٪ على الترتيب، وسبب هذا الارتفاع يعود إلى أسباب كثيرة منها، إن عواصم المحافظتين شهدتا تغيراً جذرياً في العشر السنوات الماضية من حيث الخدمات الاجتماعية وشق الطرقات وإنشاء مشاريع انمائية وعودة الكثير من أبناء المحافظتين من المهجر واستقرارهم في العواصم والتوسع في المصالح والمؤسسات الحكومية وهذه جذبت بدورها الأيدي العاملة مما ترتب عليه ذلك النمو السريع.

٣ - سجلت معدلات عالية في كل من صنعاء وصعدة حيث وصلت إلى ١٠,٤٣٪و ١٠,٢٥٪ لكل من صنعاء وصعده على التوالي. ويعود ذلك إلى أن صنعاء هي عاصمة الجمهورية حيث تركزت بها المصالح والمؤسسات الحكومية وبها مكاتب الشركات والوكالات التجارية كما أن بها البنوك وبيوت المال والسفارات وبها الجامعة كما أن خدماتها أكثر تقدماً وتطوراً يضاف إلى كل ذلك عودة الكثير من المهاجرين واستقرارهم وفتح أعمال تجارية وصناعية في العاصمة، وهذا زاد من عدد سكانها المطلق كما هو مبين في الجدول. وأما مدينة صعدة فقد شهدت تطوراً واضحاً في مجال الخدمات والتجارة وقربها من الحدود ساعدها على أن تكون مركزاً تجارياً في النطاق الشمالي من البلاد فأستقطبت أعداد كبيرة من سكان المحافظة بالاضافة إلى بعض من سكان المحافظات الشمالية.

٤ - إن مدن اب وذمار وتعز والحديده والمحويت، شهدت ارتفاعاً في معدلات نموها وإن كان أقل من العواصم السابقة بسبب حداثة العمران في بعضها وتركز النشاطات الاقتصادية الصناعية والتجارية في بعضها الآخر كما أن بعضها

لا يترك للمراكز الحضرية الأخرى فرصة في النمو نتيجة للبعد عن المواصلات أو لفقر الظهير أو لصغر حجم السكان، وتنفرد مدينة الحديده التي تساهم بنسبة معقولة من الحضر بتعدد المراكز الحضرية فيها بسبب سهولة سطحها وتوفر العديد من النشاطات الاقتصادية في ظهيرها. وبالنسبة للمعدلات انظر الجدول ١.

٥ ـ تعتبر مدينة البيضاء أقل العواصم نمواً وقد سجلت أدنى نسبة وهي ١,٥٦٪ سنوياً، وذلك لعدة أسباب نذكر منها أن سكانها قليلاً مقارنة ببقية المحافظات كما أن ظهيرها فقير ولا توجد أيّ مشاريع انمائية أو اقتصادية كبيرة تستقطب السكان إلى المدينة كما أن المحافظة تعتبر من أكثر محافظات الجمهورية طاردة للسكان وأن أبنائها الذين عادوا من المهجر لم يتجهوا للمدينة بل أستقطبتهم مدن أخرى أكثر نشاطاً وبها خدمات ومجالات متعددة للعمل، فمدينة البيضاء تقع في وسط بيئي فقير لم يشجعها على النمو وتكوين مدينة كبيرة.

إن الزيادة الكبيرة في معدلات النمو فيما بين التعدادين لا شك أنها تسببت في الكثير من المشاكل خصوصاً في الضغط على الخدمات المتاحة والتسهيلات الأخرى والتي ظلت وراء الزيادة في عدد سكان المدن وسوف نرى ذلك بدراستنا هذه فيما بعد.

اختلاف نسبة الحضر بين محافظات الجمهورية

بسبب اختلاف تعريف المركز الحضري في التعدادين ولعدم ظهور بيانات تعداد ١٩٨٦ فإننا سوف نناقش توزيع سكان لحضر ونسبهم في كل تعداد على حدة وسوف نحاول أن نظهر الزيادة في نسبة الحضر وأسبابها بقدر الإمكان وذلك من خلال تحليل الجداول المتاحة التالية.

(جدول ٢) توزيع سكان الحضر في عواصم وخارج عواصم المحافظات ونسبة الحضر إلى المجموع الكلي للحضر في الجمهورية العربية اليمنية ١٩٧٥.

المحافظة	السكان المسجلين فعلاً في المحافظة	السكان الحضر في العاصمة	السكان الحضر خارج العاصمة	مجموع سكان الحضر	نسبة الحضر إلى مجموع الحضر
صنعاء	٨١٩٠١٠	١٣٥٦٢٥	٢١٠٠٠	١٥٦٦٢٥	٣٠,٥
تعز	٨٧٧٧٧٧	٧٩٧٢٠	١٠٧٤١	٩٠٤٦١	١٧,٦
الحديدة	٦٧٣١١٣	٧٢٨٩٥	٩٣٠٨٠	١٦٥٩٧٥	٣٢,٣
اب	٧٨٩٤٩٤	١٧٤٩٦	٢٦٩٦٩	٤٤٤٦٥	٨,٧
ذمار	٤٥٣٨٨٨	١٩٥٤٠	—	١٩٥٤٠	٣,٨
حجة	٣٩٤٨٢٧	٣٢٩٤	٤٩٠٢	٨١٩٦	١,٦
البيضاء	١٥٩١٢٩	١٠٤١٩	٩٢٠٧	١٩٦٢٦	٣,٨
صعده	١٥٨٤١٠	٣٨٠٦	—	٣٨٠٦	,٧
المحويت	١٧٥٥٠٩	٢٢٩٢	٢٠٨٠	٤٣٧٢	,٨
مأرب والجوف	٣٩١٢١	٢٩٢	—	٢٩٢	,٠٥
المجموع	٤٥٤٠٢٧٨	٣٤٥٣٧٩	١٦٧٩٧٩	٥١٣٣٥٨	٩٩,٨

المصدر: ١ ـ النتائج النهائية للتعداد العام للمساكن والسكان سنة ١٩٧٥.
٢ ـ بعض الإحصائيات للمراكز الحضرية الجهاز المركزي للتخطيط.

يتضح من الجدول أعلاه أن مجموع سكان الحضر في تعداد ١٩٧٥ بلغ ٥١٣٣٥٨ نسمة وكان نصيب عواصم المحافظات حوالي ٣٤٥٣٧٩ نسمة بنسبة تقدر بنحو ٦٧,٣٪ من جملة الحضر، ومعنى ذلك أن المراكز الحضرية خارج عواصم المحافظات تساهم بنحو ٣٢,٧٪ فقط.

ومن الجدول أيضاً بلغت درجة التحضر في الجمهورية حوالي ١١,٣٠٪ من جملة السكان المسجلين فعلاً.

ويلاحظ من الجدول أعلاه أن ثلاث محافظات في الجمهورية بلغت

نسبةالحضر فيها إلى مجموع الحضر أعلى من المعدل العام للحضرية، كما أن هذه المحافظات الثلاث تستقطب حوالي ٨٠,٤٪ من مجموع السكان الحضر في البلاد، وهذه المحافظات هي صنعاء تعز والحديدة حيث بلغت نسبة الحضر ٣٠,٥٪ و ١٧,٦٪ و ٣٢,٣٪ من جملة الحضر على التوالي. إلا أن سكان الحضر يتركزون في عواصم المحافظات الثلاث حيث يمكن ملاحظة ذلك من خلال أرقام السكان في عواصم المحافظات حيث نجد أن ٨٣,٥٪ من السكان الحضر في عواصم المحافظات يتركزون في المثلث الحضري صنعاء تعز الحديدة.

كما أن المدن الثلاث تساهم بنحو ٥٦٪ من جملة السكان الحضر في الجمهورية، إن هذا التركز الشديد للسكان الحضر في المدن الثلاث سببه عوامل عدة منها تاريخية واقتصادية واجتماعية وقفت وراء هذا الإستقطاب الكبير للسكان، فمدينة صنعاء عاصمة البلاد فيها التركز في الخدمات والأنشطةالاقتصادية الأخرى، ومدينة تعز تمثل العاصمة الثانية وبها الكثير من الصناعات والمؤسسات الحكومية ومنذ قيام الثورة كانت أكثر استقراراً وبعيداً عن حرب الجمهورية، والحديدة هي الميناء الرئيسي للبلاد ويتركز بها الكثير من الأنشطة الاقتصادية. أما بقية المحافظات فلا زالت نسبة الحضر فيها متدنية (انظر الجدول ٢).

وفي عام ١٩٨٦ تم تنفيذ التعداد الثاني للمساكن والسكان.

ومن خلال الجدول (٣) الذي يمثل توزيع سكان المراكز الحضرية في العاصمة وخارج العاصمة يمكن استخلاص الحقائق التالية:

١ ـ الزيادة الكلية في عدد سكان الحضر خلال فترتي التعدادين من ٥١٣٣٥٨ نسمة عام ١٩٧٥ إلى ١١٤٥٠٧٧ نسمة عام ١٩٨٦ أي تضاعف عدد سكان الحضر بالرغم من اختلاف التعريف بين التعدادين.

٢ ـ لا زالت عواصم المحافظات تسيطر على السكان الحضر في الجمهورية حيث تساهم بنحو ٧٩٪ من جملة السكان الحضر في الجمهورية وهذا يدل على صغر المراكز الحضرية خارج العواصم وقلة عددها.

٣ ـ تحتل مدينة صنعاء مركزاً متقدماً بالنسبة لمساهمتها في سكان الحضر بين العواصم وتبلغ هذه النسبة ٤٧,٢٪ تليها مدينة تعز ١٩,٦٪ ثم الحديدة ١٧,١٪ ومعنى هذا أن ثلاث عواصم تحتل ٨٣,٩٪ من مجموع الحضر في

(جدول ٣) توزيع سكان الحضر في عواصم وخارج المحافظات ونسبة الحضر أي المجموع الكلي للحضر في الجمهورية العربية اليمنية ١٩٨٦.

المحافظة	مجموع السكان	السكان الحضر في العاصمة العاصمة	السكان الحضر خارج العاصمة	مجموع سكان الحضر	نسبة الحضر إلى مجموع الحضر	درجة التحضر بين المحافظات
صنعاء	١٨٥٦٨٧٦	٤٢٧١٥٠	٢٢٠٠٧	٤٤٩١٥٧	٣٩,٢	٢٤,٢
تعز	١٦٤٣٩٠١	١٧٨٠٤٣	٣٤٧٣٥	٢١٢٧٧٨	١٨,٦	١٢,٩
الحديدة	١٢٩٤٣٥٩	١٥٥١١٠	١٢٠١٢١	٢٧٥٢٣١	٢٤,٠	٢١,٣
اب	١٥١١٨٧٩	٤٨٨٠٦	٣٦٤٤٥	٨٥٢٥١	٧,٤	٥,٦
ذمار	٨١٢٩٨١	٤٧٧٣٣	٤٥٧٣	٥٢٣٠٦	٤,٦	٦,٤
حجة	٨٩٧٨١٤	١٥٨٧٨	—	١٥٨٧٨	١,٤	١,٨
البيضاء	٣٨١٢٤٩	١٢٣٧٠	٢١٥٠٨	٣٣٨٧٨	٣,٠	٨,٩
صعدة	٣٤٤١٥٣	١١٧٥٩	—	١١٧٥٩	١,٠	٣,٤
المحويت	٣٢٢٢٦	٥١٦٦	—	٥١٦٦	٠,٥	١٦,٠
مارب	١٢١٤٣٧	١٤٥٧	—	١٤٥٧	٠,١	١,٢
الجوف	٨٧٢٩٩	٢٢١٦	—	٢٢١٦	٠,٢	٢,٥
المجموع	٩٢٧٤١٧٤	٩٠٥٦٨٨	٢٣٩٣٨٩	١١٤٥٠٧٧	١٠٠	١٢,٣

المصدر: ١ - النتائج الأولية للتعداد سنة ١٩٨٦، الجهاز المركزي للتخطيط.
٢ - المراكز الحضرية الأخرى الجهاز المركزي للتخطيط.

العواصم كلها. وبذلك تصبح بقية عواصم المحافظات محدودة في حجمها وعدد سكانها.

٤ - تساهم المحافظات الثلاث صنعاء والحديدة وتعز بحوالي ٨١,٨٪ من مجموع الحضر في الجمهورية، وهذا يدل على أن المحافظات الأخرى نسبتها محدودة في عدد السكان الحضر وتتقدم محافظة اب بقية المحافظات في النسبة (انظر الجدول ٣).

٥ ـ تختلف درجة التحضر بين المحافظات وكذلك على مستوى الجمهورية فقد بلغت درجة التحضر بالنسبة للجمهورية حوالي ١٤,٨٪ من مجموع السكان المسجلين فعلاً والبالغ عددهم ٧٧٢٩٢٣١ نسمة. إلا أن الأرقام الخاصة بالمحافظات بالنسبة للمسجلين فعلاً لم تظهر بعد فإن الرقم الموضح بالجدول يمثل درجة التحضر في الجمهورية لكل السكان.

٦ ـ اختلاف درجة التحضر بين المحافظات يعكس صورة التركز في مشاريع التنمية ومعدلات الهجرة الداخلية وزيادة الاستثمارات بالإضافة إلى الموقع الجغرافي واختلاف التوجيه الجغرافي والبعد الذي تحتله المحافظة من الناحية التاريخية والأهمية السياسية والاقتصادية والادارية. وقبل مناقشة الأسباب التي وقفت وراء هذا النمو الحضري السريع في هذه الفترة القصيرة والمشاكل المترتبة عن ذلك، سوف نشير إلى موضوع آخر يتعلق بالنمو المساحي للعمران في المدن الرئيسية التي تتوفر عنها بيانات حتى تكتمل الصورة بالنسبة للنمو الحضري سواء من حيث عدد سكان الحضر أو من حيث المساحة التي يحتلها المعمور في المدن الرئيسية.

الزيادة في مساحة العمران في المدن الرئيسية

إن الكثيرين من السكان الذين يعرفون المدن اليمنية الرئيسية قبل عشر سنوات يستطيعون اليوم التحدث عن ذلك التغيير والتطور الذي حدث لمدنهم من حيث المساحة وزيادة العمران فقط. والجدول التالي يوضح المساحات التي زادت في المدن الخمس الرئيسية من واقع تراخيص البناء منذ ١٩٧٣.

يتضح من الجدول (٤) أن المساحات التي تم بناؤها بموجب التراخيص بلغت حوالي ١٧٧٤,٣ هكتار في الفترة المذكورة وذلك لأغراض السكن. كان نصيب مدينة صنعاء ٥٧٪ من جملة المساحات المخصصة للسكن بموجب تراخيص البناء تلتها مدينة تعز ١٩,٤٪ من المساحة، أما بقية المدن فاختلفت فيها المساحات حسب أهميتها. (انظر الجدول ٤).

إن هذا النمو العمراني السريع والتوسع الأفقي الذي واكب هذا النمو يعود بدرجة كبيرة إلى مجموعة من العوامل نذكر منها ما يلي:

(جدول ٤) يوضح المساحات التي أضيفت إلى المدن الخمس الرئيسية بموجب تراخيص البناء ١٩٧٣ - ١٩٨٦.

المدينة	الزيادة في المساحة هكتار	النسبة إلى المجموع
صنعاء	١٠١٤,٨	٥٧,٢
تعز	٣٤٣,٥	١٩,٤
الحديدة	٢١٩,٠	١٢,٣
اب	١٢٤,٦	٧,٠
ذمار[١]	٧٢,٤	٤,١
المجموع[٢]	١٧٧٤,٤	٪١٠٠

(١) احتسبت الفترة من ١٩٨٠.
(٢) احتسبت المساحات من واقع عدد الرخص، الكتاب الاحصائي العام ١٩٨٧

١ - حداثة النمو الحضري والعمراني في الجمهورية العربية اليمنية إذ لم تشاهد البلاد نمواً حضرياً سابقاً لثورة ٢٦ سبتمبر.

٢ - تكوين نظام سياسي واقتصادي وإداري حديث وهذا من شأنه استقطاب العدد الكبير من السكان للعمل في المجالات المختلفة.

٣ - عودة العدد الكبير من المهاجرين إلى البلاد ولديهم بعض الأموال فاستثمروها في بناء وشراء العقارات.

٤ - الاتجاه نحو بناء العقارات كاستثمار تجاري بسبب قلة الأموال والخبرة الفنية في الاستثمارات الصناعية والمجالات الأخرى.

٥ - التطور السريع في نمو سوق العمل في المدن الرئيسية بسبب توفر فرص العمل في الخدمات والصناعات الخفيفة والإنشاءات والمباني.

٦ - تعتبر المدن مصدر جذب للهجرة الداخلية بسبب وفرة الخدمات والحياة البراقة ووسائل النقل الحديثة وفرص العمل والأمن الذي نتمتع به مقارنة بالريف.

٧ ـ وبحكم النشأة الحديثة للمدن اليمنية، فإن الاستثمارات خلال الخطط الاقتصادية الماضية وجهت نسبة كبيرة منها نحو المدن الرئيسية حيث لوحظ أن ١/٣ الاستثمارات ذهبت مباشرة إلى القطاعات الحضرية وأكثر من ١/٢ الاستثمارات وزعت بين الريف والحضر و ١٥٪ فقط من الاستثمارات الاقتصادية وجهت إلى الريف[٣٠].

النمو الحضري في الجمهورية وأسبابه.

لقد ظلت المدينة اليمنية في العهدين التركي والامامي عبارة عن مراكز إدارية وتجارية محدودة تقدم خدماتها لسكانها من حيث تلك الوظائف المحدودة، وتتبادل مع الريف المجاور بعض المنافع وكانت وظائفها الأخرى والمتمثلة في الخدمات الاجتماعية معدومة نهائياً وحتى الصناعات الحرفية التي كانت تقدمها حجمها محدود وصغير ويتناسب والطلب عليها، لذلك نجد أن نسبة من كانوا يعيشون في المراكز الحضرية حتى قيام الثورة عددهم محدود للغاية بالرغم من كبر حجم السكان، والسبب يعود إلى عدم وجود فرص عمل بهذه المراكز الإدارية ولا توجد خدمات تشجع السكان على البقاء فيها. لذلك فالهجرة اليمنية طوال هذا القرن ونهاية القرن الماضي لم تلجأ مباشرة للمراكز الإدارية باستثناء مدينة عدن التي بدأت بإستقطاب المهاجرين إليها بعد احتلالها ١٨٣٩ بسبب وجود بعض من فرص العمل في التحصينات العسكرية والانشاءات ووجود الميناء وبعض الأعمال اليومية الأخرى.

وبعد قيام الثورة تغيرت الصورة تماماً فبدأت المدينة اليمنية تجذب إليها السكان استجابة لذلك التغير الذي طرأ على نظام الحكم والنظام الاقتصادي والاجتماعي في البلاد، لهذا أصبحت الهجرة الداخلية مكوناً أساسياً للحضر في الجمهورية تشبة في ذلك الكثير من الدول العربية في الجزيرة العربية مع الفارق أن المهاجرين في دول الجزيرة العربية معظمهم من خارج هذه الدول لقلة السكان ولعدم توفر ريف حقيقي في هذه الدول، وقد بدأ النمو الحضري يتسارع خصوصاً في العقدين الأخيرين إذ قدر معدل النمو الحضري في الجمهورية عام ١٩٨٧ بحوالي ٩,٤٪ تقريباً[٣١] وهي نسبة كبيرة تشبه نفس النسب التي مرت بها دول البترول في شبه الجزيرة العربية في نهاية السبعينات، كما أن هذه النسبة المرتفعة في المدن تختلف عن نسبة النمو السكاني في الجمهورية والتي بلغت

١ , ٢٪ تقريباً[٣٢] وهكذا نجد أن السبب الرئيسي للنمو الحضري الكبير يعود إلى الهجرة الداخلية خصوصاً في المدن الرئيسية.

وفي إحدى الدراسات حول تعداد ١٩٧٥ اتضح أن الهجرة الداخلية ساهمت بنحو٨ , ٦٣٪ من نمو المدن الرئيسية بينما كان نصيب النمو الطبيعي لا يتعدى ٢ , ٣١٪ من مجموع السكان[٣٣].

ساعدت مجموعة من العوامل الأخرى على الهجرة من الريف إلى المدن وبالتالي أدت إلى ذلك التركز الحضري في المدن الرئيسية وخصوصاً صنعاء تعز والحديدة والتي تشكل معاً المثلث الحضري في البلاد حيث تمثل رؤوسه المدن الثلاث وأضلعه الطرق الرئيسية التي تربط هذه المدن معاً. كما أن شق الطرق ابتدأ من ١٩٦٢ لربط الجمهورية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وعلى طول السهل التهامي كان له أكبر الأثر في التركز السكاني على طول الطرق هذه (خريطة رقم ١).

ويعتبر العامل التاريخي أحد العوامل لهذا التركز، فصنعاء من أقدم المدن اليمنية وعاصمة البلاد وحاضرة تجارية تتوسط البلاد، ومدينة تعز هي العاصمة الثانية ومركز تجاري هام في الجزء الجنوبي من الجمهورية، ومدينة الحديدة الميناء الرئيسي لليمن منذ القدم وتمثل حاضرة الجزء الغربي من البلاد، بالإضافة إلى المراكز الحضرية الأخرى التي كان لها دور تاريخي أو كانت مركزاً دينياً أو سياسياً. إلخ (الخريطة رقم ٢).

ويعتبر النشاط الاقتصادي وتركزه في هذه المدن الثلاث وكذلك التجارة والخدمات والبيوت المالية والفنادق الكبيرة والاستثمارات في المجالات الصناعية والعقارية وغيرها كل ذلك ساعد على جذب أعداد كبيرة إلى المدن الرئيسية، وبالمقابل النمو السكاني وزيادة عدد السكان في الريف وضيق الأراضي الزراعية وعدم وجود مشاريع زراعية في البداية. وتدني أسعار المنتجات الزراعية والتغيير في العادات وعدم وجود فرص عمل في الريف كانت الدافع وراء تلك الهجرة سواء منها الخارجية أو الداخلية، وتعتبر الهجرة الداخلية في الوقت الحاضر عامل أساسي في النمو الحضري وزيادة العمـران في المدن الرئيسية.

كما أن عودة المهاجرين اليمنيين (وبما لديهم من مدخرات وخبرات) لم

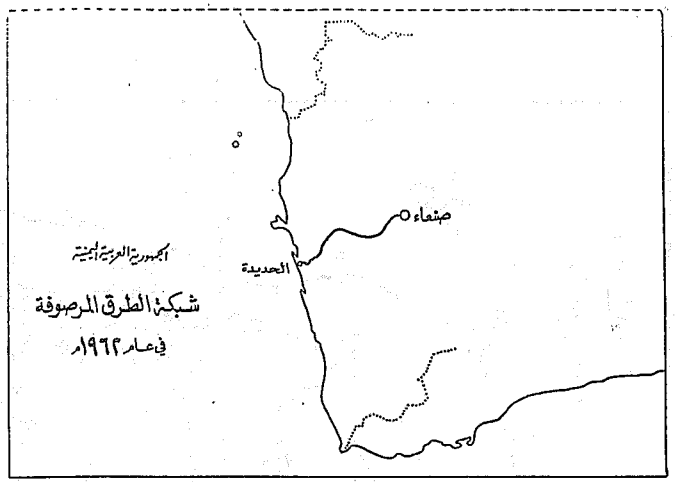
صنعاء
الحديدة
الجمهورية العربية اليمنية
شبكة الطرق المرصوفة
في عام ١٩٦٤م

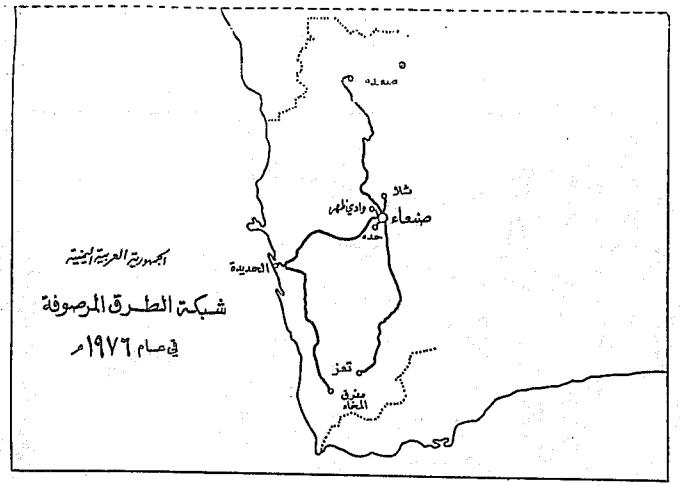
صعده
شلا
وادي ظهر
صنعاء
حده
الحديدة
تعز
مخا
الجمهورية العربية اليمنية
شبكة الطرق المرصوفة
في عام ١٩٧٦م

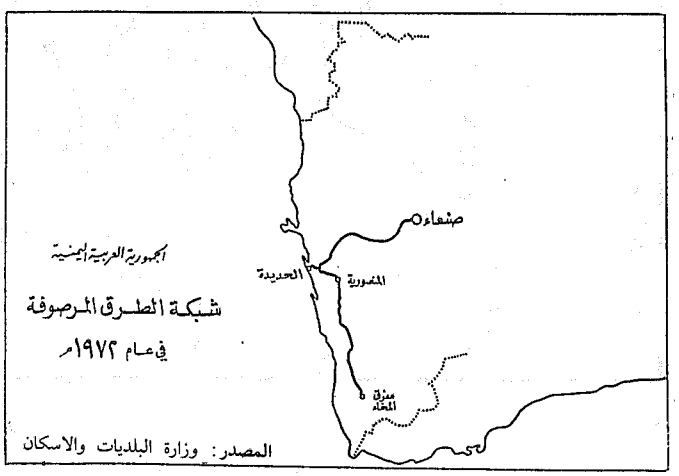
صنعاء
الحديدة
المنصورية
مخا
الجمهورية العربية اليمنية
شبكة الطرق المرصوفة
في عام ١٩٧٢م
المصدر: وزارة البلديات والاسكان

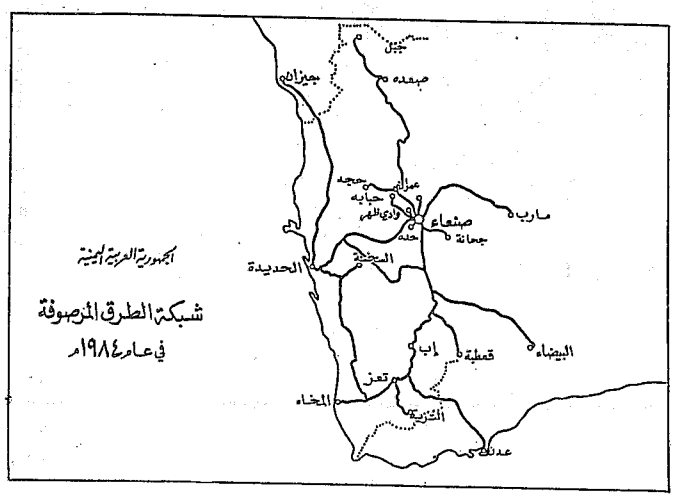
جيزان
صبعده
حجه
عمران
حبابه
وادي ظهر
صنعاء
حده
مارب
جحانة
الحديدة
المخا
إب
قعطبة
البيضاء
تعز
الشريف
عدن
الجمهورية العربية اليمنية
شبكة الطرق المرصوفة
في عام ١٩٨٤م

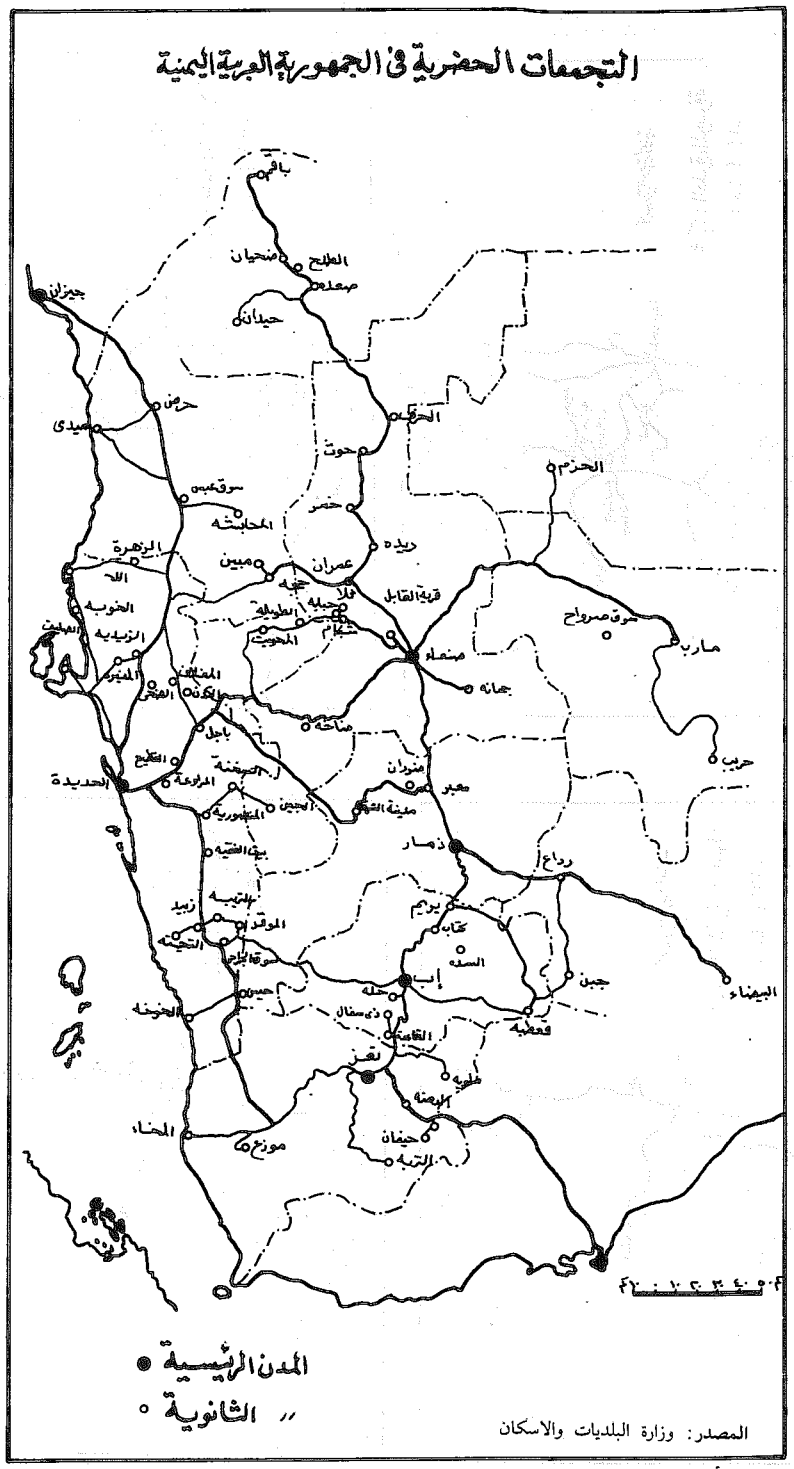
التجمعات الحضرية فى الجمهورية العربية اليمنية

المصدر: وزارة البلديات والاسكان

يتمكنوا من البقاء في الريف وطابت الإقامة لهم في المدن حيث تمكن الكثير منهم من فتح محلات تجارية أو محلات مهنية فنية خاصة بهم بالإضافة إلى الحياة التي ألفوها في المهجر وهي غير متوفرة في الريف اليمني.

أما مدينتي الحديدة وتعز فقد شهدتا التطور الاقتصادي والعمراني منذ وقت مبكر بسبب بعدهما عن مسرح حرب الجمهورية مما أتاح للمدينتين النمو السريع عن بقية المدن الشمالية والتي كانت مسرحاً لتلك الحرب وهكذا نجد أن النمو الحضري في العقدين الأخيرين زاد زيادة كبيرة وقد اختلفت هذه الزيادة بين عواصم المحافظات وبقية المراكز الحضرية الأخرى.

الخلاصة:

مرت اليمن بعدة مراحل من التطور الحضري استجابة لتلك الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي عاشتها طوال تاريخها القديم والوسيط والحديث والمعاصر، وبالرغم من الخصوصية التي تحتلها اليمن من حيث البناء الجبلي والهضبي والسهلي والقبلي والتشتت العمراني وضيق المساحة الزراعية وتوزعها على المدرجات، إلّا أن تعدد المراكز الحضرية ونموها السريع وزيادة درجة الحضرية سوف يضع على أجهزة التخطيط عبئاً ثقيلاً بما تتطلبه هذه المراكز الحضرية من خدمات وفرص عمل ووسائل ترويح وحدائق عامة وغيرها.

إن النمو الحضري سوف يستمر بسبب قوة الطرد الموجود في الريف وقوة الجذب النسبية في المراكز الحضرية وخصوصاً المدن الرئيسية والتي تزداد اتساعاً مع بداية كل يوم جديد. إن هذا التسارع في النمو الحضري سببه هجرة السكان من الريف إلى المدن بحثاً عن فرص اقتصادية وحياة أفضل لا تتوفر في الريف.

إن التحضر في الجمهورية لم يكن نتيجة للتقدم الصناعي والانتاجي وإنما كما أشار أحد الباحثين «بأنه مرتبط بالاقتصاد الحرفي والتجاري وليس إنتاجي الأمر الذي ترتب عليه أيضاً هجرة داخلية كيفية (تجارية خدماتية) أدت إلى تغليب الجوانب الكمية على الكيفية في عملية التحضر بحيث عملت في كثيرٍ من الحالات إلى تريف Ruralisation المدينة بدل العكس[٣٤]. أنه يصعب توقف الحضر، وفي نفس الوقت هذا غير مرغوب، ولكن الهدف هو تأمين أكثر عقلانية لتوزيع الاستثمارات وفرص العمل والخدمات والمراكز الحضرية المخططة والمعتمدة على

التطور والتخطيط الاقليمي حتى نتمكن من خلق توازن حضري وسكاني بين أقاليم الجمهورية. وهذا يتطلب وضع استراتيجية حضرية تعتمد على البيئة المكانية والمورفولوجية وتسعى لتطبيق التكامل في تطوير المراكز الحضرية والذي يكون منسجماً مع التطور والتكامل في الريف وهذا سوف يجنبنا عدم التوازن في التجمعات الحضرية والتي إذا لم نتنبه من الآن سوف تقع في مخاطر شهدتها كثير من المدن العربية.

إن مدينة تعز استنفذت الأراضي السهلية والزراعية ولا بد من تحديد مناطق خاصة للتوسع الصناعي والسكني لتمثل ضواحي خاصة بالدمينة. ومدينة حجة الجبلية ابتعدت المدينة بحثاً عن أراضي سهلية للبناء مما جعلها تنمو ويزداد عدد سكانها بدرجة كبيرة فيما بين التعدادين، بالرغم من حداثة الحضرية في البلاد إلا أنها حققت نسباً طيبة من حيث التوسع العمراني والتركز السكاني مقارنة بالكثير من الدول.

إن عواصم المحافظات الشرقية والشمالية تحتاج إلى اهتمام أكبر في مجال فرص العمل والخدمات حتى تخفف الضغط على بقية المراكز الحضرية الأخرى.

ويلاحظ على التحضر والحضرية في الجمهورية السبق في العمران والاتساع مما جعل الخدمات تقف بعيداً عن ملاحقة ذلك التوسع السريع.

الهوامش:

(١) WENDELL PHILLIPS, Qataban and Sheba, London, 1955, p. 23.
(٢) SMAILES A.E., The Georgraphy of Towns, London, 1970, p. 9.
(٣) MUMFORD LEWIS, The City in History, London, 1961, p. 125.
(٤) مطهر علي الأرياني، حول الغزو الروماني، دراسات يمنية، العدد الخامس عشر، فبراير/مارس، صنعاء ١٩٨٤، ص ٥٢.
(٥) يوسف عبد الله، المدينة اليمنية التاريخية الموقع والتاريخ، مجالات تخطيط المدن الثانوية، وزارة البلديات والإسكان، صنعاء ١٩٨٧، ص ٧٩.
(٦) WILSON RODNEY, The Economies of the Middle East, London 1979, p. 121.
(٧) محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، بيروت ١٩٧٣. ص ١٦٦.
(٨) يوسف عبد الله، مرجع سابق، ص ٨٠ ـ ٨١.
(٩) محمد عبد القادر بافقيه، مرجع سابق، ص ١٦٧.
(١٠) CLEMENTS, F. A., Oman the Reborn Land, London, 1980, p. 28.
(١١) يوسف عبد الله، مرجع سابق، ص ٨٤.

(١٢) نفسه، ص ٨٤.
(١٣) محمد عبد القادر بافقيه، ص ١٧٨.
(١٤) نفسه، ص ١٨١.
(١٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الديبع، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي، صنعاء ١٩٧٩، ص ٣٥.
(١٦) محمود علي عامر، اليمن من خلال لائحتي محمد خليل أفندي، مقال غير منشور، ألقي في الأسبوع الثقافي الأول لكلية الآداب، جامعة صنعاء ١٩٨٨، ص ٢.
(١٧) نفسه، ص ٨.
(١٨) نفسه، ص ٢٥.
(١٩) براور، ك. خ. آكيرانيان (تعريب)، اليمن في أوائل القرن السابع عشر، ليدن ١٩٨٨، ص ٨٥.
(٢٠) GAVEN, R. J., Aden Under British Rule 1839 - 1967 London 1975, p. 15 - 18.
(٢١) محمود علي عامر، مرجع سابق، ص ٢٦.
(٢٢) نفسه، ص ٢٦.
(٢٣) أحمد القصير، عوامل الهجرة في اليمن، دراسات يمنية، صنعاء، العدد ٨، ٩، يونيو- يوليه ١٩٨٢، ص ٦٣.
(٢٤) CENSUS of INDIA, Vol. 3 Aden Report and Tables, Bombay Presidency, 1931.
(٢٥) EUROPA PUBLICATION, The Middle East, London 1958.
(٢٦) ندوة عن تقييم إدارة البيئة واقتراح تنظيم مؤسساتها، الجمهورية العربية اليمنية، ٢٥ نوفمبر- ٢ ديسمبر ١٩٨٦، ص ٤١.
(٢٧) الجهاز المركزي للتخطيط، النتائج النهائية للتعداد العام للمساكن والسكان، فبراير ١٩٧٥، ص ٢٠.
(٢٨) محمد الزعبي، الهجرة الداخلية في الجمهورية العربية اليمنية، دراسات يمنية، العدد ٣٤، أكتوبر- نوفمبر، ديسمبر ١٩٨٨، ص ١٣٣.
(٢٩) حسبت درجة النمو الحضري بناء على المعادلة التالية(*).
(٣٠) Ministry of Municpality and Hausing Report about the Regional Development in Y.A.R. and Recommendations for a Regional Planning Concept. Sanàa 1982, p. 18.
(٣١) عبد العزيز السقاف، التنمية الحضرية في الجمهورية العربية اليمنية، دراسة ميدانية تحليلية ومسح بالعينة لعشر مدن ثانوية، صنعاء ١٩٨٧، ص ١٩.
(٣٢) الكتاب الاحصائي السنوي، الجهاز المركزي للتخطيط سنة ١٩٨٧.
(٣٣) عمر أكبر، الجوانب الاقتصادية للمدن الثانوية، وزارة البلديات والاسكان. ص ٢٤، (جدول ١٠١).
(٣٤) محمد الزعبي مصدر سابق.

---

* لوك ٢ ـ لوك ١ حيث ك ٢ التعداد الأحدث، ك ١ التعداد الأقدم، ن الفترة الزمنية، فتحي محمد أبو عيانة. مدخل إلى التحليل الاحصائي في الجغرافيا البشرية، دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٨٨، من ص ٢٣٨، ص ٢٤٠.

$$\frac{\text{لوك ٢ ـ لوك ١}}{\text{ن} \times ٤٣٤٣}$$

تطور مفاهيم ومناهج الجغرافيا

الدكتور شاكر خصباك
الأستاذ في قسم الجغرافية

الموقف من الجغرافيا:

إن الموقف من الجغرافيا متباين؛ فهناك من يحب الجغرافيا ويعجب بها، وهؤلاء ينظرون إليها كمفتاح لمعرفة العالم. وهناك من ينفر منها ويعتقد أنها علم صعب غير جذاب ينطوي على دراسة المعلومات عن الصخور والجبال والأنهار والبحار والعواصم والمدن. غير أن هناك أسباباً عملية أخرى للنفور من الجغرافية لا تعود لطبيعة دراستها بل للأسلوب الخاطىء في تدريسها. والواقع أن الجغرافية قد عانت كثيراً - ولا تزال - من طريقة تدريسها وخصوصاً في المدارس الاعدادية والثانوية، وهي الطريقة التي تعتمد على الاستظهار، ويبدو أن هذا الأسلوب هو الذي كان مطبقاً في تدريس الجغرافية في الدول الغربية طيلة العهود الماضية بل لغاية أوائل القرن العشرين. ولقد وصف هذا الأسلوب أحد الباحثين الانجليز في نهاية القرن الماضي (وبالذات حوالي عام ١٨٨٠) وهو الأستاذ جلبرت حيث قال: (لم يكن ثمة واجب أشد جفافاً ومشقة يمكن أن يُسند إلى أسوأ المجرمين من واجب دراسة مجموعة من الكتب الجغرافية المدرسية التي كُتب لأبنائنا أن يدرسوها في مدارسنا. فتلك الكتب تشتمل على صفحات عديدة من الجداول، جداول الارتفاعات وجداول المساحات، جداول الجبال وجداول الهضاب. وتبدو هذه الجداول كأنها مسائل رياضية، مع أنها في الحقيقة تقارير عن السكان. وهذه الجداول مرتّبة في نظام هجائي، وأحياناً بغير نظام على الاطلاق. كما أنها تمثّل الفواصل الوحيدة في أكوام المعلومات المبعثرة في فوضى والتي يطلق عليها اسم

«حقائق جغرافية»، وما هي في الواقع سوى أسماء أنهار وأسماء جبال وأسماء بلدان وأسماء مدن؛ كومة من المعلومات قد رُتِّبت بالكاد في شكل لغوي بواسطة الأفعال والأسماء، ونُقطّت بعبارات منعزلة حول التعدين هنا وغزل القطن هناك، وهو ما يطلق عليه اسم «الجغرافية الصناعية». إن كتباً من هذا النوع - إن كان بالامكان تسميتها بالكتب» - هي في الحقيقة امتحان للذاكرة، بل وامتحان عسير)[1].

وهناك سبب آخر لعدم الإقبال على دراسة الجغرافية وهو الجهل بطبيعة الدراسات الجغرافية، وقد لا نعجب أن يكون الأمر كذلك في بلداننا، لكن الحال كذلك حتى في بلد غربي كالولايات المتحدة. يقول الأستاذ برستون جيمس PRESTON JAMES في أحد كتبه: (إن حقل الجغرافيا معروف بدرجة ضئيلة للجمهور العام أو للعاملين في الحقول الأخرى. وبالرغم من أن عدد الجغرافيين المدرّبين في تنام مستمر، كما أن الطلب عليهم في تزايد فإن الغالبية من الأميركيين مثلاً لا يزالون يمتلكون فكرة غامضة عما يدرسه ويفعله الجغرافيون)[2].

الجذور التاريخية لحقل الجغرافيا:

لقد أوضحنا أن أسلوب تدريس الجغرافيا والجهل بمحتواها الحقيقي مسؤولان إلى حدّ كبير عن عدم الاقبال على دراستها، غير أننا ينبغي أن نعترف أن «الجغرافية» نفسها مسؤولة عن هذا الموقف أيضاً، ذلك لأنها عجزت حتى اليوم عن أن تُبلور لها شخصية واضحة محدّدة شأنها شأن بقية العلوم الصرفة والإنسانية، ولا تزال متأرجحة في مفاهيمها ومناهجها. وقد يسأل سائل: هل يعود سبب ذلك يا ترى إلى كونها علماً حديثاً لم تتوفر له الفرصة الكافية بعد للنضوج؟!

والجواب على هذا التساؤل هو أن الجغرافيا قد تكون من أقدم فروع المعرفة التي عمل الإنسان على اكتسابها. ونحن الجغرافيين نتمسك بهذا الرأي من منطلق واضح وهو أن الإنسان جغرافيّ بطبعه، وأن أول معرفة حاول اكتسابها بالفعل هي المعرفة الجغرافية بالمعنى الصميمي لكلمة «جغرافيا» Geographia . فمن المعلوم أن كلمة «جغرافيا» هي كلمة لاتينية ابتكرها أحد علماء اليونان لعله الجغرافي المشهور اراتوستينس (اراطوسطيني). وهي تتألف من مقطعين هما Geo ومعناه «الأرض» و Graphia ومعناه «وصف» أو «أصف». وبالتالي فإن معنى كلمة «جغرافيا» هو وصف الأرض وتتطلب هذه المهمّة بالطبع التعرف على «المكان».

ومما لا شك فيه أن الإنسان منذ ظهر على سطح هذا الكوكب وهو يحاول استكشافـه، بدءاً من الغابة أو السهل أو الجبل في محيطه الصغير، وانتهاءاً بمحاولاته لاستكشاف البلدان والقارات والمحيطات. وكان يحدوه في محاولاته هذه عاملان: عامل اقتصادي يتمثل في أبسط صوره بالبحث عن الطعام وفي أوسع غاياته بالبحث عن الثروات، وعامل غريزي وراءه ما جُبل عليه الإنسان من فضول وحب استطلاع. ولولا هذان العاملان ما كشفت مجاهل الأرض ولما قدّم البشر في سبيل ذلك من تضحيات لا حصر لها ومشاق تجلّ عن الوصف. ومنذ البداية حاول أن يسجّل معرفته الجغرافية بأداة حاذقة ما تزال تعتبر من أهم أدوات المعرفة الجغرافية وهي الخارطة. وقد عثر الكابتن كوك في جزر بولنزيا على تخطيطات قديمة تمثل خرائط بدائية للاهتداء إلى مواضع معينة، كما اكتشف حديثاً رسم يرجع إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد وقد حفر على صخرة وهو عبارة عن خريطة لقرية كاملة وجدت في العصر الحجري الحديث بطرقها ومساكنها ومرافقها وسكانها وحيواناتها وحقولها(٣).

وتقدمت المعارف الجغرافية تقدماً حثيثاً خلال الحضارات القديمة ولا سيما أثناء الحضارتين العراقية والمصرية التي يرجع تاريخهما إلى ما لا يقلّ عن ستة آلاف عام. وتضم المعرفة الجغرافية في هاتين الحضارتين ـ فيما تضمّ ـ المعرفة الكونية فضلاً عن المعرفة بالأرض، وبالتالي فقد كان علم الفلك جزءاً أساسياً من المعرفة الجغرافية، ولدينا حتى اليوم فرع من فروع الجغرافية نطلق عليه اسم «الجغرافية/ الفلكية». هذا بالرغم من أن «علم الفلك» الحديث قد أصبح علماً تطبيقياً صرفاً أساسه الرياضيات ويُدرس ضمن كليات العلوم. وأما الجوانب الأخرى للمعرفة الجغرافية فهي معرفة البلدان وأبرز تقنياتها استخدام الخارطة، وقد حققت الحضارتان المذكورتان في كل من هذين الميدانين تقدماً بارزاً. فلنضرب مثلاً بـ «الخارطة» وهي جزء لا ينفصم من وظيفة الجغرافية، بل هي أداة الجغرافي الأولى، فلقد عثر علماء الآثار على خرائط بابلية عديدة يكاد يتمثل فيها أهم خصائص الخرائط الحديثة من تأكيد على الاتجاهات وتعيين للظواهر الطبوغرافية واهتمام بالحدود بل حتى واستعمال للألوان، ولعل أبرزها الخارطة المسماة «خارطة العالم البابلية». وهناك خريطة أخرى لمدينة نفرّ، وخارطة ثالثة تسمى «لوحة جاسور» يحتفظ بها في متحف الساميات بجامعة هارفارد كاحدى مقتنياته الثمينة(٤).

كذلك عثر الباحثون على خارطة مصرية قديمة يعود تاريخها إلى عام (١٣٢٠) قبل الميلاد وهي توضّح موقع أحد مناجم الذهب في النوبة وقد صُوّرت فيها أهم معالم المنطقة من مبانٍ وطرق وأنهار وجبال[٥].

أما ما يخص علم الفلك فقد حقّق فيه العراقيون والمصريون القدماء تقدّماً عظيماً. ويقول العلاّمة بريستد بهذا الصدد: (لقد أنجز الكلدانيون أول سلسلة طويلة للأرصاد الفلكية وحقّقوا أول الوثائق ذات القيمة في الدراسات الفلكية. وبناء على هذه الأرصاد تمكن العالم الكلداني نبوريمانو (حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد) أن يضع جداول لتحركات الشمس والقمر سجّل فيها حسابه للوقت الذي يستغرقه هذان الجرمان السماويان في دورتهما اليومية والشهرية والسنوية، كما أرّخ أيضاً وقت كسوف الشمس وخسوف القمر وأوقات حدوث بعض الأحداث الفلكية الهامة. وقد حسب طول السنة بثلاثمائة وستين يوماً وستّ ساعات وخمسين دقيقة وواحد وأربعين ثانية، ويعتبر هذا الجدول الزمني أقدم بحث علمي ذي قيمة انشائية في علم الفلك، وقد حوى عظمة لم يصل إليها العقل البشري من قبل، لا سيما وأن حسابات نبو ريمانو قاربت الصواب إلى حدّ يدعو إلى الدهشة)[٦].

كذلك توصل المصريون القدماء إلى وضع أول تقويم شمسي في العالم يرجع تاريخه إلى ما يزيد على ستة آلاف عام (حوالي عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد) وقد حدّدوا السنة فيه بـ (٣٦٥) يوماً[٧].

وهكذا نرى أن المعرفة الجغرافية بمعناها الواسع كانت متقدمة منذ وقت مبكر جداً. أما إذا أردنا أن نتحدث عن المعرفة الجغرافية بمعناها العلميّ المحدّد فلن يكون عمرها أقلّ من ألفي عام، وفي هذه الحالة يمكن القول أنها بلغت شأواً بعيداً حقّاً على أيدي اليونانيين القدماء منذ القرن الخامس قبل الميلاد. والحقيقة أن الجغرافية كانت من أبرز علوم اليونانيين القدماء وقد رفدها فلاسفة وجغرافيون عظام لا نزال نقرأ كتبهم ونعجب بآرائهم وندهش لمعرفتهم الواسعة عن العالم القديم وعن الكون، ولعل أبرزهم أرسطو وهيرودوت وأراتوستيني وسترابو وبطليموس وبليني وهيبارخس إلى غيرهم من عشرات الأسماء اللامعة[٨]. وبعد أن ضعف الاهتمام بالجغرافيا إثر اندثار الحضارة اليونانية منذ تبنّي الامبراطورية الرومانية الديانة المسيحية في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي تلقّى العرب والمسلمون شعلة

الجغرافيا وحافظوا عليها مضيئة وهّاجة لقرون عديدة بما رفدوها من كتب لامعة في علم الفلك وتقويم البلدان، وإن الوقت ليضيق بنا عن تعداد أسماء أولئك المؤلفين اللامعين، ولكن يكفينا القول أن على رأسهم الشريف الادريسي الذي ما زالت خارطته محطّ إعجاب الجغرافيين الأوروبيين فضلاً عن المسعودي والبيروني والمقدسي والاصطخري وابن حوقل وأبو الفدا والدمشقي وغيرهم الكثيرون. ويتفق الباحثون على أن الجغرافيا والفلك كانتا من الأركان الهامة للحضارة العربية الإسلامية[٩].

تطور أهداف ومناهج الجغرافيا:

قد يتساءل البعض؛ ما دامت الجغرافية قد لقيت مثل هذه الحظوة منذ آلاف السنين فما بالها ظلت متعثرة حتى اليوم وفشلت في بلورة شخصية واضحة محدّدة متفّق عليها في المضمون والمنهج؟

وجوابي على هذا التساؤل أن هذا الفشل يكمن في حقيقة هامة جداً تتصّل بصلب الجغرافيا وهي أنها كانت منذ البداية علماً «غائيّاً» (نفعيّاً) وبالتالي فقد خضعت نتيجة لذلك لاحتياجات العصور عبر تطوّرها الطويل. ولهذا نجد أن الجغرافيا كانت خلال العصور تنقل اهتماماتها من حقل إلى آخر حسب حاجة العصر. وقد خضعت خلال عمرها الطويل لـ «الغايات» التالية التي شكّلتها بأشكال متنوعة (وأقصد بذلك وجّهتها للاهتمام بأمور معينة). وهذه الغايات كانت حسب التسلسل الزمني هي التالية:

١ ـ **التوسع السلطوي**: وتمثل في دول الامبراطوريات القديمة التي كانت تهتم اهتماماً خاصاً بالاستحواذ على البلدان المجاورة لها. وبالتالي فقد مثّل ذلك بداية للكشف الجغرافي المحدود والتعرّف على جهات ارض.

٢ ـ **الفضول الديني**: وتمثل في الاتجاه لمعرفة الكواكب والنجوم وتحركاتها وسبر أغوار ذلك لارتباطها بفكرة الآلهة ولتلمسّ آثارها على البشر، وكان ذلك بداية لنشوء علم الفلك.

٣ ـ **المكاسب التجارية**: وتمثّل ذلك فيما سمّي ببداية عصر الاستعمار والذي ترافق مع مرحلة عصر الكشف البحري العظيم والاهتمام عموماً بالكشف عن مجاهل

الأرض للاستئثار بثرواتها.

٤ ـ **نموّ الروح القومية**: وتمثل هذا الاتجاه الذي ترسّخ منذ نهاية القرن الثامن عشر بالاهتمام بالجغرافيا الاحصائية والجغرافية السياسية التي تعنى بتحديد حدود الكيانات السياسية وبكل ما يتعلق بمساحاتها وسكانها ومدنها.

٥ ـ **ازدهار العلوم الطبيعية**: وتمثل هذا الاتجاه بمحاولة مواكبة الفكر الجغرافي للاتجاهات العلمية الحديثة في البحث العلمي التجريبي والاهتمام بالقوانين العلمية وبالتحليل والتعليل، وبالتالي أكسب الجغرافية صفتها العلمية الكلاسيكية.

وبناء على هذه التقلّبات في الانتفاع بالجغرافية تقلّبت مفاهيم ومناهج الجغرافية، لذلك نرى أنها مرّت بالمراحل التالية خلال تطورها، وكل مرحلة منها تركّز على مفهوم ومنهج خاص بها.

أولاً ـ الجغرافيا الوصفية: وهي التي تمثّلها كلمة (جغرافيا) الأصلية والتي تُعنى بوصف الأرض وتقديم المعلومات عنها. وقد ازدهرت هذه المرحلة من عمر الجغرافية منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

ثانياً ـ الجغرافية الفلكية: وهي المرحلة التي عنيت فيها الجغرافية بدراسة المساء وما فيها من كواكب ونجوم ومدى ارتباطها بالحياة على الأرض، ولا سيما ما يتعلق بالجانب المناخي والنباتي، وقد ازدهرت منذ القرن الثالث قبل الميلاد.

ثالثاً ـ الكوزموغرافيا: وهي المرحلة التي عُنيت بجمع المعلومات عن الكون عموماً ـ عن الكواكب والنجوم والمناخ والنبات والحيوان والأحجار النفيسة إلى آخر ما يهم البشر على الأرض. وقد ازدهرت منذ بداية القرون الميلادية ولا سيما في فترة تبنّي الامبراطورية الرومانية للديانة المسيحية.

رابعاً ـ الليسموغرافيا: وهي المرحلة التي عنيت فيها بجمع المعلومات عن الأرض بكل أنواعها وخصوصاً ما يتعلق بظواهرها الغريبة وتمثل خليطاً من المعلومات عن الأرض والإنسان، وهي امتداد للكوزموغرافيا مع التركيز على المعلومات الأرضية. وقد ازدهر هذا الاتجاه أثناء العصور المظلمة.

خامساً ـ الجغرافيا الملاحية (جغرافية الرؤوس والخلجان): وقد ازدهرت هذه

المرحلة منذ بداية القرن السادس عشر مرافقة لبداية عصر الاستعمار وعصر الكشف البحري العظيم. وكان الملاحون يومذاك بحاجة إلى معرفة طوبوغرافية السواحل ومسافاتها المائية والمواضع التي يستطيعون الحصول فيها على المياه العذبة والمؤونة والموانىء التي يمكنهم المتاجرة معها. لذلك حفلت جغرافية ذلك العهد بالمعلومات عن الرؤوس والخلجان والجبال والأنهار والموانىء، مع تطور في صناعة الخرائط كعلم يمكن بواسطته تحديد موضع واتساع الأراضي المكتشفة حديثاً بحيث يمكن تمثيلها في شكل خرائطي مناسب. وهكذا توصل ماركيتور لأول مرة في عام ١٥٩٦ إلى ابتكار مسقطه المشهورة، كما ازدهرت صناعة الكرات الأرضية والخرائط عموماً.

سادساً ـ الجغرافية السياسية: وقد ازدهر هذا الاتجاه في الجغرافية منذ أواسط القرن الثامن عشر وذلك نتيجة لنموّ الروح القومية في أوروبا وبروز دول على أساس قوميّ تهتم بحدودها السياسية وبالمعلومات عن السكان والمدن، وقد تأثرت الجغرافية في هذه المرحلة بعلم الاحصاء، حيث كان من المهم لإدارة هذه الوحدات السياسية توفر معلومات احصائية عن الولايات والأقطار والمناطق والمدن، ولم يكن يعنيها كثيراً طبيعة الاطار الطبيعي للوحدة السياسية.

سابعاً ـ الجغرافية العلمية الكلاسيكية: وهي المرحلة التي تمثل انتقال الجغرافية إلى الطور العلمي المبني على التحليل والتعليل وعلى تتبّع المحصلات المعقدة للسبب والنتيجة والقائمة على الملاحظة والاختبار. وقد ازدهرت هذه المرحلة منذ بداية القرن التاسع عشر على أيدي العالمان الألمانيان الكسندر فون همبولدت وكارل ريتر، وهي تعتبر بداية الجغرافية الحديثة، قد تأثرت الجغرافية، في هذه المرحلة تأثراً شديداً بازدهار العلوم الصرفة وعلى الخصوص بظهور نظرية دارون في كتابه (أصل الأنواع ـ ١٨٥٩) والتي ركّزت على فكرة تكيّف الإنسان لبيئته الطبيعية وتأثّره بها، وقد أخذت الجغرافية في هذه المرحلة تدرس الإنسان ونشاطاته دراسة عملية باعتباره يكوّن مجموعة من البشر تسكن مناطق خاصة في بيئات متنوعة ذات امكانات ومصاعب مختلفة، وهو يتفاعل معها باستمرار.

ثامناً ـ الجغرافية الكميّة: وقد ازدهر هذا الاتجاه في نهاية الخمسينات من هذا القرن على أيدي شورلي وهاجيت وهارفي وستودارت وجيزولم وغيرهم، وقد جذب

هذا الاتجاه الجغرافية جذباً حادّاً نحو أساليب العلوم الصرفة التي تعتمد على الاختبار التجريبي وعلى الأساليب والنظريات الرياضية والاحصائية وعلى القوانين الطبيعية الثابتة. وقد ابتعد هذا النهج الجديد بالجغرافيا عن الأساليب التقليدية ابتعاداً كليّاً مما جعل البعض يطلق على هذا المنهج الجديد في الدراسات الجغرافية اسم «الثورة الكميّة». ولا شك أن هذا النوع من الجغرافيا قد تأثر بثورة الكومبيوتر وسيطرته على الحياة العلمية والعملية، وكذلك بما حدث من تقدّم في علوم الفضاء[١٠].

مشكلات الجغرافية الحديثة:

وبعد أن عرفنا مراحل تطور الجغرافية، لا بد لنا من وقفة عند الجغرافية العلمية الكلاسيكية (ونحن نستعمل هذه التسمية لتمييزها عن الجغرافية الوصفية) وهي تمثل الاتجاه العلمي في الجغرافية الحديثة[١١]. وسنتناول في عجالة أبرز المشكلات التي تواجه الجغرافية الحديثة.

أولاً ـ مشكلة الاتفاق على مضمون الجغرافية الحديثة:

اتفق الجغرافيون منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر على أن تكون جغرافيتهم ذات طابع علمي لا وصفي، وهو أمر فرغوا منه منذ أواسط القرن التاسع عشر. وينبغي القول أنهم يدينون بهذا المفهوم العلمي للجغرافيين الألمان الروّاد وعلى رأسهم همبولدت وريتر. (وقد توفي كلاهما في عام ١٨٥٩). ومنذ ذلك العهد واجهت الجغرافية حيرة مقلقة وثارت أمامها أسئلة صعبة. ومن تلك الأسئلة: ما هي الوظيفة التي ينبغي أن تتبناها الجغرافية بمفهومها الجديد؟ هل تنصرف إلى دراسة الأرض فحسب؟! هل تقتصر على دراسة مظاهر التفاعل بين الأرض والإنسان؟ ما هي التقنيات التي ينبغي عليها توظيفها لخدمة أهدافها؟

ومنذ البداية تجاذب الجغرافية اتجاهان؛ اتجاه يرى أن على الجغرافية أن تركّز على الأرض، وآخر يرى على أن الجغرافية يجب أن تركّز على الإنسان، وما الأرض سوى مسرح له. وتتضح هذه الحيرة في ظاهرتين بارزتين.

الظاهرة الأولى: عدم الانفاق على تعريف واحد لمهمّة الجغرافية. فمن أمثلة التعاريف التي تداولها الجغرافيون في النصف الأول من هذا القرن هي:

- الجغرافية هي دراسة المجتمعات البشرية في علاقاتها مع بيئاتها.
- الجغرافية هي تفهّم الظاهرة البشرية في مساحة ما.
- الجغرافية هي علم التبيّؤ البشري.
- الجغرافية هي دراسة التباين المكاني للأرض.
- الجغرافية هي دراسة العلوم الطبيعية الخاصة بالأرض وبالتالي ينبغي تسميتها (أردكوند) Erdkunde .

الظاهرة الثانية: وهي انشطار الجغرافية إلى حقلين أساسيين كادا ينفصلان عن بعضهما وهما حقل الجغرافية الطبيعية وحقل الجغرافية البشرية. وهذا الأمر كان ولا يزال أهم مشكلة واجهت وتواجه الجغرافية الحديثة. فحقل الجغرافية الطبيعية أخذ يتبنّى تقنيات مشابهة لتقنيات العلوم الصرفة، معتمداً البحث التجريبي وابتكار القوانين الصارمة ومتّخذاً من الرياضيات أساساً له. والواقع أن فروع الجغرافية الطبيعية كعلم المناخ والجيومورفولوجيا وعلم التربة وغيرها أخذت تتباعد يوماً بعد يوم عن الأسلوب الكلاسيكي الوصفي وتتبنّى منهج العلوم الصرفة.

أما الحقل الثاني فهو حقل الجغرافية البشرية الذي ظلّ بالرغم من تغيّر مناهجه وأساليبه واتّخاذ أساليب قريبة من أساليب العلوم الصرفة (وخصوصاً اعتماده على النظريات الرياضية) محتفظاً باللمسة الإنسانية. . اللمسة التي لا تعتمد القوانين الطبيعية الصارمة بل تدخل في حسابها الرغبات والظروف البشرية المرنة المؤثرة في الأنشطة البشرية والاجتماعية.

إن هذا الانشطار قد استتبع حيرة أخرى وهي المتعلقة بالموضع الأكاديمي للجغرافية بين العلوم المختلفة. فهل تدرس الجغرافية ضمن كلية العلوم، أم ضمن كلية الآداب، أم منفردة لوحدها؟! وإذا ما استعرضنا موضع الجغرافية في الوقت الحاضر وجدنا فيه تنوّعاً عظيماً. فالبعض من الجامعات في أوربا وأميركا تدرسها ضمن كليات العلوم والبعض الآخر يدرسها ضمن كليات الآداب. وهناك من يدرسها ضمن كليات الاقتصاد. وهناك من يخصّص لها كلية لوحدها[١٢].

وانعكس هذا الانشطار على محتوى الجغرافية نفسها. فالحقل الطبيعي أخذ يتفرع بصورة مستمرة، وكل فرع أخذ يلد فرعاً آخر حسب التخصصات العلمية

الضيّقة. فالمناخ مثلاً أخذ يتوالد إلى (المناخ العام) و(المناخ التطبيقي) و(المناخ المحلّي).. الخ، وقل مثل ذلك عن بقية الفروع الطبيعية الأخرى.

أما الحقل البشري فكانت تفرعاته أكثر عدداً، وهو لا يزال مستمراً في التفرّع. فهناك الجغرافية السياسية والجغرافية الاجتماعية وجغرافية السكان والجغرافية التاريخية وجغرافية الحضر وجغرافية الري والجغرافية الزراعية وجغرافية الصناعة وجغرافية الطاقة والمعادن.. الخ الخ. وهكذا نلاحظ أن تفرعات الجغرافية بشقّيها الطبيعي والبشري باتت لا نهاية لها.

خاتمة ـ الجغرافية؛ إلى أين؟!

لاحظنا إذن أن الجغرافيا الحديثة قد قاست في مفاهيمها ومناهجها الحديثة من ظاهرة التوالد الخطرة. وقد أدت هذه الظاهرة إلى اتهامات خطيرة قد أخذت توجّه إلى الجغرافية والجغرافيين بسبب اعتمادهم في فروعهم الجديدة على علوم أخرى. فأخذ البعض يطلق عليهم اسم «اللقّاطة» قائلين إنهم يلتقطون معلومات من علوم أخرى ويضعونها جنباً إلى جنب ويسمّونها «جغرافيا»[١٣].. لكن الواقع أن هذه الاتهامات ظالمة وباطلة. صحيح أننا نقتبس معلومات من الاختصاصات الأخرى نظراً لاتسّاع وتنوّع المعرفة الجغرافية، لكن هذا أمر طبيعي، فالجغرافية تدرس كلاً من الأرض والإنسان اللذين تدرسهما علوم كثيرة. وليس معنى ذلك أن الجغرافية تكتفي بالاقتباس من تلك العلوم. فهي تنتقي المعلومات من الحقول العلمية الأخرى التي تدعم وجهة نظرها فحسب أو التي تعاونها بتقنياتها وحقائقها في هدفها النهائي. فدراسة الظواهر الطبيعية للأرض وشكل استثمار الإنسان لها لا تعتمد على خليط من المعلومات المقتبسة من حقول أخرى والموضوعة جنب بعضها بعضاً فحسب، بل تحاول أن تستنبط العلاقات الخاصة بين الظواهر الأرضية البشرية المتواجدة في مكان معيّن، وإن تفسير تلك الظواهر هي من اختصاص الجغرافي وحده. وكما قال البروفسور نورمان باي Norman Pye فإن الجغرافيا تتبنّى مهمة فحص الأشياء ككلّ في المكان، وإن الجغرافي يضيف إلى المعرفة البشرية شيئاً جديداً بواسطة منهجه الأقليمي الخاص بفحص ودراسة مكان معيّن[١٤]. وإذا كانت الحقائق عن الأرض والإنسان جاهزة لأيّ غرض علمّي فلا يمكن أن تعتبر الجغرافية (القّاطة) لكونها تستخدم تلك الحقائق المتصلة بفروعها للكشف عن الظواهر

الطبيعية والبشرية الخاصة بها ولغرض القيام بتفسير مجموعات تلك الحقائق المترابطة في المكان. فالجغرافية إذن ليست عبارة عن مجموعة شذرات علمية مبعثرة لا تمتّ إلى بعضها بعضاً بصلة بقدر صلة تلك الشذرات بعلوم أخرى. فهي لا تستعير شذرات من الجيولوجيا أو التاريخ أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو أيّ موضوع آخر وتحزمها مع بعضها بصرف النظر عن وحدات المكان والزمان، بل يقوم الإقليم الجغرافي (أو المكان) بربط تلك الشذرات ربطاً محكماً يلقي ضوءاً أعمق على واقع الظاهرة الطبيعية والبشرية.

أما ظاهرة توالد الجغرافية فقد تكون بالفعل ظاهرة تهدّد الجغرافيا بالتشتّت، غير أن الجغرافيا الأُمّ قد أثبتت حتى اليوم بأنها قادرة على الاحتفاظ بأبنائها. فما يزال علم المناخ مثلاً ضمن الدراسات الجغرافية وله قواعده وأصوله التي تختلف عن قواعد وتقنيات المترولوجيا، ومازالت الجيومورفولوجيا ضمن الدراسات الجغرافية وقواعدها وأصولها تختلف عن قواعد وأصول علم الجيولوجيا، وقل ذلك عن علم السكان والمدن والزراعة وغيرها من الدراسات الجغرافية التي تختلف عن نظيراتها في الحقول العلمية الأخرى كعلم الاجتماع والهندسة المعمارية وعلم الزراعة، غير أنني أؤيّد الأستاذ نورمان باي في رأيه بأن فروع الجغرافيا المتعددة ينبغي أن تصب جميعاً في بوتقة (الجغرافية الأقليمية) التي تهدف في النهاية إلى التعريف بـ (المكان) واكتشاف تعقيداته، ومن مجموع تلك الاكتشافات يتمّ الكشف عن (الأرض) و (العالم)[١٥]. فوظيفتنا الأساسية هي أن نجعل (الأرض) معروفة للإنسان، وإن مهمة الجغرافي الأساسية هي دراسة (الأماكن) أو (الأقاليم)، فنحن في الحقيقة أساتذة أو صانعو المعرفة الحقة عن الأرض، ويكفينا ذلك فخراً.

إذن فصفة التوالد في الجغرافيا ليست مضرّة ولا خوف منها على ضياع الجغرافيا «الأُمّ»، بل ستطيل من عمرها إلى ما شاء الله من السنين، ولا شك أن الجغرافية ستخرج من هذا التوالد بشخصية متميّزة واضحة عن طريق خدمة هدفها النهائي وهو (الأقليم).

وأخيراً لا بد من القول إن الجغرافيا في عقد السبعينات والثمانينات قد ثارت على المنهج الكميّ والرياضي وبدأت تنسحب نوعاً من مواضيع التحليل المكاني والمنهج الكميّ[١٦]. وظهرت مناهج حديثة حملت نوعاً من ردود الفعل تجاه المنهج

الكميّ العلمي الصرف ومالت في شيء من التطرف أيضاً نحو الاتجاهات الإنسانية ضمن الجغرافية البشرية. فظهر ما يسمى بـ (الجغرافية الراديكالية) التي تُعنى بمشاكل المجتمع وخصوصاً الطبقة المسحوقة منه، وكذلك الجغرافية المسماة بـ (الجغرافية الانسانية) وهي التي تُعنى بالدراسات في الادراك الحسّي والبحث في الحكمة الجغرافية Geosophy ، وكذلك العودة إلى الجغرافية كعلم إيكولوجي (بيئي) والاهتمام بالمفهوم الأقليمي.

ويمكن القول إن الاتجاهات الحديثة في الكتابة الجغرافية قد كثرت وتنوعت بل وابتعد البعض منها عن مفهوم الجغرافية بحيث دعت هذه الحال أحد الجغرافيين الأميركان الكبار إلى تعريف الجغرافيا بأنها: (ما يكتبه الجغرافي)! وقد تبدو هذه الصورة قائمة، لكننا مع ذلك متفائلين بمستقبل الجغرافيا ونعتبر هذا التوالد ظاهرة صحية تبشّر بمستقبل زاهر للجغرافية.

شاكر خصباك

الهوامش:

(١) أعلام الجغرافية الحديثة ـ ترجمة الدكتور شاكر خصباك ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ٧.
(٢) Preston E. James and Jeoffery J. Martin, All Possible Worlds, New York, 1981, p. 426.
(٣) الدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبي ـ البحث الجغرافي ـ القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٠.
(٤) الدكتور أحمد سوسة ـ العراق في الخوارط القديمة بغداد ١٩٥٩ ص ٦.
(٥) الدكتور صبحي عبدالحكيم وماهر الليثي ـ علم الخرائط ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٤.
(٦) جيمس هنري بريستد ـ انتصار الحضارة (ترجمة الدكتور أحمد فخري) ـ القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٣٥.
(٧) المصدر نفسه، ص ٧٤.
(٨) للتفصيل راجع كتابنا «تطور الفكر الجغرافي» ـ الكويت ١٩٨٧، ص ٢٩ ـ ٧٠.
(٩) للتفصيل راجع كتابنا ـ «في الجغرافية العربية ـ دراسة للتراث الجغرافي العربي» ـ الطبعة الثانية ١٩٨٩.
(١٠) Preston James, p. 404.
(١١) Hartshorne, Richard, The Nature of Geography, New York 1948, p. 49.
(١٢) الدكتور عبد الرزاق حسين ـ الاطار النظري للجغرافيا ـ بغداد ١٩٧٧، ص ١٧.
(١٣) أعلام الجغرافية الحديثة، ص ٣.
(١٤) المصدر نفسه ص ٢٥.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٥.
(١٦) Preston James, p. 226.

أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية

دكتور عبد الغني محمود عبد العاطي
قسم التاريخ

كان التاريخ السياسي والفكري في اليمن طوال العصور الوسطى غنياً بالأحداث المتلاحقة، والمتغيرات الفجائية التي أدت إلى إخضاع السكان لشكل من أشكال النظم الإدارية والمعتقدات المذهبية التي ربما لم يألفوها من قبل.

ولا شك أن الدولة الأيوبية في اليمن على الرغم من قصر عهدها قد أحدثت الكثير من المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الساحة اليمنية، ومهدت لقيام دولة بني رسول التي دامت أكثر من قرنين.

ويجد الدارس لتاريخ الأيوبيين في اليمن صعوبة بالغة في استقصاء الأحداث وتمحيصها وذلك لندرة المصادر التاريخية التي تتناول أحداث هذه الفترة. وظل «كتاب السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن»[1] هو المصدر الرئيسي لتاريخ الأيوبيين، وهو الكتاب الذي ألفه الأمير بدر الدين محمد بن حاتم المتوفي في أوائل القرن الثامن الهجري، وأرخ فيه للفترة ما بين ٥٦٩ ـ ٦٩٤ هـ. ويتضح من ذلك أن المؤرخ لم يكن معاصراً للوجود الأيوبي.

والمصدر الرئيسي الثاني هو كتاب «غاية الأماني في أخبار القطر اليماني»[2] للمؤرخ يحيى بن الحسين المتوفي سنة ١١٠٠ هـ تقريباً. وهكذا نجا أن بين المؤرخين فترة زمنية تقترب من الأربعة قرون، الأمر الذي يؤكد ندرة المصادر التاريخية. وقد وجدت بطبيعة الحال بعض المصادر الثانوية التي تناولت تاريخ هذه الفترة باختصار شديد، هذا بالإضافة إلى الكتب التي تناولت تاريخ أئمة الزيدية في

اليمن والتي عُني أصحابها بإظهار مناقب الأئمة أكثر من عنايتهم ببلورة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويعد كتاب «الحدائق الوردية»[٣] أهم هذه الكتب:

ومن الملفت للنظر أن كل هذه المصادر قد اعتمدت على مصدر مجهول في تأريخها لتلك الفترة، وغالباً ما نجد فيها هذه الجملة: «قال مؤلف سيرة الإمام»، أو «جاء في السيرة المنصورية»، دون الإشارة إلى اسم مؤلف هذه السيرة. ومن ثم فقد باتت الإستفادة من هذه السيرة والتعرف على كاتبها أمراً حيوياً، ولا سيما أنه لم يسبق لأحد من الدارسين المعاصرين الاعتماد عليها أو الاستفادة منها في أبحاثه.

ومنذ ثلاث سنوات كنت بصدد إعداد دراسة عن «عوامل الصراع بين الأيوبيين والإمام عبد الله بن حمزة». ومن ثم فقد بدأت البحث عن السيرة المنصورية، والإطلاع على الكتب المهتمة بمصادر التاريخ اليمني، فاهتديت إلى وجود أحد أجزاء هذه السيرة بالمكتبة الغربية في الجامع الكبير تحت رقم ١١٨ تاريخ وتراجم، والجزء الثاني من السيرة مصور على ميكروفيلم في مكتبة جامعة صنعاء، وهو صورة من النسخة الموجودة بمكتبة أمبروزيانا[٤].

إذن لمن تنسب هذه السيرة؟ أو بمعنى آخر، من الذي قام بتصنيفها للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة؟ خاصة أن كتب التراجم تؤكد على وجود أكثر من سيرة للإمام.

السيرة الأولى صنفها الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد الوليد القرشي، وهي سيرة لطيفة صغيرة، والسبب في كتابتها أن الإمام المنصور بالله عندما صنف كتابه الشافي قام بذكر أهل البيت كل إمام في مقابلة من عاصره من خلفاء بني أمية أو العباس، وترك ذكر نفسه فألحقه الشيخ بدر الدين بمن ذكر من أئمة آل البيت[٥].

السيرة الثانية صنفها الشيخ علي بن نشوان بن سعيد الحميري في أجزاء كثيرة، يقال إنها تصل إلى عشرة أجزاء، وهي سيرة حافلة عظيمة القدر يطلق عليها بعض المؤرخين اسم السيرة الكبرى أو الكبيرة[٦].

أما السيرة الثالثة فقد صنفها أبو فراس بن دعثم، ويعتقد بعض المؤرخين أن هذه السيرة اختصار للسيرة التي صنفها علي بن نشوان. ومن ثم فهم يطلقون عليها اسم السيرة الصغيرة[٧]. وأحياناً يطلق عليها اسم السيرة المتوسطة[٨].

وقد أضاف أحد الدارسين إلى هذه السير الثلاث، سيرة رابعة، لم ينسبها إلى أحد، ووضعها في مصادر ترجمة الإمام عبد الله بن حمزة على أنها سيرة مستقلة. ويقول أن الجزء الثاني منها موجود بمكتبة الجامع الكبير ضمن الكتب المصادرة[٩].

وإذا كانت السيرة التي ألفها بدر الدين محمد سيرة صغيرة لا تتجاوز عدة ورقات فإنه يجب استبعادها، لأننا بصدد البحث والكشف عن السيرة الكبرى أو السيرة المختصرة الصغيرة التي تقع في عدة مجلدات. كما اتضح أن السيرة الرابعة التي يوجد منها الجزء الثاني بالجامع الكبير إن هي إلا الجزء الثالث من السيرة المنصورية. ومن ثم فقد أصبح بين أيدينا الجزآن الثاني والثالث من السيرة المنصورية، وهما لمؤلف واحد، يؤكد ذلك أسلوب الكاتب وتتابع الأحداث التاريخية فيهما.

ويتبقى لنا أن نقرر ما إذا كان مؤلف هذه السيرة هو علي بن نشوان، وبالتالي تكون الأجزاء التي بين أيدينا أجزاء من السيرة الكبرى الحافلة، أم أن مصنفها هو أبو فراس بن دعثم، وبالتالي تكون الأجزاء التي بين أيدينا أجزاء من السيرة الصغرى المختصرة عن مصنف علي بن نشوان. ولكن قبل ذلك يجب أن نقرر أمراً هاماً، وهو أن العمل التاريخي الموجود بين أيدينا عمل أصلي، وليس اختصاراً لعمل آخر، يتضح ذلك من ذكر الكاتب لأدق التفاصيل ومن قربه من الأحداث، بل ومن مشاركته الشخصية فيها. كما أن مصادر معلوماته كانت من الأمام مباشرة، أو من القادة العسكريين أو السفراء والمبعوثين. ومن ثم فإن السيرة التي بين أيدينا هي السيرة الأم.

نعود إلى فحص المؤلف التاريخي الأدبي الحافل في محاولة لنسبته إلى أي منهما. ومن الوهلة الأولى يتضح لنا أن مصنف هذه السيرة كان أديباً متمكناً وشاعراً فصيحاً يعتمد عليه في كتابة الرسائل الصادرة عن الإمام وفي نظم بعض القصائد رداً على الأشعار الواردة في المناسبات المختلفة. ومن ثم كان البحث في كتب التراجم عن الإمكانات الأدبية والشعرية لكل منهما. فيذكر عن علي بن نشوان أنه كان من العلماء الفصحاء المحققين، وله شعر كثير يخرج في أجزاء، وأكثر المشاهد المنصورية والحروب الإمامية له في وصفها الشعر البليغ[١٠]. كما يوصف

أبو فراس بالفقيه العلامة، وأنه كان حاذقاً ماهراً وشاعراً فصيحاً وعالماً كاتباً من كتاب الإنشاء المجددين[١١].

إذن فكل منهما أديب وشاعر، وبالتالي يمكن أن يكون هو المصنف للسيرة التي بين أيدينا. فإذا ما تركنا الجوانب الفنية والإمكانات الأدبية، وحاولنا التعرف على شخصية الكاتب من خلال الأحداث والوقائع التي يذكرها، كذلك من خلال العلاقة الشخصية بين مصنف السيرة وبين الإمام عبد الله بن حمزة صاحب الترجمة، نجد أن كاتب هذه السيرة كان من العاملين في خدمة الإمام، وكانت له مكانة مرموقة، ويتمتع بثقة الإمام إلى درجة مكنته من الاطلاع على كافة المراسلات الصادرة والواردة، بل كان يكلف أحياناً بالرد على الرسائل وبنظم القصائد رداً على قصائد التهنئة الواردة إلى الإمام. يقول مصنف السيرة «وأتى في صدر كتاب البشارة أبيات للقاضي زكي الدين عمرو بن علي العنسي... فأمرني الإمام عليه السلام بالإجابة عنها»[١٢]. ويذكر في موضوع آخر عن وصول سفير من المدينة المنورة بكتاب من الشريف سالم بن القاسم بن مهنا الحسيني صاحب المدينة يستطلع الأنباء والأخبار «فأمرني الإمام عليه السلام بإجابته فصدرت الكتاب»[١٣]. وعندما تم الاتفاق على عقد الصلح بين الإمام والأمير ورد سار في سنة ٦٠٠ هـ، قام الإمام بكتابة شروط الصلح، فلما أكملها أمرني «بالقدوم لاستحلاف وردسار عليها، فامتثلت أمره»[١٤]. أما عن استقائه للمعلومات من مصادرها الأصلية فقد حرص المؤلف على ذكر مصدره فيقول: «حدثني لأمير الأجل صفي الدين ذو الكفايتين محمد بن إبراهيم قال...»[١٥]. وفي موضع آخر يقول: «وقدم الشيخ مرحب بن سليمان السهلي الحرازي فحكى...»[١٦]. وهكذا يسند كل خبر من الأخبار التي يذكرها إلى مصدره. وهذه الأمور كلها دليل على ملازمة مصنف السيرة للإمام عبد الله بن حمزة.

والمعروف أن القاضي علي بن نشوان كان مقيماً مع إخوته في خولان صعده[١٧]. أما أبو فراس بن دعثم فيذكر عنه أنه كان «كاتباً من كتاب الإنشاء المجددين مع الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان... وهو من خلصان الإمام»[١٨]. وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن أبا فراس هو مصنف هذه السيرة.

الأمر الثاني الذي يساعد على تبني وجهة النظر هذه ويدعمها، أن مصنف هذه السيرة قد ذكر الخلاف الذي حدث بين آل نشوان والإمام عبدالله بن حمزة. وقد تطور ذلك بوصول رسالة من القاضي علي بن نشوان إلى الإمام عبد الله يذكر فيها أنه وصل إليهم في بلاد خولان شعر من جهة اليمن فيه هجاء للإمام وللأميرين يحيى ومحمد ابني أحمد، وأن الشعر أنشد في بلادهم وتناقلته الألسن، وأنه أي علي بن نشوان قام بالرد على هذا الشعر الذي لم يعرف قائله. ولكن مصنف السيرة تشكك في هذه المعلومات بقوله «وغلب الظن أنه من جهة القضاة»[١٩]. أي أنه قد تشكك في أن يكون آل نشوان هم أصحاب الهجاء، ثم يتأكد له ذلك بعد وضوح موقف القاضي علي بن نشوان الذي «ظهر منه الشقاق ونجم النفاق»[٢٠]، ومن البديهي أنه إذا كان علي بن نشوان هو مصنف هذه السيرة فلن يصف نفسه بالنفاق. على أية حال فقد توترت العلاقة بين الإمام وآل نشوان إثر خلع القاضي محمد بن نشوان نفسه من الولاية، واتهام الإمام بتدبير محاولة لاغتياله. ومع ذلك فقد كان واضحاً أن القاضي علي بن نشوان هو أكثر إخوته رغبة في إصلاح ذات البين، فحاول التوفيق بين إخوته والإمام[٢١]. ولكن هذه المحاولة أخذت وقتاً طويلاً تصاعد خلالها الخلاف نتيجة لموقف محمد بن نشوان العدائي، وتأليبه للقبائل على الإمام[٢٢]. وقد بلغت حدة العداء بينهما إلى درجة جعلت الإمام يكتب شعراً يهجو فيه القاضي محمد بن نشوان[٢٣].

ولما طال الخلاف قام القاضي علي بن نشوان بتصفية مشاكله وإعلان موقفه من الإمام، يقول مصنف السيرة «فكتب القاضي علي بن نشوان كتاباً بليغاً فيه عذره خاصة دون إخوته، وأنه مغلوب على رأيه، وأنه باق على الطاعة. وسأل فيه سؤال معترف بالإساءة طالب للتوبة. وذكر في ذلك أبياتاً كتبها في صدر كتابه أفرط فيها في مدح الإمام عليه السلام وأطلق وصفه فيها بأنه الرؤوف العطوف اللطيف الخبير الحكيم العليم»[٢٤].

هذه الأمور الخاصة بالخلاف بين الإمام وآل نشوان أفرد لها المؤلف صفحات كثيرة، وهي خلافات لها جذورها القديمة من أيام والدهم نشوان[٢٥]. وقد أوردنا هذه الوقائع بإيجاز لنبين فقط أن كاتب هذه السيرة لا يمكن أن يكون هو القاضي علي بن نشوان.

أمر آخر يؤكد على أن كاتب هذه السيرة لا بد أن يكون من أشد المقربين

للإمام، لأنه كان على علم بتصنيف كتاب عن سيرته، وربما يكون هو الذي أمر بذلك. ويبدو أنه كان يختار بنفسه المادة التي تدون في هذه السيرة. يقول الإمام في إحدى قصائده التي ذكر فيها الكثير من الحوادث من ابتداء قيامه حتى سنة ٦٠١ هـ.

وبعـد هـذا قصص كثيـرة قد ضمن الكل كتاب السيرة[٢٦]

فهل معنى ذلك أنه صار بمقدورنا أن نقرر بأن أبا فراس بن دعثم هو مؤلف هذه السيرة. الشواهد كلها تؤكد ذلك وتقودنا إلى الدليل الصريح لإسناد تصنيف هذه السيرة إلى أبي فراس خاصة وأنه في الجزأين اللذين بين أيدينا من السيرة ينعت نفسه أكثر من مرة بمصنف السيرة، ويكتفي بذلك. ولكن يبدو أن عداء أبي فراس للمطرفية جعله يخرج عن هذا الصمت، ويعلن عن اسمه صراحة في رده على اثنين من زعماء المطرفية هما: علي بن يحيى البحيري وحسن بن النساخ؛ فيقول «ومما أجيب به عن شعر الفقيه وابن النساخ لمصنفها أبي فراس بن دعثم»[٢٧].

ومن ثم فلم يعد هناك مجال للشك في نسبة السيرة المنصورية التي بين أيدينا لأبي فراس بن دعثم.

ومع ذلك فلنا أن نتساءل هل قام علي بن نشوان بتصنيف سيرة للإمام عبد الله بن حمزة؟. إن كتب التراجم تؤكد على أن السيرة الكبرى من تصنيف علي بن نشوان. ويضيف أحد المؤرخين الأوروبيين بأن السيرة الكبرى لم تعد معروفة[٢٨]. إذن فالسيرة الكبرى كانت معروفة في اليمن وللمؤرخين اليمنيين لفترة ما، منذ صنفها علي بن نشوان إلى وقت اندثارها. والمؤرخ الوحيد الذي عاصر الإمام عبد الله بن حمزة وكلاً من علي بن نشوان وأبي فراس هو حميد بن أحمد المعروف بالمحلي الشهيد، صاحب كتاب الحدائق الوردية، والذي اعتمد في ترجمته للإمام عبد الله بن حمزة اعتماداً أساسياً على ما جاء في السيرة المنصورية. وذكر في أكثر من خمسة عشر موضعاً العبارات التالية: «قال مصنف السيرة الإمامية المنصورية»، «ومنها ما رواه مصنف السيرة»، «روى مصنف سيرته»، «قال مؤلف سيرته»[٢٩]. هذه العبارات كلها غير مقرونة باسم مؤلف السيرة. كذلك يذكر ابن حاتم في كتاب السمط «ووقعت في سيرة الإمام عبد الله بن حمزة»[٣٠].

إذن لم يذكر المحلي الشهيد المعاصر للإمام ولا ابن حاتم من رجال القرن السابع أية إشارة إلى اسم مصنف سيرة الإمام، وهذا يعني أنه لم تكن هناك حاجة

لاسم مصنف السيرة لأنه أمر معروف وشائع. كما يعني أيضاً أنه كانت هناك سيرة واحدة، لأنه لو وجدت أكثر من سيرة لتطلب ذلك ذكر مؤلف كل منها للتفريق بينها. كذلك نجد في باقي كتب التاريخ العبارات نفسها التي أشرنا إليها سابقاً والتي منها: قال في سيرة الإمام المنصور بالله أو قال مصنف سيرة الإمام عليه السلام[٣١].

وبمطابقة ما جاء في كتب التاريخ نقلاً عن السيرة المنصورية في الفترة ما بين ٥٩٨/٥٦٣ هـ نجد أن الاقتباسات كلها من السيرة التي بين أيدينا والتي هي من تصنيف أبي فراس بن دعثم.

أما الذين أصروا على أن السيرة التي كتبها أبو فراس هي السيرة الصغيرة فمنهم عز الدين محمد مؤلف كتاب التحفة العنبرية، وأحمد بن محمد الشرفي مؤلف كتاب اللآلىء المضية فيقولان: «ذكر مؤلف سيرته الصغيرة وهو أبو فراس بن دعثم»[٣٢]. ويقومان بتلخيص ما جاء في السيرة دون الإشارة إلى السيرة الكبرى. كذلك نجد في كتاب تاريخ بني الوزير أن المؤلف يستشهد بالأحداث التي ذكرها أبو فراس، ثم يحاول تأكيد هذه المعلومات بأنها قد وردت أيضاً في السيرة الكبرى بقوله: «وعلي بن نشوان في سيرته لا يغفل ذلك»[٣٣]. ثم يعود بعد ذلك للاقتباس عن أبي فراس. ونفس الشيء أيضاً في كتاب أئمة اليمن فكل ما به عن عهد الإمام عبد الله بن حمزة تم تلخيصه عن السيرة التي كتبها أبو فراس.

وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن السيرة الوحيدة التي صنفت عن تاريخ الإمام عبد الله بن حمزة، وتناولت الأحداث التاريخية، وعلاقته بالأيوبيين هي السيرة التي ألفها أبو فراس بن دعثم. يؤكد ذلك ما ذكره يحيى بن الحسين في ترجمته للشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن الوليد القرشي بأن له سيرة لطيفة صغيرة للإمام المنصور بالله، والسيرة الكبيرة الحافلة لأبي فراس بن دعثم[٣٤]. ثم يذكر في ترجمته لأبي فراس بأنه مؤلف سيرة الإمام المنصور وهذه السيرة أربعة مجلدة[٣٥].

ولعل السبب في اعتقاد بعض المؤرخين بأن للإمام سيرة أخرى كبيرة؛ نسبوا تصنيفها إلى علي بن نشوان، هو أن أبا فراس بن دعثم قد جمع أعمال الإمام في عدة مجلدات سماها المجموع[٣٦]. يقول أبو فراس أن الإمام صنف تصنيفاً في الرد على المطرفية وخروجهم من مذهب الزيدية سماه «الرسالة الفارقة بين الزيدية والمارقة وهي

في المجلد الثالث من مجموعاته وتصانيفه التي صنفها في فنون شتى من ابتداء قيامه عللم إلى هذا الأوان وهو آخر هذا الجزء الثالث من سيرته الشريفة الذي آخره سلخ رجب ومستهل شعبان من سنة ثلاث وستمائة»[٣٧].

ومن ثم فقد وجب التعريف بمؤلف السيرة المنصورية التي تعد من أضخم السير التي صنفت عن حياة أحد الحكام في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، والتي تعد بكل المقاييس من أهم الكتب التاريخية ليس في تاريخ أئمة الزيدية فقط، بل في تاريخ اليمن بصفة عامة. ومن الأسف أن كتب التراجم لم تقدم لنا عن أبي فراس إلا النذر اليسير، حتى أنها لم تتفق في كتابة اسمه بالكامل. فتذكره بعض مراجع بأنه «أبو فراس بن دعثم»[٣٨]. أو «أبو فراس بن دعثم الصنعاني»[٣٩]. أو «أبو فراس بن دعثم بن أبي عمر الصنعاني»[٤٠]. بينما يذكر له أبو الرجال اسماً مطولاً «أبو فراس بن دعثم قاسم أبي فراس فاضل ابن عباس بن علي بن محمد بن أبي قاسم بن أبي عمرو» ثم يتشكك في اسم دعثم فيقول: «ولا أدري هل دعثم لقب لأبيه العباس أو وقع في المنقول عنه غلط» ويبدو أنه حدث خطأ من الناسخ في كتابة الاسم، لأنه في نفس الصفحة يعود فيذكر اسمه على أنه «فاضل بن عباس بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن أبي عمرو»[٤١].

أما عن مولد أبي فراس ونشأته فهذه أمور لم يهتم أحد من كتاب التراجم بذكرها، كذلك أسماء المشايخ والعلماء الذين تلقى العلم عليهم والإجازات التي حصل عليها. ولكن كل ما نعرفه أنه من بيت أبي عمرو الصنعاني، وهو بيت كبير في صنعاء، اشتهر بالعلم والفضل، وبرز منه العديد من العلماء والشعراء والكتاب، واشتهر منه ثلاثة على الأقل في زمن الإمام عبد الله بن حمزة، منهم أبو فراس صاحب الترجمة، ومحمد بن دعفان بن أبي عمرو من كبار الشعراء، له العديد من القصائد التي أرسلها للإمام في المناسبات المختلفة، والفقيه العلامة ابن أبي عمرو الصنعاني، من علماء الزيدية وصاحب كتاب سَقَط الجواهر الأدبية في الغريب من ألفاظ اللغة العربية[٤٢].

أما عن حياته العملية فالمعلومات المتاحة لا تفصح عن الأعمال التي قام بها قبل أن يلتحق بخدمة الإمام عبد الله بن حمزة ككاتب للإنشاء. ولكنها تمكننا من التعرف على مدى فصاحته وبلاغته. وتمكنه من الشعر، لأنه لو تولى كتابة الإنشاء لحاكم أو سلطان من السلاطين لكان أمراً عادياً. أما من يعمل في ديوان الإمام

عبد الله بن حمزة وهو أفصح أهل زمانه، له في فروع المعرفة أكثر من أربعين مؤلفاً فضلاً عن ديوان شعر ضخم، فيجب أن يكون من المبرزين في فنون الكتابة، عالماً بشؤون الحكم والسياسية، يتصف بالحكمة والأمانة لأنه كان يطلع على المكاتبات والمراسلات الرسمية، لأن ديوان الإنشاء في تلك الفترة إنما كان بمثابة وزارة الخارجية في عصرنا الحديث، فعنه تصدر جميع المكاتبات الرسمية، وإليه ترد جميع المكتبات الرسمية، وبه تحفظ جميع المكاتبات الرسمية. ومعنى هذا أن المشتغل في ذلك الديوان كان أميناً على أسرار الدولة، محيطاً بما لم يحط به غيره من موظفيها، بل كبرائها وأمرائها[٤٣].

وضع أبو فراس كتابه السيرة المنصورية برعاية الإمام عبد الله بن حمزة[٤٤]. والمفروض كما هو متبع في كتب السير أن يكون الإمام هو المحور الرئيسي والمحرك للأحداث التي سجلها المؤلف، ولكن يبدو أن أبا فراس قد اكتفى بذكر كل ما يتعلق بالسيرة الخاصة للإمام من مولده ونشأته وصفاته وتعليمه وكراماته وغير ذلك إلى بدء قيام دولته، فبدأ في استخدام المنهج التاريخي المتعارف عليه في العصور الوسطى، وذلك بتسجيل أحداث كل سنة على حدة مع وضع عناوين رئيسية تتناسب مع الحدث الذي يؤرخ له. وعلى الرغم من استخدامه للطريقة الحولية في تدوين التاريخ إلا أنه نادراً ما ترك الموضوع الرئيسي الذي يناقشه، أو الحدث الذي يذكره ليدخل في رواية فرعية.

وهو في تاريخه قد أفرد مساحات واسعة لمختلف الأحداث في اليمن، سواء ما يتعلق منها بدولة الإمام أو القوى السياسية الأخرى. وقد حاول أن يكون منصفاً في أحكامه على المخالفين للإمام، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب كراهيته الشديدة للأمير علم الدين وردسار[٤٥] ولأتباع المذهب المطرفي[٤٦]. وكان أبو فراس يميل إلى الاعتقاد بأن أهمية التاريخ تكمن في الدروس الأخلاقية المستفادة، وعلى الناس أن يتعلموا ويتعظوا منها. فعين الله ساهرة ترعى عباده المخلصين، وتنزل النكال بالمخالفين. ويحاول إقناع القارىء بأن ما يحدث من ظواهر طبيعية كالأمطار والسيول والعواصف، والدمار الذي يسببه الجراد أو القحط أو الضريب، فإنما يكون ذلك إما مكافأة لأتباع الإمام أو انتقاماً من أعدائه. يذكر أبو فراس أن أسراب الجراد كانت تهاجم القرى المعادية للإمام فلا تبقى لهم على زرع، أما البلاد التي كانت مؤيدة

للإمام فكانت أسراب الجراد تمر بها دون أن تمسها. كذلك كان يذكر نزول المطر في البلاد المؤيدة والقحط الشديد في البلاد المخالفة فيقول: إن الجراد هاجمت بلاد الأبقور «فما أبقت لهم زرعاً ومع ذلك فإن البلاد المطيعة النافذ أمر الإمام فيها من صعدة وأعمالها والجوفين والظاهرين وبلاد الطرف، تمر عليها الجراد في هذا الوقت الذي أكلت فيه البلاد بكرة وعشية وتمسي فيها وتسرح منها ما ضرت فيها بمضرة ولا أكلت لأهلها زرعاً، فكان ذلك معدوداً من الكرامات التي خصه الله تعالى بها فيمن أطاعه، وإظهار النكال فيمن خالفه»(٤٧).

ويقول في موضع آخر: «وكان قد وقع ببلاد الهراثم وجحدان من أوطان سهل وادعة محل وقلة من الماء فتعب الناس لأجله، فسألوا الإمام عليه السلام الدعاء إلى الله تعالى أن يسقيهم فدعا لهم دعوة مباركة، فأنزل الله سبحانه عليهم خاصة مطراً هنياً مرياً ملأ مناهلهم وسقى أوطانهم»(٤٨).

وهكذا فإن التاريخ ينفع في العظة والعبرة، ويؤكد المؤلف في أكثر من موضع في كتابه بأنه يورد هذه الحوادث لأن فيها تذكرة وعبرة لمن أراد أن يتذكر(٤٩).

وإذا كان أبو فراس قد سخر قلمه للدعوة للإمام ودولته مستغلاً بعض الظواهر الطبيعية أو الآفات التي أصابت المحاصيل الزراعية، إلا أنه سرعان ما تعود إليه النزعة التاريخية، فيحقق الخبر من جديد. فبعد أن ذكر أن الجراد قد ألحقت الضرر بالبلاد المخالفة للإمام دون غيرها، يعود فيذكر أن الجراد قد أضرت بالبلاد جميعها وأتلفت أكثر الزرع، ولم تتحصل الواجبات «وجعل الناس عذرهم الجراد فمنهم من وفا ما عليه وهو القليل، ومنهم من سلم البعض»(٥٠). بل يتضح مما كتبه أن ضرر الجراد لم يكن مقصوراً على بلاد اليمن وحدها بل تجاوزها إلى العديد من البلدان الإسلامية يقول وجاءت كتب ولاة الحجاز يذكرون «ضعف البلاد وأن الجراد أتت على أكثرها، وذكروا عموم مضرتها في الشام والديار المصرية»(٥١).

أما المصادر التي اعتمد عليها أبو فراس في كتابة تاريخه والتي تضفي على عمله هذا قيمة علمية فائقة، فيأتي على قمتها الإمام عبد الله بن حمزة الذي يعد المصدر الرئيسي لكثير من المعلومات والأحداث التي ذكرها أبو فراس، كما أتاحت له الوظيفة التي كان يشغلها ككاتب في ديوان إنشاء الإمام فرصة الإطلاع على كافة الوثائق والمكاتبات الواردة إلى ديوان الإمام أو الصادرة عنه. وهذا ما جعل للكتاب قيمة وثائقية عالية لما تضمنه من كتب ومراسلات ينفرد بذكرها.

كذلك فإن المعلومات التي ذكرها عن الأحداث والأمور التي كانت تجري بعيداً عن مقر الإمام ومعظمها معلومات عسكرية ووصف للغزوات والحروب التي قام بها قادة الإمام، أو ذكر لمفاوضات الصلح والشروط الملزمة للأطراف المعنية، أو سفارات مرسلة لبعض الحكام والأمراء فإنها معلومات قد استقاها من المكلفين بهذه الأمور مباشرة أو من الرسائل التي يرسلها هؤلاء القادة والسفراء إلى الإمام. ويمكن أن نقرر بأن أبا فراس قد استقى معلوماته من صناع أحداث هذه الفترة.

على أنه يجب الأخذ في الاعتبار أن جميع مصادر أبي فراس، إنما تعكس وجهة نظر واحدة وهي وجهة النظر الزيدية. ومن ثم فقد وجب الحرص خاصة فيما يتعلق بآرائهم وأحكامهم على أعهداء مذهبهم.

وبعيداً عن الصراعات السياسية والعمليات العسكرية التي لم تهدأ أبداً بين الأيوبيين والإمام عبد الله بن حمزة، نجد أن كتاب السيرة المنصورية يزود الباحث بقدر كبير من المعلومات والحقائق العلمية التي تعد إضافات لها قيمتها في الدراسات الأثرية والجغرافية والاجتماعية، فضلاً عن الدراسات التاريخية. وربما كان أبو فراس هو الكاتب الوحيد الذي وصف طريقة حماية مدينة صنعاء من أخطار السيول والاستعدادات التي كانت قائمة لتأمينها، وجاء ذلك أثناء وصفه للسيل الذي هاجم مدينة صنعاء في السابع من ذي الحجة سنة ٦٠١ هـ فيقول أن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب كان قد عمر سور المدينة عمارة عظيمة[٥٢]. وجعل لمجرى السيل عند مدخله ومخرجه في طرفي المدينة في كل موضع ثلاثة أبواب محكمة البناء بالصخور الكبار، وفأرغت عليها النورة[٥٣]، والرماد وبنيت فوقها عقود مدارة بالآجر والقص، محكمة الصنعة. ونصب البناء عليها بالطين وعملت على المجاري الثلاثة شبابيك من أخشاب قوية وجعل لها مجاري إلى أعلى السور، وعلامات يجذب بها إذا أتى السيل في أوقات المطارات، وترد في سائر الأوقات، وعليها حراس وحفاظ. ففاجأهم السيل فلم يتمكنوا من رفع الشبابيك فأخذهم فيمن أخذ. ولما وصل أوله بالغثاء سد خروقها، فردت أوله على آخره، وكثرت مادته، وتراكم بعضه على بعض، وفاض، وانتشر في الجنبتين، يميناً وشمالاً حتى بلغ الخربة المعروفة بقرة العين في عدني المدينة. ولم يبق له منفذ حتى بلغ شرفات السور فوق المجاري فحطم السور من أساسه... ثم كسر السور من موضع المجاري وفاض بعد أن أتلف النفوس والمنازل والأموال. ولم يظن أحد أن سد صنعاء[٥٤] المشهور يمسكه ساعة لعظم

أمره، فمر على أعاليه وهو ملآن ماء ولم يكسر فيه شيئاً ولو كسره لدمر الرحبة بما فيها[٥٥].

ويذكر أبو فراس مراحل بناء حصن ظفار ابتداء من تفكير الإمام المنصور بالله في بناء حصن يلجأ إليه السكان عند إغارات الجيوش الأيوبية، ومعاينته المبدئية لقلعة الإمام أبي الفتح الديلمي في منطقة ذيبين. فلما وجد أن الأكمة التي في جنوبها متصلة بأعلى القلعة انصرف عن عمارتها. لكن مجموعة من جلسائه ورجال حربه أقنعوه بإعادة النظر مرة أخرى والصعود إلى أعلى القلعة لمعاينتها، والتحقق من منعتها وقوتها وحصانتها. فعاد من جولته وقد عزم على البدء في عمارتها، وأحضر إليها من حوث العمال والآلات والطعام وكل ما تحتاجه العمارة. وأعطى الأمر ببدء العمل في العشرين من شوال من سنة ستمائة. واستمرت إقامة الإمام في موقع العمل لمدة ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، قام خلالها بالإشراف على بناء سور حول القلعة قطعت له الصخور الكبار، كما باشر العمل في حفر خندق ما بين الحصن والأكمة المتصلة به[٥٦]. ويبدو أن العمل في الخندق قد تطلب وقتاً وجهداً ومالاً كثيراً لم يكن متوفراً في تلك الأثناء فلم يكتمل العمل به.

أما المرحلة الثانية من عمارة الحصن فقد بدأت في النصف الثاني من عام ٦٠٢ هـ، وقد أقام الإمام أثناءها بالحصن ستة أشهر وثلاثة عشر يوماً فقام باستكمال العمل في الخندق، والبدء في بناء المخازن اللازمة لحفظ الحبوب وغيرها من الأطعمة والأدوات التي تساعد المقيمين فيه على تحمل الحصار، كما اتخذ الإمام خطوة هامة لترغيب الناس في الإقامة بالمنطقة فبدأ في بناء الجامع والدور السكنية[٥٧].

أما ما ذكره عن العملة المتداولة في عصره وعن إنشاء دار الضرب فإنها معلومات تفيد الباحثين في التاريخ والآثار والمسكوكات. فمن الإشارات التي ذكرها نستطيع أن نكون فكرة عن العملة المتداولة في هذا الوقت. فقد ذكر أن التعامل كان يتم بالدينار السبئي[٥٨] وبالدينار الشموسي[٥٩].

أما الدينار السبئي فإنه عملة ضربت في عهد الدولة الصليحية، ولكن في عهد أي أمير من أمرائها، فهذا ما لا يمكن التأكد منه. ويذكر أحد الباحثين أن هذا الدينار ربما ضرب في عهد سبأ بن أحمد ثالث أمراء الدولة الصليحية، وربما في عهد سبأ بن

أبي السعود سادس أمراء الدولة الزريعية أو ابنه محمد بن سبأ[٦٠].

الدينار الآخر الذي ذكره أبو فراس هو الدينار الشموسي، وليست لدينا أية معلومات عن هذا الدينار، ولكن من المعروف أن شمس الدولة تورانشاه قد ضرب أثناء إقامته القصيرة في اليمن دنانير ذهبية، كتب على وجهها الملك المعظم ملك اليمن شمس الدولة توران شاه بن أيوب. وعلى الظهر لا إله إلا الله محمد رسول الله، المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين[٦١]. وبعد وفاته حاول نوابه في اليمن الاستقلال وضرب كل منهم سكة باسمه[٦٢]. وربما حملت هذه العملة أيضاً اسم شمس الدولة بجانب اسم النائب. ويغلب الظان بأن الدنانير الشموسية كانت تطلق على الدنانير التي تحمل اسم شمس الدولة تورانشاه، سواء التي سكها بنفسه أو التي قام النواب بسكها؛ مع الأخذ في الاعتبار بأن الدينار السبئي كان هو الأكثر تداولاً؛ يقول أبو فراس: «وكان دينارهم يومئذٍ السبئي الذي ضرب في دولة علي بن محمد الصليحي، ودرهمهم ضرب الغز[٦٣]. أما الأسباب التي دعت الإمام إلى التفكير في ضرب عملة جديدة فبعضها إقتصادي نظراً لحرصه على أموال رعاياه، لأن الدنانير والدراهم المتداولة كانت مخلوطة بالنحاس. وكانت قيمتها دائمة التغير. فأحياناً تنقص قيمة الدينار قدر النصف والثلث والربع، مما أدى إلى ضياع أموال الناس[٦٤]. وبعضها سياسي، إذ يبدو أن تعامل الإمام ورعاياه بالعملة الأيوبية التي تحمل إسم الخليفة العباسي كانت تثير الحساسية المذهبية والسياسية، وتسبب الضيق والألم النفسي للإمام الذي يقول في إحدى رسائله التي قرئت في أسواق حوث «وكانت دراهم الظلمة ودينارهم تأتينا وإياكم مخلوطة بالصفر والغش فلا نجد بداً من قبولها»[٦٥].

ومن ثم فقد عزم الإمام عبد الله بن حمزة على ضرب دينار ودرهم في دار الضرب بمدينة صعدة، وأصدر أوامره بذلك، لكن الأمور السياسية والعسكرية حالت دون بدء التنفيذ. وكان الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة من أشد المتحمسين لضرب العملة الجديدة، فجمع كمية من الفضة، وكلف أحد النقاشين بتصميم رسم للعملة، ونقشت السكة الجديدة، وطبع عليها دراهم قليلة في دار الضرب بقرية حوث[٦٦]. لكن الإمام لم يعجبه هذا التصميم، وقام بنفسه بوضع تصميم للعملة طبع عليها مجموعة من الدراهم، بعضها وزنه نصف درهم قفلة، والبعض الآخر ثمن قفلة، ثم نقشت سكة جديدة لدرهم صغير، صرف كل أربعة منه بدرهم كبير[٦٧].

وبعد أن استقرت الأسواق وقبل الناس التعامل بالعملة الجديدة، قام بضرب

الدينار الذهبي «وجعله ثلاث سكك، المثقال الكامل والنصافي وهو نصف مثقال. والرباعي، وهو ربع مثقال»[٦٨]. وقد كتب في أحد وجهيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله. وفي دوره التاريخ بالسنة والبلدة. والوجه الثاني فيه الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين وفي دوره عبد الله بن حمزة بن سليمان بن رسول الله صلى الله عليه وآله. وفي المثقال بعد علي ولي الله. إنما وليكم الله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون[٦٩].

وضماناً لاستمرار دار الضرب في أداء وظيفتها، وحفاظاً على مصالح المتعاملين معها، فقد جعل الإمام دار الضرب إلى رجل من أهل الديانة والأمانة وذلك لمباشرة البيع والشراء والإشراف على العمال[٧٠]. كما جعل المحتسب بحوث «شاهداً في دار الضرب حافظاً لدخلها وخرجها»[٧١].

على أنه من الملفت للنظر أن الناس رفضوا التعامل بهذه العملة في بداية صدورها، الأمر الذي جعل الإمام يفرض التداول بها بالقوة بعد أن عوقب على ردها قوم كثير، ووضع آخرين في الحبوس. كما هدد الأيوبيين وتجارهم إن رفضوا التعامل بعملته الجديةد، فيقول «فبالله قسماً صادقاً لإن رد الظلمة درهمنا أو منعوا منه، لا قبل درهمهم في بلادنا، إلا من يكون منهم نأخذ ماله ونضرب رقبته ونهتك ستره، ونخرب بلده، وإن كان تاجراً أخذنا بضاعته، فأنظروا لنفوسكم نظراً مخلصاً فالأمر جد، ولا تظنوا أنى أعاملكم في الدرهم بالهوادة ولا الرفق وإنما هو السيف والسوط والحبس وأخذ المال»[٧٢]. وربما كان ذلك في بداية صدور العملة، إذ سرعان ما قبلها الناس وانتشرت في الأسواق ولا ينسى المؤلف أن يذكر بأن البركة قد حلت يوم صدور الدرهم الكبير، فرخصت الأسعار، ووقع مطر غزير في غير وقته على قرية حوث[٧٣].

ويعد هذا الكتاب مصدراً يمكن التعرف من خلاله على موقع الكثير من الأماكن التي لم يرد ذكرها في المصادر الأدبية الأخرى. ومن ثم فإنه يضيف الكثير من المعلومات إلى المعجم الجغرافي ليمن العصور الوسطى، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

الأبرق : يقع في ناحية شوابة.

الأحووض : ما بين دماج وبني مالك.

الأضمو : بلدة على مقربة من حوث من الناحية الجنوبية.

التو : تذكر مقرونة بمطره، فيقال مطره والتو وما يتصل بهما من بلاد عذر. وإذا ذكرت بمفردها، عرفها المؤلف بأنها في مشارق ذمرمر.

بركة قطبين : في أوطان بني صريم.

البير البيضاء : تقع في حقل صعدة بالقرب من نسرين.

بير الفواقع : في جبال حبور، من مغارب حوث.

تناضب : كانت تعد في تلك الفترة حد تهامة من جهة الشام، أي من الناحية الشمالية.

جبل ذات أدمام : من جبال بيحان في الشرق الجنوبي من صنعاء.

جبل سخدا : في منطقة شهارة.

جحدان : في أسفل وادي هران.

جحومة : في شرق نهم بالقرب من كمنا بالجوف.

جدم الدحجل : من منازل بني عبد الحميد، ناحية مسور.

الجرفين : بالقرب من صور. وقد أخبرني الأخ عبد الرازق الأشول بأنها قرية خربة في قفلة عذر.

جرن مديح : بالقرب من شبام كوكبان.

الجوفين : من نهج تهامة من جوار الكدراء.

حايطين : بالقرب من دلوان من قرى الظاهر ناحية خمر.

الحريمات : من بلد بني عبد العزيز بالأهنوم.

حصن خدار : بالقرب من ذمرمر.

حصن زوا : بالقرب من حصن العادى في بلاد جنب، ناحية السودة.

حصن المشاف : بالقرب من حصن العادى.

حصن النعل : بالقرب من شظب، يصفه المؤلف بأنه باب شظب ومفتاحه.

الحظاير : بين الجنات وضباعين، شمال مدينة عمران.

الحمايز : بالقرب من حضور ناحية ثلا.

درب الحاكم : في سهل ظليمة.

درب الصلالتين : بالقرب من رغافة، شمال صعدة.

درب الصاليتين : من بلاد خولان، غرب صعدة.

درب حيران : بالقرب من شوابة.

درب الجبوب : بالقرب من مطرة.

درب الكراب : بالقرب من حصن العادي في بلاد جنب.

دوكل : بالقرب من خمر.

ذات غبار : بالقرب من حيدان والقد اليماني من بلاد خولان.

الراسين : من بلاد بني عبيد من وادعة بظاهر همدان.

الزيلتين : من طرف بلاد بني صريم بالقرب من أثافت.

السويق : على الطريق ما بين حرض والخموس.

صلال : بالقرب من ريدة.

الصلبة : ما بين الحرف وعمران الجوف.

الطوامر : بالقرب من حصن ظفار ذبيين.

ظلة : بالقرب من شظب.

العادية : بالقرب من الخموس في شمال بلاد الأهنوم.

العافية : من قرى نجران.

العذار : بالقرب من المربط ناحية صعدة.

قاع النقاضي : بالرحبة بالقرب من ذمرمر.

القد الشامي : من ناحية حيدان، قضاء خولان، صعدة.

القد اليماني : من ناحية حيدان.

القلاب : بوادي نشور، شمال صعدة.

القهرة الحمراء : من طرف البطنة، ناحية صعدة.

ماء رهين : بالأهجر من بلاد حمير.

مشوط : في بلاد بني مالك من بني صريم. وقد أفاد القاضي اسماعيل الأكوع بأن مشوط يقع بالقرب من بيت زود من خارف.

مصنعة الدمنة : على الطريق ما بين رداع وذمار متجهاً إلى الحدا.

المطرح : بالقرب من الخموس.

المغربة : أسفل حصن ظفار ذيبين من الناحية الجنوبية.

المنقل : على مقربة من حصن ظفار من الناحية الغربية.

موسم ذعفان : بالقرب من أثافت ومسلت بناحية خمر.

نقيل المجرد : يقع في ناحية مسور.

نهج النهج : موضع في وادي السر.

هجرة روسح : في وادي السر.

هجرة العشاوة : غالباً ما يذكرها المؤلف مع هجرة قاعة، والظن أنها كانت مجاورة لهجرة قاعة غربي عمران.

هجرة لصف : تقع في وادي لصف شرقي بلاد نهم.

الهراثم : من أوطان سهل وادعة.

وادي الوشيح : من أودية بلاد عذر.

كما ذكر المؤلف أسماء بعض المواضع، لم يحدد مكانها مثل هجرة أمد وهجرة هرمة وهجر الجبجب، وكلها كانت هجر يسكنها المطرفية، وأغلب الظن أنها كانت قريبة من مدينة صنعاء.

ومن دراستنا لكتاب السيرة المنصورية أصبح في مقدورنا تصحيح بعض

المعلومات التي جاءت في الكتب التاريخية الأخرى. وعلى سبيل المثال فقد جاء في كتاب العسجد المسبوك للخزرجي عن الصراع بين الإمام عبدالله بن حمزة والأمير وردسار قوله: «فكانت لهم أيام شديدة ووقعات عديدة، منها يوم نصف وهو في مشرق بلادهم. وقتل في ذلك اليوم إبراهيم بن حمزة أخو الإمام عبد الله بن حمزة»(٧٤). وفي هذا الشأن أيضاً يقول ابن الديبع في قرة العيون: «وتصاول الامام عبد الله بن حمزة وعلم الدين وردسار على اليمن مصاولة عظيمة. وكانت بينهم وقائع شديدة منها يوم نصف وفيه قتل إبراهيم بن حمزة أخو الإمام عبد الله بن حمزة»(٧٥).

ويعلق القاضي محمد بن علي الأكوع الذي يعد حجة في أسماء ومواقع البلدان اليمنية تعقيباً على ذلك بقوله: «لا أعرف موضع نصف ولا موقعه بالضبط»(٧٦). أما صحة الخبر كما جاء في كتاب السيرة المنصورية، إن الموقعة التي قتل فيها الأمير إبراهيم بن حمزة كانت في وادي لصف الذي يقع في شرق بلاد نهم(٧٧).

كما يذكر يحيى بن الحسين في أحداث سنة ٥٩٩ هـ قيام الأمير وردسار بمهاجمة أملاك السلاطين بني حاتم، والبلاد الداخلة في صلح الإمام، فأرسل فرقة من جنده للإستيلاء على حصن بيت أنعم، في أعلى وادي ظهر، لكن هذه القوات أخفقت في الإستيلاء على الحصن «ولما آيس وردسار من أخذ الحصن عنوة مال إلى المخادعة، فبعث إلى عامل الحصن وهو رجل من جنب يسمى محمد بن أسعد أحمد الواحدي من بني ضرار، فراوده على تسليم الحصن على ماله بذله، فتم له ما أراد من قبض الحصن»(٧٨).

أما صحة الخبر كما ذكره أبو فراس، أن وردسار قد يئس من الاستيلاء على الحصن «وعلم أنه لا سبيل إلى أخذه بالحرب، فبعث محمد بن أسعد بن محمد الواحدي إلى والي الحصن وهو رجل من جنب من بني ضرار. فبذل له مالاً وعنى في ذلك عناية شديدة، واجتهد في أن لا يبقى فيه أمر للإمام عليه السلام ولا للسلاطين حتى أدرك غرضه في ذلك واستولى عليه وردسار»(٧٩).

ومن واقع دراستنا لهذه المخطوطة يمكن أن نتعرف على بعض ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية وغيرها، على الرغم من قلة المعلومات، وعدم عناية مؤرخي تلك الفترة بالكتابة في هذه المجالات.

فمن الناحية الإدارية كان الإمام على رأس الدولة يساعده مجموعة من الأمراء

في قيادة الجيوش والولاية على الأقاليم. وكان يتم تعيين القضاة في النواحي للنظر في المظالم وتحقيق العدالة وتطبيق الشريعة. كما كان يتم تعيين المحتسبين للرقابة على الأسواق. والنص الوحيد عن المحتسب ومهامه، هو ما ذكر عن محتسب قرية حوت فيقول «وجعل الإمام عليه السلام مسعود بن الأقحف الصنعاني محتسباً بحوث وأعمالها في إجازة الدرهم والشدة على من رده، والمصالح التي يعود على المسلمين نفعها في تفقد الميزان والمكيال، وإنصاف المظلومين من الظالمين، وإمضاء الحكم، وقبض زكاة التجار، وأخماس الحديد، ومنافع الحصن وشراء ما يفتقر إليه، وجعله شاهداً في دار الضرب، حافظاً لدخلها وخرجها، فقام في ذلك مقاماً محموداً»(٨٠).

أما عن الدواوين فيبدو أنه لم تكن هناك دواوين بالمعنى المتعارف عليه، ولكن يفهم مما كتبه أبو فراس أنه كان هناك ديوان للجيش فيقول «وصار في الحصن مائة وأربعون رجلاً، المائة منهم أهل الجرايا والديوان، والأربعون مطوعون مجاهدون»(٨١). ويقول في موضع آخر «حان أوان الثمرة ووقت حصادها، فقرر أرزاق الجند وصرف كل منهم إلى جهته لقبضه»(٨٢). وبالتالي يمكن تصور الهيكل العام لجيش الإمام الذي كان يتكون أساساً من الجند النظاميين المقيدين بالديوان والذين كانت تصرف لهم رواتب وجرايات شهرية أو سنوية. الفئة الثانية هم المتطوعة وغالباً ما كان الإمام يجهزهم للحرب وينفق عليهم أثناء إقامتهم في الحصون أو مصاحبتهم للجيش، فحينما تعرض حصن ظفار للهجوم لم تكن به قوات كافية للدفاع عنه، فكلف الإمام الفقيه بهاء الدين الأكوع للتوجه إلى الحصن «وكان بالمدرسة بذمرمر جماعة من أصحاب الإمام عليه السلام، فشاورهم على التقدم صحبته فساعدوه، ولم يكن لهم سلاح فأمر الإمام بشراء السلاح لهم في الحال من ديوان الحصن»(٨٣). الفئة الثالثة هم رجال القبائل المحالفة للإمام، والذين كانوا ينضمون إليه رغبة في المشاركة في غنائم الحرب، أو رغبة في الجهاد أو رهبة من سطوة الإمام، والفئة الرابعة هم المماليك، ومع أهمية هذه الفئة فلم يأت لها ذكر كثير في السيرة إلا في إشارتين عابرتين؛ فيذكر أبو فراس في أحداث الحرب التي قادها الإمام على قلعة أثافت: أن الإمام تقدم إلى البركة وأمر الناس بالتوقف «وتقدم بنفسه في بعض مماليكه وحامل علمه»(٨٤).

ويذكر في موضع آخر أن الإمام «أمر عبدا من مماليكه»(٨٥) بضرب رقبة أحد

العصاة. ومن ثم فلس في إمكاننا أن نقرر ما إذا كان هؤلاء المماليك من الرقيق الأبيض الذين تم تربيتهم وتدريبهم على فنون الحرب والقتال تشبها بما كان سائداً في الدولة الأيوبية. أو أنهم من الرقيق الأسود، ومع ذلك فأغلب الظن أنهم كانوا من العبيد.

أما الموارد المالية في دولة الإمام فكانت تعتمد على مصادر غير ثابتة من الأخماس والعشور والزكاة والبر والنذور وغير ذلك، ولم تكن هذه الموارد كافية للإنفاق على الحملات العسكرية المتلاحقة، الأمر الذي جعل الإمام يعاني في أوقات كثيرة من الضائقة المالية؛ فكان يشتري الأشياء ويؤجل سداد ثمنها إلى وقت حصاد المحصول[٨٦]. كما كان يحاول التغلب على بعض الأزمات المالية بالاستدانة. يذكر أبو فراس أن الإمام طلب المال بالسلف من السلاطين بذمرمر، فحصل منهم شيء يسير بعد خطاب كثير، مما اضطره لبيع ثلاثة من جياد خيله بثمن بخس وذلك لمساس حاجته إلى أثمانها[٨٧]. بل بلغت به الضائقة المالية الدرجة التي اضطر فيها إلى رهن درعه نظير شيء يسير من المال[٨٨].

على أية حال لم تكن أوجه الصرف والإنفاق مقصورة فقط على الحملات العسكرية وأرزاق الجند. إنما كانت هناك أوجه أخرى للإنفاق في دفع رواتب العمال والقضاة وسائر العاملين، كذلك في مساعدة الفقراء، والإنفاق على بعض دور العلم كالمدرسة المنصورية بحوث[٨٩].

أما عن النظم أو (البروتوكولات) التي كان يعمل بها في مجالس الإمام، فإنه يتضح مما ذكره أبو فراس أن مجالس الإمام كانت تفتقر إلى أبسط أساليب التنظيم؛ فكان الناس يدخلون عليه ويخرجون دون ضابط أو الحصول على إذن بذلك. فحاول الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد أن يعتاد الناس على الاستئذان قبل الدخول على الإمام. فأتى الأمير إلى دار الإمام فلما وصل «إلى الباب وأنا شاهد ذلك وقف قائماً معتمداً بجنبه على جدار قدام الباب وسأل الإذن والناس يدخلون ويخرجون. فقيل له في ذلك، فقال لا بد من الإذن. فلم يزل قائماً حتى أتاه الأمر من الإمام عليه السلام بالدخول عليه. كل ذلك إجلالاً للأمر وتعظيماً، وليقع الاقتداء بفعله»[٩٠]. كما يعطينا أيضاً صورة لما حدث في أحد مجالس الإمام فيذكر أن جماعة من مشايخ صعدة اجتمعوا في دار الإمام «فتنازعوا في أمر الضيفة بين

يديه، واختصموا، وعلت أصواتهم، وسل كل منهم شفرته، وهمّ بعضهم ببعض ولم يوقروا مجلسه ولا عظموا حرمته»[٩١].

أما عن الحياة الاجتماعية في اليمن في تلك الفترة فإنه من الصعب بمكان التعرف على مظاهر هذه الحياة سواء ما يتعلق منها بالحياة الأسرية والعادات والتقاليد، أو الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية. ولكن سنحاول بقدر المستطاع التعرف على بعض مظاهرها. فمن إشارة بسيطة ذكرها المؤلف يمكن القول بأن الناس كانت تستعد للاحتفال بالأعياد، وكانت هناك فرق من المنشدين والمغنين الذين يعزفون على الدفوف والطنابير. ومن الجائز أن هذه الفرق كانت تطوف في شوارع القرى والمدن أو أنه كانت لها أماكن يرتادها الناس للفرجة والترويح عن أنفسهم. يقول أبو فراس إن قوات الإمام حينما دخلت مدينة أثافت قامت بتدمير «آلات الملاهي من الطنابير والأدفاف وغيرها، وكانوا قد أعدوا من ذلك كثيراً للعيد»[٩٢].

ويبدو أن الاحتفال بالزواج لم يكن يستوجب تقديم الهدايا العينية[٩٣] أو النقدية، فقد تزوج الإمام عبدالله بن حمزة بالأميرة منعة بنت السلطان جمال الدين الفضل بن علي بن حاتم، وقد اهتم أبو فراس باختيار بعض الأشعار التي وصلت إلى الإمام في التهاني بهذه المناسبة[٩٤]. ولم يذكر وصول أية هدايا من أي جهة.

أما بالنسبة لواجب العزاء فكانت تقدم فيه المساعدات النقدية لأهل المتوفى، بالإضافة إلى رسائل التعزية نثراً كانت أو شعراً. فعندما توفيت زوجة الإمام وأم ولده محمد، جاءه قوم كثير «من أهل شوابة ومن حولها من قبائل بكيل وسفيان يعزونه بدنانير كثيرة على ما يعتادونه بينهم، فلم يقبل منهم شيئاً منه»[٩٥]. ويبدو أن تقديم المساعدة النقدية لأهل المتوفى كان أمراً شائعاً في الأقاليم اليمنية، يؤكد ذلك ما كتبه الإمام إلى أهالي صعدة بعد وفاة أخيه ابراهيم بن حمزة «وقد قطعنا التعزية إلا بالمواعظ في الكتب، والتذكير بالله سبحانه»[٩٦].

أما عن الأمراض الاجتماعية التي انتشرت في اليمن من تلك الفترة فيمكن التعرف على بعضا مثل شرب الخمر الذي كان منتشراً في أماكن كثيرة، ويبدو أن الفساد بجميع مظاهره كان مرتبطاً بهذه الأماكن. وهناك العديد من النصوص التي تتناول هذا الموضوع، ويقال إن القاضي مفرح بن مسعود حينما تولى القضاء بصنعاء

قام بإزالة «ظاهر الفساد والبدع، وأقام الحد على شرب الخمر بعد إهراق ما وجد منه حتى أنه حد أربعين في أيام قليلة ممن شرب الخمر، وحبس الفواسد من النساء الموقفات لذلك، وزوج طائفة منهن، وأزال معظم المنكرات»[٩٧].

وفي كثير من الأماكن غالباً ما يذكر أبو فراس أن أهل الحصن أو القرية كانوا «عاكفين على ارتكاب المحارم وإظهار الفواحش وشرب الخمور وفعل الفجور»[٩٨]. وأحياناً كانت توجد أماكن خاصة يرتادها الباحثون عن المتعة الحرام، فيذكر أن صاحب حصن ريدة قد جعله مقراً «للفساد والمفسدين ومأوى لمن يأتي من العرب فيشرب فيه الخمر ويفعل المنكرات»[٩٩]. أما في المناطق التي كانت خاضعة للأيوبيين فيبدو أن الخمور كانت تعد فيها بكميات كبيرة. يذكر المؤلف أن الأمير وردسار ذهب في لقاء الأتابك سنقر، فأعد ثلاثين فرساً وعدة من الجمال موقرة خمراً وغيره من الطرف والهدايا، ثم يشير إلى أن الخمر كانت تعصر عند وردسار في بركة بلغت من اتساعها وعمقها أنه لو وقع فيها إنسان لا يحسن السباحة لغرق[١٠٠]. كما يشير أيضاً إلى أن اللواط كان متفشياً بين الغز[١٠١].

أما عن السجون والحبوس فيبدو أنه لم تكن هناك أماكن معينة لذلك وإنما يمكن استخدام أية دار لهذا الغرض، مع وضع حراسة على المساجين، وتقييد حرية حركتهم لمنعهم من الهرب وذلك بوضع القيود والقرم المصنوعة من الخشب في أرجلهم[١٠٢].

والسيرة المنصورية حافلة بالكثير من القصائد الشعرية التي جاءت للإمام في المناسبات المختلفة، كتبها أكثر من أربعين شاعراً يمثلون مختلف الاتجاهات السياسية والمذهبية. وبالتالي فإنها تعد تعبيراً طيباً عن الحياة الأدبية في اليمن في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع.

وتعود أهمية ذلك إلى أن معظم هؤلاء الشعراء لم تدون أعمالهم أو اندثرت دواوينهم، وبالتالي ينفرد كتّاب السيرة باحتوائه على هذه الأعمال. ومن هؤلاء الشعراء على سبيل المثال: القاضي علي بن نشوان، والأمير علم الدين سليمان بن موسى، والقاضي زكي الدين عمر بن علي العنسي، وعلي بن سليمان الحيدرة، والشيخ حسن بن عزوي العصيفري، والشريف يحيى بن مكنى. كما يضم كتاب السيرة أيضاً قصيدة للإمام عبدالله بن حمزة لم يأت لها ذكر في النسخ التي اطلعت

عليها من دواوينه. وقد قيلت هذه القصيدة عندما ظهر خلاف قبائل نهم وآل دعام. فأنشأ هذا الشعر يذكر فيه طرفاً من أمرهم، وتبدأ القصيدة بالبيت التالي[١٠٣]:

إني أرقتُ لضوءِ البارقِ السّاري وَهْناً ففاضتْ مآقي دَمْعي الجاري

وتتكون القصيدة من ستة وأربعين بيتاً يقول في آخرها:

يالَ المكارمِ إنّ الطعن في ثَغْر خيرٌ وأجملُ من طعنٍ بإدبار

والكتاب لا يخلو من ذكر أدوات الحرب والقتال المستخدمة من تلك الفترة كالمنجنيقات[١٠٤]. والعرادات[١٠٥] والنشاب[١٠٦] والشروخ[١٠٧] والقسى[١٠٨] والنبل والغوامر[١٠٩] والبيض[١١٠] والرماح والدروع والسيوف وغير ذلك. وكانت للخيل أهميتها الحربية. ومن ثم فقد اهتم أبو فراس بكل ما يتعلق بها، فيذكر أعداد الخيول الواردة إلى الإمام حتى وإن كان حصاناً واحداً[١١١]، كذلك ما يرسل منها للأيوبيين وفاء لاتفاقيات الصلح، كما اهتم أيضاً بذكر أثمان الخيل، فيذكر مثلاً أن أحد ولاة الإمام قد اشترى فرسين جوادين بألف وأربعمائة دينار[١١٢]، كما يذكر أيضاً أن الإمام قدم حصاناً قيمته ألف دينار شموسية إلى أحد قادة الأيوبيين المنضمين إليه، ثم خيره بين الحصان والألف دينار فاختار الحصان وجملين[١١٣]. وهذا يبين لنا مدى أهمية الخيل في بلد ذات طبيعة جغرافية وعرة مثل اليمن. الأمر الذي جعل الإمام يفرض حظراً على تزويد الأيوبيين بالخيل والجمال. وقد تعرض للعقوبة الشديدة من خالف ذلك[١١٤].

كما يبين أيضاً المواد التي كان يحرص أهل الحصون على توفيرها تحسباً للحصار، فيذكر أن المسئول عن حصن ظفار قام بشراء الشحنة التي لا يستغنى عنها في الحصون من الملح والزبيت وغير ذلك[١١٥].

أما عن الوثائق التي تضمنها كتاب السيرة المنصورية في شكل رسائل وجهها الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة إلى قائد من القادة، أو طائفة من الطوائف، أو قرية أو منطقة من المناطق اليمنية، فإنها تعكس وجهة نظره في أمور الحكم والسياسة. وتبين علاقته بأصحاب المذاهب الدينية المخالفة، والقوى السياسية المنافسة، وما تم عقده معها من عقود واتفاقيات. وعن أهمية الوثائق يقول أحد المؤرخين إن هناك أخباراً يقف منها الدارس أو الباحث الحديث موقف المتشكك، ولا يستطيع الفصل فيها لغرابتها بحسب نظرته للأمور، ولكن هذا الشك يزول إذا ما

عثر على وثيقة تؤيد الخبر أو تنقيه[١١٦].

وقد تم اختيار بعض الرسائل لعرضها وذلك بسبب غرابتها وندرتها، وما تحمله من أهمية ودلالة تاريخية.

فأما النوع الأول من الرسائل فتمثله الرسالة التي أرسلها للأمير علم الدين سليمان بن موسى فيها آداب وحكم في سياسة الأمر، يتبين من خلالها مفهوم الإمام عن الصورة المثالية لما يجب أن يكون عليه الحاكم أو ولي الأمر. كتب يقول: «سلام عليك. فإني أحمد اليك الله الذي لاإله إلا هو وأسأله لنا ولك التوفيق لما يحب ويرضى، أما بعد فإنك غبت ولم يغب عن القلب ذكرك والاشتغال بأمره. وقد صرت في أمر عظيم يهون مع الصبر ومعونة الله سبحانه، فرأيت أن أكتب إليك بأمور بلغت إلى من آداب الملوك تعتمده، فينفع به وينتفع إن شاء الله تعالى. قال بعض الملوك لبنيه استعينوا بالأشراف ولا تستعينوا بالسفلة، فإن النعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أليق، والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر. وقالت الحكماء لا ينبغي للسلطان أن يحقد لأن خطره قد عظم عن المجازاة، ولا أن يحسد لأن شرفه أعلى عن الحسد، إلا أن يحسد ملكاً على حسن التدبير في رعيته فيعمل مثل عمله، ولا أن يغضب لأن الغضب والقدرة إذا اجتمعا فيمن لا يملك نفسه وقع الهلاك، ولا يكذب لأن أحداً لا يقدر على استكراهه؛ ولا أن يبخل لأنه أقل الناس خوفاً للفقر إذ ماله سلطانه، وهو معه، ولا يمن على رعيته بالإحسان إليهم بحسن التدبير لأنه نفع بذلك نفسه، وخلى ملكه كما لا يمن السلطان على ذاته بحلية سرجه ولجامه وركابه، ولا يتسرع بالإساءة إليهم لأن الإساءة إليهم تكدر ما قبلها من الإحسان، ولا يدع النظر في لطيف أمر رعيته اتكالاً على الاشتغال بحسبها فإن صلاح كل واحد منهما لا يغنى عن صاحبه. ولا تبدل أمراً فعله الصالحون قبلك، وانعقدت عليه الألفة، ورضيت به العامة. ولا تضع سيفك مكان سوطك، ولا سوطك مكان سيفك، فإن لكل واحد منهما موضعاً إن ترك صاحبه فيه فسد الآخر. ولا تغفل عن مذاكرة العلماء في تثبيت سنن العدل. واعلم أن القضاء عمود الأمر، فاحفظ صاحبه لأن الناس لا يستغنون عنه ولا يصلحون إلا به، فإن حفظه يحيى الحق ويميت الباطل، وذلك علامة الحق وبرهانه. وتفقد أمور من يتولى خدمتك في جليل الأمور وحقيرها، لتكون على معلوم في الإساءة والتأديب للمسيء، والبر والإحسان إلى المحسن. ولا تجاوز الحد في العقاب ولا في الاحسان، لأن لكل شيء حداً

إذا تجاوزه فسد. وأشهر لمن تحت يدك أنك لا تعجل بالعقاب ولا بالثواب ،فإن ذلك أدوم، الخوف والرجاء بهما تستقيم الطاعة. وبادر بعمل كل يوم بما فيه، ولغدٍ ما يحدث في غد. وعليك بالعدل فمن حرمه فلا خير فيه ولا للناس في سلطانه. ولا تعجل إلى تصديق الرعية، ولا تغفل عن إنصافهم، وأسرع إلى الاستماع منهم وعدهم بحسن الإنصاف لهم وكافىء المحسن على إحسانه واجز المسيىء وتثبت عندما تقول وعندما تفعل وعندما تعطى وعندما تمنع. والرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام. والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطاء. والإقدام بعد التأني أحزم من التأني بعد الإقدام. ولا تكل إلى غيرك من الأمور ما لا يقوم به سواك فإن ذلك يفسد السياسة.

واعلم أن الظفر ينال بالحزم، والحزم بإجالة الرأي. وملاك الرأي تحصين الأسرار. وأدب على الظن، وعاقب على اليقين. واعلم أن الملك والدين أخوان لا يفترقان لأنك لا تجد ملكاً إلا وهو ينتسب إلى دين حق أو باطل، لأن الدين أساس الملك، والملك حارس الدين وقد أصبت من الدين أصحه بحمد الله فابن عليه أمرك، واشتغل بحفظ حدوده فكرك واعد للأمور أقرانها قبل نزولها، وتفقد أمر نفسك فمن كان الناس أعرف منه بعيب نفسه فهو عاجز جاهل. وليكن أبغض الرعية إليك أكشفهم لعيوبهم عندك إلا أن يذكر أمراً يتعلق بدولتك فذلك نصح وليس بكشاف. وما تغطى فلا تكشفه فإنما عليك ما ظهر وعلى الله ما بطن. وخص سرك واختر للمشورة أهل الرأي والحزم كما ذكرنا في عهد الولاية. وقد كنت ذكرت أمراً كالناقد فيه وأغفلت عن الجواب عنه وهو أنك تشد وتلين، واعلم أن الملك لا يستقيم إلا بذلك لأنه لا بد للناس من منفس فإذا فتحت الباب أغلقت، وإذا أغلقت فتحت ليجد الناس في أمر سلطان الأمر مسلكاً فيترددون فيه؛ لأنك إن أغلقت وأَغْلَقَتْ طلبوا في غير البابين طريقاً، ولكن إن لنتَ شددت، وإن شددت لنت. فليكن رجوع الناس من الحق إليه. ولا تعد ذلك نقضاً لم أبرمت فإن قطعت على تصويب أمر فامضه وإن أشرت بخلافه، فكما أن فرصته إذا أمكنتك عملها وإن لم يتقدم بها عهد. فهذه حكم قد خصصناك بها لمكانك منا، فاتخذها قبلة، واعمل بمقتضاها ترشد إن شاء الله تعالى، والسلام عليك بقدر شوقنا إليك ولا تخلنا من إعلامك والسلام(١١٧).

وأما النوع الثاني من الرسائل فهي الرسائل العامة التي وجهها الإمام إلى كافة

الناس ومنها هذه الرسالة التي تبين موقف الإمام من المطرفية حيث يصرح فيها بفساد معتقداتهم وبكفرهم، ويبدو أن هذه الرسالة كانت تسويغاً لأسلوب العنف الذي مارسه الإمام تجاه هذه الفئة التي انتشرت آراؤها بين الشرفاء من بني الهادي وبني العباس، وقد قرئت هذه الرسالة في المجامع والأسواق وأرسلت منها بعض النسخ إلى مكة والحجاز وبعض الأقاليم اليمنية. ونظراً لطول الرسالة فسيتم استبعاد بعض الفقرات التي لا يخل استبعادها بالموضوع. وهذا هو نصها.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. سلام عليكم..... وقد علمتم يا معشر المسلمين بالعيان دون أن نخبر إنساناً أن الشيعة المطرفية أول من أجاب دعوتنا، وأعطى بيعتنا، وشهد في السر والجهر بإمامتنا. فإن كانوا صدقوا في الابتداء فقد كذبوا في الانتهاء، وإن كذبوا في الابتداء فما المانع أن يكونوا في كلتا الحالتين كاذبين سواء..... هذا وقد عددنا المطرفية من التائبين عند ظهور القائم - المجردين في مرضاة الله، شداد العزائم لإظهارهم محض الطاعة وانخراطهم في سلك الجماعة. وكان معنا منهم بمدينة شبام، مرابطة من أفاضلهم قدر أربعين؛ فلما زال الزبد عن الصريح، ولم يبق إلا أن نغلب فنريح أو نموت فنستريح؛ فوجهنا الوجوه تلقاء صنعاء، مقدمين على الهول المهيل، ناهضين بالحمل الثقيل، فتسللوا عنا لواذاً بأصول البرقوق مائلين إلى الخذلان والعقوق إلى أن جاءونا إلى صنعاء مهنئين، فسألناهم عن الحال فتناقض اعتذارهم وبان اختيارهم وظهر فرارهم فعذرناهم، وقلنا ضعفاء جبنت قلوبهم عن الصدام، وكرهوا مفاجأة الحمام. فاجتمعوا إلى صنعاء جمعة عامة، فجدد شيوخهم البيعة. وانتشروا ولاة في الآفاق، فخانوا الأمانة، وركبوا متن الخيانة، فقلنا فقراء أرادوا الابتلال بالمال وأن يصلحوا به الحال فمشينا بهم كما يمشي العليل بدائه، ويرسل على جرحه فضل ردائه، فلما صعبت عليهم الأمور إن أظهروا اعتقاد الإمامة لامهم الخاصة والعامة في خذلان الإمام، وإن رفضوا لغير علة مقتهم الصغير والكبير من الأنام. فداووا خرماً بخرم، وغسلوا إثماً بإثم. وقالوا اطعنوا في إمامة الإمام ليكون لكم عذراً في التخلف عند العوام فسبوا بريًّا وجاءوا شيئاً فريًّا، وقالوا كان وكان، وأخبرنا فلان عن فلان، وصلوات الله على الهادي عليه السلام وعلى الطيبين من آله الكرام. يوهمون أن الصلاة عليه تنقص من بعده وتبطل إمامة غيره.... وإنما يظهرون للعوام أنا لا نكره الإمام، ولهذا ترون محبتنا لمن مضى من الأئمة الأعلام

مكيدة يعرفها فضلاء الرجال، وتجوز على الأغمار الجهال. قلنا هلم إلى المناظرة، فإن كنتم على يقين ظهر للناس صحة ما أنتم عليه وعذرتم عند الله وعند الصالحين، وإن كنتم على ضلالة رجعتم إلى الحق المبين وانخرطم في سلك الصالحين وعددتم من أنصار الأئمة الراشدين. فكرهوا ذلك وذاك بعد أن استقام لهم شيخ آل الرسول في ثلا، فطلبوا لجفوته عللاً، فقاتلهم الله أنا يؤفكون(١١٨). أشاهداً بعد أحمد بن يحيى يريدون، ودليلاً بعده إلى الرشد يبغون. ثم أنى لما قرأت كتاب الله تعالى متأملاً وجعلته لي شغلاً لأنه حياة القلوب وشفاء الكروب وجدتهم قد كذبوا منه وردوا أربعمائة آية وسبعاً وثلاثين آية محكمة لا تحتمل التأويل؛ لو أن مَنْ تحت أديم السماء كذبوا بآية واحدة منها لكانوا بحكم الله سبحانه من الكافرين، ووجب جهادهم على جميع المسلمين فكيف بمن كذب بمجموعها. فأما كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وكلام الأئمة من ولده فهم له رادون وعنه صادرون وإنما الأصل كلام الله فإن صدقوا صدقوا ما بعده فهو فرع عليه وإن ردوه طاب الجلاد وتعيّن فرض الجهاد وغزوناهم كما يغزى الكفار، وأوقدنا النار إزاء النار. فإن ظهرنا عليهم بنصر الله قتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، وبعنا النساء والعيال كما يفعل بالمشركين. ولم يكن عندنا لكل حالم إلا السيف لأن هذا حكم الله وحكم رسوله لأن هذا حكم المرتدين من العرب، وقد تعللوا بالمخافة، والذمة بين المسلمين ثابتة والله سبحانه قد أمر بجوار المشركين حتى يسمعوا كلام الله، وظهور حجج أولياء الله على أعدائه. وإن تمردوا عن ذلك وذاك، . . . . . فما بقى عندنا لهم إلا السيف وكفى به ناصراً للمظلوم ومنتصراً من الظلوم. فإن الخوارج على أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أشد من هؤلاء القوم وطأة في الإسلام. فرسان الخيل وعباد الليل وحملة القرآن وأجلاس الطعان فخالفوا علياً عليه السلام في ثلاث مسائل الأولى منها: لِمَ حكّم والثانية لِمَ محا نفسه من إمرة المؤمنين، الثالثة لم لم يَسْبِ يوم الجمل فقتلهم عليه السلام قتل الكلاب وصبّ عليهم سوط العذاب. واعلموا يا معشر المسلمين رحمكم الله أن الكافر يحل قتله ضعيفاً كان أو قوياً وأن ضعفه مع الكفر لا يعصمه من القتل شيئاً، بل إذا قد حل لنا قتله فأحب الأشياء إلينا أن يكون ضعيفاً لأن القوى يتعبنا علاجه، ويصعب علينا إعوجاجه. فتأملوا الأمور بعين الفكرة وتأهبوا للقيام والنصرة فلو خذلتمونا خذلانهم ما عزّ لله دين ولا حمى سرح الإسلام. وبلغنا أنهم يقولون وأين الجهاد فقلنا كما قيل في المثل المنتشر: هان على الأملس

ما لاقا الدبر. أين أنتم عن نجران وبيجان والجوف وغزو تهامة، وما ظهر في الجنات وشبام للخاصة والعامة من المواقف التي حضرتها رجال حمير وما كسبوا فيها من أجر ومفخر وأنتم منحجرون إنحجاز الضباع مترددون بين الدراعة والقناع تأكلون الحار والبارد متفيئون في ظل المساجد، لا لله تتقون ولا من محمد صلى الله عليه وآله تستحيون، قد خذلتم ذريته بأنفسكم، وخذلتم الناس عنهم بمكركم فشركتم في دمائهم وعددتم من أعدائهم. . . . ومن عجائبهم وإن كانت لا تحصى أنهم قالوا لا ينبغي للإمام أن يعمل الحصون ويشحنها قوة للمسلمين ومراغماً للفاسقين. قلنا فأين أنتم عن قوله تعالى ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾[١١٩]. وما أخرجنا الأموال الجليلة التي صارت إلينا إلا في هذين الوجهين. أفليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا جهّال خندَقَ على نفسه خوفاً من المشركين وهو في ثلاثة آلاف من الأنصار والمهاجرين وكل واحد منهم يحب أن يموت قبل صاحبه، وكل واحد من أهل عصرنا يحب أن يموت صاحبه قبله ومعه الملائكة مسومين. فأين أنتم عن الآثار النبوية يا أجهل العالمين. لا بكلام الله صدقتم ولا كلام رسول الله اتبعتم فأين تريدون. قلنا فما الصواب قالوا يبرز الإمام إليهم إما قتلوه وإما قتلهم. قلنا وهذه الذي تريدون أن يلقى العدو بغير مكافأة فيقتل فتستريحون. لا لعمر الله بل يطرق إطراق الشجاع عند عدم الناصرين، ويثب وثوب السباع عند وجدان المعين. ولا يزال شجاً في حلوقكم وقذا في أعينكم وأعين إخوانكم الفاسقين حتى نطهر الأرض منكم أجمعين بالتائبين من العاصين والمستحبين من المؤمنين والأعوان من المسلمين، ونستنجز في ذلك وعد رب العالمين ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[١٢٠]. وقوله تعالى ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[١٢١]. هرب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الغار خوفاً من المشركين، وانحاز في شعب أحد حذراً من سطوة الكفر حتى قال شاعرهم:

فلولا صعودُ الشِعْبِ غادرن أحمدا ولكنْ نجا والسمهريّ شروع

ولم يزل صلى الله عليه وآله إن أمكنته فرصة وثب وإن خاف طغيان المشركين احترز حتى كانت العاقبة للمتقين قلنا وما تنقمون على الإمام قالوا عاقب قلنا أفلستم تعاقبون قالوا رحل الناس من بيوتهم قلنا أفلستم ترحلون، قالوا غرم قلنا فأنتم

تغرمون من لا يجب عليه من الحقوق شيء وأقل أحواله أن يكون مثلكم يجوز له ما يجوز لكم. قالوا أعطى أموال الله العصاة. قلنا أفليس أعطيتم أموال الله إسماعيلَ الكافر اللعين؟ قالوا مداراة؛ قلنا فإذا جاز إعطاء العصاة أموال الله مداراة، جاز اعطاؤها للحرب والمكافأة، فإذا جاز إعطاؤها من يعصي الله جهراً جاز إعطاؤها من يعصي الله سراً. وإذا جاز لعامة المسلمين ولا ولاية لهم، جاز لأمير المؤمنين، فله ولاية عامة على الخاصة والعامة في النفوس والأموال فتيقظوا يا معشر الجهال فما بقي إلا الفجر أو البحر، فقد عدمتم اللب وأعييتموني كما قيل في المثل السائر من شب إلى دب. . . . أعيوني في حال ما وافقوني ونافقوني فكيف بعد أن ناصبوني وكاشفوني. . . . وقد دعونا القوم إلى الله سبحانه فإن أجابوا قبلنا وإن أبوا جلبناهم بالساعد الأشد وصبناهم بحاصب البرد. . . . ولو كانت لنا رخصة في المتاركة لعملنا كما قيل فيّ المثل السائر دع أمراً وما اختار لكن منع من ذلك خوف النار في ترك طاعة الحكيم تعالى. . . . . وهذه نصيحة لزمنا فرضها فشهرناها وكامنة من معالم الدين أثرناها فما أولئك القوم أكثر عبادة ولا أعظم حرمة من أصحاب النهر فذاقوا مس سقر وقتلهم خير البشر. فانظروا في ذلك معشر المسلمين ولا ترخصوا للقوم والسلام(١٢٢).

أما النوع الثالث من رسائله فهي الرسائل التي كتبها إلى إقليم من الأقاليم أو قرية من القرى. ومنها هذه الرسالة التي وجهها إلى أهالي لصف في جمادي الآخرة من سنة اثنتين وستمائة، بعد أن بلغ الإمام جفوة أهالي المنطقة لقبر أخيه إبراهيم بن حمزة، واستخفافهم بحقه، فما عظموا حرمته ولا زاروا قبره. وقد شجعهم على ذلك المطرفية النازلين بلصف. فعزم الإمام علي نقل رفاته إلى الجوف، فكتب إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله المنصور بالله أمير مؤمنين إلى كافة الساكنين بلصف من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم. فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونسأله لنا ولكم التوفيق لما يحب ويرضى. أما بعد فقد بلغنا جفوتكم للشهيد الذي توفي بين أظهركم وحط رحله بين أفنيتكم، وجاد بنفسه دون بلادكم، واستقبل بوجهه العدو صبراً واحتساباً حين زاغت الأبصار فشلاً وبلغت القلوب الحناجر وجلا، وظن قوم بالله الظنونا جزعاً، وابتلي المؤمنون بالهزيمة امتحاناً وزلزلوا بالحادثة اختباراً فرخص عنده من الموت ما غلا عند غيره وغلا عنده من الفرار ما رخص عند سواه. وعلم القصد فتمم العزم، ومضى البصيرة على مناهج السلف

الصالح مستقبلاً لكثرة العدو عزمة ومستصغراً لعظيمه نجدة. فبلغنا أنكم هاجرون لقبره قالون لمصرعه، قد صغرتم منه ما عظم الله سبحانه وجهلتم ما علم الصالحون خيره وشكا كأنكم لم تسمعوا قول محمد صلى الله عليه وآله فينا أهل البيت خاصة. «أقرب الناس مني موقفاً يوم القيامة بعد حمزة وجعفر رجل منا أهل البيت خرج بسيفه فقاتل إماماً ظالماً فقتل». فهلا رحمكم الله استسقيتم بتراب مصرعه من الأدواء وسألتم بتربة مضجعه رفع الأسواء واستمطرتم ببركة قبره من رحمة ربكم طوالع الأنواء وعظمتم حاله كما يعظم حال الشهداء وأوجبتم من حقه ما ضيّع الأعداء وعمرتم على قبره مشهداً وجعلتموه للاستغفار مثابة ومقصداً، ونذرتم له النذور تقرباً وزرتموه تودداً إلى الله سبحانه وإلى رسوله صلى الله عليه، وإلينا وتحبباً. فقد روينا عن أبينا رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث فيه بعض الطول «أنه نظر إلى الحسن والحسين عليهما السلام وهما يلعبان بين يديه فبكا فهابه أهل المنزل أن يسألوه فوثب عليه الحسين عليه السلام فقال ما يبكيك يا أبت فقال يا بني إني سررت بكما اليوم سروراً لم أسر به قبله مثله فجاءني جبريل فأخبرني أنكم قتلى وأن مصارعكم شتى. قال يا أبت فمن يزورنا على تباين قبورنا. قال قوم من أمتي يريدون بذلك بري وصلتي. إذا كان يوم القيامة أتيت حتى آخذ بأعضادهم فأنجيهم من أهوالها وشدايدها». ألا فاعلموا بعد الذي بلغنا عنكم أنا قد قلينا له جواركم ورغبنا به عن داركم وعلمنا بعد الخيرة لله سبحانه على نقله من أوطانكم إلى من يعرف حقه ويتيقن فضله وسبقه. فلو رعيتم له حرمة القرابة وفضل ورراث النبوة، لعلمتم حرمة ذلك الدم الزاكي وكثر عليه منكم الباكون والبواكي، فإن كان ذلك من غرضكم فإنا نفعله إن شاء الله تعالى وإن لم يكن من إرادتكم فلسنا بتاركيه بتوفيق الله سبحانه والسلام والحمدلله وصلواته على محمد[١٢٣].

أما النوع الرابع من المراسلات: فهو المراسلات المتبادلة بين الإمام عبدالله بن حمزة والأمير وردسار وهي ترجمة للعلاقات السياسية والعسكرية بين الزيدية والأيوبيين. وعلى الرغم من الظروف العسكرية الصعبة التي واجهت الطرفين، إلا أن هذه الرسائل أو الوثائق لا تخلو من الطرافة والغرابة وسنعرض لبعض هذه الرسائل، وفقرات من بعضها الآخر. وكانت الهدنة قد تقررت بين الإمام والأمير وردسار، وتم تحديد المناطق التابعة لكل منهما. وكان من ضمن شروط الهدنة أن تعهد وردسار «بصيانة الشرفاء حيث كانوا من بلاد الغز من مشارق صنعاء ومغاربها

من جميع المطالب التي يطالب بها سائر الناس من أموالهم وأنفسهم[١٢٤].

ويبدو أن الطرفين قد أخلاّ بشروط الصلح، فأرسل وردسار يعاتب الإمام علي ذلك، فرد عليه الإمام بطريقة تؤكد على براءته مما نسب إليه، وبتمسكه باستمرار الهدنة، جاء في رسالة الإمام إلى وردسار «قد صرت اليوم كبير الدولة ومقدم الجند ونحن نرجو أن تقود الكل إلى طاعة الله تعالى. . . . . واعلم أن رجاءنا نفتح بجندك أقطار البلاد والمواضع المستغلقة الصعبة علينا وأن تجتهد في صلاح سيف الدين[١٢٥] ورجوعه إلى الحق وإلى طاعة الله تعالى ونصرتنا وإظهار كلمتنا، ولو تصعب عليك في بدىء الأمر فعاوده فإن بحضرته من يكوّن أمرنا ويصده عنا ويأمره بجفوتنا ولو احتمل الكتاب أكثر من هذا بينا لك سببه وأنت غني عنها. ولو حزنك أمر وانسناك بنفوسنا ووقيناك بحسومنا. . . . وقد بلغنا أن بحضرتك من يباعدك عنا. وأما ما ذكرت من أنا نسابق لنأخذ صنعاء فلا شك أنا نتوسم في نفوسنا ونرجو من الله سبحانه أن نملك الدنيا بين أقطارها، فكيف صنعاء. . . . . واعلم أن ما في اليمن عربي له رئاسة يريد حياة الجند غيرنا لأنا نريدهم جنداً لو وقع اليمن أوردناهم العراق وسوريا. . . .»[١٢٦].

وسرعان ما توترت العلاقة بينهما لعدم التزام وردسار بتنفيذ الشروط المتفق عليها، الأمر الذي أدى إلى استمرار الحرب التي أنهكت الجانبين، وظهرت الرغبة في عقد اتفاق جديد للصلح، ونجح المفاوضون من الطرفين في وضع شروط جديدة للصلح ارتضاها الجميع. وقام الإمام بصياغة يمين غريب ليحلف به وردسار على التزامه بشروط الصلح، هذا نصها.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم والله مكررة إحدى وعشرين مرة وبعد ذلك الذي «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور»[١٢٧]. وتكن الضمائر السميع العليم العزيز الحكيم الرحمن الرحيم الذي علمه بما ظهر كعلمه بما بطن وإحاطته بما خفى كإحاطته بما علن وإلا فعلى عهد الله وميثاقه وأشد ما أخذ الله على نبي من أنبيائه من عقد أو عهد، وإلا فخرجت من حول الله وقوته إلى حول نفسي وقوتي استعلاء على الله واستكباراً عليه وتحملت الحول والقوة من دون الله أني من ساعتي هذه ووقتي هذا قائم وناهض ومستيقظ ومشمر في الوفاء والحفظ والحياطة للإمام المنصور بالله أمير المؤمنين عبدالله بن حمزة بن سليمان بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمرائه وأصحابه وأجناده وأوداده

وبلاده وبجميع متصرفاته وكل وقت حاولت نقض شيء من هذه الشروط أو سبب من هذه الأسباب بتأويل أو تحريف أو الحاد في نية أو ضمير فالله ورسوله المطالبان لي والكفيلان على ذلك والله تعالى المتولى لمحاربتي وخذلاني وإفرادي بنفسي وحولي وقوتي من دون أن تلحظني منه رحمة أو يمسكني من أسبابه سبب أو يضفي على من أستاره ستراً وعلى إيمان البيعة بحلالها وحرامها وحجها وصيامها وجميع شروطها وكل مملوك لي فهو حر وكل زوجة في عقد نكاحي فهي طالق وكل مال أملكه فهو صدقة على فقراء مكة والمدينة، وعليّ لله عز وجل نذر لازم وحق واجب إن نكثت في هذه اليمين أو ما لأت أو أملأت أو أسررت أو أبطنت أو أظهرت أو كنيت أو الغزت أو كتبت أو أمليت بضرر على الإمام أو على إخوته وبني عمه وأمرائه وأجناده وبلاده وطرقاته وأسبابه وحصونه وممالكيه وسفره وبحره وبدوه وحضره صيام عشر سنين متوايات وحج عشر سنين متتابعات ماشياً حافياً وعتق عشرين رقبة بالغات مؤمنات وعليّ طلاق كل امرأة أعقد نكاحها في المستقبل، وعتق كل مملوك أملكه في المستقبل والصدقة بكل ما أملكه في المستقبل على عمارة الحرم الشريف ونفقة المتوجهين إليه بغير استثناء لشيء من ذلك ولا مدافعة بنية ولا استثناء، وعليّ نذر لازم إن حنثت في يميني وعتق أم كل ولد عقيب وضعها للولد عتقاً ماضياً، وأن يميني هذه لا ينقضها أمر سلطان ولا غيظ جنان وأن السلطان الملك الناصر أيوب بن طغتكين والأتابك الأجل سيف الدين سنقر متي حاولا نقض هذه الهدنة المتقررة بيني وبين الإمام علي شروطها فأنا الضمين عليها والمتولى لمدافعتهما عن ذلك طلباً للوفاء فإن لم أفعل ذلك لزمني الحنث وإلّا فكل نذر وصدقة وعتق وصيام وحج تقدم في هذه الصحيفة لازم لي واجب علي ﴿فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾[١٢٨]. ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[١٢٩] ﴿ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾[١٣٠] ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[١٣١]. وهذه الهدنة مدة سنتين متواليتين وعشرة أيام وعشر ساعات أولها منتصف شهر المحرم أول سنة إحدى وستمائة»[١٣٢].

غير أن هذه الهدنة لم تستمر طويلاً، وسرعان ما عاد الصراع شديداً عنيفاً بينهما. وفي المحرم من سنة اثنتين وستمائة أي بعد عام كامل تم تجديد الصلح[١٣٣]. ولكن سرعان ما بدأ وردسار بالتحرش بالإمام مدعياً عليه بأنه قد أخل

بشروط الهدنة، جاءت كتبه إلى الإمام متضمنة الكثير من السباب والأذية فكره الإمام إجابته «فأمر الأمير صفي الدين أن يجعل الجواب منه ويمزجه باللين والشدة التي لا عنف فيها»[١٣٤]. ثم جاء خطاب آخر من وردسار أفحش فيه في القول وبالغ في السب والأذى والتهديد والوعيد للإمام، وقد اكتفى مصنف السيرة بذكر نبذة يسيرة منه لأنه محشو بالسب والأذية الكثيرة[١٣٥].

يقول وردسار في خطابه «وقد أصدرنا هذا الكتاب إليك، وأوفدنا هذا الخطاب عليك ونحن منك طيبون ولزحف قتالك متقربون. والله لننزلن على بلادك، ونحتاط بها، ونقرب منها، ونضرب خيمنا بحيث ينالك سلاحنا بأطرافه، ويزحمك منجنيقنا بأكتافه، ونرسل إليك رسل المنايا من النشاب، ونسلط عليك من يأتي البيوت في الحرب، ولكن من غير الأبواب ويشارفك عسكرنا في عَدَد وعُدَد ومواد مدد «ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون»[١٣٦]. فكن من أمرنا على مرصاد فإذا وقفت على كتابنا فاتل أول النحل وآخر صاد[١٣٧]. فرد عليه الإمام برسالة طويلة نذكر جزءاً منها «أفلست صاحب الذمة التي أكدتها بيمينك وآثرت فيها دنياك على دينك فأججت نيران الحروب وعصيت علام الغيوب وادعيت الإحاطة بأقطار الدنيا علماً وقدرة وأنك منجب الظفر والنصرة فكان عاقبة الأمر ما علمت ﴿وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾[١٣٨]. ثم كان في هذه السنة الماضية جرى ما جرى من الهدنة ولم نكره حقن دماء هذه الأمة والتأني حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده. ففي خلال ذلك كتبك إلى أرباب الفساد ومكايدك مشهورة عند الحاضر والباد فعل من لا يحمي للدين ذماراً ولا يرجو لله وقاراً فأضربنا عن مطالعتك في ذلك لعلمنا بدخيلة سرك وحقيقة أمرك حتى يكون ما كان من عندك. فنستعين بالله على حربك ونستكفيه ما يخشى من خوف شرك ونعود إلى ما كنا نحن وأنت فيه من الحرب التي لا تنكرها ولا ننكرها وهي لك وعليك. ولم ندع فيها من كيدنا ممكناً ولا ندخر طاقة هذا. وفي أثناء كتابك ذكر مراحمك وعواطفك. وأي أمر قدرت عليه فثنتك الرحمة أو عطفتك المروَّة أو ردتك من اتيانه الحمية..... لأنك تعلم عظم إقدامك على العهود ونكثك للعقود مرة بعد أخرى شفعاً ووتراً، أول ذلك صلح الضلع وما كان فيه من الشروط التي نقضتها والربوط التي رفضتها وأغفلنا ذلك كأنه ما كان ولم نذكره في كتاب قبل هذا الأوان، ثم بعد ذلك الذمة التي حلفت عليها الإيمان وهي سنتان

فنقضتها قبل مض ربع المدة ولم تنحل منها بدون الفعل عقدة. وهذه الهدنة جعلتها عشر سنين وخلفت عليها بأبلغ يمين»[١٣٩].

هذه بعض النماذج للرسائل والوثائق التي تضمنها كتاب السيرة المنصورية - لأبي فراس بن دعثم - والتي تضفي على الكتاب قيمة علمية عالية.

ومن ثم فإن الكتاب على الرغم من عدم اكتمال أجزائه الأربعة، فإنه يعد إضافة جوهرية لمصادر تاريخ اليمن في العصور الوسطى.

الهوامش:

(١) بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي الهمداني، كتاب السمط الغالي الثمن في أخبارالملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سمث، لندن، ١٩٧٤.

(٢) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، غاية الأماني في أخبارالقطر اليماني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جزءان، القاهرة، ١٩٦٨.

(٣) حميد بن أحمد المحلي، الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، مخطوط مصور، صنعاء، ١٩٨٢.

(٤) Biblioteca Ambrosiana, Mss ARABI, E 52.

(٥)

انظر: الهادي بن إبراهيم بن علي بن الوزير، تاريخ بني الوزير، مخطوط رقم ٢٤٩٤، تاريخ وتراجم، المكتبة الغربية بالجامع الكبير، ورقة ٨٦، ٨٧، يحيى بن الحسين، الطبقات في ذكر فضل العلماء، نسخة مصورة بمكتبة الدكتور عبد الرحمن الشجاع عن النسخة الموجودة بمكتبة جامعة صنعاء، ورقة ٦٧؛ عبد الله محمد الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنية، ص ٥٣٨.

(٦) أحمد بن صالح بن محمد بن علي بن صالح أبي الرجال، مطلع البدور ومجمع البحور، نسخة مصورة بمكتبة الدكتور عبد الرحمن الشجاع عن النسخة الموجودة بمكتبة القاضي إسماعيل الأكوع، جـ ٣، ص ٢٥٧؛ الهادي بن إبراهيم، تاريخ بني الوزير، ورقة ٨٧؛ أحمد بن محمد الشرقي، اللآليء المضية في أخبار أئمة الزيدية ومقتصدي العنزة الزكية، نسخة مصورة بمكتبة الأستاذ عبد الوهاب عسلان عن النسخة الموجودة بمكتبة بيت المؤيد، جـ ٢، ص ٢٦٨؛ مؤلف مجهول، أخبار الهجرة المنصورية، ظفار وحصونها الأربعة وذكر بنائها وحوادثها، مخطوط رقم ١٤٧٠، دار الكتب المصرية، ص ٤؛ محمد بن محمد زبارة الحسني الصنعاني، أئمة اليمن، جـ ١، تعز، ١٩٥٢، ص ١١٠.
G. R. SMITH, THE AYYUBIDS AND EARLY RASULIDS IN THE YEMEN, Volume 2, A Study of Ibn Hatim's Kitab al - Simt, Cambridge 1978, p. 98.

(٧) الشرفي، اللآليء المضية، جـ ٢، ص ٢٤١، ٢٦٨؛عزالدين محمد بن عبدالله بن علي بن الحسين، كتاب التحفة العنبرية في المجددين من أبناء خير البرية، مخطوط رقم ٢٥٢٨ تاريخ وتراجم، المكتبة الغربية بالجامع الكبير، ورقة ١٠٧؛ زبارة، أئمة اليمن، جـ ١، ص ١١٠؛

الحبشي، مصادر الفكر، ص ٥٣٨.
SMITH, THE AYYUBIDS, Vol. 2, p. 98.

(٨) مؤلف مجهول، أخبار الهجرة المنصورية، ص ٤، ٥.
(٩) الحبشي، مصادر الفكر، ص ٥٣٨.
(١٠) انظر: أبو الرجال، مطلع البدور، جـ٣، ص ٢٥٧؛ يحيى بن الحسين، الطبقات في ذكر فضل العلماء، ورقة ٧٠؛ المستطاب في تاريخ علماء الزيدية الأطياب، مخطوط رقم ٢٦٢١ تاريخ وتراجم، المكتبة الغربية بالجامع الكبير، ورقة ٤٠.
(١١) أبو الرجال، مطلع البدور، جـ٤، ص ٤؛ يحيى بن الحسين، المستطاب، ورقة ٣٩؛ الطبقات، ورقة ٦٩.
(١٢) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٤٢.
(١٣) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١٣.
(١٤) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦.
(١٥) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٣.
(١٦) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٢٦.
(١٧) يحيى بن الحسين، الطبقات، ورقة ٦٩.
(١٨) أبو الرجال، مطلع البدور، جـ٤، ص ٤.
(١٩) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٦٩.
(٢٠) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٦٩.
(٢١) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٩٧.
(٢٢) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٦٩.
(٢٣) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١٢.
(٢٤) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٠٠.
(٢٥) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٦٩.
(٢٦) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٥٥.
(٢٧) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٩٠.
(٢٨) SMITH, THE AYYUBIDS, Vol. 2, P. 98.
(٢٩) حميد المحلي، الحدائق الوردية، ص ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٧.
(٣٠) ابن حاتم، السمط الغالي الثمن، ص ١١١.
(٣١) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوط رقم ٢١٤٦، بمكتبة الأوقاف بالجامع الكبير، ورقة ٦٢؛ غاية الأماني، جـ١، ص ٣٦٦، ٣٨٧؛ محمد بن إسماعيل الكبسي، اللطائف السنية في أخبارالممالك اليمنية، القاهرة ١٩٨٣، ص ٦٧، ٦٩.
(٣٢) عز الدين محمد بن عبد الله، التحفة العنبرية، ورقة ١٠٧؛ الشرفي، اللآليء المضية، جـ٢، ص ٢٤١.
(٣٣) الهادي بن إبراهيم، تاريخ بني الوزير، ورقة ٨٧.
(٣٤) يحيى بن الحسين، الطبقات، ورقة ٦٦.
(٣٥) يحيى بن الحسين، الطبقات، ورقة ٦٩؛ المستطاب، ورقة ٣٩.
(٣٦) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٠٨.
(٣٧) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٩٩.
(٣٨) يحيى بن الحسين، المستطاب، ورقة ٣٩؛ مؤلف مجهول، أخبار الهجرة المنصورية، ص ٥.

(٣٩) زيارة، أئمة اليمن، جـ ١، ص ١١٠.
(٤٠) يحيى بن الحسين، الطبقات، ورقة ٦٩؛ الهـادي بن إبراهيم، تاريخ بني الوزير، ورقة ٨٧.
(٤١) أبو الرجال، مطلع البدور، جـ ٤، ص ٤.
(٤٢) انظر: أبو الرجال، مطلع البدور، جـ ٤، ص ٤، ٢٠٨، ٢٠٩؛ يحيى بن الحسين، المستطاب، ورقة ٤٠؛ الطبقات، ورقة ٧٠؛ السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ٣٥، ٣٦، ٣٧، جـ ٣، ورقة ٣٩؛ الهادي بن إبراهيم، تاريخ بني الوزير، ورقة ٨٧؛ مؤرخ مجهول، أخبار الهجرة المنصورية، ص ٥.
(٤٣) السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٥٤.
(٤٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، «كتاب صبح الأعشى مصدر لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى» ص ٢٣ ـ ٧٠، ضمن كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٣، ص ٢٦، ٢٧.
(٤٥) الأمير علم الدين وردسار بن سامي، من كبار قادة الأيوبيين في اليمن، لجأ إلى الإمام عبد الله بن حمزة خوفاً من سطوة الملك المعز اسماعيل بن طغتكين، وعاد بعد وفاة المعز إلى صفوف الأيوبيين، وولاه سيف الدين سنقر على صنعاء وأعمالها. أنظر، السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ٤١؛ ابن حاتم، السمط، ص ٥، ٩٦.
(٤٦) ينسب هذا المذهب إلى مطرف بن شهاب، من علماء الزيدية في القرن الخامس الهجري. وهم القائلون بحدوث العالم وأن الحوادث اليومية كالنباتات والمولودات والآلام ونحوها حادثة من الطبائع الحاصلة من الأجسام ولا تأثير فيها للقديم وقد تأثروا بآراء أبي القاسم البلخي والنظام. وعن فكر هذه الطائفة، أنظر، عبد الله بن زيد العنسي، عقائد أهل البيت والرد على المطرفية، صورة مصورة عن مخطوطة برلين رقم ١٠٢٩٢ لدى الدكتور أحمد عارف؛ يحيى بن الحسين، الطبقات، ورقة ٣٧ ـ ٤٢؛ الهادي بن إبراهيم، تاريخ بني الوزير، ورقة ٨٧ ـ ٨٩.
(٤٧) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٠٤.
(٤٨) السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٦٩.
(٤٩) السيرة المنصكورية، جـ ٢، ورقة ١٣٣.
(٥٠) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٢٨.
(٥١) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٣٤.
(٥٢) كانت مدينة صنعاء عاصمة سلاطين بني حاتم، وعندما بدأت تتعرض للغزو من جانب القوات الأيوبية بقيادة تورانشاه، ومن بعده سيف الإسلام طغتكين، قام السلطان علي بن حاتم بهدم سور المدينة. وعندما استقر الأمر للأيوبيين في صنعاء قام سيف الإسلام بتجديد عمارة سور المدينة. انظر: ابن حاتم، السمط، ص ٢٧، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٣٢٤، ٣٣٧؛ عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، جزءان، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة ١٩٧١، ١٩٧٧، جـ ١، ص ٣٨٩، ٣٩٥.
(٥٣) النورة بالضم، من الحجر يحرق ويسوي منه الكلس. انظر الزبيدي، تاج العروس، م ٣، ص ٥٨٨.
(٥٤) لا توجد معلومات عن سد صنعاء، ولكن يبدو من النص أن السد كان في موضع بين الرحبة وصنعاء. وفي موضع آخر من السيرة يبدو مكان السد أكثر وضوحاً، فيذكر بأن السد كان بين المنظر (الروضة) وصنعاء. كما يبدو أيضاً أن هذا السد كانت تتجمع فيه المياه الواردة من غيل البرمكي. ومن ثم فأغلب الظن أن يكون هذا السد هو سد شعوب الذي ذكره الأكوع. انظر: السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٨؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ١٤٢؛

الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، كتاب الإكليل، جـ٨، تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، دمشق ١٩٧٩، حاشية ١٣، ص ١٩٠.

(٥٥) انظر: السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٥١.

(٥٦) انظر: السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١، ٢.

(٥٧) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٧.

(٥٨) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٥، ٦٠.

(٥٩) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٥٢.

(٦٠) Smith, The Ayyubids, Vol. 2, P. 94.

(٦١) محمد أبو الفرج العش، «المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية» من أبحاث المؤتمر التاسع للآثار في البلاد العربية، المنشورة بعنوان الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس ١٩٨٥، ص ٢١٣.

(٦٢) ابن حاتم، السمط، ص ٢٢؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ١، ص ٣٢٧، ابن الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ٣٨٤، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، صنعاء ١٩٨٥، ص ٧٨.

(٦٣) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٠.

يذكر ابن المجاور الذي زار اليمن ومكة وبعض بلاد الحجاز ـ بعد وفاة الإمام عبد الله بن حمزة بسنوات قليلة ـ أن الدينار السائد في كثير من هذه البلاد هو الدينار الملكي الذي بدأ ضربه في عهد علي بن محمد الصليحي. وأن الدينار المصري كان يساوي أربعة دنانير ونصف من الدنانير الملكية. والتي يغلب الظن بأنها هي الدنانير السبئية.

أما الدراهم الفضية، فأول من ضرب الدرهم الكبير هو الملك المعز إسماعيل بن طغتكين، وزن كل درهم ثلاثة عشر قيراطاً. وكان الدرهم العباسي ومن بعده الدرهم السيفي هما الدرهمان المتداولان قبل ذلك. وزنة كل واحد منهما أربعة قراريط وحبة، أنظر: جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة تأريخ المستبصر لإبن المجاور. اعتنى بتصحيحها أوسكر لوفغرين، بيروت ١٩٨٦، ص ١٢، ٨٠، ٨٩، ١٤٥.

(٦٤) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٠، ٦١.

(٦٥) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦١.

(٦٦) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦١.

(٦٧) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦١.

(٦٨) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٢.

(٦٩) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٢. والآية من سورة المائدة، آية ٥٥. أما بالنسبة للعملة الفضية فقد كتب على أحد وجهيها: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله. وعلى الوجه الآخر: الإمام عبد الله بن حمزة بن سليمان المنصور بالله أمير المؤمنين ابن رسول الله.

انظر: علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين، الزيدية، نظرية وتطبيق، عمان ١٩٨٥، ص ١٦١.

(٧٠) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦١.

(٧١) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٧٣.

(٧٢) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦١.
(٧٣) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦١.
(٧٤) أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن الخزرجي، العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك، مخطوط مصور، دمشق ١٩٨١، ص ١٧٧.
(٧٥) ابن الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ٤٠٧.
(٧٦) ابن الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ٤٠٧، حاشية ٢ للمحقق.
(٧٧) انظر: السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٦٩، ١٧٠.
(٧٨) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ورقة ٦٤؛ غاية الأماني، جـ١، ص ٣٧٣.
(٧٩) السيرة المنصورية، جـ٢، وقة ٧٦.
(٨٠) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٧٣.
(٨١) السيرة المنصورية، جـ٣ ورقة ٢٩.
(٨٢) السيرة المنصورية، جـ٣ ورقة ٦.
(٨٣) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٢٩.
(٨٤) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٤١.
(٨٥) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١٢٩.
(٨٦) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦.
(٨٧) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٢٩.
(٨٨) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٧٣.
(٨٩) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٠.
(٩٠) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٦٣.
(٩١) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٩١.
(٩٢) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٤٢.
(٩٣) ذكر ابن المجاور الكثير من العادات والتقاليد المتبعة في الزواج، والهدايا العينية والنقدية التي كانت تقدم للعروسين في بعض بلاد اليمن. ويعود اهتمام ابن المجاور بذكر هذه الأمور وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية في اليمن، لأنها كانت عادات وتقاليد غريبة بالنسبة له.
انظر: ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص ٧، ٥٦، ٨٥، ٨٦، ١٩١.
(٩٤) السيرة المنصورية، جـ، ورقة ٣٤ - ٤١.
(٩٥) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٦٧.
(٩٦) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١٧٣.
(٩٧) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٠.
(٩٨) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٩؛ أنظر أيضاً، ورقة ٢٧، ٣٥، ٣٩، ٤٢، ٦٨، ٧٤، ١٣٢؛ جـ٢، ورقة ١١، ٤٢، ٤٤، ٤٩، ٥٩، ٨٨، ٩٢، ١١٩، ١٤٦.
(٩٩) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ٤٤.
(١٠٠) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٧.
(١٠١) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٢٥.
(١٠٢) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٧، ٧٤.
(١٠٣) انظر: السيرة المنصورية جـ٣، ورقة ٨٦، ٨٧.
(١٠٤) المنجنيق، بكسر الميم، وهي آلة لرمي الحجارة.

السيد محمد شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٣٤٢ هـ، جـ ٢، ص ٦٧.

(١٠٥) العرادة بالتشديد، آله شبه المنجنيق وأصغر منه. والجمع عرادات.
محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة بيروت، م ٢، ص ٤٣٠؛ محمد بن مكرم بن علي بن منظور، لسان العرب المحيط، طبقة بيروت، م ٢، ص ٧٢٨؛ الألوسي، بلوغ الأرب، جـ ٢، ص ٦٧.

(١٠٦) النشاب: النبل واحدته نشابه، والنشاب: السهام، والسهم واحد النبل أي أن النشاب والسهام والنبل ثلاث مسميات لشيء واحد.
انظر، ابن منظور، لسان العرب، م ٢، ص ٢٢٩، ٢٣٠؛ م ٣، ص ٥٧١، ٦٣٣.

(١٠٧) الشرخ: النصل الذي لم يسق بعد، ولم يركب عليه قائمة، والجمع شروخ.
انظر، ابن منظور، لسان العرب، م ٢، ص ٢٩٣؛ الزبيدي، تاج العروس، م ٢، ص ٦٤.

(١٠٨) القسى: مفردها قوس. وتجمع قوس أيضاً، أقواس وأقياس وقياس.
انظر، الزبيدي، تاج العروس، م ٤، ص ٢٢٤ - ٢٢٥؛ ابن منظور، لسان العرب، م ٣، ص ١٨٦.

(١٠٩) يتضح من النص أنها كانت نوع من الدروع التي تقي الأجسام.
انظر، السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٢٩، ٤٢.

(١١٠) البيضة، بفتح الباء وهي ما يلبس في الرأس من آلات السلام.
انظر؛ ابن منظور، لسان العرب، م ١، ص ٢٩٦؛ الألوسي، بلوغ الأرب، جـ ٢، ص ٦٦.

(١١١) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٥٣.

(١١٢) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٧٧.

(١١٣) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٥٢.

(١١٤) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ١٥٤.

(١١٥) السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٢٨.

(١١٦) عبد القادر أحمد طليمات، «وثائق القلقشندي في صبح الأعشى» ص ١١٧ - ١٤٤، أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، ص ١١٩.

(١١٧) السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٧٢، ٧٣.

(١١٨) انظر سورة التوبة، آية ٣٠، سورة المنافقون آية ٤.

(١١٩) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(١٢٠) سورة التوبة، آية ٣٣، سورة الصف، آية ٩.

(١٢١) سورة القصص، آية ٥، ٦.

(١٢٢) السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٩٩ - ١٠١.

(١٢٣) السيرة المنصورية، جـ ٣، ورقة ٧٠.

(١٢٤) السيرة المنصورية، جـ ٢، ورقة ٥٨.

(١٢٥) سيف الدين سنقر بن عبدالله أحد مماليك سيف الإسلام طغتكين، ومن كبار قادة الأيوبيين في اليمن. تزوج بأرملة سيف الإسلام، وتولى تربية ابنه الناصر. وعندما آل الملك إلى الناصر تولى سنقر خدمته والقيام بدولته. وتوفي سيف الدين سنقر حوالى سنة ٦٠٨ - هـ
انظر، علي بن الحسن الخزرجي، طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن، مخطوط رقم ٢٥٨٦ تاريخ وتراجم بالمكتبة الغربية في الجامع الكبير، ورقة ١٢٧؛ العسجد، ص ١٧٥؛

ابن الربيع، قرة العيون، جـ١ ص ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٠٩.
(١٢٦) السيرة المنصورية، جـ٢، ورقة ١٢٥.
(١٢٧) سورة غافر، آية ١٩.
(١٢٨) سورة البقرة، آية ١٨١.
(١٢٩) سورة المائدة، آية ١.
(١٣٠) سورة النحل، آية ٩١.
(١٣١) سورة الفتح، آية ١٠.
(١٣٢) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٥، ٦.
(١٣٣) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ٦٤، ٦٥.
(١٣٤) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١١٧.
(١٣٥) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١١٨.
(١٣٦) سورة الأنفال، آية ٣٧.
(١٣٧) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١١٨.
(١٣٨) سورة الاسراء، آية ٨.
(١٣٩) السيرة المنصورية، جـ٣، ورقة ١١٨ - ١٢٠.

وقفة مع السياسة المالية في عهد عمر بن الخطاب

الدكتور غالب القُرشي
قسم الدراسات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المسرسلين وبعد.

فإن موضوع السياسة المالية في الإسلام ليس جديداً، بل ولا الكلام فيه جديداً فهو موضوع قديم قدم الشريعة الإسلامية، ونشأة الدولة الإسلامية الأولى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأحكام المال في الإسلام مستخرجة من كتاب الله المصدر الأول للتشريع الإسلامي وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الارشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ..» ووضح بقوله: «الخلافة بعدي ثلاثون عاماً» من هم الخلفاء الرشادون. فأقوالهم وأعمالهم اعتبرها العلماء من التشريع لأنها راجعة إلى كتاب الله وسنة رسول الله. ونحن في وقفتنا هذه القصيرة لا نريد الكلام عن السياسة المالية في الإسلام، ولا عن السياسة المالية في عهد الفاروق عمر بن الخطّاب، وإنما هي وقفة سنكون ـ بإذن الله ـ مع بعض أوليات الفاروق في السياسة المالية.

ويحسن أن نعرف بالسياسة المالية في ميزان السياسة الشرعية قبل الدخول في موضوعنا.

فما هي السياسة المالية في ميزان السياسة الشرعية؟

السياسة المالية للدولة هي (تدبير مواردها، ومصارفها بما يكفل سد النفقات التي تقتضيها المصالح العامة، من غير إرهاق للأفراد ولا إضاعة لمصالحهم الخاصة[1]؛ على أن يكون هذا التدبير في حدود وقواعد الشريعة الإسلامية)[2].

هذه هي السياسة المالية في الإسلام.

ولقد كانت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه محدودة، لقلة الموارد، وسير التعامل، وانحصار الدولة في شبه الجزيرة العربية وعدم الاستقرار...

فكانت الأموال العامة تتألف من الزكوات، والزكاة تجمع من أغنياء كل بلد ثم تعطى لفقرائهم، وما فضل منها حُمل إلى الدولة، ولم يكن يفضل منها إلا القليل في الغالب. وأما الغنائم فإن الحكم فيها أن تخمس فتوزع أخماسها الأربعة على المقاتلين، ويحمل الخمس للدولة فيقسم إلى خمسة أقسام قسم لله ولرسوله، ولذوي القربى (قرابة رسول الله) قسم، ولليتامى قسم، وللمساكين قسم، ولأبناء السبيل (المسافرين المنقطعين) قسم[3]. ومن انفرد بقتل قتيل فله سلبه أي ما غُنم منه من مال وسلاح ومركب وملبس...

وفي عهد عمر؟

لعمر بن الخطاب خصائص لمن تكن لأحد من الصحابة الكرام بل لم تكن لبشر بعد النبيين! من هذه الخصائص ما شهد له به رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى كشهادة له بأنه عبقري بل فوق العباقرة، إذ قال فيه: «... فلم أر عبقرياً يفري فرية» أي يعمل عمله، ومن معاني العبقري: الذي يحسن كل شيء!

ومنها أنه شهد له بالعلم إذ قال: «بين أنا نائم شربت (يعني اللبن) حتى أنظر إلى الري يجري في ظُفري أو أظفاري، ثم ناولت عمر! قالوا: فما أولته يا رسول الله قال العلم». رواه البخاري.

ومنها أنه شهد له بأنه ملهم فقال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر». رواه البخاري.

ويكفي موافقة القرآن لكثير من آرائه، فكان يرى الرأي فيطرحه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل القرآن بموافقته.

وقال عنه أحد أقطاب الصحابة (ابن مسعود): «لو أن علم عمر وضع في كفة ميزان ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم».

ولست بصدد سرد فضائله، وعرض صفاته، فقد كتبت في ذلك مجلدات، ولكن هذه اللمحة للإشارة بأنه مثل هذا العبقري العظيم تكون أعمال مسددة وموفقة، ولذلك قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

فكان كذلك في حياته الإسلامية كلها خاصة حينما حمل مسؤولية قيادة الدولة الإسلامية، فإن عبقريته ظهرت في سياسته، وإدارته وعلاقاته الداخلية والخارجية، وإصلاحاته العظيمة رغم أن الجهاد لم يتوقف في أيامه قط. اتسعت الدولة الإسلامية في أيامه فأصبحت أقوى دولة على ظهر الأرض، وتدفقت الأموال بعد فتح العراق ومصر والشام وفارس وبعض ما كانت تسيطر عليه دولة الروم... ومع ذلك عظمت المسؤولية بالقدر الذي عظمت واتسعت فيه الدولة، فكانت سياسة عمر مستوعبة لكل ماجد، بل كثيراً ما كان يضع السياسات للأمور قبل أن تحدث!

بعض أقواله في السياسة المالية

للفاروق أقوال كثيرة في المال اقتطف منها البعض قبل أن أدخل في أعماله المصدقة لأقواله فمن خطبة له في الشام، خطبها خارج دمشق[٤] قال: «من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله تبارك وتعالى جعلني له خازناً وقاسماً، إني بادٍ بأزواج رسول الله، فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين، ثم إني بادٍ بأصحابي»[٥]... إلخ.

فهو بهذا يشيد بالتخصصات، ويعترف لأهل العلم، ويتصدى للإجابة لأي سؤال حول أحكام المال بصفة المرجع في ذلك، والمسؤول الأول عن حفظ مال الدولة وتصريفه، ويرسم سياسته في فرض العطاء في المال فيقدم أقرب الناس إلى رسول الله، ثم يثني بالمهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم وهاجروا في سبيل الله...

ومن أقواله في المال العام الذي هو المسؤول الأول عنه: «إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي مال اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف»[٦]. وهذه السياسة هي التي سار عليها عمر طول خلافته لمدة عشر سنين، فمات فقيراً ومن أقواله في المال: «والذي لا إله إلا هو (ثلاثاً) ما من الناس أحد إلّا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما أحد بأحق به من أحد، إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدهم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتينَّ الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه»[٧].

وهو بهذا قد رسم سياسته في توزيع المال العام على المسلمين لا بالتساوي كما كان الأمر من قبل، ولكنه أعلن سياسة في هذا أنه سيكون العطاء من مال الله بحسب ما للمسلم من أثر في الإسلام من نكاية في العدو ودفع الضرر عن المسلمين، ومن قدم وتضحية في سبيل الإسلام، ومن منزلة هامة ضرورة للمسلمين كمنزلة الإمارة والعلم...

من أعمال عمر في السياسة المالية

سنقف عند أعمال عمر المالية في ثلاث نقاط:

أ ـ النقطة الأولى عمله في تنمية موارد الدولة.

ب ـ عمله في توزيع المال وإنفاقه.

جـ ـ عمله في التنظيم المالي والترشيد والمراقبة والمحاسبة.

ولن نَقف في هذه النقاط إلا مع ما كان أولية لعمر، أما ما كان فيه متبعاً، فإننا لا نجد له هنا مجالاً، ولا يتسع له الوقت، ولا تظهر فيه عبقرية سياسة عمر إلا بقدر الاتباع والالتزام، وهذا لا شك من علامات الصلاح والنجاح لكنه لا يدل على ابتكار ولا تطوير.

أ ـ عمل عمر السياسي في موارد الدولة

١ ـ وضع الخراج على الأرض المفتوحة:

معنى الخراج والخرْج واحد، وهو بمعنى الأَجر، والفلة، والإتاوة، والحصة

المعينة لما يخرج من المال الذي يخرجه القوم في السنة[٨]. وقد وردت اللفظتان في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ أم تسألهم خرْجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ المؤمنون (٧٢).

ولقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أول من وضع الخراج على الأرض المفتوحة، وما كان يعرف ذلك من قبل، والسبب في اجتهاد عمر هذا هو أن المسلمين حينما فتحوا أراض العراق، وكانت تسمى أرض السواد لكثرة مزروعاتها وشدة خضرتها، وكان الأصل تقسيمها بين الفاتحين كما جاء حكم ذلك في القرآن الكريم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، رأى عمر أنه لو قسمت هذه الأراضي الكثيرة بين الفاتحين لكان لذلك آثار خطيرة على المسلمين، خاصة المجاهدين في المستقبل، فستبقى الأراضي بأيدي المجاهدين تشغلهم عن الجهاد، وسيحرم من جاء بعدهم من المجاهدين من هذا الخير، والدولة والجيوش تحتاج في مستقبلها إلى الأموال، ولعله لا يفتح بعد العراق مثلها، ولكن: هل لعمر أن يخالف النصوص وعمل الرسول؟ الجواب لا، فلا يحق لعمر ولا لغيره أن يخالف النص الصحيح الصريح في أي قضية من القضايا، ولا مجال هنا لذكر جميع النصوص ولكن هنا مجال لعمر أن يجتهد، فالرسول لم يقسم كل أرض فتحها؛ جمع عمر رجاله من كبار مستشاريه، وكان لا يستشير إلا ذوي العلم والرأي والتقوى فطرح عليهم رأيه وهو عدم تقسيم أرض العراق، وأن تبقى للصالح العام تشرف عليها الدولة، وتعترض على القائمين عليها حصة معينة لما يخرج من غلتها لصالح المسلمين وفي مقدمتهم المجاهدون، فوافقه أهل الرأي، وعارضه آخرون، فاستقر الرأي على وضع الخراج. فكلف عمر رجلين من أهل الخبرة والحنكة والتقوى بمسح كل تلك الأرض، ولا تمسح غير الأراضي الزراعية والصالحة للزراعة، وزودهما بمقياس من عنده ومن وضعه ووجههما إلى العراق وهما عثمان بن حُنيف الأنصاري وحذيفة بن اليمان، وكلف كل واحدٍ بجهة، فذهبا ومسحا تلك الأرض فبلغت مساحتها ستة وثلاثين مليون جريباً والجريب يساوي ثلاثة آلاف وستمائة ذراعاً مربعاً بالذراع العمري (المقياس الذي وضعه لهما).

ووضعا على كل جُريب عامر أو غامر (يزرع أو لم يزرع) درهماً وقفيزاً، والقفيز نوع من المكاييل[٩].

وبذلك بقيت الأراضي بأيدي أصحابها، يدفعون عليها هذا الخراج سنوياً دون

إرهاق لهم، ويدر ذلك أموالاً كثيرة على الفاتحين وبقية المسلمين وبهذا تظهر عبقرية السياسة العمزية.

٢ ـ استصفاء الصوافي لبيت المال:

الصواف جمع صافية. وهي الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لهم[١٠].

وبهذا المعنى استصفى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عشرة أصناف من هذا النوع منها: أرض من قتل في الحرب، وأرض من هرب، وكل أرض كانت لكسرى، وكل أرض كانت لأحد من أهله، وكل مغيض ماء...»[١١].

وهذه كلها حين استصفاها عمر إنما استصفاها لبيت مال المسلمين، ولم يصطف شيئاً لنفسه، مع أنه قد كان قبل ذلك معروفاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصطفي من كل غزوة حصلت فيها غنائم شيئاً لنفسه فمرةً سيفاً ومرةً امرأة من الأسرى، ومرةً أرضاً... وهكذا وقد كان ذلك معروفاً ي الجاهلية، ولكنه كان أشد من ذلك فكان لقائد القبيلة المنتصر أن يستصفى لنفسه ربع الغنيمة، وما حكم فيه، وما أُخذ قبل المعركة، وما فضل عن القسمة، وفي ذلك يقول شاعرهم مخاطباً أميره:

لـك المـربـاعُ فيهـا والصفـايـا وحكمُـك والنشيـطةُ والفضـولُ[١٢]

فعمل عمر كان لبيت المال فكانت هذه الصواف تدر لبيت المال أموالاً كثيرة بلغ تقديرها بتسعة ملايين درهم في السنة. وقد ينقص عن ذلك وقد يزيد بحسب ما تكون عليه غلة العام.

فكان هذا مورداً جديداً لبيت المال، من ثمرات سياسة عمر المالية.

٣ ـ استصلاح الأراضي غير الزراعية:

لم يشغل عمر الجهادُ ومواجهةُ أعتى دولتين في الأرض ـ فارس والروم ـ عن إصلاح الأرض وتعمير البلاد، بل كان يجمع بين هذه كلها، وكان هو بنفسه الذي يضع السياسات، ويشرك غيره من الرجال حوله في الرأي والتخطيط، ويسند التنفيذ إلى الأكفياء من الرجال.

وكان مما لفت نظره الأرض الصالحة للزراعة في العراق ولا يصل إليها الماء من الأنهار الكبيرة مثل دجلة والفرات، إلا إذا فاض فعمل الفاروق على إيصال المالء إلى الأماكن التي لا يصل إليها لحل مشكلة السكان وإصلاح الأرض وقد كان ذلك بسبب شكوى بعض المتضررين من قلة الماء إذ جاءوا إليه فقالوا: «يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله، وإن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة، والجنات الملتفة، وإنا نزلنا سبخة[١٣] ملتفة لا يجف نداها ولا يثبت مرعاها، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج، ومن قبل المغرب الفلاة (الصحراء) فليس لنا زرع ولا ضرع، وتأتينا منافعنا وميرتنا (طعامنا) في مثل مريء النعامة يخرج الرجل فيستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة لذلك فتريق ولدها كما يريق العنز (أي تشده بحبل) يخاف بادرة العدو، وأكل السبع فألا ترفع خسيستنا[١٤] وتجبر فاقتنا نكن كقوم هلكوا»[١٥].

فاستجاب عمر لهذا النداء وعمل فوراً على معالجة المشكلة، فاتخذ في ذلك طريقين لحلها: الطريقة الأولى عاجلة وهي أن رفع قدر أُعطياتهم المالية فزاد لهم ما يكفيهم، والطريقة الثانية أنه كلف نائبه على العراق، أبا موسى الأشعري أن يحفر لهم نهراً يمتد من دجلة على مسافة ثلاثة فراسخ أي ما يقارب (١٥) كيلاً. فنفذ أبو موسى الأمر فحفر لهم نهراً كان يسمى خزازاً، ثم رجع الناس إلى الإسم القديم للموضع الذي جرى فيه وهو (الأَجَّاز)[١٦].

وحفرت أنهار كثيرة في العراق بأمر عمر منها نهر معقل بن يسار المزني أوصله معقل بأمر عمر إلى البصرة، وقد قيل فيه: إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[١٧].

ومنها: نهر الشفة سيق إلى البصرة أيضاً[١٨].

ومنها: نهر الأُبلَّة سيق إلى البصرة أيضاً[١٩].

وكان مما عمله الفاروق في العراق: إقامة الجسور على الأنهار تسهيلاً لحركة الناس على جانبي النهرين الكبيرين: دجلة والفرات، والأنهار التي أمر بشقها متفرعةٌ من النهرين الكبيرين.

● **وفي مصر!**

وفي مصر كانت إصلاحات عظيمة لتعمير الأرض وإصلاحها، أهم تلك الإصلاحات حفر حفر خليج أمير المؤمنين، هذا الخليج الذي سُمي بهذا الاسم،

وأُضيف إلى أمير المؤمنين عمر الذي أمر بحفره، جدير بأن يكون أعظم ما عُمل من إصلاح إقتصادي ذلك الوقت في مصر، بل وفي غير مصر، لما كان له من الأهمية والأثر على مصر وغيرها، خاصة الحجاز التي فيها العاصمة الأولى للدولة الإسلامية أنذاك وقصة حفر ذلك الخليج أو القناة مشهورة في كتب التأريخ المعتمدة وكتب الأموال والسياسة الشرعية، وإن كانت قد جرت محاولة، لحفر مثله أيام الرومان، إلا أنها لم تستمر ولم تنجح وما حفر منه لم يبق بل ردم[٢٠] ولقد كان من أهم الأهداف من حفر ذلك الخليج بأمر عمر تسهيل تنقل السلع والمواد الغذائية عن طريق البحر من مصر إلى الحرمين والعكس، ولذلك فقد عمل ميناء على ساحل البحر الأحمر تقابل الخليج من الشرق[٢١]، واستمر العمل والاستفادة من هذا الخليج حتى ما بعد عمر بن عبدالعزيز ثم ضيعه الحكام. وكان من الأهداف الكبرى أيضاً إفادة الأرض والسكان على جانبي الخليج الذي امتد مسافة كبيرة عبر أراضي صالحة للزراعة ولكنها لا تزرع بسبب عدم أو قلة المياه، أو غير صالحة للزراعة، ويمكن استصلاحها لو وجد الماء.

إضافة إلى الرباط المعنوي الذي قد وجد بين المصريين وسكان عاصمة دولة الإسلام الأولى ألا وهو رباط العقيدة والأخوة الإسلامية.

● **وفي خراسان:**

وفي خراسان الأقليم الواسع الذي يشمل بعض أراضي إيران وكثيراً من أراضي أفغانستان، جرت إصلاحات كثيرة ذكر لنا بعضها، منها ما ذكره ابن الأثير في كامله وابن كثير في البداية والنهاية أن جزء بن معاوية لما فتح تلك البلاد أو بعضها عمر عامرها، وشق الأنهار إلى خرابها، ومواتها، فصارت غاية في العمارة والجودة[٢٢].

وهكذا الفتح الإسلامي يعمر ولا يخرب، لأنه يختلف عن غيره من الفتوح في الغاية والوسيلة، ولذلك تختلف النتائج.

ومن هذه الإصلاحات التي عملها عمر في العراق ومصر وخراسان، وهي أمثلة فقط لأشباهها ونظائرها يتضح الاهتمام الكبير الذي كان يشغل عمر لتنمية الموارد.

٤ ـ أخذ الأراضي الزائدة عند أصحابها دون حاجة لهم فيها، وهو خاص بأراضي الأقطاع:

لعل هذا من أخطر ما عمله عمر الفاروق في سياسته وإدارته، من حيث اتخاذ القرار ومن حيث التنفيذ، ومن حيث النتائج، ومن حيث فهم الناس لهذا الإجراء.

ولكننا نقدم القول بأنه لم يكن تأميماً ولا مصادرة بأي حال من الأحوال، وسيتضح الأمر حينما نقف على الأجراء الذي كان في هذا، ودوافعه.

من الذين أخذ عليهم عمر ما زاد عندهم من أرض وجعلها للمصلحة العامة بلال بن الحرث المزني وجرير بن عبد الله البجلي.

وخلاصة القول فيما فعله عمر مع المزني أن دعاه عمر وقال له يا بلال إنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرد سائلاً، وقد سألته أرض كذا وكذا فأقطعك إياها، وهي أرض طويلة عريضة وليس لك بها حاجة فخذ منها ما يكفيك ودع الباقي للمسلمين، فحلف بلال أن لا يدع شيئاً أقطعه إياه رسول الله، فراجعه عمر فأصر بلال، فأخذها عند ذلك عمر بالقوة ووزعها على المحتاجين من المسلمين(٢٣).

ونلاحظ من هذا أن بلالاً لم يملك هذه الأرض الواسعة إرثاً، ولا شراءً، ولكنه سألها رسول الله فأعطاه لأنه كان لا يرد سائلاً مهما سأل كما وقع حينما سأله أبيض بن حمال المأربي أن يقطعه ملح مأرب فأقطعه إيّاها وهي مصلحة عامة، ولم ينتبه الرسول لذلك إلا حينما ذكره أحد الحاضرين فرجع عند ذلك رسول الله لأن المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة. وبلال هذا أقطعه الرسول وادياً بأكمله فعجز عن عمارته ولم يستفد منه شيئاً فهل يمكن أن تترك تلك الأرض الزراعية هكذا؟ لذلك أخذها عمر لمصلحة المسلمين.

- **وأما جرير** بن عبد الله البجلي فقد كان سيد قبيلة بجيلة القبيلة اليمنية الكبيرة، ولما كان عمر يدرك ما لجرير من منزلة في قبيلته، وما لقبيلة بجيلة من مكانة وقوة فقد نفلهم ربع الغنيمة لو اشتركوا في حرب القادسية، فاشتركوا ومثلوا ربع الجيش المجاهد الذي خاض المعركة في القادسية، فكان النصر المبين، ووفى عمر بوعده فنفّل جريراً وقبيلته ربع الغنيمة بما فيها الأرض، واستثمرت القبيلة تلك الغنائم سنتين أو ثلاثاً، ولما رأى عمر أن عندهم زيادة على حاجتهم عرض على جرير أن

يتنازل هو وقبيلته عن تلك الأرض للمسلمين طواعية واسترضاه، بل وعوضهم بعض الشيء، فتركوها راضين[٢٤].

فلم يكن إذاً فعل عمر تأميماً، ولا مصادرة لأموال، وإنما كان هذا العمل من عمر سياسة رشيدة اقتضت المصلحة العامة، واستثمار الأرض لزيادة الموارد، والحد من إهمال الأراضي الصالحة للإستفادة منها وهكذا نجد السياسة العمرية في المال تقتضي وتحرص دائماً على المصلحة العامة.

- وإلى جانب هذه الأمثلة التي ذكرناها أمثلة على سياسة عمر في تنمية موارد الدولة نجد أمثلة أخرى كثيرة للغرض نفسه؛ فنجده يوقف سهم المؤلفة قلوبهم وهو أحد المصارف الثمانية للزكاة ليرجع ذلك المصرف لبيت المال، وذلك أن رأى أنه لم تعد هناك حاجة للتأليف فقد قويت الدولة، ومر على هؤلاء المؤلفة قلوبهم زمن يكفي لأن يثبت فيه إيمانهم وتصفو عقيدتهم فينطلقون مجاهدين غير منتظرين على ذلك من المصالح الدنيوية شيئاً، وفي الوقت نفسه ينقطع أمل المنتفعين بالمال من أجل الإسلام. فالوضع الأمثل للمسلم إخلاص العمل لله، واستجلاب الرزق من أبوابه[٢٥].

وعمل عمر هذا لا يعني إلغاء هذا المصرف ولكنه أوقفه حين رأى عدم الحاجة إليه. فإن عادت الحاجة فعلى الحاكم المسلم أن يخصص شيئاً من أموال الزكاة لهذا المصرف.

- ونجد الفاروق كذلك يحدث مورداً جديداً لبيت المال وهو خمس السلب وهو ما يغنمه المحارب ببطولته، فيكون له جميع ما سلبه من القتيل، من مال وسلاح وملابس. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يجعل ذلك للقاتل فلا يأخذ منه شيئاً، وذلك تحفيزاً للأبطال للتسابق على الجهاد والنكاية بالعدو. وقال في ذلك: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[٢٦] وسار أبو بكر على ذلك. ولكن عمر رأى بعد فتح فارس أن بعض الأسلاب تبلغ مئات الألوف مما يجعل الأموال مكدسة في أيدٍ قليلة فخمس تلك الأسلاب لبيت المال، فكان مورداً جديداً لصالح المسلمين، وموارد كثيرة غير ما ذكرنا تركناها لضيق المقام.

ب ـ سياسة عمر في توزيع المال العام

للفاروق سياسة واضحة متميزة في مجال توزيع المال العام على المستحقين، أو في مجال الانفاق للمال العام في وجوهه.

برزت سياسته في هذا الجانب في عدة أمور سجلها التاريخ الإسلامي نجدها في دواوين الإسلام من كتب تفسير وحديث وفقه وسياسة وتأريخ ولقد كثرت الكتابة في ذلك، إلا أنني هنا لا أُريد أن أقف إلا مع بعض الأمثلة على سياسته الحكيمة في هذا الشأن، بل وفي كل سياسته تظهر الحكمة والعبقرية.

وهذه الأمثلة التي سنقف عندها قليلاً ، هي بمثابة الأوليات التي لم يسبق إلى مثلها، ومن هنا تظهر عبقرية عمر، وسمو الإسلام الذي ينطلق عمر من رحابه!!

١ ـ فرض العطاء لكل مسلم!

كان ما يصرف من الأموال العامة للناس في عهد عمر من بيت المال الرزق، والعطاء، وهناك أبواب أخرى تنفق فيها الأموال من أهمها مصارف الزكاة، والجهاد، وعمل المشاريع... وغير ذلك، لكن هذه غير ثابتة.

أما الرزق والعطاء فقد كانا ثابتين. والفرق بينهما أن الرزق كان بمثابة الراتب اليوم، يتقاضاه العاملون في الدولة، مقابل أعمالهم في وظائفهم. والعطاء لجميع الناس حتى الذين لا يعملون من رجال ونساء وأطفال، وقد يعطي بعض أهل الذمة من بعض الموارد كالجزية والخراج...

والرزق للموظفين كان معروفاً منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر بعده، لكن عمر له اجتهادات في مجال الرزق، فهو أول من فرض رزقاً للقاضي لأنه فصل القضاء عن الإمارة فتبع ذلك تعيين رواتب كافية للقضاة الذين ولاهم في بعض الولايات، لقضاء خاصة. وقد كان قبل ذلك الوالي هو القاضي.

أما العطاء فإنه كان من أوليات عمر وأعماله في سياسة الإنفاق وكان لذلك سبب، وهو أنه رأى الأموال تتكاثر وتأتي إلى خزينة الدولة من كل مكان، من زكاة، وغنائم، وأخماس الأسلاب، وعشور، وخراج الصوافي...

زادت على حاجة الدولة، فرأى عمر أن يعمم ذلك المال على كل المسلمين

خاصة في جزيرة العرب.

فأمر بإحصاء الناس، وبدأ تسجيلهم في سجل خاص (ديوان العطاء) ثم فرض لكل مسلم مبتدئاً بزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم مبتدئاً منهن بعائشة رضي الله عنهما كان لها عند رسول الله من المنزلة الرفيعة وما كانت عليه من العلم الذي يحتاجه المسلمون، ثم ثنى بقرابة، رسول الله من بني هاشم، ثم ببقية قبائل قريش بحسب قربها من رسول الله، وأبى أن يقدموه هو وقبيلته بنو عدي لكونه الخليفة الثاني وقال: ضعوني حيث وضعني الله عز وجل، ثم أكمل المهاجرين، ثم الأنصار، ثم بقة القبائل، مفاضلاً في العطاء، بينما كان الأمر قبل ذلك بخلاف ما صنع فلم يكن يفاضل الرسول ولا أبو بكر.

فالفرق بين فعل عمر، وفعلهما في هذا الشأن من جهات:

أ ـ أنه فاضل بين الناس بحسب القرب من الرسول، وبحسب السابقة في الاسلام.

ب ـ يأنه جعل العطاء ثابتاً، وقد كان خاضعاً قبل ذلك لتوفر المال حين يصل يقسم في حينه بين الناس بالتساوي.

جـ ـ أنه بدأ بقرابة الرسول الأقرب فالأقرب، والسابقة في الاسلام ونفذ نظام العطاء من فوره، فجند رجالاً لذلك، وكان أحياناً يصرف العطاء بنفسه، بل كان يأخذ سجل القبيلة بنفسه ويذهب فينزل بساحتهم فيجتمعون عليه فيصرف لهم ما يستحقون. وفرض لكل مولود في الإسلام، وللقطاء[٢٧].

٢ ـ منح الجوائز لحفظة القرآن الكريم:

وفي باب الإنفاق من المال العام أمر عمر بن الخطاب ولاته على الولايات أن يمنحوا حفظة القرآن الكريم جوائز تشجيعية مما يزيد من الأموال، وهذا عمل هام فإن حفظ كتاب الله حفظ للأصل الأول للتشريع الإسلامي فهو أصل الأصول[٢٨].

٣ ـ اتخاذ قوات إحتياطية في كل قطر:

ومن الأبواب التي أنفق فيها عمر المال تجهيز القوات الاحتياطية! فلقد كانت الجيوش أيام سول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه

وأيام عمر ـ رضي الله عنه ـ أيضاً تتكون بدوافع حب الجهاد وندب القائد، وكانت العدد مملوكة لهم لأنهم أصحابها، ولذلك كان غالباً ما يكون النصر معهم لأنهم يعدون ما استطاعوا من القوة ويندفعون بها طالبين إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

وفي أواخر أيام عمر وقد زادت الأموال كان يأمر والي مصر من الأمصار نفيض فيه الأموال أن يشتري بها الخيول المدربة وما يلزمها لتكون تحت الاستعداد للحاجة، فكان إن طلبت نجدة من أي مكان يأمر بعض تلك القوات الاحتياطية بالنجدة.

قال ابن الأثير في الكامل: «وكان عمر قد اتخذ في كل مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عُدة لكون إن كان (أي لطارىء يطرأ) فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي، ونفرض أهل الكوفة وفي كل مصر من الأمصار الثمانية[٢٩] على قدره فإن تأتهم آتية ركبها الناس وساروا إلى أن ينجهز الناس»[٣٠].

٤ ـ منح الجوائز المالية للمبرزين في الحرب

قتل زهرة بن عبدالله البطل المسلم أحدَ قادة الفرس وهو الجالينوس وكان من أبطالهم، فقتله زهرة وأخذ سلبه، ولما رأى سعد ابن أبي وقاص القائد العام للقوات الإسلامية في العراق وفارس السلب استكثره فكتب إلى عمر يستشيره، فكتب إليه عمر مغضباً: تعمد إلى مثل زهرة وقد صُلى بمثل ما صُلى به، وقد بقى عليك من حربك ما بقى، تكسر قرنه، وتفسد قلبه؟ أمض لـه سلبه، وفضله على أصحابه عند العطاء بخمس مائة»[٣١].

ولم يكن زهره هو الذي حفِّز بذلك فقط، وإنما هناك نظائر له، فقد ذكر ابن الأثير أنه قد منحت الجوائز التشجيعية لخمسة وعشرين بطلاً مع زهرة [٣٢].

٥ ـ أعطى من بيت المال مالاً قرضاً للتجارة:

كما أن الفاروق سن في سياسة المالة في الإنفاق وتوزيع المال سنةً حسنة في تشجيع التجار بمبالغ من بيت المال قرضاً ليتجروا به، ويقضونه.

فعل ذلك حينما أعطى هنداً بنت عتبة مبلغاً من المال العام فأتجرت به، وردته(٣٣).

ولا شك أن هذا له أثره على المسندين وعلى الناس المستفيدين من التجارة ولم يعط ذلك لقرابة، ولا لمصلحة شخصية، فإنه لما علم أن ابنيه عبدالله وعبيدالله أخذا مالاً من العراق من بيت المال فأتجرا به إلى المدينة، غضب عمر وأمر ببيع الإبل ورد رأس المال ونصف الربح.

جـ ـ سياسة عمر في المراقبة والمحاسبة والتنظيم والترشيد

هذا باب واسع لعمر بن الخطاب فيه أعمال عظيمة فيما يتصل بالمال، لن نشير إلى تلك الأعمال العظيمة هنا إلا إشارات عابرة. من هذه الأعمال العظيمة:

١ ـ تخصيص بيت مال خاص بالمال (وزارة مالية، بمقرها ورجالها).

ما كان للمال قبل عمر أماكن خاصة ولا موظفون مخصوصون، وإنما كان إن جاء المال من أي جهة من الموارد القليلة يصل إلى المسجد فيقسم بين المسلمين المستحقين، فاقتضت سياسة عمر في عهده تخصيص الأماكن لاستقباله وحفظه فيها وتخصيص رجال يقومون على ذلك، فكان أول من فعل ذلك في الإسلام(٣٤).

وقد كان قبل ذلك يعرف بيت المال لكونه جهة تستقبل المال وتصرفه وعمل عمر هذا يعد من الأعمال الهامة إذ كان نواة لوزارة المالية فيما بعد لمنْ جاء بعده حين تطورت أنظمة الدولة بسد فترة طويلة....

٢ ـ أوجد عملة خاصة بالمسلمين

ما كان للمسلمين عملة خاصة بهم لا دينار ولا درهم، وإنما كانت الدراهم المعروفة عندهم أربعة أنواع تأتيهم من قبل الإسلام، الدرهم البغلي، والطبري، واليمني، والمغربي. وكانت مختلفة الأوزان، فرأى عمر أن لا بد من وضع درهم خاص بالمسلمين فنظر في تلك الأنواع وأوزانها فأخذ بالمتوسط الحسابي لها وأمر بضرب الدراهم الخاصة بالمسلمين فكانت أول عملة تصنع في عهد عمر(٣٥).

أما الدينار فقد بقي حتى عهد عبدالملك بن مروان، فإذا وجدنا بعض المؤرخين والاقتصاديين يقولون إن أول من ضرب النقد للمسلمين عبدالملك بن

مروان فإنما يعنون الدينار، أما الدرهم فإنه قد أمر بضربه عمر.

٣ - تدوين الدواوين:

لقد كان الأمر قبل عمر ميسراً والحياة سهلة والمال قليلاً، ولم يكن قد قدِّر العطاء، ولا فرضت الرواتب الرسمية... هنا كانت الحاجة ملحة لعمل سجلات خاصة بكل مورد ومصرف.

لكن عمر رأى في أيامه تطوراً هائلاً في الموارد، وتوسعاً هائلاً في المصارف فعمل سجلات تخص كل جهة من جهات الإيرادات، والمصروفات وهذا عمل عظيم استفاده مما علمه من نظام فارس والروم(٣٦).

٤ - كان يحصي أموال الموظفين الكبار عند توليتهم، وبعد انتهاء عملهم

كان القصد من هذا العمل معرفة مال الموظف لتسهل محاسبته فيما بعد فإذا علم أن أحدهم قد أثرى دعاه فحاسبه وحصر ماله فإذا كان قد زاد قاسمه ذلك فجعل ما يأخذه لبيت المال.

فما كان لموظف في عهد عمر أن يعرف بالثرى، ذلك أنه كان يمنعهم من أي عمل خاص إلى جانب العمل العام. فمن الموظفين الذين قاسمهم عمر: سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص(٣٧).

إلى غير ذلك من الأعمال التي عملها عمر الفاروق في السياسة المالية تنظيماً وترشيداً ومحاسبة ومراقبة.

وبعد: فإن هذه الأمثلة الرائعة السياسية عمر المالية تعطي القارىء المتتبع والمنصف العلم بأن فكرنا الاقتصادي يسمو على كل الأفكار والأنظمة، وأن الذين طبقوه من الحكام الأوائل كانوا على وعي وفهم لأبعاد التشريع الإسلامي ومراميه، فما كانوا يقتصرون على ظواهر النصوص فقط ويقفون عندها ولكنهم كانوا يجتهدون ولعل أكثر المجتهدين اجتهاداً عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

الهوامش:

(١) السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١٠١ ط القاهرة.
(٢) زيادة لا بد منها، فإنها قيد يُخرج جواز تدبير الموارد من وجوه غير مشروعة، ولو لم يكن في ذلك إرهاق للأفراد وأنه لا يجوز كأخذ الضرائب من العاهرات، وبائعة الخمور والمحرمات..
ويخرج بالقيد أيضاً جواز المحافظة على مصالح الأفراد الخاصة إذ كانت غير مشروعة.
(٣) أخبار عمر وعبد الله بن عمر للطنطاويين علي وناجي ص ٨٨ بتصرف.
(٤) في قرية كانت تسمى (الجابية).
(٥) السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٣٤٩.
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٢٧٦.
(٧) الخراج لأبي يوسف ص ٥٠ والطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٢٩٩ والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٠.
(٨) القاموس المحيط جـ ١: ١٩١ ـ ١٩٢ والكشاف للزمخشري ٣: ٣٨.
(٩) ينظر تفصيل ذلك في الخراج لأبي يوسف ص ٩٢ والأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٨٧ ـ ٨٩.
(١٠ لسان العرب جـ ١٤: ٤٦٣.
(١١) الخراج لأبي يوسف ٥٧ والخراج ليحيى بن آدم ٦٤، ومغيض الماء هو ما جفت عنه المياه من الأرض.
(١٢) المرجع الأول ١٣: ٤٦٢، والنشيطة ما أخذ قبل المعركة من العدو دون قتال.
(١٣) السبخة: الأرض المملوءة بالملوحة ونز الماء.
(١٤) خسيستنا: أي الحالة التي نحن عليها.
(١٥) الكامل لابن الأثير جـ ٢: ٣٨١.
(١٦) معجم البلدان جـ ٨: ٣٣٤.
(١٧) التراتيب الإدارية للكتاني ١: ٤١٩.
(١٨) تأريخ الأمم والملوك لابن جرير جـ ٤: ١٤٩.
(١٩) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ٥٢٢.
(٢٠) الخطط الكبرى للمقريزي ١: ١١٤ ـ ١١٥ ط مصر.
(٢١) كان يسمى ذلك الميناء (الجار) أما النقطة التي وصل إليها الخليج على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر فقد كانت تسمى مدينة القلزم، وهي السويس اليوم.
(٢٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢: ٣٨٢ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٧: ٨٣.
(٢٣) انظر قصة بلال بن الحرث مع عمر: الخراج ليحيى بن آدم القرشي ص ٩٣ والمصنف لعبد الرزاق الصنعاني جـ ١١: ٩ ـ ١٠ والسنن الكبرى للبيهقي جـ ٦: ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢٤) أنظر الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٧٨ والخراج لأبي يوسف ص ٣٢.
(٢٥) ينظر عمل عمر في مصرف المؤلفة قلوبهم المجموع للنووي جـ ٦: ١٩٦ ـ ١٩٨ والمغنى لابن قدامة جـ ٦: ٤٧٦.
(٢٦) صحيح البخاري يشرح فتح الباري جـ ٦: ٢٤٧.
(٢٧) انظر في مسائل هذا الباب: الخراج لأبي يوسف ص ٤٧ والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠١ والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٨.

(٢٨) انظر في ذلك: الأموال لأبي عبيد ص ٣٣٣ وأشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ص ٥٤٠ - ٥٤١.
(٢٩) كان عمر قد قسم الدولة إلى ثمانية أمصار (ولايات).
(٣٠) الكامل لابن الأثير ٢: ٥٣ والنظم الإسلامية للشهيد صبحي الصالح ص ٤٩١.
(٣١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري جـ ٤: ١٣٥.
(٣٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢: ٤٨٣.
(٣٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير جـ ٥: ٢٩ - ٣٠.
(٣٤) الخراج لأبي يوسف ص ٤٧ والأوائل لأبي هلال العسكري ص ١١٩ والبداية والنهاية جـ ٧: ٦٩.
(٣٥) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٢ - ٢٦٣ وعبقرية عمر للعقاد ص ١٢.
(٣٦) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٩٩ والخراج لأبي يوسف ص ٤٨ والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣: ٣٠.
(٣٧) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣: ٣٠٧ والطرق الحكمية لابن القيم ص ١٦.

المعجم الشعري وتأصيل المنهج بين اللغة والنقد

الدكتور فايز الداية
الأستاذ في قسم اللغة العربية

* تمهيد

يركّز هذا البحث على جانب من جوانب مسألة «المعجم الشعري» وهو تأصيل المنهج بين اللغة والنقد في تراثنا العربي إضافة إلى الصورة الكلية لهذه المسألة كيما تكتمل العلاقات لدى القارىء.

تناولت «**المعجم الشعري**» بالدرس بادىء ذي بدء في المجال التطبيقي اللغوي اعتماداً على المعطيات الدلالية كما توصلت إليها في بحثي «الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري»[1] ، واتسع العمل في تدريسي لطلبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة حلب 1980 فتابعت التجارب على الدواوين الشعرية الحديثة «السياب، درويش، فدوى طوقان، نازك الملائكة، عمر أبو ريشة. . .) بشكل مبسّط وجزئي، ولدى اكتمال المنهج عمدت إلى تجربة شاملة، فقد وقفت عند الشعر الغنائي للشاعر **صلاح عبد الصبور**، ورغبت في صنع معجم شعري له، وقام بتطبيق المنهج معي طلبة دبلوم الدراسات العليا 1982 ، وقد نشرت شريحة منه ـ سأعرض لها في أثناء هذه الدراسة ـ 1985 .

كانت دراسة المعجم الشعري النظرية والتطبيقية فرصة لرسم جزء هام من مفهوم **علم الدلالة العربي** وآفاقه، فجعلتها فصلاً متبلوراً، وأذعته على الباحثين والقرّاء محاولة لبناء أدوات مفيدة في تحليل اللغة العربية، وتلمس رؤية نقدية عربية، وذلك في 1985 بدمشق[2].

امتداداً للمنهج الدلالي تمّت دراسة تطبيقية في جامعة حلب تناولت شعر

الأخطل الصغير بشارة **الخوري** ورسمت معجمه الشعري في رسالة للماجستير أجيزت 1985؛ وأجرى باحث آخر تطبيقاته على **الشعر الحديث والمعاصر في سورية** من خلال مفهوم التطور الدلالي والمعجم الشعري بجامعة دمشق 1987 م.

وعرضتُ هذه المسألة في مناقشات ندوة «**البنيوية والنقد العربي القديم**»[3] التي أقيمت في اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1986، وتمّ توثيقها في أحد أعداد مجلة الاتحاد «الموقف الأدبي» 1986 وتناولت أطرافاً من «المعجم الشعري» في **ملتقى ابن رشيق القيرواني للنقد الأدبي** في مدينة القيروان بتونس 1987، ودارت آنذاك محاورات مفيدة جداً أضاءت معالم هذا التطلع النقدي ذي الأداة اللغويّة، ومما يذكر هنا أنّ الوقوف الطويل عند زاوية الرؤية التي يمكن أن تحدّ بشروح محدّدة يصنفها الدارس الذي يضع المعجم الشعري لواحد من الشعراء، ورغب المشاركون في الوصول إلى درجة من التوافق بين التوضيح اللغوي لنتاج الشاعر، ومرونة التصوّر لدى القارىء المستفيد من هذا الجهد الموضوعي في «المعجم».

إنّ هذا التمهيد يحاول أن يوثّق مراحل فكرة «المعجم» والمواضع التي عرفتها، والزوايا التي عولجت فيها، كيلا يعدّ القول تكراراً لما أنجز من قبل، فإنما هي خطوات تتكامل فيما بينها، وينوّر كل قسم ما يجاوره أو يليه إضافة إلى الرغبة في توسيع دائرة المطلعين على أمر فيه الجدة ويتطلب المزيد من المناقشة والمحاورة.

1 ـ الغايات والأهداف من المعجم الشعري:

الشعر العربي الحديث والمعاصر يشكّل الركيزة الأولى في نشاطنا لتحليل الأعمال الشعرية في «المعجم الشعري» وذلك لأن المادة قريبة من الدارسين المعاصرين، وهي تمنح هؤلاء يسراً في الحركة لاستخدام الأدوات الدلالية والتوثيقية من خلال الأصول اللغوية والامتداد الحديث لها، ولانتشارها في الكتب والمصنفات والدوريات والصحف. وهذا لا يعني قَصر «المعجم» على حيّز معين من الأدب العربي؛ وإنما توجّهنا على هذا النحو في بداية العمل وستنتقل البحوث إلى نتاج الشعراء العرب القدماء في مختلف العصور مع التنبّه إلى الميزات النوعية في كل نقلة دراسية، وما يلزمها من أدوات أو تميّز لاستخدام هذه الأدوات التحليلية في صنع «المعجم الشعري».

ربّما تتقدم الغاية اللغوية في عملنا المعجمي لنتاج الشعراء ـ وإن تكن في حقيقة الأمر نتيجة إيجابية جانبية في توجّهنا النقدي ـ فنحن نجلو صورة العربية الفصحى وألوان استعمالاتها في العصر الحديث مع تجوالنا واستقصائنا لتجارب الشعراء وآفاقها وطواعية الألفاظ العربية ـ بصيغها وضمن السياقات والأساليب ـ للتعبير عن دقائق الانفعال، وجزئيات الحياة المعاصرة وكلياتها في الجوانب المادية والفكرية والفنية. أي أننا نستطيع ـ بتكاتف الجهود واستيعابها لأعمال كثير من الشعراء ـ رسم صورة حضارية حديثة للغة العربية الفصحى تعين مَنْ يستعمل هذه العربية في أرجاء ديارها، وتمهّد السبل أمام الدارسين والباحثين الذين يتطلعون إلى أدوات لغوية حيّة تتشعب طرقها وتدقّ مسالكها.

وتتلاقى هذه النتائج اللغوية في أعمال الشعراء مع جهود يقوم بها نفرٌ يحلّلون المصنّفات العلمية ومصطلحاتها والدلالات التي عبّرت عنها؛ وتتعاظم الفائدة عندما تدخل هذه الجهود في برامج مشتركة بين مراكز البحوث والمؤسسات العلميّة واللغوية العربية.

أمّا الأهداف النقدية فتدور حول نقطتين متداخلتين هما النقد الموضوعي، ودرس النصّ الأدبي من داخله، ذلك أننا في دراسة الشعر الحديث والمعاصر بحاجة إلى نظر موضوعي يخفف من غلواء الأهواء والأمزجة والعشوائية في الاختيار، أو في التفسير ونلمح بوضوح إشكال المعاصرة بين النقاد ـ أو من هم في حواشي النقد ـ والشعراء فالقرب بين الطرفين يحمل إيجابية الكشف والإدراك للتجارب وأبعادها ومغزى إشارات فيها، لكنه في طرف آخر يختزن الخصومة أو الذهاب بعيداً في التعاطف مع الشاعر مما يشوب الدراسات والتعليقات النقدية؛ وخاصة في زمننا الحافل بأمواج لا تهدأ وتيارات تتعارض بأكثر مما تتلاقى.

إن محاذير المعاصرة النقدية عرفتها عصور الأدب لكنها تتنامى وتستفحل في بعض منها كما عرفناها مع المتنبي في القرن الرابع الهجري إذ كانت تمور الآراء والأفكار وكذلك الأهواء والأساليب الفنية، وتبعاً لها ظهرت الكتب والرسائل التي تتضارب فيها وجهات النظر. بل الحقائق حول (الشاعر، وشعره) بين من يذهب إلى أقصى مدى في مناصرة الشاعر، ومَنْ يبحث عن منفذ ليصبّ اعتراضه عليه وإنكاره لما جاء في قصائده بل إنه ليفتعل ذلك[4].

درس النصّ من داخل تكوينه اللغوي دلالة وأسلوباً ثم إشارة وتكاملاً لسياقه هو الذي يكشف لدينا تجربة الشاعر، ويعطي خصائصه الفنية، وتوجّهنا إلى النصّ ذاته لا يعني فصله عن شخصية صاحبه ولا عن سلسلة الأعمال الأخرى بمعنى أن يتناول وحدة مستقلة صمّاء. إننا نرغب في تحليل هذا العمل الشعري من منطوقه وما يحتمل من تفسير وتداخل ضمن النصّ وفي معالم التجربة الشعورية، ثم يعرض على العوامل الخارجية فيتوافق مع بعض منها ويغنى، وقد يشكّل تغايراً مع تلك المعطيات الزمنية والمكانية والإنسانية والفكريّة، فيغدو النصّ موجهاً لنظر جديد في أعمال الشاعر، وكاشفاً لزوايا قد تضيع في خضم التعميمات النقديّة المتداولة، ونصل إذن إلى الفوارق البارزة عند مواجهة المنهجين: تحليل النصّ، والتعامل مع التحليل من خارج النصّ (التحليل النفسي على أنه درس لشخصية الشاعر كلاً في سيرة حياة أو التحليل الاجتماعي في سلسلة تاريخية للشاعر).

الوجه الآخر للأهداف النقدية هو بلوغ (التواصل بين الشعراء العرب المعاصرين والجمهور) بتقديم الوسائل الأساسية الموضّحَة للأبعاد الدلالية للغة والرموز، والمضيئة لمفاصل التصوير الحديث، والممهدة لكشف الأساليب التعبيرية الجديدة للجملة والتركيب الذي يظهر فيه.

يسعى (المعجم الشعري) إلى تقريب المسافة بين الشعراء المبدعين المعاصرين والجمهور العربي الذي ابتعد عن التفاعل مع كثير من النتاج الذي يعرض في الساحة الأدبية، ولا نعني بقولنا هذا أن «المعجم» يحلّ مشكلة الجماليات الحديثة في الشعر عند القارىء خاصة في إطار التعامل مع الموروث الأدبي العربي، لكننا نشير إلى أنّ ما يقدّم من جهد لغوي يسهم في حلّ إشكالات هامة ذات دور في مسألة (التوصيل) وهي بطبيعة الحال جزء من التكوين الجمالي للتجربة الشعرية العربية المعاصرة.

فمن تلك الإشكالات: الغموض في الشعر الحديث والمعاصر ـ وقد يختلط عند المتلقين الغموض والإبهام ـ مما يجعل النفور علامة ترافق جمهور المتلقين العريض ونرى أن هذه الظاهرة تعود إلى الاستعانة برموز ثقافية تتعدد اتجاهاتها وأصولها، وإلى دلالات عصرية مميّزة، وإلى معانٍ ضمن أساليب (سياقية خاصة) مولّدة لم تألفها الأعمال القديمة أو الإحيائية وما أحاط بها من شعر، وترتبط الدلالات الغريبة (الغامضة) ببعض أساليب التصوير ومركباته الحديثة.

والإشكال الآخر الذي يبدو مناقضاً للأول في تكوينه، ولكنه يلتقي معه في طبيعته اللغوية ومنعكسه الثقافي المعاصر، وبحثه عن قيم جمالية عصرية قادرة على التعبير عن تجارب الشعراء الحيّة ذلكم هو استخدام الشعراء لمفردات من مألوف حياة الناس اليومية، ولعلّ المتلقين في قطاعات واسعة استغربوا ما عدَّ غير شعري مما يضع الجميع أمام قضية «القول الشعري»[5] القديمة والمتجددة عبر تاريخ الأدب العالمي ونقده..

إن الكلام على دلالة الكلمات وربطها بسياقها، ثم إيضاح أبعادها المعاصرة يقدّم مادّة تعين على إدراك شاعريتها أي قدرتها على حمل قيم جمالية تأثيرية إلى الجمهور فيها عمّق التجربة وعصريتها.

لا بد أن نستدرك فتقول ليس القصد إلى المصادرة على القارىء أو الناقد بتقديم تفسيرات للغة الشاعر في هذا النص أو الآخر أو في مجمل شعره، فلا شك في أنّ القراءة تعطي لوناً فيه شيء من تذوق صاحبها ـ أو كما ينبه ريتشاردز أنها تغدو مكوّنة قصيدة لهذا القارىء[6] وإننا نقدّم دليلاً يخدم النصّ ويحميه من الابتعاد عنه وبذا يكون (المعجم) أداة موضوعية.

2 ـ صورة المعجم الشعري وعلاقاته الدلالية:

يبرز دور الاهتمام الدلالي في العملية النقدية وكشف أبعاد الأعمال الأدبية عامة، والشعرية خاصة، ذلك أنه ينّظم النظر في:

1 ـ الدال والمدلول والمساحة الدلالية، وهذا يتداخل فيما نسميه العرف اللغوي العام والعرف الرمزي.

2 ـ التطور الدلالي للألفاظ عبر التاريخ ومن خلال استعمالها الحيّ، وهذا يؤدي إلى إعطاء فكرة السياق ما تستحقه من العناية، فالدلالة تكتسب خصوصيتها في سياق محدّد؛ وهو الذي يلقي بظلاله ـ ونخص هنا العمل المبدع ـ ليشكل دلالة الكلمات في نسقها اللغوي الجمالي، وفي تركيب الصورة الفنية، والسياق يتلوّن ويتقبل القيم الرمزية العامة سواء ما كان تاريخياً أو شعبياً أو أدبياً.

3 ـ المجاز في توزّعه بين المنطلق اللغوي والحركة البلاغية، ومن ثمّ يتبيّن في البحث الدلالي سرّ الصورة والشحنة الانفعالية التي تحملها، والآفاق التي تفتحها أمام

القارىء والمتلقي، إضافة إلى التنبّه إلى الجدّة في نتاج الشعراء، وهم يصورون تجاربهم ومواقفهم.

إننا نجد هذه الاتجاهات الدلالية في النظر إلى اللغة واستعمالاتها تصبّ في أقسام المعجم الشعري الأربعة فنحن أمام:

1 ـ الدلالة الحديثة.

2 ـ الدلالة الحديثة في الصورة الفنية.

3 ـ الرمز العام وتحليله الدلالي.

4 ـ الرمز الخاص وتحليله الدلالي.

1 ـ الدلالة الحديثة

ففي القسم الأول ترصد الدلالات الحديثة في النصّ الشعري وتتوزع على جوانب الحياة المادية والفكرية والفنية وجزئياتها ذلك أنها ستكون مؤشراً نَهتدي بوساطته إلى عوالم جديدة في رؤى الشاعر وتطلعاته، ونستبين مدى تواصله مع عصره الذي يحيا بين ظهراني أهله، وإن غابت الألفاظ والدلالات الحديثة كان الغياب دليلاً لنحوٍ آخر من مواقف يتخذها الشعراء تجاه الحياة.

توثق الحالات ههنا بالمقارنة بين الدلالة القديمة والدلالة الحديثة وتبيان القانون التطوّري، وإن جاءت مبتكرة لم تستعمل يشار إلى ذلك، وتربط دائماً التحليلات بالمعجم القديم والحديث، وبكتاب أو صحيفة تم تداول هذه اللفظة ـ في هذه المساحة والموقع الدلاليين ـ فيها.

فمن ديوان صلاح عبدالصبور نستمد شواهد الشريحة المدروسة[7]:

«درب الزحام، صدر زجاجي خرب، قافلة البيوت، الدخان، الشاي، القرش وقروش، عشرة أو عشرتين، غرفتي، نصنع الأفراح، الذوق، سوناتا، الموسلين، القطار، النافذة، تانجو، الشرفة».

قوله: «لك، لي، لمن داسوه في درب الزحام ألقي السلام»[8].

وقوله:

وفي العصر شفتك يا فتنتي ولم نفترق في الزحام البليد[9]

يجعلنا نقف أمام دلالة «الزحام» التي عَرَفت استعمالاً قديماً «زحمَ القومُ

بعضهم بعضاً يزحمونهم زحماً وزحاماً: ضايقوهم» إلّا أنها اكتسبت بعداً جديداً من طرفين:

الأول: موقعيّتها عندما تصوّر مدينة حديثة وما يكون من اختلاط الناس، وعدم تمييز الغريب في كثرة الناس، والطرف الآخر هو التركيب الاضافي من (درب) و (الزحام).

إنّ الوقوف عند هذه الحالة اللغوية يعطي بداية يستمر الخطو فيها إلى أن تتضح مكوّنات الحياة العصرية في المدينة ضمن تجارب الشاعر ورؤاه، وليست مجرد وصف خارجي أصمّ، فكشف عالم الشاعر والخيوط التي تصل ما بينه وبين الواقع وتطلع المستقبل هو الذي يمهّد لنحلّ هذه التجربة مكانة في الأصالة الفنية والقدرة على التأثير أي تحقيق الفاعلية الجمالية عند القارىء المعاصر.

2 ـ الدلالة الحديثة في الصورة الفنية:

مجال هذا القسم من «المعجم الشعري» يحدّد بالصور البلاغية أي ما يدور حول التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية، وترصد فيه التشكيلات الحديثة، وتظهر من خلال الألفاظ ودلالاتها الحديثة مما يجعل هذه الصورة جديدة ففي تكوينها جزء ما كان معروفاً من قبل، أو لم تتطور قديماً دلالته على النحو الجديد.

ومن الشريحة المدروسة عند صلاح عبدالصبور نجد:

* «والبسمة البيضاء تهمر فوق خدّيه محبّة»
* «تمطّت الرئتان في صدر زجاجي خرب»
* «وامتدت الأنفاس مجهدة تراوغ أن تبوح بالانكسار»
* «ومشت إلى النفس الملالة، والنعاس إلى العيون»
* «نصنع في الصباح أفراحنا البيضاء»
* «حزن تمدّد في المدينة»
* «الحزن يفترش الطريق»
* «وغربتنا المرفأ المنتظر»
* «ودوّى القطار وماج الطريق»
* «الليل راح، لا بد من خوض الصباح»

* «ولم نفترق في الزحام البليد»
* «والبدر لملـــم فوق قريتنا أستار أوبته»
* «جارتي مدّت من الشرفة حبلاً من نغم،
نغم قاسٍ رتيب الضرب منزوف القرار»

عندما يقول الشاعر «حزن تمدّد في المدينة»[10] «الحزن يفترش الطريق»[11] إنـما يشكل استعارتين جديدتين في «تمدّد، يفترش» بربطهما بـ «حزن، والحزن» لكن البعد الأكثر عمقاً نحس به في الصلة الوثيقة بإيقاع عصري حديث هو المدينة بأضوائها الساطعة في طرف منها، وبألوان البؤس والفاقة في شوارعها الخلفية التي تمتهن الإنسان وتعصف بكيانه ليغدو شيئاً من الأشياء وههنا يتلاقى في تجربة الشاعر الحزن المجرّد والمتجسد في مؤثرات داخل نفسه، وأولئك البشر الرازحون تحت وطأة عبودية العصر الحديث فكأنهم هم الحزن ذاته، أو لعل الحزن ناب منابهم دفعاً للشرور بعيداً عن الإنسان؟!!

إنّ موقعية الكلمة أي ارتباطها الزماني والمكاني يحدّد أبعادها وألـوانها المتطورة «المدينة» ويلقي بظلالها على العلاقات اللغوية في الصورة.

3 ـ الرمز العام وتحليله الدلالي:

يشمل هذا القسم من المعجم الشعري الألفاظ المتصلة بالتاريخ العربي والإنساني، والموروث الأدبي مواقف وشخصيات، والتراث الشعبي، والأساطير القديمة. وهو ما يتكىء عليه الشاعر لإغناء التعبير عن تجربته وتعميقها أو تلوينها، وهنا نلجأ إلى توضيح أبعاد كل رمز ورد لدى الشاعر من المصادر والمراجع العربية والعالمية، ليغدو مرتكزاً لمعرفة ظلال الموقف في النصّ الأدبي، ويظل هذا النصّ هو المحدّد لزوايا التشابك بين الحالة الشعورية عند الشاعر وأطراف الرمز.

واصطلحنا على هذه الرموز بأنها عامة تمييزاً لها من الرموز الخاصة التي يمتلك خصوصيتها الشاعر من الشعراء ـ على نحو ما سنوضح بَعْدُ وها هي ذي شواهد من ديوان صلاح عبدالصبور:

«الزحام، الملك، الكفاف، القلعة والقلاع، برج النحس، المنصور، جام وإبريق وصومعة، الوجد، الحيرة، الأطلال، حورية، الغول، السندباد، سبع، المضحك الممراح، الصمت».

يقول الشاعر: «حزن صموت
والصمت لا يعني الرضاء بأن أمنية تموت»[12] .

ونرى أنه قد استفاد من متداول دلالة (الصمت) في سياقات أخرى حيث يؤدي دلالة الرضا، ذلك أن الفتاة البكر تستشار في مسألة زواجها ولئن صمتت لقد يكون هذا جواباً بالإيجاب منها، وفي الحديث النبوي الشريف «البكر تستأمر في نفسها، وسكوتها رضاها» [المبسوط للسرخسي ج 5 ص 8] ورغم أن الشاعر يريد أن يبرهن على الردّ والرفض في هذا السياق فهو يتكىء على الطرف الآخر من الدلالة المتداولة أي الصمت، ثم ينطلق من ذاكرة القارىء وصدى الأحاديث الاجتماعية.

إن اعتماد الشاعر على هذا الرمز لا يقف عند دلالته وأبعاده فحسب وإنما نراه في حركة التصوّر ما بين الطرفين وجعل القارىء ينتقل بينهما ليضل إلى خصوصية تجربة الشاعر.

4- الرمز الخاص وتحليله الدلالي:

يضم هذا القسم من المعجم الشعري رصيد الشاعر من الألفاظ التي عرفت تكراراً في تضاعيف نصوصه، وجعلتها تحمل ألواناً مميّزة، لذلك فنحن نتتبع دلالات الكلمات التي يلح عليها هذا الشاعر وكذلك مشتقاتها، وما يكون معها في إطار الحقل الدلالي، والعمل ههنا ليس إحصائياً مجرّداً، وإنما يربط بالسياق الوارد فيه، ويحلّل إلى جزئياته عندما يستعمل في وجوه عدة، وقد جاء لدى عبدالصبور من الرموز الخاصة في الشريحة المدروسة:

* الليل، الدجى، ليلة، العتمة (21 مرة)
* المساء (15 مرة)
* الحزن، الكآبة، ما ابتسمت، العذاب (17 مرة)
* الموت، قبر (17 مرة)
* السأم، سأمان (4 مرات)
* النور، الفجر، الصبح، الصباح (24 مرّة)
* الجدار (5 مرات)
* الصديق، عصبة، رفاقي، صاحبي (11 مرة)
* فتنتي (8 مرات)

* الولادة (7 مرات)
* الانكسار، المدينة، الزحام، الصليب، مرفئي، غرفتي، نجمة.

نقف مع دلالات الرمز الخاص في نصوص عبدالصبور في شاهد «الليل» وما يشاركه في حقله الدلالي «الدجى، العتمة، ليلة».

فهناك ثلاثة اتجاهات أساسية لاستعمال الشاعر الليل رمزاً في قصائده.

(1) - صورة الليل يحمل الراحة من عناء النهار، وما يشتبك فيه من مشكلات وأمور:

«يا ليل يا راحي ومصباحي وأفراحي وكنّي»[13]

- «يا وحدتي الليل راح لا بد من خوضَ الصباح»[14]
- «وشهدنا في انتصاف الليل ميلاد النسائم»[15].

(2) - صورة الليل برهبته وخوف يلفّ الناس بظلمته:

- «أطلال.. أطلالُ
لا شيء غير الويل
وغير قلب الليل
وموكب الإعصارْ»
- «ذات مساء مظلم كأنَّه سردابْ
أطل من كوى الجدار وجهه المرتابْ»[16].

(3) - صورة الليل التي لا تعطي دلالة مباشرة لكنها تكتسب من سياقها وموقعيّتها اللون النفسي:

- «وفي الليل كنت أنام على حجر أمّي
وأحلم في غفوتي بالبشر»[17].
- «وفي ليلة عاد من حقله
وقد قطبّت وجهه علّته
ومات»[18].

بمقدور الدارس أن يستجمع نتائج من هذه المعطيات الأساسية التي يقدمها «المعجم الشعري»؛ ومن ثمّ يعمل على المزيد من تحليلها بإضاءات متعددة؛ وقد تتجه الجهود النقدية مذاهب شتى لكنها تظل في فلك النصوص تدور حولها وتعمّق الرؤية فيها.

الأصول اللغوية للمعجم الشعري في التراث العربي

إن التراث اللغوي العربي حفل بمعطيات دلالية أظهرت قيمة التطور الدلالي في إغناء العربية ومدّها بطاقة تجعلها تتحرك بيسر في آفاق العلم وملامح الحياة في الأمصار العربية والإسلامية، وهذا ما أكسب الفصحى صفة «الحيوية» وفتح دروباً لها لا تضيق.

ونقصد هنا المعاجم وعدداً من المصنّفات تندرج تحت عنوان حديث هو المعاجم التخصصية، وكذلك تحت تسمية «الموسوعات» الثقافية بمعنى «الحضارية» أي ما يعرض لوجوه الحضارة وفاعليتها.

النتيجة لهذا التنقيب تذهب إلى اتجاهين الأول منهما يرتبط بسعينا المعاصر لتشكيل المعجم الشعري ذلك أننا عندما ندرك قدرة مصادرنا القديمة على إضاءة لغتنا العربية سنضع حدود خطواتنا في فهم الألفاظ ودلالاتها وقسمات من تطورها القديم والنهج الذي سلكته ـ وهو هنا يماثل قوانين اللغات الإنسانية القديمة والحديثة في التطور الدلالي ـ فننطلق من رؤية علمية عربية أصيلة يمكن أن نبني عليها ونتابع التحليل دون أن نبتعد عن روحها، خاصة وأننا ندرك على نحو واضح استمرار استعمال العربية في العصور المتتابعة (سواء في الرصيد الثابت وذاك المتحوّل دلالات جديدة) وهذا يعني تعاظم الفائدة لأي دراسة قديمة لحقيقة اللغة وقدراتها فليس الجهد ههنا تاريخياً بل هو متصل الجدوى.

والاتجاه الآخر هو أن تنوير هذا الجانب من أعمال اللغويين والاصطلاحيين العرب يكشف عن المناخ الذي نشط فيه النقاد والشراح لدواوين الشعراء وأعطوا ملحوظاتهم الدلالية ـ وهي أساس لبناء المعجم الشعري ـ وعرفوا تطبيقات للمعنى السياقي والقيمة النصيّة للاستخدام اللغوي عند الشعراء والأدباء.

أ ـ إذا ما تأملنا معاجم: «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس، و«أساس البلاغة» لجار الله الزمخشري، و«لسان العرب» لابن منظور نجد استعمالاً لمصطلحات التطور الدلالي عند هؤلاء المعجميين على نحو ينقض كل مقولات الدارسين المتعجلين بافتقاد الحس التاريخي للكلمة وحياتها في الأصول اللغوية العربية.

إننا نطالع مصطلحات: (التخصيص، والتعميم، والانتقال، والأصل، والاستعارة، والمشابهة، والمجاز) مع دلالات الألفاظ العربية في حالات كثيرة،

ونعتقد أن هؤلاء اللغويين كانوا قادرين على تصنيف مؤلفات هامة لو أفردوا تلك الحالات في أعمال مستقلة ومميّزة.

نعرض بعض الشواهد مما ورد في المعاجم العربية القديمة دليلاً وثمة المزيد[19] :

فمما يتصل بالتطور من المحسوس إلى المجرّد من الدلالات يرد في «لسان العرب» (ط. ب. ع) الطبع والطبيعة: الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان، والطبع: الختم وهو التأثير في الطين ونحوه، يقال: طبع الله على قلوب الكافرين، أي ختم فلا يعي وغطّى ولا يوفّق لخير وأما طبَع بتحريك الباء فهو تلطيخه بالأدناس، **وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف وغيره**.

وفي «أساس البلاغة»: **وفي المجاز: طبع الله على قلب الكافر** وإنّ فلاناً لَطِمَع طَبِعٌ: دنس الأخلاق، وربّ طمع يهدي إلى طبع وهو مطبوع على الكرم، وقد طبع على الأخلاق المحمودة، وهو كريم الطبع والطبيعة والطباع والطبائع. وهو متطبّع بكذا. وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة».

وجاء في اللسان أيضاً «الطَّبْعُ بالسكون: الختم، وبالتحريك: الدنس وأصله من الوسخ والدنس يغشيان السيف ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرها من المقابح».

ومن شواهد النقل الدلالي تطالع في «لسان العرب»: الطُّنْبُ والطُّنُبُ معاً: حبل الخباء والسرادق ونحوهما، وفي الحديث: ما بين طنبي المدينة أحوج منها إليها، أي ما بين طرفيها. والطنب واحد أطناب الخيمة فاستعاره للطرق والناحية.

وفي «أساس البلاغة»: ومن المجاز: هذه شجرة طويلة الأطناب وهي العروق، وشدّ الله المفاصل بالأطناب وهي الأعصاب، والأشاجع أطناب الأصابع، ومدّت الشمس أطنابها، وامتدت أطنابها: طلعت وتقضبت أطنابها: غربت.

ولي حاجات أطانيب: طويلة كثيرة لا تكاد تنقضي، وغارات أطانيب متصلة لا آخر لها.

وطنّب بالبلد أقام به، وجراد مطنّب: كثير، ونهر مطنّب بعيد الذهاب».

ب ـ إن الوقوف عند المصطلح العلمي ـ باتساع مفهوم العلم ـ وتدقيق أبعاده اقتضى من المصنفين إدراكاً لحركة الدلالة بين المواضعة اللغوية العامة (العرف العام)؛ والمواضعة الخاصة في وجه من وجوه الثقافة، وكانت الجهود المميّزة قد بدأت مع الكندي الفيلسوف في رسالة للتعريفات (الحدود) وتتابعت بعدها كتب عديدة يستوقفنا منها واحد له طرافته وهو «مفاتيح العلوم» للخوارزمي الكاتب، ذلك أننا نقابل أبواباً للعلوم والفلسفة والأصول، وجوانب الحياة، وفي كل منها عدد من الكلمات الاصطلاحية، وتطالعنا تفسيرات دلالية إضافة إلى ما ذكره المصنف في مقدمته من تباين المفهومات والدلالات في فروع الثقافة المختلفة «حتى أن اللغوي المبرّز في الأدب إذا تأمّل كتاباً من الكتب التي صنّفت في أبواب العلوم والحكمة، لم يكن شدا صدراً من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه، وكان كالأميّ الأغتم عند نظره فيه»[20] .

ونقرأ في «المفاتيح» أن «طبقات العين سمّيت بالأشياء التي تشبهها كالمشيمة شبّهت بالمشيمة وهي التي فيها الولد في البطن، والشبكية شبهت بنسيج العنكبوت، والقرنية شبهت بالقرن في صلابته[21] ، والأعور وهو مَعْيٌ على هيئة الكيس، وسمّي الأعور لأنه لا منفذ له»[22]

كما أننا نطالع مواضع كثيرة في تعريفات السيد الشريف الجرجاني يقارن بين الدلالة اللغوية العامة، والدلالة الاصطلاحية[23] .

هذه إشارة موجزة تتسع مفرداتها في عديد من كتب الاصطلاح والتعريفات وتتطلب كثافة الجهود كيما تفيد المحللين اللغويين والباحثين في المعجم الشعري ولعلّ التوجّه إلى هذا النشاط أكثر فاعلية ومباشرة من طموح المعجم اللغوي التاريخي التأصيلي العام للعربية.

4 ـ الأصول النقدية للمعجم الشعري في التراث العربي

إن النقد العربي القديم عرض لقضايا التطور الدلالي في ثنايا بحوثه خاصة ما كان منه تطبيقياً كالموازنة للآمدي، وهو مفيد في بناء المعجم الشعري، لكنّ المصنفات التي عرفت باسم «شروح الشعر» وتناولت الآثار الشعرية الجاهلية والإسلامية والعباسية هي بغيتنا في هذه الزاوية من البحث عن أصول المعجم، ولقد

امتلأت المكتبة العربية بالشروح المفردة لدواوين الشعر وكذلك بشروح المجموعات كالمعلقات، والحماسة، وشعر الهذليين، وترددت أسماء الشراح بين المشرق العربي وبلاد الأندلس والمغرب[24].

ونضيف إلى كتب الشروح ما كان من أعمال حملت عنواناً تكرر «مشكل الشعر» ونوقش فيه المعنى والدلالة في الشعر خاصة لدى (المتنبي) كما صنع ابن جني والأصفهاني أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن.

هذه الشروح الشعرية وما دار في فلكها تخدم سعينا في المعجم الشعري ذلك أنها أرست قاعدة هامة في التناول اللغوي وتوظيفه في التحليل النقدي التالي لها، فهي رغم اعتمادها على المادة اللغوية الأساسية العامة تتحدث وتخصص القول في «الدلالة السياقية» وهي التي تواجه القارىء في النصّ الأدبي، ونلحظ أننا لسنا أمام قوائم استلّت من أوراق اللغويين ومعاجمهم.

إنّ هؤلاء الشراح تتبعوا مجموعة من الأصول اللغوية، وفرشوا دائرتها الواسعة بألوان لها كثيرة، ثم كان الواحد منهم ينثني ليضع إشارة دلالية توضح حركة الكلمة وأبعادها وقيمتها لغةً في النص (السياق).

وكذلك نطالع تعليقات نحوية وإعرابية لبعض مكوّنات الجملة عند هذا الشاعر أو الآخر وندرك أننا مع تحليل لوجوه المعنى بحسب التأويل المعتمد أو المتروك.

بهذا نعلي من شأن تلك الشروح التي كانت تسعى إلى عملية تشريح للنصّ، ولا يخفي أن تلك الأعمال لم تعرف المرحلة الأعلى التي تجمع الملحوظات الدلالية والاتجاه إلى ترسيخ معالجة النصّ بخصوصيته.

نذكر قبل عرض نماذج من تلك الشروح أن ثمة جانبين يؤكّدان القيم الدلالية فيها، ويوضحّان دورها في إطار الثقافة العربية الإسلامية، الأول منهما: اهتمام الأصوليين والفقهاء بالدلالة النصيّة وتحديد دلالات الألفاظ العامة والخاصة، والمجازية والعرفية وابتناء النتائج على أساس مكين من دراية معنى الألفاظ.

والجانب الآخر هو تلك الدراسة النظرية للسياق والدلالة فيه مما كان لدى عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز» وفكرة النظم التي ركّزت الأنظار على الفرق بين دلالة لغوية عامة، وبين توظيف مميّز لها في نصّ من النصوص.

إن الشراح لم يكونوا بعيدين عن الأجواء الثقافية التي حفلت بمناقشة الدلالة واستعملتها بتميّز، وهذ ما يجعلنا نستفيد من تكامل المصنّفات وجهود الشراح والنقاد والفقهاء واللغويين.

إنّ النماذج التي نسوقها ههنا قبسٌ يدلّ وثمة الشواهد المستفيضة والكافية للبرهان العلمي على قيمة تلك الكتب مصدراً يرتكز عليه في الجهد اللغوي ـ النقدي المعاصر، وقد خصصتُ لها فصول من كتاب «علم الدلالة العربي/النظرية والتطبيق»[25].

يتحدث أبو جعفر أحمد بن محمد بن النحاس في كتابه «شرح القصائد التّسع المشهورات» عن لفظ «المدامة» في بيت عنترة:

ولقد شربت من المدامة بعدما ركدَ الهواجر بالمشوف المعلم

فيقول: «المدامة: الخمر وقيل سمّيت مدامة لدوامها في الدنّ، وقيل لأنهم يديمون شربها، وقيل: لأنه يغلى عليها حتى تسكن، لأنه يقال: دام إذا سكن وثبت، فإن قيل: فهل لكل ما سكن مدام؟ قيل: **الأصل هذا**، ثم يخصّ الشيء باسم» ونلحظ دقة الموازنة بين الدلالة العامة ثم انتقالها إلى حالة خاصة وهذا الشاهد يعطي القاعدة الدلالية وإن يكن الموضع واضحاً في السياق. وهو ما اعتمد عليه ابن النحاس في المواضع الأخرى من شرحه[26].

ويوضح ابن جني القيم اللغوية في شرحه لأشعار هذيل مع بيت أبي ضبّ الهذلي:

ولقد أقود الجيش أحملُ رايتي للجيش يقدمهم كميٌّ أسودُ

فـ«لام (الكميّ) ياء لأنه عندهم من كمى الرجل شهادته يكميها إذا سترها والتقاؤهما أنه يستر بشجاعته من أن يعرض ضرب الخلل له، وحكى أبو زيد تكسيره (أكماء)»[27].

فابن جني يربط بين الدلالة الحسيّة في الحرب (الكمي) بالدلالة المجرّدة في معنى كتم الشهادة، ولعلّ ظِلاً من الخصومة يتبدى في الحالتين اللتين تستعمل فيهما المادة اللغوية، وتغنى الجوانب الانفعالية مع هذا الربط.

ويقف ابن جني في موضع آخر مع المتنبي عندما شرح ديوانه (الفسر الكبير)

وفي بيت يقول:

تـــرعـرع الملك الأستـــاذ مكتهـلاً قبـل اكتهالٍ، أديباً قبـل تـأديب

ويعلّق: «اكتهل تمَّ واشتدّ، ومنه اكتهل النبت إذا تمّ وعلا، والكهل من الناس من ما بين أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين»[28] فنستنتج في ضوء تطبيقات ابن جني: أصالة الاستعمال المادي المحسوس (كهل) في النبات وذلك لمباشرته ولكثرة تداول صور الزهر والورد مقترناً بالشباب وبذا يمكن ترجيح الانتقال إلى المعنى المجرّد دالاً على مرحلة من عمر الإنسان (اكتهل، كهل).

5 ـ الأصول القديمة والمؤثرات الحديثة في المعجم الشعري

إنّ السعي إلى تأصيل هذه التجربة اللغوية ـ النقدية بحسب المصادر العربيّة القديمة لا يغفل الجهود الحديثة وضرورتها، بل إننا نوقن بضرورة الجمع بينهما من غير تنافر أو تناقض، ولقد يبدو في منهجنا ملامح تتلاقى مع اتجاهات البنيويين في الجانب الإحصائي للكلمات في النصّ، وهذا ما كان في «الرمز الخاص» لدى الشاعر[29].

نحن نوظّف الإحصاء في زاوية واحدة من المعجم وتؤدي إلى تأكيد نتيجة نعتمد عليها من خلال تحليل قسمات معينة في تجارب هذا الشاعر، وليس الإحصاء قيمة مطلقة تبنى عليها نتائجنا، ذلك أننا نسلك سبيل التحليل والتذوق اللذين يستندان إلى رصيد مميّز عند الدارس في الثقافة اللغوية والأدبية، أي أن الاستقراء واستعراض الديوان (نصّاً كاملاً) أو النصوص الجزئية لا يؤديان بصورة آلية إلى نتائج يقوم بها الحاسوب!.

إن إدراك الحداثة اللغوية وكذلك جدة الصورة الشعرية في ابتكار حديث أو تجديد البناء اللغوي لصورة مألوفة قديمة، وتمييز الرموز العامة إن هذا مرّده إلى شخصية الباحث العلمية وقدرتها على الفصل والتحديد وكذلك التعرّف إلى ماهية الرمز الخاص.

إن هذه الدراسة تفتح باب المناقشة النقدية بين الباحثين وقد علت أصوات في الساحة الأدبية العربية تدعو إلى تفاعل حيّ بين الإبداع الأدبي ونشاط النقاد على نحو يفيد القارىء العربي وأصحاب الأعمال الشعرية أنفسهم خاصة إذا لم نتغاض

عن الأجيال الجديدة من الأدباء ـ أو من يحاولون أن يكونوا كذلك ـ فهي تضطرب بين تراث أدبي ونقدي غير قادرة على الوصول إلى حقائقه وأبعاده، وشتات من الأدب الحديث أو المطبوع الحديث! وقلّة في الاتجاهات النقدية المعاصرة ذات التبلور الكافي للفهم والإدراك الجمالي.

الهوامش:

(1) الداية/د. فايز، الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الملاح، دمشق 1978 م.
(2) الداية/د. فايز، علم الدلالة العربي/النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق 1985 م.
(3) ينظر في عدد خاص عن النقد العربي القديم من «الموقف الأدبي»، اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1986 م.
(4) من هؤلاء المتحمسين لأبي الطيب «ابن جني» وينظر في «الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تحقيق محسن غياض، بغداد 1973 م. ومن المتحاملين على المتنبي «الحاتمي أبو علي محمد بن الحسن» وينظر في مصنفه «الرسالة الموضحة» تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت 1965 م.
(5) ويمزات ـ بروكس، النقد الأدبي تاريخ موجز، ج 3 ترجمة محيى الدين صبحي ـ حسام الخطيب، ط. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق 1975 م ص 497 - 525 .
(6) ريتشاردز، إ. أ، مبادىء النقد الأدبي، ترجمة مصطفى بدوي، وزارة الثقافة، القاهرة 1963 م، ص 167 ' 175 .
(7) الداية/علم الدلالة العربي ص 439 .
(8) عبد الصبور/صلاح، ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت 1972 م، ص 33 .
(9) عبد الصبور، الديوان ص 43 .
(10) عبد الصبور، الديوان ص 37 .
(11) عبد الصبور، الديوان، ص 38 .
(12) عبد الصبور، الديوان ، ص 37 .
(13) عبد الصبور، الديوان،، ص 40 .
(14) عبد الصبور، الديوان، ص 48 .
(15) عبد الصبور، الديوان، ص 52 .
(16) عبد الصبور، الديوان، ص 54 .
(17) عبد الصبور، الديوان، ص 59 .
(18) عبد الصبور، الديوان، ص 60 .
(19) الداية، علم الدلالة العربي، ص 225 .
(20) الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف)، مفاتيح العلوم، المطبعة المنيرية بالقاهرة ص 2 .
(21) مفاتيح العلوم ص 93 .
(22) مفاتيح العلوم، ص 94 .
(23) الجرجاني، السيد الشريف، التعريفات، ط. مصطفى البابي الحلبي، 1938 م.

(24) الداية، د. محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط 2 مؤسسة الرسالة 1401 هـ 1981 م ص 69 - 77 .

(25) علم الدلالة العربي، ص 271 - 373 .

(26) ابن النحاس، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب، بغداد 1973 ، ص 496 - 497 .

(27) ابن جني، التمام في تفسير بقية أشعار هذيل، تحقيق أحمد ناجي القيسي، والحديثي، ومطلوب بغداد 1381 هـ 1962 م، ص 74 .

(28) ابن جني، التفسير الكبير، ج 1، تحقيق صفاء خلوصي، بغداد 1970 ، ص 366 - 367 .

(29) Guiraud, Pierre, La sémantique, P.U.F., Paris 1975, pp. 115 - 125.

ملف
الانتفاضة الفلسطينية

كلمة الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح

مدير الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الأستاذ صخر أبو نزار أمين سر المنظمة
الأخ جمال عرفات سفيرْ فلسطين. الإخوة السفراء
الإخوة العمداء. الإخوة أعضاء هيئة التدريس.
أبنائي وبناتي الطَلاب والطالبات الحاضرون جميعاً

وفاءً لانتفاضة الشعب العربي الفلسطيني، وإجلالاً لشهدائها الأماجد، وتقديراً لحجارة الأرض المقدسة وأطفالها وأبطالها يُقامُ هذا المهرجانُ الطلابي الكبير وتلتقي هذه الوجوه الكريمة التي يؤرقها ما يحدث في فلسطين العربية المحتلة بعد عام كامل من الصمود النبيل والبطولات الفلسطينية المذهلة.

ومهما قيل في هذه المناسبة ـ وقد قيل الكثير هنا وهناك ـ فإن صوتَ الحجر وهو ينطلقُ من كف الطفل الفلسطيني إلى هدفه المتمثل في الجندي الصهيوني المحتل يفوق بما لا يقاس كل الأصوات المسموعةَ والمقروؤة. وهو من حيث قيمته الفكرية والتاريخية والنضالية، ومن حيث المبادىء التي خلقها وأكد عليها يرتفع إلى مستويات تعلو كثيراً المواقع التي احتلتها الكلمة العربية المعاصرة منظومة كانت أم منثورة. وقد كان السيف في معارك الشعوب المقهورة أصدق أنباء من الكتب. وكان صوت الحجر الفلسطيني أعظم قصيدة وأهم خطاب أستمع إليه العالم بأسره ولم يكن في الوقت ذاته في حاجة إلى شرح أو تفسير أو ترجمة.

ومن حسن حظ الانتفاضة ـ الثورة أنها تُجيد لغةَ الحجر، لغةَ السيف، ولا

تجيدُ لغةَ الكلام، تجيدُ التصويبَ ولا تجيد التصويت، تسعى إلى كتابةِ التاريخ الحديث للعرب بالأفعال لا بالأقوال. ولذلك يستطيعُ الآن أي مراقبٍ محايد أن يقول أن الانتفاضةَ بلغتها الجديدة قد نجحتْ وأنها استطاعت أن تنقل القضية الفلسطينية في عام واحد إلى مرحلةٍ لم تستطع مؤتمراتُ القمم والسفوح أن تَبلُغَها، وإذا كان موقفُ الخصم دائماً مرآة للتعرف على طبيعة الحدث أو الموضوع، فقد كانت الانتفاضة ـ الثورة بهذا المقياس وحده ـ منذ انطلاقتها وعلى مدى عام كامل اضطر ما واجههُ الاحتلالُ الصهيوني طوال عمر دولته المدعومة بترسانة الأسلحة الأمريكية وأسلحة حلف الأطلنتيكي، لقد أصابت العدو التاريخي بذعر لا مثيل له، وفضحْت كثيراً من الوجوه الزائفة على المسرح الدولي وخلفت حقائقَ جديدةٍ في ذهن الرأي العام العالمي.

أيها الأخوة والأخوات

أن الهجمة الشرسةَ والمتوحشةَ من جانب العدو الغاصب لها ما يبررها من وجهة نظره ومن وجهة نظر أنصار الانتفاضة الذين يقدرون هلعه ورعبه. لكن ما يثير الدهشة حقاً هو هذا الصمتُ العربي، هذا التجاهل المتعمد من بعض الأنظمة، وهذه اللامبالاة القاتلة من جماهير الشعب العربي، وهذا الاستخذاءُ والانكفاء تجاه المواقف المخزية للادارة الأمريكية وكأنما قد بلغ العجز العربي مداه ووصل حداً لم يسبق له مثيل في التاريخ. ويلاحظ أنه منذ هزيمة حزيران المشئوم وروح الأمة العربية يعاني عبر سلسلة مخيفة من التصدعات والممارسات اليائسة في انتظار معجزةٍ هائلةٍ تعيد إلى أبناء الشعب العربي وعيهم وثقتهم بأنفسهم وبمستقبلهم. وجاءت هذه المعجزة من حيث لم يكن أحد يعلم أو ينتظر، جاءتْ من قلب فلسطين. من جحيم العذابات والمواجهات الدامية ممثلة في هذه الانتفاضة الشعبية العارمة، وكان ظهور هذه المعجزة واستمرارها كافياً لكي يوقظ وعي الأمة النائمة وأن يطهر نفوس أبنائها من الخوف والاستسلام. ولكن عاماً كاملاً من معجزة المواجهة الشجاعة لم يغير من واقع الجماهير ولم يوحد صفوفها ولا توحدت قياداتها وما تزال التصدعات ولانقسامات إلى بلا معنى تهدر طاقات معظم الأقطار العربية وتستهلك معظم قد رأتها المادية والمعنوية.

أيها الأخوة والأخوات

لقد أصدرت الأمانةُ العامة لتجمع المثقفين العرب من أجل دعم الثورة

الشعبية في فلسطين بياناً جاء فيه عن الحد الأدنى من التجاوب العربي المطلوب مع هذه الثورة ما يلي:

أولاً : تصحيح العلاقات العربية ـ العربية على طريق التضامن والتماسك والتكامل، وفي مقدمتها تصحيحُ العلاقة السورية ـ الفلسطينية، والعلاقة العراقية ـ السورية بهدف فتح المجال واسعاً أمام إحياء (الجبهة الشرقية) الممتدة من الناقورة في جنوب لبنان إلى العقبة في جنوب الأردن، ذلك أن إحياء مثل هذه الجبهة يُصبح المتنفس الحقيقي للثورة في داخل فلسطين، كما يمنع المحتل الصهيوني من الاستفراد بها وشعبها ومناضليها.

ثانياً : تصحيحُ العلاقات بين الأنظمة والجماهير العربية على طريق اطلاق الحريات الديمقراطية واحترامُ حقوق الإنسان الأساسية. فمثل هذا الاتجاه من شأنه أن يعطي الثورة الشعبية في فلسطين بعداً استراتيجياً جديداً باعتباره يتيح الفرصة للجماهير العربية وقواها الحية أن تمارس تضامنها مع الثورة وأن تترجم دعمها في نتائج عملية ملموسة.

ثالثاً : السعي الحازم والنهائي لاغلاق كل الحروب الأهلية والجانبية التي تشهدها المنطقة العربية والإسلامية، وفي مقدمتها حرب لبنان وأثارها التقسيمية، وحرب الصحراء في المغرب.

إن هذه المحاور التي يرتكز عليها برنامج الحد الأدنى للتجاوب مع متطلبات الثورة الشعبية في فلسطين يجب أن يتحول اليوم إلى أهداف لكل عربي شريف يرغب حقاً في مساندة أشقائه الواقعين تحت وطأة الاحتلال الصهيوني الاستيطاني وتحرير أرضهم. وبهذه المناسبة فإننا فخورون ونعتز بأن بلادنا قيادة وحكومة وشعباً تقف بكل امكانياتها في دعم الثورة الشعبية في فلسطين المحتلة وتقف بكل امكانياتها أيضاً في دعم منظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد وأنها لثورة حتى النصر.

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد محمد شجاع

عميد كلية الآداب

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

الأخ الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح مدير جامعة صنعاء
الأخ صخر أبو نزار عضو اللجنة التنفيذي لحركة فتح
الأخ سفير دولة فلسطين جمال عرفات
معالي الأخوة الكرام، السفراء وأعضاء السلك الدبلوماسي
الأخوة الضيوف الأجلاء
الزملاء عمداء الكليات ووكلائها وأساتِذَتِها وبناتِها وأبنائِها
أيها الحاضرون جميعاً

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يَسُرني ويُسْعدُني بأنْ أُرَحِبَ بكم باسمِ كلية الآداب أجملَ ترحيبٍ وأن أعبرَ لكم عن عظيمِ امتناني وجزيل شكري لتشريفِكم هذا المهرجان الذي تقيمُهُ الكليةُ بمناسبةِ الذكرى السنوية الأولى لانتفاضةِ الشعب العربي الفلسطيني الباسل، في أرضْنا المحتلة، فلسطين.

إنَّ قيامَ مثلِ هذا المهرجان إنْ هو إلّا تعبيرٌ صادقٌ عن مواقف بلادنا المبدئية والثابتة والمستمرة مع الثورة الفلسطينية، والشعب الفلسطيني، ومع الانتفاضة الفلسطينية، التي تُجَسِدُهَا قيادتُنا السياسية بزعامةِ الأخ الرئيس العقيد علي عبد الله

صالح، رئيسِ الجمهورية القائدِ العام للقواتِ المسلحة، الأمينِ العام للمؤتمر الشعبي العام بالعملِ والممارسة على مُختلفِ الأصعد، الداخلية، والعربية والدولية.

أيها الأخوةُ الحاضرون جميعاً

في ظلِ المناخ الديموقراطي، الذي تعيشه بلادُنا، وفي ظلِ اطلاقِ حريةِ الكلمةِ والرأي، وفي ظلِ العَلاقةِ الحية الخلّاقة بين القيادة والجماهير، ولا سيما في هذه الفترة الزاخرة من حياةِ شعبنا اليمني، قامت الجمعياتُ العلمية في أقسامِ الكلية المختلفة، وفرعُ الاتحاد العام لطلبةِ اليمن بكلية الآداب، بالتهيئةِ لهذا المهرجان، بهذه المناسبةِ العزيزة على قلوب كلِ الشرفاء، وذلك تجسيداً ووفاءً من الجماهير اليمنية تُجاه الثورةِ الفلسطينية وتجاه انتفاضةِ الحجارةِ في فلسطين المحتلة. إنَّ طلبتَنا بإحيائِهم لمثلِ هذه المهرجانات، إنما يؤكدون، أن همومَهم لا تنحصر في مجال اليمن فحسب، ولكنها تتعدى ذلك إلى المجالِ القومي.

أيها الاخوة

لقد ظن الكثيرون بأنّ الانتفاضةَ الفلسطينية في الأرضِ المحتلة، عبارةٌ عن سحابةِ صيفٍ عابرةٍ لن تستطيع الصمودَ أمامَ جبروتِ الصهاينة، وراهنوا انطلاقاً من واقعهم المريض على أن هذه الانتفاضة لن تستمرَ أكثرَ من بضعة أسابيع، وَدَمغُوها بالعفوية، وبعدمِ الارتباط بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وجاءت الأيامُ لتثبت العكس،

لتثبتَ أن الانتفاضةَ إنما قامت لتبقى ولتستمر حتى النصر، لتثبتَ أن الانتفاضة ليست عملاً عفوياً عشوائياً، وإنما هي ثورةٌ شعبيةٌ واعية ومرتبطةٌ بمنظمةِ التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الرعبي الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وخارجها.

لقد دخل الشعبُ الفلسطيني مع الانتفاضة زمناً جديداً، وانتقلت الثورةُ الفلسطينيةُ من مرحلةِ الانفعالِ إلى مرحلة العقلِ المؤثر، من مرحلةِ التبعية إلى مرحلة القيادة والريادة.

لقد فتحت ثورةُ الحجارة، أمامَ الشعوبِ المقهورة والمظلومة والمستعبدة، في كلِّ أنحاءِ العالم باباً جديداً من أبواب النضال. ركيزتاه: الايمان والحجر.

لقد انقضى ـ إلى غيرِ رجعة ـ زمنُ المتاجرة بالقضيةِ الفلسطينية، زمنُ بيانات التأييد التي لا تُسْمِنُ ولا تُغْني، زمنُ المزايداتِ الكلامية على الشعب الفلسطيني، وعلى الثورة الفلسطينية. إنَّ الانتفاضةَ الفلسطينية، ترفَعُ قبضتَها اليوم، في وجهِ العالم، كلِ العالم، معلنةً وهي تحملُ غصنَ الزيتون في يدٍ والحجرَ في اليدِ الأخرى:

«إمَّا أن نكونَ دولةً مستقلةً ذاتَ سيادةً وكرامةً أو لا تكون».

أيها الأخوة

لقد اخترقت الانتفاضةُ الفلسطينيةُ جبهةَ الخصومِ والأعداءِ ونسفت بصمودِها وبشموليتِها، وبشرعيتها جهودَ نصفِ قرنٍ من إعلامِ الأمريكي والغربي، الذي كان منحازاً انحيازاً كاملاً ومطلقاً إلى جانب اسرائيل، أي إلى جانب الباطل ضد الحق، وها نحن اليوم بدأنا نسمعُ كثيراً من الأصواتِ الأمريكية والأوروبية، الرسميةِ منها والشعبية، تندُدُ بالأساليبِ الهمجيةِ التي تتعاملُ بها اسرائيلُ مع الأطفالِ ومع النساءِ ومع الشيوخِ من أبطالِ الانتفاضة.

إنَّ أبطالَ الحجارةِ في فلسطينَ المحتلة يكررون اليومَ قصةَ الشعبِ الفيتنامي البطل، عندما استطاع بصمودِه وكفاحِه أن يحولَ الرأيَ العامَ العالمي، والرأيَ العامَ الأمريكي ضد ممارساتِ وموقفِ الحكومة الأمريكية، الأمر الذي أرغمَها على الخضوعِ والتراجعِ والانسحاب.

إن اعلاَن قيامَ الدولةِ الفلسطينية المستقلة يومَ الخامس عشر من نوفمبر الماضي، إنما هو اعلانٌ ـ واقع الحال ـ عن بَدْءِ مرحلةِ الجهاد الأكبر، وذلك أن العدوَ الصهيوني لن يخضعَ للشرعية الدولية، إلاّ في إطار «ميزان للقوى» هو غير ميزان القوى الراهن، وعلى هذا فإنَّ الحكوماتِ العربية والجماهير العربية؛ تعتبرُ مسؤولةً اليوم، أكثر من أي يومٍ مضى، عن تعبئةِ كافةِ جهودِها، وإمكاناتِها المادية والمعنوية، وراء الانتفاضة، ووراءَ منظمةِ التحرير الفلسطينية من أجلِ الخروجِ بالدولة الفلسطينية العتيدة من حيزِ القول إلى حيزِ الفعل.

إنَّ دعمَ انتفاضةِ الأرضِ المحتلة، وتأمينِ صمودِها واستمراريتها لا يعتبرُ ضرورةً فلسطينية فحسب ولكن ضرورةً قوميةً تتعلقُ بالأمنِ القومي العربي أولاً وقبل كل شيء.

أيها الاخوة الحاضرون

لقد صمدت الانتفاضةُ، وها نحن نحتفلُ اليوم بمرورِ عامٍ كاملٍ على صمودِها، ولقد أقامت مؤسساتِها الضرورية، وابتكرت حلولَها الذاتية وانصهرت في بوتقتِها المقدسة مختلفُ الأجيال: الشبابُ الشيوخُ النساءُ، الأطفالُ، المثقفون، العمالُ، الفلاحون، التجارُ، الصناعُ، ومختلف الفئاتِ الاجتماعية والسياسية، وهي ماضيةٌ إلى غاياتِها المنشودة، إنها اليوم أقوى مما كانت عليه بالأمس، وستكون غداً أقوى مما هي عليه اليوم.

وأن النصرَ ـ بحول الله ـ لقريبٌ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة اتحاد طلاب اليمن

محمد جسار
المسؤول الإعلامي في الاتحاد

بسم الله الرحمن الرحيم

للذين أجبروا التاريخ على أن يقف إجلالاً وإكباراً لهم وتعظيماً لبطولاتهم.. نقف اليوم لنحتفل بعيد ثورتهم الأم.. ثورتهم المعجزة.. عيد ميلاد الكرامة العربية.. نحتفل بهم وهم يحنون رأس الزمان ليطلوا على العام الثاني لثورتهم الشعبية شامخي الرؤوس مرفوعي الهامات.. بحجارتهم صنعوا حضارةَ أمة ولصوت حجارتهم وقع أيقظ كل الضمائر الإنسانية النائمة لتصحوا مبهورة بعظمة نضال هؤلاء الفتية ولتفتح أعينها فترى وحشية ما حاق بهم.

أيها الإخوة والأخوات:

أن القطاع الطلابي اليمني وبقيادة إطاره النقابي الإتحاد العام لطلاب اليمن قد وقف منذ اليوم الأول للإنتفاضة العارمة مؤيداً ومسانداً لفعلها الثوري العظيم بكل ما هو متاح من أساليب الدعم والمساندة.

ومثلما امتزج الدم اليمني بالدم الفلسطيني في ساحات النضال، وعزفا معاً سيمفونية إبداع نضالية واحدة.. فإننا اليوم وباسم القطاع الطلابي اليمني نؤكد استعدادنا الدائم للإلتحام مجدداً بالبندقية في عناق أبدي، واقتحام الصفوف المتقدمة دفاعاً عن الحق العربي والكرامة العربية وترجمةً لإيماننا بأن القضية الفلسطينية هي قضيتنا.. وكل غالٍ يرخص أمامها.

الإخوة والأخوات الحاضرون

إن نضالات الجماهير الطلابية داخل الأرض المحتلة إنما هي ملاحم

تضحيات وفداء.. فقد مثلوا بما واجهونه من أصناف البطش والعدوان ومصادرة الحقوق، وإغلاق المدارس والجامعات والتعرض لأفضع أساليب الإرهاب النازي الجديد.. كما أن الثورات الطلابية داخل جامعات الوطن المحتل كانت المدخل الأول للثورة الشعبية التي نحتفل اليوم بتواصل انتصاراتها.. وفي المقابل فإن الطلاب الذين يرضعون البطولة من نسمات هواء الوطن وعشق ترابه هم زاد الثورة ودمها المتجدد في شرايينها وذخيرتها ليوم النصر المبين. ومن هنا حق لنا أن نحتفل بإبداعهم رمزاً لجيل الغضب العربي القادم على العالم شامخاً بإباء وكبرياء.

الحاضرون الأكارم

إن شعوبنا مطالبةٌ اليوم بالانتقال الجاد من مرحلة التغني ببطولات أولائك العظماء ومن تسخير الكلمة سلاحاً للشجب والتنديد ومضغ ألوان الأسف إلى ميدان الفعل الثوري المساند الذي من شأنه صنع موقف عربي قادر على أن يحدد موقع هذه الأمة على الخارطة الدولية خاصة بعد أن أعلن العدو عداءة ونذر نفسه لاجهاض وليد الانتفاضة المتمثل بالدولة الفلسطينية المستقلة. فللعازفين على وتر السلام من أبواب أمريكا نقول.. أمريكا لا ولن تجود بالسلام هبة لإحد.. فمواقفها ما زالت جرحاً ينزف. وفيتوها لا يزالَ سوطاً يجلد كل قرار دولي.

تحية إجلال لصانعي المجد.. ودعوات صادقة بالرحمة والغفران لأرواح شهداء الانتفاضة.. ولمن نبعث من عمقهم فكرة هذا المهرجان تحية ولمن بذلوا جهداً من كلية الآداب عمادة وهيئة تدريس وفرع الإتحاد العام لطلاب اليمن والجمعيات العلمية بالكلية كل معاني الشكر والتقدير ولأشقائنا من الطلاب الفلسطينيين بجامعة صنعاء كلمة شكر لما بذلوه.

وإنا على الدرب سائرون
وإنها لثورة حتى النصر

كلمة صخر أبو نزار

عضو اللجنة التنفيذية لحركة فتح

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة والأخوات

وأنتم تجتمعون اليوم للتعبير عن عمق مشاعر التضامن والتأييد والمشاركة في دعم الانتفاضة المباركة لشعبكم الفلسطيني البطل، هنا في جامعة صنعاء التي احتضنت ندوة الفكر والفن والأدب لدعم الانتفاضة هنا في صنعاء عاصمة الجمهورية العربية اليمنية التي يؤكد رئيسها المناضل الأخ الرئيس علي عبد الله صالح: «أن قضية فلسطين هي قضية الشعب اليمني، وأن الدعم والمساندة للشعب الفلسطيني في ثورته المتأججة داخل فلسطين المحتلة، هي واجب مقدس على كل يمني وكل عربي»، أجد من واجبي أن أنقل إليكم باعتراف وفخر تحيات أهلكم المنتفضين داخل فلسطين المحتلة، وأهلكم الصامدين في مخيمات البطولة في جنوب لبنان وإخوانكم المقاتلين الأبطال في الجنوب اللبناني، الذين يتصدون للهجمات الصهيونية الهمجية، فيلقنون العدو دروس الصمود ويذيقونه مرارة الهزائم، كما يشرفني أن أنقل إليكم تحيات شعبنا الفلسطيني في كل أماكن تواجده، وتحيات اللجنة المركزية لحركة فتح واللجنة التنفيذية لـ م. ت. ف.، وأحر التحيات وأطيبها لليمن رئيساً وحكومة وشعباً من الأخ أبو عمار.

إخوتي وأخواتي:

بالثورة يصبح الخارق أليفاً، ويصبح المستحيل ممكناً وتتحول المعجزات إلى

حقائق وتستمر الانتفاضة المباركة وتتصاعد الثورة الشعبية ناشرة على المدى ألق الحجر ومجد المولوتوف مرسخةً أسس التفوق الاستراتيجي لقوة الحق على باطل القوة، وللإرادة الفولاذية المتأججة على القبضة الحديدية المدججة. ففي هذا الزمن العربي الذي سكنته الرداءة والحزن والتردي ، وكادت الاستكانة أن تكون سمته المعتادة. تفجرت حمم الانتفاضة من بركان الثورة لتعلن عن زمن المجد العربي، زمن الصمود والتصدي والإرادة، زمن الاقتحام وبطولة الطفولة، زمن الأجساد الممتدة جسراً نحو الشمس تلون طابع الحرية بالزيتون وبالنعناع البري وبالميرمية، وبالمرأة الحامل من طيب تراب فلسطين سحر الحجر المتألق في أكف الصغار. جنرالات الحجارة في عصر الانتفاضة أشقاء جنرالات النار أطفال الأربي جي .

أتذكر في هذه اللحظة حكاية الجنرال محمد :

تشعبط سور الخوف وانقض كالصقر ... لمنقاره كف تسلح بالصخر
رمى فتلاشى الاحتلال وما رأى ... على قدميه غير تاج من الزهر
تراجع فكان القدر ينسج حوله ... كمين حديد يخلط الليل بالفجر
ويسأله الجندي ما اسمك ؟ خالد ... وعمرك ؟ سبع . من رماك وَفَرّ
محمد من هذا ؟ أخي . أين يختفي ؟ ... على عرشه يختال بالمجد والفخر

لقد توجت الانتفاضة بتألقها وتطورها مسيرة نضال ثوري عسير، خاضته الثورة الفلسطينية المسلحة منذ انطلاقتها في الفاتح من يناير عام 1965 . مكرسة نتائج التراكم الثوري بالعرق والتضحيات والتجارب والدروس المستفادة على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، سالت فيها شلالات دماء الشهداء الأبرار. ونُقشت فيها أوسمة الشرف على أجساد الجرحى وأينعت كرامةً فيها عذابات الأسرى والمعتقلين الذين صمدوا أبطالاً في سجون العدو الصهيوني.

عبر ثلاثة وعشرين عاماً مارست فيها جماهير شعبنا الفلسطيني في فلسطين المحتلة مسلسلاً من الانتفاضات البطولية التي كانت تتقارب وتتباعد موجة إثر موجة، وفي كل مرة كانت الذروة تحدد على سجل النضال الثوري الفلسطيني، مدى الاستمرار والشمولية والانجازات المتحققة والدروس المستفادة.

وجاءت حرب ترين بكل ما حملته من إيجابيات وسلبيات ، وما طرحته في حينه من إمكانية فرض الانسحاب على العدو من الأراضي المحتلة عام 1967

ووصل التضامن العربي درجة كاد يشكل فيها ولأول مرة ضغطاً حقيقياً على الولايات المتحدة، لتتخذ موقفاً أقل انحيازاً للكيان الصهيوني.

وقررت القمة العربية في الرباط أن م. ت. ف. هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. وأسقط في يد كيسنجر الذي كان يخطط عبر رحلاته المكوكية لانجاز اتفاقيات ثنائية بين الكيان الصهيوني والدول العربية، مصر وسوريا والأردن، شاطباً م. ت. ف. والشعب الفلسطيني الذي لم يرد ذكره في قراري مجلس الأمن 242 ، 338 . واعتبر كيسنجر أن قضية الشرق الأوسط أصبحت تحتاج إلى خياط جديد يعيد حياكة ثوبها الملائم. وفي جعبة كيسنجر، كان مقص الإجرام ومخطط تصفية الثورة الفلسطينية التي لم تكن قد حققت بعد الاعتراف الدولي.

واجتمع المجلس الوطني في عام 1974 في دورته الأولى وأقر البرنامج المرحلي، برنامج النقاط العشر، التي تبنت فيه م. ت. ف. إقامة السلطة الوطنية على أي جزء يتم تحريره من أرض فلسطين. وقد أتى ذلك البرنامج في حينه، أنه الخطة الاعتراضية لمخطط التصفية الأمبريالي الصهيوني، وقد كانت أول إنجازات هذا المشروع قبول منظمة التحرير الفلسطينية عضواً مراقباً في الجمعية العمومية للأمم المتحدة، كما تمت دعوة الأخ أبو عمار رئيس اللجنة التنفيذية لالقاء خطابه التاريخي أمام الجمعية العمومية، حيث شرح البرنامج المرحلي، وأعلن أنه جاء يحمل بندقية في يد، وغصن الزيتون في اليد الأخرى، وخاطب الأمم المتحدة قائلاً: «لا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي».

واستطاع الصهيوني كيسنجر أن يلزم الإدارات الأميركية بعدم إقامة أي حوار معها إلا إذا اعترفت المنظمة بحق اسرائيل في الوجود ونبذت الإرهاب والكفاح المسلح، واعترفت بقراري مجلس الأمن 242، 338.

كانت م. ت. ف. تدرك أن السلطة الوطنية لا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع، عبر المفاوضات في ظل اختلال ميزان القوى بشكل ساحق لصالح العدو الصهيوني، خاصة أن السادات كان يلهث خلف الحل الجزئي والصفقة المنفردة في نفس الوقت أقحمت الثورة الفلسطينية متحالفة مع القوى الوطنية والتقدمية اللبنانية في مواجهة مع القوى الانعزالية. وتطورت الحرب لتصبح المواجهة مع القطر السوري طبقاً لتخطيط الوقيعة التي أعدتها كيسنجر . وقد عبر شعبنا في

فلسطين المحتلة عن احتجاجه الصارخ ضد محاولات تصفية ثورته في لبنان. وتصاعدت وتلاحقت انتفاضات شعبنا احتجاجاً على ما كان يجري في لبنان. ووصلت الانتفاضات أوجها خلال حصار مخيم تل الزعتر الذي صمد أكثر من سبعين يوماً، وصد أكثر ما مايتي هجوم ومحاولة اقتحام من القوى الانعزالية.

في تل الزعتر كانت بداية تجربة تشكيل اللجان الشعبية لمواجهة متطلبات الصمود. فشكلت اللجنة الشعبية العامة من ممثلين عن كل فصائل الثورة والاتحادات الشعبية وعدد من وجهاء المخيم. وتفرعت عن اللجنة العامة لجان للتموين والامداد والصحة والإغاثة والاعلام والحراسة والاتصالات وكانت قيادة الميليشيا تتحمل مسؤولية العمل العسكري بالتنسيق المتواصل مع القيادة في بيروت والجبل، لتأمين الدعم المستمر بالامداد والمشاركة في صد الهجمات الانعزالية المتتالية، بواسطة الحزام الناري الذي كانت مدفعية الثورة في الجبل تؤمنه لاجهاض الهجمات وإفشالها.

وما إن استطاعت الثورة الفلسطينية أن تجمد التناقضات الثانوية التي كانت تستهدف اقحامها في معارك جانبية حتى انقضت على الكيان الصهيوني حيث التناقض الأساسي، فخاضت سلسلة من المعارك البطولية والعمليات الجريئة المنطلقة من تنظيم خلايا الثورة في فلسطين المحتلة أو من قواعد انطلاقها في الخارج ،وكان من أبرز هذه العمليات عملية الشهيدة دلال المغربي. لقد جسدت المرأة الفلسطينية عبر مشاركتها الفعالة في أطر الثورة بكل أشكالها طبيعة التكامل النضالي لشعبنا الفلسطيني والذي يتخذ أبهى أشكاله وأرقى مظاهره اليوم في فلسطين المحتلة.

كانت ردة فعل العدو الصهيوني على التصعيد الثوري المسلح ضد مستعمراته ومراكز تجمعاته ومصانعه العسكرية، ان شن هجومه المكثف ضد قواعد الثورة في جنوب لبنان، بهدف تصفيتها. وعلى الرغم من حشد العدو المكثف براً وبحراً وجواً، فقد تصدت له قوات الثورة الفلسطينية والقوات المشتركة الفلسطينية اللبنانية، وجماهير الشعبين اللبناني والفلسطيني في تلاحم نضالي سيظل أحد الصور المشرقة والمشرفة في تاريخ أمتنا العربية. وعجز الجيش الصهيوني بكل آلياته وإمكانياته عن احتلال مدينة صور ومخيماتها، كانت آليات العدو قد حاصرت منطقة صور، وتجاوزتها إلى الليطاني. وعندما طلبت القيادة الصهيونية من رئيس الأركان

الصهيوني، اقتحام صور قال إنه لا يستطيع أن يدخل عش الدبابير فلقد واجه العدو الصهيوني في مخيم الرشيدية، صورة خارقة لبطولة أطفال الآر بي جي الذين حولوا خلال دقائق أرتال الآليات إلى أكوام من الحديد الملتهب.

وسقطت مقولة بريجنسكي. وداعاً م. ت. ونتج عن إغلاق الحدود العربية كلها في وجه الثورة الفلسطينية المسلحة، أن تكرس الاهتمام بالبناء التنظيمي والمؤسسات داخل فلسطين المحتلة. جنباً إلى جنب، مع متطلبات النشاط العسكري والسياسي والاعلامي في الخارج، حيث أصبحت م. ت. ف. عضواً مراقباً في الأمم المتحدة وعضواً كامل العضوية في الجامعة العربية وفي المؤتمر الإسلامي وفي مؤتمر عدم الانحياز، وأصبح لها في الخارج أكثر من ماية سفارة ومكتب وممثلين. وأصبح الطفل الفلسطيني يولد في فلسطين المحتلة، وهو يحمل شهادة الانتماء إلى م. ت. ف. فالأسرة التي ولد فيها إن لم تكن قد قدمت شهيداً ففيها حتماً الجريح أو القتيل أو الأسير، أو الذي مر بهذه الظروف على الأقل. والحضانة التي يتعلم فيها تقدم له صورة فلسطين مع كأس الحليب. والروضة التي تنشؤه يتعلم فيها الرسم وخربشات الطفولة وأناشيد الثورة، تملأ أوراقه ألوان العلم الفلسطيني والكوفية الفلسطينية، وصوته الناعم البريء يغرد منذ الطفولة. فلسطين بلادي... وطن أهلي وأجدادي... إلخ.

ويجدد الطفل انتماءه الوطني والقومي منشداً ببراءة

بابا جابلي هدية... رشاش وبندقية... إلخ.

وفي المدرسة يتعلم الطفل والفتى مناهج الثورة التي تطمس مناهج الاحتلال.

وكان لا بد من غطاء علني لنشاطات التنظيمات السرية فبدأ التركيز على المنظمات الجماهيرية والاتحادات والنقابات المهنية ولعب تنظيم الشبيبة دوره القيادي في تأطير الشباب تحت واجهات الأندية والفرق الرياضية والكشفية والفنية. كما نشط اتحاد المرأة في بناء مؤسسات الرعاية والحضانة والانتاج المنزلي للتراث الشعبي الفلسطيني. وركز اتحاد العمال على إنشاء التعاونيات ونشطت الفعاليات الثورية في أطرها الجماهيرية والمهنية المعنية. فنشط اتحاد الطلاب في الجامعات والمعاهد والمدارس. ونشط المهندسون والمعلمون والأطباء والصيادلة والمحامون والكتاب والصحفيون والتشكيليون والفنانون والفلاحون كل في مجاله.

ولعبت الجامعات ومجالسها الطلابية دوراً قيادياً في تأجيج نار الانتفاضات المتعاقبة، عبر نشاطاتها الفعالة في الاعتصامات والاضرابات والمظاهرات الاحتجاجية ، والمصادمات مع جيش الاحتلال الصهيوني على الرغم من تعرض الجامعات المستمر للاغلاق والمحاصرة وكانت الجامعة الوطنية الكبرى لتعليم دروس الثورة وبناء الكادر القيادي هي سجون ومعتقلات العدو الصهيوني. حيث كانت المواجهة البطولية تتم بين المناضل الفلسطيني الأسير أو المعتقل الأعزل، وبين الجلاد الصهيوني بكل ما يحويه سجنه ومعتقله من أدوات التعذيب والاذلال، وقتل الروح المعنوية والصمود. وكم كانت هذه المعارك الصدامية داخل الزنازين وغرف التحقيق قاسية. ولكن الارادة الصلبة التي كانت السلاح الوحيد للمناضل الفلسطيني مدعماً بالقناعتين الرئيستين للثائر الفتحوي والفلسطيني وهما الايمان المطلق بحتمية النصر والاستعداد الدائم للتضحية.

كانت الارادة الثورية تنتصر على قبضة السجانين الحديدية وكانت تتجلى في أسمى معانيها يوم أن تصل الارادة إلى حد الشهادة. فيحترق السجان غيظاً وروح المناضل تصعد إلى بارئها في السماء حاملة معها أسرار الثورة وعنفوانها ومكرسة الثقة وكرامة النفس وسياج الثورة والوطن.

وعلى الرغم من الحدود المحروسة من الجانبين فقد كثفت الثورة اختراقاتها للموانع المزدوجة وكان الجنوب اللبناني أسهل مناطق التصعيد حيث لم تكن قوات الطوارىء الدولية تشكل سداً منيعاً كما هي الحال على الحدود العربية الأخرى. وحين انصبت المدفعية الفلسطينية الثقيلة على المستعمرات الاشكنازية في نهارية وما حولها جُنّ جنون الكيان الصهيوني وهو يشاهد الثورة تركز عملياتها ضد مجتمع النخبة الحاكمة في الكيان الصهيوني. وفي عمق هذا الكيان وأصبح واضحاً عجز إمكانية تصفية الثورة الفلسطينية بأيد عربية، فكان لا بد من قيام الكيان الصهيوني مدعماً بكل أسلحة الفتك والدمار الأمريكية باجتياح لبنان وبهدف تصفية البنية التحتية للثورة. ومن ثم القضاء على الوجود المادي والمعنوي لـ م.ت.ف. وجعل الاحتلال الصهيوني أمراً واقعاً. وطمس الشخصية الفلسطينية المستقلة إلى الأبد. كانت طموحات الجنرال هيج والجنرال شارون قد هيأت لهما أن العملية تبدو سهلة، وكأنها نزهة تستغرق ساعات أو أيام. وإذ بالجيش الصهيوني يعبر أرض

الرمال المتحركة في لبنان. وتصبح عملية العشرين ألف جندي من القوات الصهيونية أربعين... فستين فتسعين فماية وخمسين ألف جندي مع كل ما يساندهم براً وبحراً وجواً. جميعها اصطدمت بصمود القوات والجماهير الشعبية المسلحة في جنوب لبنان ثم واجهت السد الوطني الثوري اللبناني والفلسطيني المدني والشعبي والعسكري. وتحطمت على صخرة صمود بيروت طموحات هيج المعزول. وحملة شارون الغازي التي تسمرت ثمانية وثمانين يوماً على أسوار بيروت الصمود دون أن تستطيع اقتحامها على الرغم من الهجمات المتتالية براً وبحراً وجواً. واستخدام كل أنواع الأسلحة الفتاكة بما فيها الأسلحة المحرمة دولياً، والأسلحة التي تستخدم لأول مرة، حيث كان الإنسان الفلسطيني واللبناني حقل تجارب لأسلحة الامبريالية الأمريكية المجرمة. ولعبت اللجان الشعبية دورها الفاعل في تأمين الصمود البطولي في بيروت وظن الامبرياليون والصهاينة أنهم باجلائهم المقاتلين عن بيروت وتوزيعهم في معسكرات بعيدة عن أرض فلسطين قد حققوا الغاء دور الكفاح المسلح الفلسطيني. والغاء الإرادة الفلسطينية المقاتلة. وللامعان في قتل الروح المعنوية الفلسطينية، قام شارون بالمجزرة الرهيبة ضد المخيمين الأعزلين صبرا وشاتيلا، وقام باحتلال بيروت الغربية بعد أن غادرها فرسانها وحماتها تحت ضغط تجنيبها وسكانها من التدمير الشامل.

وجاءت المفاجأة الكبرى للإدارة الأمريكية، وهي تشاهد طائر الفينيق يخرج من الرماد. وأشلاء أوزوريس تتجمع من الشتات جسداً متماسكاً بإرادته القوية. فقوات الثورة افلسطينية التي ظنوا أنهم ألقوا بها في منافي النسيان والفناء تتجمع في الشطر الجنوبي من اليمن لتقوم بأعظم استعراض عسكري. احتفالاً بالذكرى الثامنة عشر لانطلاقة فتح. انطلاقة الثورة المسلحة. وجاءت القوات، خلال ساعات لتشارك قوات الثورة المتواجدة في اليمن بشطريه،جاءت من الجزائر، ومن تونس، ومن دمشق، ومن بغداد، ومن السودان، لتؤكد حقيقة أساسية وهي أن البعد الجغرافي لم يعد يشكل في هذا العصر عائقاً عن الوصول إلى قلب المعركة في الوقت المناسب، شريطة توفر الإرادة الثورية المقاتلة.

وأكدت الثورة الفلسطينية بذلك أن كل الدول العربية هي دول مواجهة، فما دام العدو الصهيوني يستطيع أن يمد ذراعه المجرمة، لتطال المفاعل النووي في العراق وحمام الشط في تونس، فإن اليد العربية يجب أن تعرف كيف تمتد لاجتثاث

الخطر الذي لا يهدد الشعب الفلسطيني فحسب، وإنما يهدد الأمة العربية في كرامتها ووجودها وحريتها واستقلالها.

وفشلت الامبريالية الأمريكية في تصفية الثورة، عبر المحاولات الانقلابية والمعارك الجانبية في البقاع وطرابلس، وكان لتجربة الحصار في طرابلس أهميتها حيث صمدت قوات الثورة في وجه الحصار المزدوج. واستطاعت وهي في هذه الظروف أن تقوم بعملية استراتيجية، كان لها أثرها الفعال في مسار النضال الفلسطيني، فقد تمت عملية تحرير المئات من الأسرى والمعتقلين في سجون العدو الصهيوني مقابل الافراج عن الأسرى الصهاينة. وكان إصرار الثورة على تحرير المحكومين بالمؤبد وبما يزيد عن عشرين عاماً، وخاصة من سكان الأرض المحتلة شريطة أن يتم الإفراج عنهم ومنحهم الحرية للعيش داخل فلسطين.

لقد خرَّجَت الجامعة الوطنية الكبرى طلابها أساتذة كباراً يعرفون دروس الثورة وقد تمرسوا وخبروا وعرفوا نقاط الضعف في العدو الصهيوني. ولم تعد لجنوده وسجّانيه وآلياته وأسلحته أية رهبة. لقد تكسر حاجز الخوف من العدو الصهيوني أمام جماهير الشعب الفلسطيني نساءً ورجالاً، أطفالاً وشباباً وشيوخاً وكهولاً. فبعد أن كانت الواجهات الجماهيرية تستر خلفها البنى التنظيمية للفصائل المقاتلة. أصبح قادة التنظيمات الفلسطينية المسلحة في الداخل أحراراً وقادة وقدوة نضالية لجماهير الأرض المحتلة.

وبدأت مؤامرة تصفية الوجود الفلسطيني في لبنان لتمرير مؤامرة التوطين. فقامت م. ت. ف. بإعادة معظم المقاتلين لحماية المخيمات. حتى لا تتكرر مأساة صبرا وشاتيلا من جديد. وعلى الرغم من الصفقات المشبوهة، التي استوجبت استخدام قوى شقيقة لتصفية المخيمات. إلا أن الصمود البطولي لهذه المخيمات، لأكثر من ثلاثة سنوات كان يكرس معجزة الصمود الفلسطيني في أسمى معانيها. وكان يؤكد أنه بالثورة يصبح الخارق اليفاً. وحين توجهت المؤامرة الأمريكية الصهيونية لمحاولة اغتيال الأخ أبو عمار والقيادة الفلسطينية في حمام الشط أصبحت الأمور أكثر وضوحاً.

وبدأت موجات الانتفاضات تتقارب وتتصاعد وتنتقل من مكان إلى مكان. داخل الأرض المحتلة وبلغت ذروتها يوم ظهرت محاولة طمس الهوية الفلسطينية،

وجعل القضية الفلسطينية من الدرجة الثانية. في مؤتمر القمة العربي الطارىء في عمان يومها. ونذكر للتاريخ الوقفة الرائعة للأخ المناضل الرئيس علي عبد الله صالح. وللرئيس صدام حسين والشاذلي بن جديد، وإصرارهم على تأكيد القرارات السابقة للقمم العربية والمتعلقة بالقضية الفلسطينية وتأكيد أنها جوهر الصراع في الشرق الأوسط.

وكان الوضع الدولي يحمل في طياته بوادر انفراج دولي ووفاق يمكن أن يساهم في الدفع باتجاه مؤتمر دولي للسلام. ذي صلاحيات وتشارك فيه م. ت. ف على قدم المساواة لانجاز الحقوق المشروعة غير القابلة للتصرف لشعبنا الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وعاصمتها القدس الشريف.

وفي ديسمبر 1987 لم تجد القضية الفلسطينية مكاناً لها في جدول أعمال قمة العملاقين نتيجة إصرار الرئيس الأمريكي على تجاهل الشعب الفلسطيني.

كان الغليان الوطني الثوري في فلسطين المحتلة قد بلغ مداه. فالثورة و م. ت. ف. مهددة بالتصفية والعالم العربي يقف متفرجاً منقسماً على نفسه. وكان لا بد للخارق أن يصبح أليفاً.. فانفجرت في الأرض المحتلة جماهير الشعب الفلسطيني، في انتفاضة مباركة ظن الصهاينة أنها ليست سوى موجة عادية من موجات الانتفاضات السابقة. لدرجة أن وزير الحرب الصهيوني. الذي كان في زيارة لأمريكا لم يكلف نفسه مشقة العودة، خلال الأسبوعين الأولين للانتفاضة، تاركاً مهمة معالجتها لشامير بذكائه المعروف جداً.

وبدأت خطة جديدة لتصفية المنظمة والانتفاضة انطلقت في البداية من الفصل العضوي والفكري والسياسي، بين الانتفاضة وم. ت. ف. وامتلأت الصحف والمجلات بالمقالات المشبوهة والبريئة تمجد الانتفاضة وقادتها في الداخل. بهدف التركيز لخلق قيادة بديلة عن م. ت. ف. وهو أحد الطموحات التي حاول شولتز تحقيقها في جولاته المكوكية، لإنقاذ الكيان الصهيوني. وجاء الجواب من داخل فلسطين المحتلة. من الشخصيات والفعاليات والاتحادات والجماهير المنتفضة تعلن أن م. ت. ف. هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وارتفع العلم الفلسطيني وصور الأخ أبو عمار في كل المناسبات لتؤكد حقيقة الانتماء والتواصل.

وكان للدور النشيط الذي شاركت فيه التيارات الإسلامية ولدور المسجد البارز في الانتفاضة، كنقطة تجمع وانطلاق وتعبير. أن حاولت القوى المعادية للإسلام والمسلمين أن تلصق الانتفاضة بالخميني وغيره من الأحزاب. بهدف الايقاع وخلق الشرخ في وحدة الانتفاضة. ولكن المشاركة الفعالة لكل جماهير شعبنا الفلسطيني المسلح في غالبيته مع الأخوة المسيحيين أبناء شعبنا والدور النشط للكنيسة جنباً إلى جنب مع الجامع، أكد أهمية الوحدة الوطنية العميقة، التي تحققت والتي أكدتها كل البيانات والنداءات رافضة أية محاولة للانجراف إلى معارك جانبية، تقسم الشعب الفلسطيني إلى فصائل وعقائد وشرائح، هو في غنى عنها. وهو يواجه وجود الاحتلال الصهيوني وقبضته الحديدية التي لا ترحم أحداً. وظهر أن هذه التفرقة وهذه التسميات ليس لها على أرض الواقع أي دور وإنما هي من إبداع الامبريالية والصهاينة يتخذونها وسيلة لاجهاض الانتفاضة.. ولكن خسئوا.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[1].

صدق الله العظيم

وحين فشلت أساليبهم توجهوا إلى الرأس الملهم والمخطط للانتفاضة الأخ أبو جهاد نائب القائد العام والمسؤول المباشر عن العمل في الأرض المحتلة. وحيث لا يمنع حذر من قدر. فقد نفذت إرادة الله ومشيئته. وودعت الجماهير العربية والإسلامية أمير الشهداء في موكب استفتاء ومبايعة للثورة الفلسطينية وللانتفاضة المباركة. وظن المجرمون أنهم سيطفؤون بجريمتهم جذوة الثورة الشعبية. فإذ بالبركان الهادر في فلسطين يتجدد، مغطياً كل جبالها وسهولها في الجليل والمثلث والنقب وفي الضفة والقطاع. وصعدت روح أبي جهاد محاطة بأرواح سبعة عشر شهيداً أصروا على مواكبة روحه الطاهرة وهي تصعد إلى بارئها.

﴿ومكروا ومكر الله. والله خير الماكرين﴾[2]

صدق الله العظيم

---

(١) ٣٢ سورة التوبة.

(٢) ٥٤ سورة آل عمران.

وطبقت الدروس المستفادة من تجارب مكلفة استنزفت من الدماء والعرق الكثير الكثير. وها هي الخطة الاعتراضية لخطة التصفية الامبريالية التي ارتفع شعارها عام 1974/ شعار اقامة السلطة الوطنية تشق طريق تنفيذها على الأرض ولأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة فقد كان لا بدّ لإنجاز هذه المرحلة وتحقيق إقامة سلطة الشعب الفلسطيني أن يتم تدمير سلطة القمع الصهيوني ولتطبيق قانون الانتفاضة، كان لا بد من شطب قانون الاحتلال.

ومن المنطقي أن تبدأ الخطوات المتتالية المنتظمة في اطار خطة شاملة متطورة مع الأحداث والإنجازات ترفض حرق المراحل والقفز عن الحقائق الموضوعية وإنما تفرض تراكم الوقائع الفلسطينية على الأرض وتطرد وقائع الاحتلال. ولبناء السلطة الشعبية كان لا بد من تفكيك سلطة الإدارة الاحتلالية وذلك بتوجيه الضربات المتتالية لمؤسساتها عبر المقاطعة من قبل جماهير الشعب الفلسطيني واستقالة العاملين في الشرطة والجمارك والضرائب واللجان البلدية والقروية المعنية وغيرها.

كما تم الحض على التمرد الاقتصادي عبر الإضرابات الجزئية والشاملة والامتناع عن العمل في المؤسسات الاقتصادية الصهيونية في أيام الاضراب الشامل ورفض العمل قطعياً في المستوطنات ومقاطعة البضائع والمنتجات الصهيونية والامتناع عن دفع الضرائب.

واتخذت الثورة الشعبية العارمة أشكالاً متعددة للنضال. ولقد عبّرت رسالة الأخ الشهيد أبو جهاد التي بعثها للقيادة الموحدة للانتفاضة قبل عشرين يوماً من استشهاده عن الخطة النضالية للانتفاضة وهي تحثهم على الاستمرار حتى النصر.

نص الرسالة الوثيقة
«لنستمر في الهجوم»

بقلم: الشهيد القائد الرمز أبو جهاد

عضو اللجنة المركزية
لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»
نائب القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كل شعبناالعظيم في فلسطيننا المحتلة، إلى كل أهلنا وجماهيرنا الثائرة في الوطن المحتل المحرر، إلى كل اخوتنا في القيادة الوطنية الموحدة وفي التنظيم وفي حركة الشبيبة وفي القوات الضاربة واللجان الشعبية وفي اللجان الوطنية وفي كل ما ابدعتموه من أطر ولجان وهيئات وهياكل تقودون بها الانتفاضة المتجددة والمتوهجة في الوطن المحتل ـ المحرر بسواعدنا العملاقة وإردتنا الفلسطينية، بوعينا السياسي الثاقب، وبقدرتنا الهائلة على تلمس النبض الثوري لجماهيرنا، وباصرارنا على تصدر المسيرة الهادرة لشعبنا بمزيد من الجرأة والبسالة وبجسارة البذل والعطاء، وبسخاء التضحية والفداء. وبالاندفاع الجسور في المواجهة، وبحماية الشعب حتى الاستشهاد، وتوسم شرف الشهادة.

يا كل شعبنا، يا أهلنا، يا اخوتنا وإخواننا، يا أشبالنا وزهراتنا وكل أبنائنا. ها نحن نطلقها معاً صرخة واحدة وموحدة لا للتهدئة، لا للتهادن أو التهاون، لا للمذلة ولا للتعايش مع الاحتلال المجد كل المجد للانتفاضة، ولنستمر في الهجوم، لنستمر في الهجوم فالله معنا والشعب معنا والعالم كله معنا.

لنستمر في الهجوم فقد وضعت الانتفاضة عدونا في المواجهة الأخيرة مع أزمته

فإما التنازل وإما التشدد، وفي الخيارين معاً فناؤه ومقتله، فإذا تراجع نشد عليه، وإذا تشدد نقاتله ونقاومه ونستمر في الهجوم حتى نحرق الأرض من تحت أقدامه حتى يتنازل ويخضع... ويرحل.

* لنستمر في الهجوم فالعالم كله يعرف الآن أن قطعان المستوطنين اليهود الصهاينة تجفل من الهجرة من حظائرها البعيدة إلى أرضنا المشتعلة بالانتفاضة الملتهبة بالثورة.

* لنستمر في الهجوم حتى لا نسمح لأحد بالالتفاف على انتفاضتنا أو تطويقها، ولا يمكن لنا أن نكرر اخفاقات الماضي. ولن نسمح لأحد أن يكرر تاريخ النداء المشؤوم الذي وجهه حكام العرب لشعبنا في ثورة 1936 لإنهاء الانتفاضة والاضراب العام.

لنستمر في الهجوم حتى لا تسقط ثمار الانتفاضة المظفرة في الأيادي المرتعشة للسماسرة وتجار المساومات ودعاة المهادنة والتعايش المذل مع الاحتلال وقبول السلام المذل المهين.

* لنستمر في الهجوم، لأن تصعيد الانتفاضة سيزهق روح الباطل الذي ما يزال يحلم باعادة الوصاية على شعبنا بالتقاسم الوظيفي المشؤوم وبعملاء التنمية وبوثيقة الخزي والعار في لندن.

* لنستمر في الهجوم حتى نساهم في انضاج شروط عملية استنهاض الوضع الجماهيري العربي فقضيتنا دخلت مع الانتفاضة إلى كل بيت في أمتنا العربية، والجماهير العربية هي في النهاية رصيدنا، وعمقنا، وحليفنا الاستراتيجي، وعندما تخرج الجماهير إلى الشارع العربي يتعزز موقفنا وتقوى جبهتنا وتقترب ساعة انتصارنا الأكيدة.

لنستمر في الهجوم حتى نحول كل تعاطف كسبناه حتى الآن في أوساط الرأي العام العالمي إلى مواقف عملية ضاغطة على الحكومات والبرلمانات والأحزاب الحاكمة.

* لنستمر في الهجوم حتى نجبر الإدارة الأميركية على الكف عن المراوغة والتسويف والمماطلة، والرضوخ لمطالبنا علنياً، والاعتراف بحقوقنا عملياً، ولننقل المعركة إلى قلب عدونا.

* لنستمر في الهجوم حتى نصلب مواقف أصدقائنا وحلفائنا ونغلب المبدئي في هذه المواقف على الأمني والمصلحي منها، ولنستمر في الهجوم حتى نمنع الصفقات التي يمكن أن تتم على حسابنا وضد ارادتنا.

* لنستمر في الهجوم فها هي ثمرة 90 يوماً من الانتفاضة البطولية المتواصلة والمتصاعدة تكاد تهدم كل ما توهم العدو أنه بناه وشيده في 40 عاماً من الاغتصاب والاحتلال.

إن ما أنجزته انتفاضتنا الوطنية الكبرى هو حتى الآن كبير بكل المقاييس، وعظيم بكل الحسابات وبطولي ومشرف بكل القيم والمعايير، لكن المعركة ما تزال في عنفوانها والنصر. كما يقول مجاهدو العرب، إن هم إلا ساعة صبر لنصبر ولا تراجع ولا تهاون ولا تعايش مع الاحتلال، وليس أمامنا إلا تصعيد الانتفاضة والاستمرار في الهجوم، فلنستمر في الهجوم فالله معنا والشعب معنا والعالم كله معنا.

* استمرارنا في الهجوم يعني تكريس الانجازات التي تحققت منذ اندلاع الانتفاضة وحتى اليوم، تعني أولاً المحافظة على كل الأطر واللجان التي تشكلت في كل مخيم وفي كل حي وقرية ومدينة، استمرارنا في الهجوم يعني أننا نواجه عدونا بشعب موحد ومتفوق من الناحية المعنوية، فالجماهير هي قواتنا وجيشنا ويجب أن نحافظ على روحها الهجومية الوثابة، أن نستمر في الهجوم يعني أن نحافظ على روحية اليقظة والتأهب والاستنفار.

أن نستمر في الهجوم يعني أن نضرب نحن المثل قبل الآخرين في الاقدام والعطاء والتضحية، فروح الهجوم تذكيها دائماً نار التضحية، وشعلة العطاء المتوهجة.

أن نستمر في الهجوم يعني أن نحافظ على وحدة الهدف السياسي للانتفاضة وللثورة. مطالبنا في أيدينا لا تخدعنا مبادرة من هنا أو مشروع من هناك، لا ننقسم حول تصريح، ولا نختلف على الكلمات بل نبقى موحدين أبداً خلف مطالبنا وأهدافنا لنضع برنامج الانتفاضة في يد كل مواطن وعلى لسان الجميع حتى نحافظ على وحدة الرؤية والهدف.

أن نستمر في الهجوم يعني تأمين التنسيق والتكافل والتكامل بين كل المواقع

والمدن والقرى والمخيمات.

أن نستمر في الهجوم يعني أن ننمي قدراتنا وقوانا الذاتية بضم أفضل العناصر التي برزت في المواجهة إلى صفوفنا، فزمن المواجهة هو زمن التنظيم أيضاً.

* أن نستمر في الهجوم يعني توسيع نطاق المظاهرات والمواجهات باستمرارروأن لا نسمح بعد اليوم بالاهانة أو بالمذلة. وأن ندخل في مواجهات تكتيكية صغيرة محسوبة مع سلطات الاحتلال دفاعاً عن أي كرامة تهان أو عرض يمس، وأن ننمي الاحساس بالعزة والكرامة الوطنية بالقول والممارسة معاً.

* أن نستمر في الهجوم يعني أن نكثف عمليات التخريب المادي والمعنوي في مؤسسات العدو، لنجعل النار تأكل معامله وتحرق أعصابه فليس غير لهيب النار المشتعلة ما يبعد الذئاب عن بيوتنا وديارنا، فإلى تشكيل فرقة الحريق ووحدات النار المقدسة والمقلاع الذي يرمي الحجر يمكن أن يرمي كرات اللهب أيضاً، وهناك عشرات الطرق والوسائل والأساليب التي يبدعها الشعب دائماً وهو يواجه ويهاجم ويشعل الأرض تحت أقدام الاحتلال.

* أن نستمر في الهجوم يعني أن نمنع الحركة على الطرقات أو تعيقها وتربكها بأي وسيلة وبكل وسيلة، لنجعل الحركة على الطرقات والشوارع جحيماً لا يطاق حتى نقطع أوصال عدونا، ونعطل دورة الحياة في جسده، فنرهقه، وندمي أعصابه وندفعه إلى المزيد من الارتباك والحيرة والتخبط.

* أن نستمر في الهجوم يعني أن نقسم المجموعات الضاربة إلى فرق عمل ليلية وأخرى نهارية، لنستفيد من الليل فهو صديق شعبنا ورفيق كل الفدائيين.

* أن نستمر في الهجوم يعني أن نتجرأ على الاغارة الليلية على أهداف حيوية للعدو. وأن تتفرغ مجموعات العمل الليلي لأداء مهامها.

* أن نستمر في الهجوم يعني أن نسخر حتى هواء بلادنا ضد العدو، وأن نستفيد من طاقة الشعب التي فجرتها الانتفاضة بحيث يشترك الشعب كله في المعركة مع الاحتلال.

* أن نستمر في الهجوم يعني أن نجد مهمة وموقعاً لكل مواطن، رجلاً كان أم امرأة شاباً أو شيخاً طفلاً أو صبياً، الكل في المعركة، والكل في الهجوم المستمر

والمتصاعد بحيث نستنزف موارد العدو ومعنوياته، وندفعه للخروج من الصراع تحت وطأة شعوره بفداحة الثمن المادي والمعنوي الذي يتحملهُ بالقياس لحجم المكسب السياسي الذي يحصل عليه من استمرار الاحتلال.

* لنستمر في الهجوم موعدنا النصر القادم بإذن الله وبإرادة الشعب والجماهير.

وإنها لثورة حتى النصر.

المجد للانتفاضة، والخلود للشهداء الأبرار.

واليوم أيتها الأخوات والإخوة وبعد مرور تسعة أشهر على هذه الرسالة (الخطة الشاملة). دستور الانتفاضة وخطها السياسي نشاهد تطبيقاتها على الأرض وقد حققت من الانجازات العظيمة ما كان يطمح الشهيد أبو جهاد أن يراها متحققة فعلى الرغم من ممارسة العدو لأبشع وسائل الاجرام والقمع فقد استمر الهجوم واستمرت الحقائق تتجذر مع الأرض وجاء الانتصار العظيم للجيش العراقي البطل داعماً جديداً للانتفاضة وتصعيدها وتكرست الوحدة الوطنية في المجلس الوطني دورة الانتفاضة دوره الشهيد القائد الرمز أبو جهاد حيث توجت نتائجها بإعلان الاستقلال وإقامة دولة فلسطن المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

وكانت الجمهورية العربية اليمنية أول من بادر بالاعتراف بدولة فلسطين مباشرة بعد الجزائر.. وتوالت الاعترافات بالدولة المستقلة مما أفسد مخطط شولتز التصفوي تماماً كما جرى عام ١٩٧٤ يوم أن أفسد قرار القمة العربية مخطط كسينجر. وإذا كان شولتز يعتقد أنه يستطيع أن يفرض على الثورة تنازلات تمس جوهر القضية الوطنية فهو مخطىء.. فالثورة الفلسطينية تعرف درجة المراوغة الامبريالية وتعرف جيداً أنها لن تحقق انجازات الشعب الفلسطيني من التضحيات ومع الاستمرار في النضال يصبح الوجود الصهيوني مشكلة أمريكية وهذا يتطلب من جميع القوى العربية أن تبادر باتخاذ الاجراءات الضاغطة على الادارة الأمريكية لاحترام الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وللاعتراف بدولة فلسطين أو يكون التصعيد الشامل ضد الوجود الامبريالي الصهيوني على مستوى الأمة العربية حكومات وشعوباً فهذا هو زمن المجد العربي الذي نرى فيه العالم كله يقف معنا.. ويساعد قضيتنا المقدسة..

لنستمر في الهجوم على مستوى الأمة العربية فالله معنا والعالم كله معنا..

تحية لأهلنا أطفالاً ونساء ورجالاً وشيوخاً في فلسطين المحتلة صناع المجد والعنفوان.

تحية لشعبنا في مخيمات الصمود في لبنان تحية للمقاتلين الثوار الفلسطينيين في كل مكان. تحية للمعتقلين والأسرى في سجون ومعتقلات العدو الصهيوني.

تحية للجرحى الذين تكلل هاماتهم أكاليل الغار المجد والخلود للشهداء الأبرار.

وإنها لثورة حتى النصر

تصحيح

تلفت مجلة كلية الآداب نظر القارئ الكريم ، إلى أنه قد وقع خطأ مطبعي في دراسة الدكتور محمد أحمد الزعبي عن « الظاهرة السكانية بين قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع » المنشورة في العدد الماضي من المجلّة (رقم ١٩٨٩/٩) ، وهو أن « النسب » المتعلقة بالوفيات والولادات التي وردت في الصفحات (١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨) ، وكذلك النسب الواردة في الجداول رقم ٢ (ص ١٦٥) و ٣ (ص ١٦٦) ، وحقلي الوفيات والولادات في الجدول رقم ٨ (ص ١٦٩) ، هي نسب ألفية (٠٪) (= بالألف) وليست مئوية .

هذا وإن المجلة تبدي أسفها للقراء وللدكتور الزعبي على هذا الخطأ المطبعي غير المقصود .

phrases «the round Square» does not have any ontological significance. Thus Russell Showed through his analysis of denoting phrases, that we do not need to suppose the existence of an object called the round square.

Final Remarks

We have seen that Russell rightly distingnished between proper names and other forms of expressions (ie descriptions). He successfully showed that proper names in language behave differently from other sorts of symbols. However, his distinction between names and descriptions, though significant, sprang from confusing meaning with reference(9). As a matter of fact the theory of Descriptions would not have appeared hard not been for Russell's confusion between meaning and reference.

On the other hand, Frege has clearly separated meaning from reference, and his discussion of non being has arisen out of the problem of falsehood and not as a problem related to meaning.

However, what is strange about Russell view of nonbeing is that he put a great effort to avoid allowing non-existent objects into his world, and yet in 1918 he admitted them in what he called negative facts. I think this is an inconsistency in the part of Russell.

Foot notes:

(1) The Distinction between Mental a Physical Phenomena, **Realism and the Background** of **phenomenology,** ed. R. chisholm, p. 50.
(2) The Theory of objects, **Realism and the Background** of **phenomenology,** ed. R. chisholm, pp. 16-116.
(3) Negation printed in **Translation from the philosophical writings of Gottlob Frege** ed. by P. Geach M. Black, p. 117.
(4) Ibid, p. 118.
(5) ON SENCE REFERENCE, in **Translations from the philosophical writings of G. Frege,** p. 64.
(6) Ibid. p. 65.
(7) Logic and knowledge, ed. R. March, «On Denoting», p. 45.
(8) Ibid. p. 42.
(9) see P.Strawsen's paper «on Referring», Mind Vol. LIX, 1950.

though the propositions in which they fall have meaning. Now, the relevance of Russell's view to our problem of non-being seems to be the following.

Russell says: «a logical theory may be tested by its capacity to deal with puzzles»[7] and of course the puzzle is that of non-being.

Russell thought that because Meinong did not discover the nature of what he calls denoting phrazes that he assumed the existence of non-existent objectives, 1 é objects that do not in reality exist nor subsist.

For a sentence like «Round squares do not exist» have their reference to some sort of shadow y existence. Other wise how could we understand a sentence such as «Round squares do not exist», for its grammatical subject «round square» has not object to which it corresponds. Russell describes Meinong's. Theory as that which: «regards any grammatically correct denoting phrase as standing for an object... it admitted that such objects do not subsist, but nevertheless they are supposed to be objects»[7].

On the other hand Russell comments on Frege's theory, and admitting that Frege distinginshed between sense and reference of expressions, y et he goes on to say that Frege's solution of the problem was artificial.

Now what is Russell's own proposal? How does his analysis of denoting phrases relate to the problem of non-being?

In order to avoid assuming the existence of non-existent objects, Russell suggests that propositions that contain expression such as «round square» «unicorn» etc... should be analyzed in such way as to make such expressions disappear altogether from the proposition containing them. This is to be done through Russell notion of a variable. A variable, according to Russell, is a symbol with an undetermined value»[8].Later in 1918 in his articles'the philosophy of logical Atomism' Russell does not call the sentence with a variable a proposition, but a propositon function which becomes a proposition once the value of the variable is determined.

Now to go back to our example: 'The round esquare does not exist» Russell analyses it by using his notion of variables in this way:

1 - There is at most an X.

2 - There is at least an X such that if that X is both square and round that X does not exist.

Russell is analysis of that proposition shows that any proposition involving esistence is comples and in fact many propositons rolled up in one.

However Russell in that way managed to remove the problematic phrase from occurring in the place of the grammatical subject.In that way the

If the meaning of that question were a thought that is true, the questioner should have known the answer already. But the questioner asks genuinely and wants to know whether the sun is really bigger than the moon, though he knows the sense or the thought that the question bears. In that way Frege came to prove that the truth of any expression is to be sharply distinguished from its sense or meaning. Thus the puzzle is in this way resolved.

Frege in his well known paper of 1892 entitled «on sense and Reference» distinguished between the expressions sense and its reference. Further, he noted that the reference of an expression is its truth-value, since the truth of an expression «remain unchanged when a part of the sentence is replaced by an expression having the same reference»(5).

That is to say, the truth -value of a sentence remains the same though its sence is changed.

Frege then concludes:

> «If now the truth-value of a sentence is its reference, then on the one hand all the time sentences have the same reference and so on the other hand, do all false sentences»(6)

Thus all true sentences refer to the class TRUE, and all false sentences have the null class, that is the class with no members, as its reference.

Thus who ever says: «the unicorn is powerful» does not utter and nonsensical sentence but a false one.

To conclude our analysis of Frege we can say that Frege avoided the assumption of the existence of non - being by sharply distinguisting between a proposition's sense and its reference as of 1892 paper or between a propositions content (thought) and its truth-value as it is in his paper of 1919.

We now move on to Russell's attempt to analyzed proposition that contain an expression with no reference. Does he admit of the existence of the non-existent or does he have a solution for the problem? Russell's main thesis appears in 1905 in his paper entitled «on Denoting». In this paper he advances his well known distinction between what he calls «denoting phrases» and «proper name». He contends that we know only indirectly things about which such phrases speak, while we are acquainted with things to which proper names refer. of course such distinction assumes that meaning is reference in contradistinction to Frege's view in which he separates sence from reference. Russell beleives that denoting phrases do not have any meaning in isolation, and they may not have any reference

However, Meinong's main contention is to be gleaned as pointing out:

a. There are objects that may be called ideal.

b. That there is a distinction between essence and existence, that is between sosein and sein.

To understand what an ideal objects according to Meinong, mean let us consider this example:

Suppose someone says, There are white ravens'. No if that one's utterance were true it must be so in virtue of its correspondence to something, that thing is what Meinong calls objective. Again suppose that utterance were false, it if was so it must be by virtue of its corresponding to an objective, namely the non-being of white ravens.

In this way Meinong's Gegenstand theorie advances idea that the problem of non being appears in case of falsehood(2).

However such view as held by Meinong seemed monostrous to any realist. For a realist is always biased towards the real and actual. That is the reason why Realists such as Frege and Russell were concerned about the question of non-being.

Frege's Attempt:

In Frege's papers where he discusses the problem of non-being, there appear to be two major theses: First, that problem appears in relation to falsehood and not to sense or meaning as Russell thought so. For Frege, a false thought does not exist and the expression a false thought is a contradiction in term(3).

Secondly, the problem figures most distinctly in expressions of the subject-predicate form.

Russell paraphrazed Frege's view and took him to be saying that it was puzzling to have a meaning without the grammatical subject having a reference; or an object to which it corresponds. So the question becomes, do we have to suppose the existence of something that does not exist?

In order to solve this dilema Frege proposes that we should distinguish between the tyuth of a sentence and the thought or the content that it carries. Thus Frege Says: «consequently truth cannot be counted as going along with the content...»(4) That means that the paradox is to be resolved by showing that an expression can have a meaning even if what it talks about does not exist.

For Frege does not confuse between meaning and reference. This is seen most clearly in case of questioning. Suppose someone asks: «Is the sun bigger than the moon»?.

As you probably know, there are some philosophical problems that bedevilled philosophy history; problems which Leibniz described as prennial.

The problem of non-being is no less. In ancient philosophy it started with Parmenides, who was among the first to ask whether non-being is. Thus, that problem made its appearance as a philosophical puzzle. For would any be able to speak about non-being without at the same time assuming its existence.

However, in the wake of modern philosophy the solution of that puzzle seemed all the more pertinent.

Here in this paper I am concerned with two prominent figures in the history of philosophy, particularly in the feild of philosophical logic. I mean Gotlob Frege, that German obscure philosopher, and Russell the renown British Philosopher. I shall first furnish the reader of some history of that problem, and that will be mainly from Franz Brentano and A lexuis Meinong, Then I shall expound the problem as it figured in frege's writings especially in his paper of 1992 entiled on 'sense and reference', and his paper of 1919 entitled «on Negation». I shall, next, refer to Russell's proposed solution of the problem. Finally I shall comment on the problem showing that Russel, on this point, seemed be in consistent.

However, before expounding Frege's view, allusion should be made to a rival theory which admits of the existence of non-being, I am here refering to Brentano's and Meinong's theory which seemed to be closely linked. Franz Brentano, expecially in his essay called «The Distinction between Mental and physical phenomena», has shown that human mind has a tendency to think about objects that do not exist. A person, for instance may wish to take aride on awinged horse. Brentano call this intensionality. Mental phenomena, such as thought are:

> characterized by what the scholastics of the Middle Ages called the intensional (and also mental) inexistence of an object (Gegenstand), and what We could call, although in not entirely unambiguous terms, the reference to a content, a direction upon an object... or an immanent objectivity»[1].

Meinong's theory on the other hand, a theory which happen to receive the appellation of Gegenstand theorie (ie. Theory of object) has a closed link with Brentano's theory. For Meinong too recognized the characteristics of human thought that Brentano refers to. In his theory Meinong says that when we consider all objects that existed and that which will exist we discover that their domain is so narrow campared with the totality of all objects there are.

G. Frege and Russell on The Problem of NON- Being

Dr. Abdalla Mohd. Tom
Philosophy Dept.

ABSTRACT

The problem lam discussing in this paper concevns what I call non-being. By which I mean objects which we are forced to admit their existence thougn they do not exist in reality. Language sometimes forces us to talk about things that do not exist.

Now what is the proper analysis of language to make us avoid such a consequence.

I started off by a brief mention of Meinong's theory of object in which he opted for ideal objects by which he means that there are objects which though they do not exist in reality, nevertheless we have to admit into our World.

Then I moved on to Frege who discusses this problem in connection with falsehood. For such problem appears most clearly in case of false proposition. That is, in order to account for the falsity of propositions you have to create a realm of being. This realm of being Frege calls the Null-Class, that is the class which has no members.

After that I moved on to the discussion of Russell's account of the problem which appears in his known theory of Description published in 1905 the analysed expressions pointing to the existence of object that cannot exist, and showed that such expressions can be analysed away, and so, the problem disappears.

UNIVERSITY OF SANAA

JOURNAL OF FACULTY OF ARTS

N,10 1989

UNIVERSITY OF SANAA

JOURNAL OF FACULTY OF ARTS

N,10 1989